EVERY THING IS F*CKED

A BOOK ABOUT HOPE

MARK MANSON

من مؤلف فن اللامبالاة

#1 *NEW YORK TIMES* BESTSELLER

وهل تساءلت يوماً عما يجعل الناس يشعرون أنهم أكثر قلقاً وتعاسة على الرغم من ازدياد حياتهم يسراً؟

خراب

كتاب عن الأمل

مارك مانسون



ترجمة الحارث النبهان

مارك مانسون

خَراب

كتابٌ عن الأمل

الكتاب: خَراب: كتابٌ عن الأمل

تأليف: مارك مانسون

ترجمة: الحارث النبهان

عدد الصفحات: 336 صفحة

الترقيم الدولي: 978-614-472-072-1

الطبعة الأولى: 2019

هذه ترجمة مرخصة لكتاب

EVERYTHING IS F*CKED:

A BOOK ABOUT HOPE BY MARK MANSON

*EVERYTHING IS F*CKED*

الناشر



An Imprint of Dar Altanweer

لبنان: بيروت - بئر حسن - بناية فارس قاسم (سارة بنما) - الطابق السفلي

هاتف: 009611843340

بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com

مصر: القاهرة 2- شارع السرايا الكبرى (فؤاد سراج الدين سابقا) - جاردن سيتي

هاتف: 002022795557

بريد إلكتروني: cairo@dar-altanweer.com

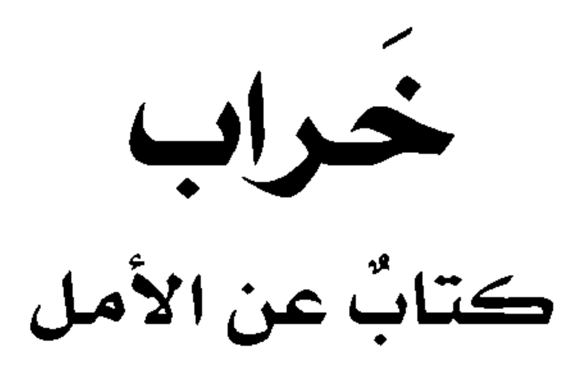
تونس: 24، نهج سعيد أبو بكر - 1001 تونس

هاتف وفاكس: 0021670315690

بريد إلكتروني: tunis@dar-altanweer.com

موقع إلكتروني: www.dar-altanweer.com

مارك مانسون



ترجمة

الحارث النبهان



إلى فرناندو... بالطبع!

الفهرس

القسم الأول: الأمل

الفصل الأول: الحقيقة غير المريحة 11
الفصل الثاني: التحكّم بالنفس وهمٌ 37
الفصل الثالث: قوانين نيوتن في المشاعر والانفعالات 76
الفصل الرابع: كيف تجعل أحلامك كلّها تتحقّق 114
الفصل الخامس: الأمل في خراب 164

القسم الثاني: كل شيء خربان

الفصل السادس: المعادلة البشرية 197
الفصل السابع: الألم هو الثابت الكوني العام 233
الفصل الثامن: اقتصاد المشاعر 272
الفصل التاسع: الدِّين النهائي 310

شكر وتنويه 334
عن الكاتب 336
عن المترجم 336

القسم الأول

الأمل

الفصل الأول

الحقيقة غير المريحة

على رقعة صغيرة من الأرض في ريف وسط أوروبا ذي الطبيعة الرتيبة، بين مستودعات باقية من ثكنات عسكرية قديمة، سينشأ شرٌّ مُقيمٌ في هذا المكان، شرٌّ أكثر عتمةً وثقلًا من أي شيء عرفه العالم من قبل. سيجري هناك على امتداد خمس سنين، على نحو منهجي، خزن مليون وثلاثمئة ألف إنسان، واستعبادهم وتعذيبهم وقتلهم. وسوف يحدث هذا كله ضمن مساحة ليست أكبر إلا قليلًا من حديقة سنترال بارك في مانهاتن، ولن يفعل أحد شيئًا لإيقاف ذلك.

إلا رجل واحد!

هذا شيء يشبه ما نسمعه عادةً في القصص الخيالية والكتب المصورة: بطل يسير منتصب القامة فيدخل بين فكي الجحيم الناريين حتى يواجه واحدًا من تجليات الشر الكبرى. فرص النجاح مستحيلة. والأساس المنطقي يدعو إلى الضحك. لكن بطلنا الأسطوري لا يعرف التردد أبدًا، ولا يرف له جفن. يقف مرفوع الهامة، ويذبح التنين، ويسحق الغزاة الشياطين، وينقذ الكوكب... وقد ينقذ معه أيضًا أميرة أو أميرتين!

ولوهلة من الزمن، يكون الأمل موجودًا.

لكن هذه ليست قصة عن الأمل. إنها قصة عن كون كل شيء خرابًا في خراب... خراب ذو حجم كبير، ذو أبعاد لا نستطيع تخيُّلها، أنا وأنت، بعد أن صرنا ننعم بالإنترنت المجاني وبطانيات دافئة وثيرة.

كان ويتولد بيلينسكي واحدًا من أبطال الحرب في بولونيا قبل أن يقرر التسلل إلى معسكر أوشفيتز. ففي أول شبابه، تلقى الضابط بيلينسكي أوسمة في الحرب البولونية السوفياتية التي جرت سنة 1918. لقد سدّد ركلات عنيفة للشيوعيين حتى قبل أن يعرف أكثر الناس شيئًا عن مدى سوئهم. وبعد الحرب، أقام بيلينسكي في الريف البولوني، وتزوج معلمة مدرسة، وأنجب طفلين. كان رجلًا يستمتع بركوب الخيل وبالقبعات الجميلة وبتدخين السيجار. كانت حياته حسنة، وبسيطة.

ثم أتى هتلر. وقبل أن تتمكن بولونيا من التأهب للمواجهة، كان النازيون قد اجتاحوا أكثر من نصفها. فقدت بولونيا أرضها كلّها خلال شهر وبضعة أيام. لكن تلك لم تكن معركة منصفة على الإطلاق: أتى الغزو النازي من الغرب، وأتى الغزو السوفياتي من الشرق. كان ذلك أشبه بأن يجد المرء نفسه مسحوقًا بين صخرتين. لكن الصخرة الأولى كانت قاتلًا مهووسًا أصابه جنون العظمة فأراد أن يغزو العالم كلّه؛ وكانت الصخرة الثانية حالة من الإبادة الجماعية المفتقرة إلى أي معنى. لا أزال غير واثق من أي الصخرتين كان هذا وأيهما كانت تلك.

في أول الأمر، كانت وحشية السوفيات أشد كثيرًا من وحشية النازيين. لقد فعلوا ذلك من قبل، كما نعرف... «أن تطيح بالحكومة وتستعبد السكان بحسب إيديولوجيتك المختلّة»، وكان النازيون لا يزالون «إمبريالية عذراء»، إلى حد ما. (ليس تخيّل هذا الأمر صعبًا عندما ينظر المرء إلى شاربَي هتلر في الصور). قُدِّر عدد المواطنين البولونيين الذين اعتقلهم السوفيات وأرسلوهم إلى الشرق بنحو مليون شخص. فكّر في هذا لحظة! مليون شخص، خلال شهور فقط... اختفوا. لم تتوقّف رحلة بعضهم إلا في معسكرات الغولاغ[1] في سيبيريا؛ وعُثر على

(1) الغولاغ: اسم المؤسسة الحكومية التي كانت تدير معسكرات العمل القسري في الاتحاد السوفياتي.

جثث الآخرين في قبور جماعية بعد عشرات السنين من ذلك. ولا يزال مصير الكثيرين مجهولًا حتى هذا اليوم.

خاض بيلينسكي هاتين المعركتين - حارب ضد الألمان، وحارب ضد السوفيات. وبعد الهزيمة، شكّل مع عدد من زملائه الضباط البولونيين حركة مقاومة سرّية في وارسو. كانوا يدعون أنفسهم «الجيش البولوني السرّي».

وفي ربيع سنة 1940، وردت إلى الجيش البولوني السرِّي أخبار تقول إن الألمان يبنون سجنًا ضخمًا بالقرب من بلدة نائية في الناحية الجنوبية من البلاد. أطلق الألمان على هذا السجن الجديد اسم أوشفيتز. راح آلاف من ضباط الجيش ومن الوطنيين البولونيين البارزين يختفون من غرب بولونيا في صيف 1940. تصاعدت لدى المقاومة الخشية من أن ما جرى من اعتقالات جماعية كبيرة على يد السوفيات في شرق البلاد قد بدأ الآن يجري في غربها. واتجهت شكوك بيلينسكي ورفاقه إلى أن من المحتمل أن يكون أوشفيتز، الذي كان سجنًا بحجم بلدة صغيرة، على صلة مباشرة بحوادث الاختفاء تلك. ظنّوا أيضًا أن آلافًا من الجنود البولونيين السابقين قد يكونون محبوسين فيه.

وعند ذلك، تطوع بيلينسكي بأن يتسلّل إلى داخل أوشفيتز. كانت تلك مهمة إنقاذية: سوف يدعهم يعتقلونه أول الأمر؛ وبعد أن يصير هناك، سينظم الجنود البولونيين الآخرين، ويقود تمردًا في السجن بحيث ينجح الجميع في الخروج منه.

كانت تلك مهمة انتحارية تكاد تشبه مطالبة قائده بأن يسمح له بشرب دلو من مادة سامة. ظنه رؤساؤه مجنونًا، وقالوا له ذلك. لكن تفاقم المشكلة تواصل على مر الأسابيع: كان آلاف من أفراد النخبة البولونية يختفون؛ وكان معسكر أوشفيتز لا يزال سرًّا كبيرًا بالنسبة إلى شبكة

استخبارات الحلفاء. لم تكن لدى الحلفاء أية فكرة عما يجري هناك؛ ولم يكن لديهم كبير فرصة لاكتشافه. وافق قادة بيلينسكي آخر الأمر. وفي إحدى الليالي، ترك بيلينسكي نفسه يُعتقل على يد القوات الخاصة النازية عند أحد الحواجز في وارسو لأنه خرق حظر التجول. وسرعان ما كان في طريقه إلى أوشفيتز، فكان الرجل الوحيد الذي عُرف عنه أنه دخل معسكر اعتقال نازيًا بملء إرادته.

اكتشف صاحبنا بعد وصوله إلى معسكر أوشفيتز أن الواقع هناك كان أسوأ كثيرًا مما ظنّه أي شخص. كانوا يطلقون النار على السجناء وقت اصطفافهم من أجل التفقد اليومي، وذلك لأسباب تافهة جدًا من قبيل أن يتململ السجين في وقفته، أو أن يقف غير منتصب القامة. كان العمل اليدوي المفروض عليهم شديد الإرهاق؛ وكان عملًا لا ينتهي. كانوا يجعلون الرجال يعملون حتى الموت - حرفيًا - ويطلبون منهم أداء أعمال لا فائدة منها، أو لا معنى لها. وخلال الشهر الأول من وجود بيلينسكي هناك، مات ثلث نزلاء المبنى الذي كان فيه، ماتوا نتيجة الإرهاق الشديد، أو الالتهابات الرئوية، أو نتيجة إطلاق النار عليهم. على الرغم من هذا، لم تأت نهاية عام 1940 وإلا وكان بيلينسكي (ذلك البطل الخارق العجيب الآتي من كتب القصص المصورة) قد تمكّن من إقامة شبكة تجسّس داخل المعسكر.

«أوه، يا بيلينسكي... أنت، أيها العملاق، أيها البطل، يا من يطير فوق هاوية الجحيم!... كيف تمكّنت من خلق شبكة استخباراتية ترسل المعلومات إلى الخارج عبر رسائل مخبأة في سلال ملابس الغسيل؟ كيف تمكّنت من صنع جهاز لاسلكي مستخدمًا عناصر من أجهزة مختلفة مع بطاريات مسروقة مثلما يفعل بطل مسلسل بوليسي، ثم أرسلت من خلاله إلى الجيش البولوني السرّي في وارسو خططًا

لمهاجمة معسكر السجن؟ كيف تمكّنت من إقامة حلقات تهريب تأتي للسجناء بالطعام والأدوية والملابس، فأنقذت أرواح أشخاص كثيرين، وأنعشت الأمل في قلوب البشر التي فقدت كل أمل؟ ما الذي فعله هذا العالم حتى يستحق شخصًا مثلك؟

وعلى امتداد سنتين، بنى بيلينسكي وحدة مقاومة كاملة داخل معسكر أوشفيتز. كان لديه تسلسل قيادي، وضباط، ورتب عسكرية، وشبكة إمداد، وخطوط اتصال مع العالم الخارجي. ظل هذا كلّه جاريًا على امتداد سنتين، ولم يكتشفه عناصر القوات الخاصة النازية. كانت غاية بيلينسكي النهائية التحضير لتمرد شامل داخل المعسكر. رأى أن من الممكن تحرير السجناء جميعًا بالتنسيق مع من هم خارج السجن، وبمساعدة منهم، وذلك بحيث يتم التغلّب على العدد القليل من عناصر القوّات الخاصّة. وهذا ما سيكون من شأنه تحرير آلاف من مقاتلي حرب العصابات البولونيين المدرَّبين جيّدًا. كان يرسل تقاريره وخططه إلى وارسو. انتظر شهورًا. واستطاع أن يظل حياً طيلة تلك الشهور.

وعند ذلك، بدأ وصول اليهود. كانوا يأتون بهم في باصات أول الأمر، ثم صارت تأتي قطارات محمّلة بهم. وسرعان ما باتوا يصلون بعشرات الألوف: تيار لا ينقطع من بشر وافدين إلى بحر اليأس والموت. كانوا يجرّدونهم من ممتلكاتهم العائلية كلّها، ومن كرامتهم، ويحشرونهم في صالات «الحمامات» المعدَّة حديثًا حيث يقتلونهم بالغاز، ثم يحرقون جثثهم.

صارت تقارير بيلينسكي الواصلة إلى العالم الخارجي شديدة التوتر. إنهم يقتلون عشرات الآلاف من الناس كل يوم. أكثرهم يهود. من المحتمل أن تكون حصيلة القتلى بالملايين. كان يتوسّل إلى الجيش البولوني السرّي من أجل بدء عملية تحرير السجناء على الفور. كان

يقول لهم: إذا كنتم غير قادرين على تحرير السجناء، فعليكم أن تفجّروا هذا المكان، بحق الرب. دمروا غرف الغاز، على الأقلّ».

كان الجيش البولوني السرّي يتلقّى رسائل بيلينسكي، لكنه اعتقد بأن فيها مبالغة. ففي أذهانهم، ما كان يمكن أن يوجد شيء على هذه الدرجة من السوء والفظاعة... لا شيء!

كان بيلينسكي أول شخص على الإطلاق ينبه العالم إلى الهولوكوست. كانت المعلومات التي يرسلها تصل إلى مجموعات المقاومة المختلفة في أنحاء بولونيا، وكذلك إلى الحكومة البولونية في المنفى التي كانت مقيمة في المملكة المتحدة. وكانت حكومة المنفى تتولّى بدورها إيصال الأخبار إلى قيادة قوات الحلفاء في لندن. وفي آخر المطاف، كانت تلك المعلومات تجد طريقها إلى أيزنهاور وتشرشل.

اعتقد الرئيسان أيضًا بأن كلام بيلينسكي كان مبالغًا فيه!

أدرك بيلينسكي في سنة 1943 أن خططه الرامية إلى إثارة تمرد في السجن يفضي إلى تحرير السجناء لن تجد طريقها إلى التنفيذ: لن يأتي الجيش البولوني السرّي! ولن يأتي البريطانيون ولا الأميركيون! الاحتمال الأكثر ترجيحًا هو أن يأتي السوفيات... وسوف يكون ذلك أسوأ. قرر بيلينسكي أن خطورة البقاء في معسكر أوشفيتز قد صارت كبيرة جدًا. لقد حان وقت الفرار من أوشفيتز!

وبطبيعة الحال، جعل بيلينسكي هذا الأمر يبدو سهلًا. تظاهر بالمرض أول الأمر، وتمكّن من دخول مستشفى المعسكر. ومن هناك، تمكّن من خداع الأطباء عبر إعطائهم معلومات كاذبة عن مجموعة العمل التي من المفترض أن يعود إليها، فقال لهم إنه يعمل في النوبة الليلة في المخبز الذي كان قائمًا بالقرب من النهر عند حافة المعسكر. اتجه إلى المخبز عندما أخرجه الأطباء من المستشفى. عمل هناك حتى الساعة الثانية

صباحًا، أي حتى وقت الفراغ من الدفعة الأخيرة من الخبز. ومن هناك، صار الأمر مقتصرًا على قطع سلك الهاتف، ثم التسلّل خارجًا عبر الباب الخلفي واستبدال ملابس مدنية بملابس السجن من غير أن ينتبه حرس القوات الخاصة، ثم الجري تحت إطلاق الرصاص صوب النهر الواقع على مسافة ميل واحد. وبعد ذلك، يكون عليه أن يسترشد بالنجوم لكي يعثر على طريق العودة إلى المدنية.

واليوم، يبدو كثيرٌ مما في عالمنا خرابًا. ليس خرابًا على مستوى الهولوكوست النازي (ولا حتى قريبًا منه)، لكنه يظلّ خرابًا على الرغم من ذلك.

إن قصة بيلينسكي، وما يشبهها من قصص، تثير الإلهام في نفوسنا. إنها تمنحنا الأمل. وهي تجعلنا نقول: «كانت الأمور أشد سوءًا بكثير؛ لكن ذلك الرجل تمكّن من تجاوزها كلها. فماذا عني أنا؟ ما الذي كنت أفعله في الآونة الأخيرة؟»... هذا هو السؤال الذي ينبغي طرحه على أنفسنا في هذا الزمن العجيب، زمن التغريدات العاصفة التي يطلقها على تويتر أشخاص خاملون لا يكادون يتحركون من أماكنهم، زمن المواد الإباحية التي صارت مستخدمة لزيادة جذب متصفحي الانترنت. وعندما نبتعد قليلًا عن حياتنا المباشرة وننظر نظرة أكثر اتساعًا، ندرك أن أبطالًا مثل بيلينسكي ينقذون العالم في حين ننصرف عن مشكلاتنا الكبرى ونتذمّر من أن مكيف الهواء لا يعمل جيدًا.

إن قصة بيلينسكي أكبر قصة بطولة عرفتها في حياتي كلّها. وذلك أن البطولة ليست مقتصرة على الجرأة أو الشجاعة أو المناورة الذكية. فهذه أشياء شائعة وكثيرًا ما تُستخدم بطرق غير بطولية. لا... يكون الفعل بطوليًا عندما يتمتّع بالقدرة على اجتراح الأمل حيث لا أمل أبدًا. إنه إشعال عود ثقاب لإنارة الظلام. إنه جعلنا نرى إمكانية وجود عالم

أفضل... ليس العالم الأفضل الذي نريد أن يوجد، بل عالم أفضل لم نكن نعرف أن من الممكن أن يوجد. إنها الانطلاق من حالة يبدو فيها كل شيء خرابًا تامًّا، والتمكّن من جعلها حالة جيدة.

الشجاعة أمر شائع. والمثابرة أمر شائع. لكنّ في البطولة محتوًى فلسفيًا. إن فيها «لماذا؟» كبيرة يضعها الأبطال على الطاولة - هدف يكاد يكون مستحيلًا، أو إيمان ثابت لا يتزعزع مهما حدث. هذا ما يجعل ثقافتنا اليوم شديدة التلهّف إلى بطل: لا لأن الأشياء بالغة السوء بالضرورة، بل لأننا فقدنا تلك الـ«لماذا؟» الواضحة التي كانت تدفع بالأجيال السابقة قُدُمًا.

إننا نعيش في حضارة تجعلنا غير محتاجين إلى رخاء، أو إلى سلم، أو إلى زينة جديدة لسياراتنا الكهربائية. لدينا هذا كله. نحن في حاجة إلى شيء أكبر أهمية من هذا. نحن حضارةٌ وبشرٌ في حاجةٍ إلى الأمل.

لم يفقد بيلينسكي أمله أبدًا بعد عيشه سنوات من الحرب والتعذيب والموت والإبادة الجماعية. صحيح أنه خسر بلده، وأسرته، وأصدقاءه، وكاد يفقد حياته أيضًا، لكنه لم يفقد الأمل أبدًا. وحتى بعد الحرب، عندما عانى الهيمنة السوفياتية، لم يفقد أبدًا الأمل في بولونيا حرّة مستقلّة. لم يفقد أبدًا الأمل في حياة هادئة سعيدة من أجل أطفاله. لم يفقد الأمل أبدًا في أن يكون قادرًا على إنقاذ بضع أرواح أخرى، وفي مساعدة مزيد من البشر.

عاد بيلينسكي إلى وارسو بعد انتهاء الحرب، وواصل التجسّس. لكنه صار يتجسّس على الحزب الشيوعي الذي كان قد وصل إلى السلطة آنذاك. ومن جديد، كان بيلينسكي أول من يُخطِر الغرب بما يجري من شرور: في هذه المرة، كان السوفيات قد تغلغلوا في الحكومة البولونية وصاروا يتلاعبون بانتخاباتها. وسوف يكون بيلينسكي أيضًا أول من يوثّق الفظائع التي ارتكبها السوفيات في شرق البلاد خلال فترة الحرب.

لكن أمره اكتُشف هذه المرة! لقد تلقى تحذيرًا من أنه يوشك

على الوقوع في الاعتقال. وكانت لديه فرصة للفرار إلى إيطاليا، لكن بيلينسكي رفض تلك الفرصة: فضّل البقاء بولونيًا، والموت بولونيًا، بدلًا من الهرب ومن أن يعيش حياة تجعله شخصًا مختلفًا. في ذلك الوقت، كانت بولونيا الحرّة المستقرّة مصدر الأمل الوحيد عند بيلينسكي. لم يكن يعتبر نفسه شيئًا من غير هذا الأمل.

نتيجة هذا، كان أمله هو نهايته أيضًا. ألقى الشيوعيون القبض على بيلينسكي في سنة 1947؛ ولم يتساهلوا معه أبدًا. عذبوه قرابة سنة كاملة. وكان تعذيبًا قاسيًا مستمرًّا جعله يقول لزوجته إن «أوشفيتز كان شيئًا بسيطًا» بالمقارنة مع هذا العذاب.

على الرغم من هذا، لم يقبل بيلينسكي التعاون مع مستجوبيه.

أدرك المحقّقون الشيوعيون آخر الأمر أنهم لن يحصلوا منه على أية معلومات، فقرروا جعله أمثولة لغيره. أقاموا له محكمة صورية في سنة 1948، واتهموه بكل شيء: من تزوير الوثائق، إلى خرق حظر التجول، إلى الانخراط في نشاطات تجسّسية، إلى الخيانة العظمى. وبعد شهر من ذلك، قضت المحكمة بأنه مذنب وحكمت عليه بالموت. سُمح لبيلينسكي بالكلام في آخر يوم من المحاكمة فقال إن ولاءه كان دائمًا لبولونيا وشعبها، وإنه لم يوقع أي أذى بأي مواطن بولوني، ولم يخنه أبدًا، وإنه ليس نادمًا على أي شيء. اختتم بيلينسكي كلامه: «حاولت أن أعيش حياتي على نحو يجعلني أقف في ساعة موتي مبتهجًا، لا خائفًا».

إذا لم يكن هذا شيئًا من أشجع ما سمعته في حياتك، فإنني راغب في الاستماع إلى ما عندك.

كيف لي أن أساعدك؟

لو كنت أعمل لدى ستاربَكس لما كتبت أسماء الناس على الفناجين التي يتناولون قهوتهم فيها، بل لكتبت ما يلي:

في يوم ما، ستكون قد متّ، أنت وكل من تحبّهم. وبعد ذلك، لن تكون هناك أية أهمية لأي شيء مما قلته أو فعلته في حياتك إلا لفترة قصيرة وضمن نطاق مجموعة صغيرة من الناس الذين يعرفونك!

هذه هي حقيقة الحياة التي لا نستطيع مواجهتها. ليس كل ما تفكر فيه، أو تفعله، إلا محاولة مضنية لتجنّب هذه الحقيقة. لسنا أكثر من غبار كوني لا أهمية له. لسنا أكثر من غبار يتحرّك ويدور على شذرة زرقاء ضئيلة سابحة في الكون. لكننا نتخيل أن لنا أهمية. ونخترع لأنفسنا غاية... نحن لا شيء.

إذًا، استمتع بقهوتك اللعينة.

بطبيعة الحال، لا بد لي من كتابة هذا بحروف صغيرة جدًا، وسوف تستغرق كتابته زمنًا غير قليل، مما يعني أن صف المنتظرين في ساعة الزحام سوف يبلغ باب المقهى. ثم إنها لن تكون خدمة عملاء جيّدة! لعلّ هذا واحد من الأسباب التي تجعلني غير صالح للوظيفة.

لكن، وبكلّ جدّية، كيف يمكن لك أن تكون صادقًا حقاً عندما تقول لشخص: «فليكن يومك جميلًا!»، وأنت تعرف أن أفكاره كلّها ودوافعه كلّها نابعة من حاجة لا تنتهي إلى تجنّب انعدام المعنى الملازم للوجود البشري؟

أقول هذا لأنّ الكون، في امتداده المكاني/ الزماني الذي لا نهاية له، لا يبالي أبدًا بما إذا كانت عملية استبدال مفصل الورك لوالدتك قد سارت سيرًا حسنًا أو لم تسر سيرًا حسنًا، ولا بما إذا كان أطفالك يذهبون إلى الجامعة أو لا يذهبون، ولا إذا كان مديرك يرى أنك تنجز عملك جيّدًا أو لا تنجزه جيدًا. لا يبالي الكون إن فاز الديمقراطيون أو الجمهوريون في انتخابات الرئاسة الأميركية، وهو لا يبالي بأن يُلقى القبض على أحد المشاهير بتهمة تعاطي الكوكايين وهو يمارس العادة السرية (من جديد)

في دورة المياه في أحد المطارات. لا يبالي الكون إن احترقت الغابات أو ذاب الجليد أو ارتفعت مياه البحار أو تلوث الهواء. وهو لا يبالي أبدًا حتى إذا أتى جنس فضائي متفوّق علينا وقتلنا جميعًا.

أنت هو من يبالي بهذا كلِّه.

أنت تبالي؛ وأنت تحاول جاهدًا إقناع نفسك بأن هناك معنًى كونيًّا كبيرًا خلف هذا كلِّه، لأنك تبالي.

وأنت تبالي لأنك، عميقًا في داخلك، في حاجة إلى أن يكون لديك شعور بأهميتك حتى تستطيع تجنّب تلك الحقيقة غير المريحة؛ أي حتى تستطيع تجنّب استعصاء وجودك على الفهم؛ وتجنّب انسحاقك تحت ثقل حقيقة أن لا أهمية مادية لك على الإطلاق. وأنت تعمد عند ذلك - مثلما أفعل أنا، ومثلما يفعل كل إنسان - إلى إسقاط إحساسك المتخيَّل بالأهمية على العالم من حولك لأن هذا يمنحك الأمل.

إن كان الوقت لا يزال مبكرًا على الخوض في حديث من هذا النوع، فإليك فنجانًا آخر من القهوة.

بل إنني صنعت لك فنجان قهوة بالحليب الساخن وعلى سطحه وجه مبتسم يغمز بعينه! أليس هذا شيئًا ظريفًا؟ سوف أنتظر ريثما تضع صورة الفنجان على إنستغرام!

لا بأس الآن... أين وصلنا؟ أوه، نعم! استعصاء وجودك على الفهم... صحيح! لعلّك تقول في نفسك الآن «حسنًا يا مارك، أنا مؤمن بأن هناك سببًا لوجودنا جميعًا، وبأن لا شيء يحدث مصادفة، وبأن هناك أهمية لكل شخص، لأن أفعال كل منا لها أثر على شخص ما. حتى إذا تمكّنا من مساعدة شخص واحد، فإن الأمر يستحق ذلك. أليس هذا صحيحًا؟».

الآن... ألستَ شخصًا ظريفًا حقًّا!

أرأيت؟... إنه أَمَلُكَ يتكلّم على لسانك. إنها قصة ينسجها عقلك حتى

تشعر بأن الأمر يستحقّ الاستيقاظ في الصباح: يجب أن تكون هناك أهمية لشيء ما لأن ما من سبب لمواصلة الحياة إن لم تكن هناك أهمية لشيء ما! ثم إن شكلًا من أشكال الغيرية البسيطة، أو تخفيفًا لمعاناة شخص ما، هو ما يسمح دائمًا لعقلنا بالبقاء مقتنعًا بأن هناك قيمة لفعل أي شيء.

إن تركيبتنا النفسيّة في حاجة إلى أملٍ حتى تستطيع مواصلة الحياة، مثلما تكون السمكة في حاجة إلى الماء حتى تحيا. الأمل هو وقود محرّكنا الذهني. إنه الزبدة على خبزنا. وهو مقدار كبير من المعنى المجازي الرّخيص حقًّا الذي نزيّن به حياتنا. ومن غير أمل، يتوقّف جهازك العقلي كلّه، أو يموت جوعًا. إذا لم نكن مؤمنين بأن هناك أملًا في أن يكون المستقبل أفضل من الحاضر، وبأن حياتنا سوف تتحسّن على نحو ما، فإننا نموت من الناحية الروحية. ففي آخر المطاف، لماذا نعيش إذا لم يكن هناك أي أمل في أن تصير الأمور في المستقبل أحسن مما هي الآن؟... لماذا نفعل أي شيء؟

إليك الشيء الذي لا يدركه عددٌ كبيرٌ من الناس: ليس الغضب أو الحزن نقيضًا للسعادة[1]. إذا كنت غاضبًا أو حزينًا، فهذا يعني أنك لا تزال مباليًا بشيء من الأشياء. يعني هذا أنه لا يزال هناك شيء له أهميته عندك. ويعني هذا أنك لا تزال تملك أملًا[2].

---

(1) آ. ج. زوترا: «المشاعر، والتوتر، والصحة». (نيويورك: منشورات جامعة أوكسفورد، 2003)، ص: 15 - 22.

(2) لكنني لا أستخدم مصطلح «أمل» بالطريقة التي تستخدم فيها عادة في المجال الأكاديمي. يستخدم القسم الأكبر من الأكاديميين كلمة «أمل» للتعبير عن مشاعر التفاؤل: توقع احتمال حدوث نتائج إيجابية أو الإيمان بهذا الاحتمال. هذا التعريف جزئي؛ وهو محدود أيضًا. قد يغذي التفاؤل الأمل، لكن ليس هو الأمل في حد ذاته. من الممكن ألا يكون عندي توقع لحدوث شيء أفضل، لكنني أظل قادرًا على الأمل بحدوثه. ومن الممكن أن يواصل ذلك الأمل إعطاء

لا... بل إن نقيض السعادة هو انعدام الأمل، وهو الأفق اللانهائي من الاستسلام ومن اللامبالاة[1]. إنه الإيمان بأن كلَّ شيء خربان[2] وبأن كل شيء خرابٌ... فلماذا يفعل المرء أي شيءٍ على الإطلاق؟

انعدام الأمل حالة من العدمية الباردة الكالحة، وهو إحساس بأن ما من معنى لأي شيء... فإلى الجحيم بكل شيء! فلماذا لا يمضي المرء حياته غير مهتم بأي شيء؟ ولماذا لا يضاجع زوجة مديره؟ ولماذا لا يطلق النار على مدرسة من المدارس؟ إنها الحقيقة غير المريحة، الإدراك الصامت لحقيقة أن كل ما نستطيع فعله في مواجهة اللانهاية ليس إلا صفرًا!

انعدام الأمل هو جذر القلق، والمرض العقلي، والاكتئاب. إنه أصل البؤس كله، وسبب حالات الإدمان كلها. ليس في هذا الكلام أيّ مبالغة[3]. إن القلق المزمن أزمة أمل. إنه الخوف من مستقبل فاشل. الاكتئاب أزمة أمل. هو الاقتناع بأن المستقبل لا معنى له. الإدمان، والأوهام، والهواجس، كلّها محاولات اضطرارية يائسة يقوم بها العقل

= حياتي إحساسًا بالمعنى وبالغاية على الرغم من أن الأدلة كلها التي تشير إلى عكس ذلك. لا... إنني أشير بكلمة «أمل» إلى الدافع في اتجاه شيء ما نعتبره ذا قيمة؛ وهو ما يوصف أحيانًا بأنه «الغاية» أو «المعنى» ضمن الأدبيات الأكاديمية. ونتيجة هذا، وفيما يتعلق بمناقشتي فكرة الأمل، أعتمد هنا على أبحاث جرت في نظرية الدافع والقيمة، وأحاول دمجها معًا في حالات كثيرة.

(1) م. و. غالاغر وس. ج. لوبيز، «التوقعات الإيجابية والصحة العقلية: تحديد المساهمات الفريدة للأمل والتفاؤل»، *مجلة علم النفس الإيجابي 4، العدد 6 (2009): 548 - 556.*

(2) استعملنا كلمة خربان لأنها أقوى في الدلالة عن المعنى الذي قصده المؤلف من كلمتي خَرَاب وخَرِب.

(3) يكاد من المؤكد أن يكون هذا الكلام مبالغًا فيه.

لخلق أمل ما... إنها خدعة عصبية أو تَوقٌ مرضيّ"[1].

من هنا، يصير تجنّب انعدام الأمل (أي السعي إلى بناء الأمل) المشروعَ الأوّل لدى عقلنا. إن كل معنى، وكل ما ندركه عن أنفسنا وعن العالم، مقامٌ من أجل المحافظة على الأمل. ومن هنا، فإن الأمل هو الشيء الوحيد الذي يكون أي واحد منا مستعدًا للموت من أجله. الأمل هو ما نؤمن بأنه أكبر من أنفسنا. ومن غير الأمل، نصير مقتنعين بأننا لا شيء.

توفّي جدي عندما كنت في الجامعة. ثم أمضيت بضع سنوات بعد ذلك حاملًا إحساسًا قويًا بأنه ينبغي لي أن أعيش بطريقة تجعله فخورًا بي. كنت أحسّ بأن هذا أمرٌ منطقيٌ واضحٌ على مستوى عميق في داخلي؛ لكنه لم يكن كذلك. فحقيقة الأمر هي أنه لا معنى له من الناحية المنطقية؛ لا معنى له على الإطلاق. لم تكن لي علاقة وثيقة مع جدّي. ولم نكن نتحدّث بالهاتف. لم نكن نتبادل الرسائل. بل إنني لم أره أبدًا خلال السنوات الخمس الأخيرة من حياته.

وفوق هذا كلّه، كان جدي ميتًا! فكيف يمكن أن يكون لـ«عيشي على نحو يجعله فخورًا بي» أثرٌ على أي شيء؟

لقد وضعني موته في لحظة تماس مع الحقيقة غير المريحة. هذا ما جعل عقلي ينطلق إلى العمل ويسعى إلى بناء أمل انطلاقًا من ذلك الوضع بُغية المحافظة عليّ، وبغية إبقاء أي شعور عدميّ بعيدًا عني. قرّر عقلي أن جدي صار الآن محرومًا من القدرة على أي أمل أو تطلّع في ما يتصل بحياته هو، فصار أمرًا مهمًا لي أن أواصل الأمل والتطلّع تكريمًا له. كان هذا هو الإيمان الذي توصّل إليه عقلي... كان شيئًا أشبه بـ«دين شخصي صغير» يجعل لي غاية في الحياة.

---

(1) انظر إيرنست بيكر: «إنكار الموت»، (نيويورك: فري برس، 1973).

وقد نجح الأمر! فخلال فترة قصيرة من الزمن، أطلق موته في حياتي تجارب لها أهمية ولها معنى... تجارب كان يمكن - من غير ذلك - أن تكون رديئة أو فارغة. وقد أعطاني ذلك الأمل معنى. من الممكن تمامًا أن تكون قد أحسست بشيء يشبه هذا عندما توفي شخص قريب منك. هذا إحساس شائع كثيرًا. فأنت تقول لنفسك إنك ستعيش بطريقة تجعل الشخص الذي يحبك فخورًا بك. تقول لنفسك: إنك ستستخدم حياتك أنت للاحتفاء بحياته هو وتكريمها. أنت تقول لنفسك إن هذا أمرٌ مهمٌ، وإنه أمر حسنٌ.

إن ذلك «الأمر الحسن» هو ما يحملنا ويحافظ علينا في لحظات الذعر الوجودي تلك. كنت أتجوّل متخيِّلًا أن جدّي يتبعني كأنه شبح فضولي، وأنه يراقبني على الدوام. هذا الرجل الذي كنت لا أكاد أعرفه في حياته صار الآن شخصًا شديد الاهتمام بحُسن أدائي في امتحان الرياضيات. شيء غير منطقي على الإطلاق!

ينشئ عقلنا قصصًا صغيرة مثل هذه القصة كلّما واجه محنة... إنها قصص ما قبل/ما بعد التي نخترعها لأنفسنا. ويكون علينا أن نحافظ على قصص الأمل هذه حيّة طيلة الوقت، حتى إذا صارت غير منطقية وحتى إذا صارت مؤذية لنا، وذلك لأنها قوّة التوازن الوحيدة التي تحمي عقولنا من الحقيقة غير المريحة.

إن قصص الأمل هذه هي ما يمنحنا إحساسًا بأن لحياتنا غاية. فهي لا توحي لنا بأن المستقبل سيأتي بما هو أفضل فحسب، بل أيضًا بأن الانطلاق وتحقيق ذلك الشيء الأفضل أمر ممكن فعلًا. عندما يتحدّث الناس كثيرًا عن حاجتهم إلى العثور على «غاية حياتهم» أو «هدفها»، فإن ما يعنونه في واقع الأمر هو أنه ما عاد واضحًا في أذهانهم ما هو مهمٌّ بالنسبة إليهم، وما يستحقّ أن ينفقوا عليه الفترة الزمنية المحدودة المتاحة

لهم على وجه الأرض[1]... باختصار، لم يعد لديهم شيء واضح يعلّقون عليه آمالهم. إنهم يبذلون كل جهدهم حتى يرون كيف ينبغي أن يكون ذلك الـ «قبل/ بعد» في حياتهم.

هذا هو الجزء الصعب: أن تعثر على الـ«قبل/ بعد» الخاص بك أنت. الأمر صعب لأن ما من طريقة أبدًا تسمح لك بأن تكون على ثقة أكيدة من أنك اخترت ما هو صحيح. هذا هو السبب الذي يجعل أناسًا كثيرين جدًا يلوذون بالأديان، ذلك أن الأديان تُقرّ بهذه الحالة الدائمة من عدم المعرفة وتُسَلِّح الناس بالإيمان من أجل مواجهتها. ولعلّ في هذا جزءًا من السبب الذي يجعل تعرُّض الأشخاص المتدينين للإصابة بالاكتئاب أقل كثيرًا من تعرّض غير المتدينين؛ كما أن حالات الانتحار بينهم أقلّ كثيرًا منها بين غير المتدينين: إن ممارستهم إيمانهم تقيهم من الحقيقة غير المريحة[2].

إلا أنه ليس من الضروري أن تكون قصص الأمل لديك من طبيعة دينية. يمكن أن تكون هذه القصص أي شيء. هذا الكتاب هو مصدر الأمل (الصغير) الخاصّ بي. إنه يمنحني غاية. وهو يمنحني معنى. كما أنّ القصّة التي أقمتُها من حول ذلك الأمل هي أنني مقتنع بأن هذا

---

(1) هل يجوز لي أن أستشهد بنفسي؟ فليكن، سوف أستشهد بنفسي! انظر، مارك مانسون: «سبعة أسئلة غريبة تساعدك في الحصول على غاية حياتك»، Mark – Manson.net، 18 أيلول 2014.

https://markmanson.net/life - purpose.

(2) للحصول على بيانات عن التدين والانتحار، انظر د. كاميتا ديرفيك، وآخرون، «الارتباط الديني ومحاولة الانتحار»، *المجلة الأميركية لعلم النفس* 161 العدد 12 (2004): 2305 – 2308. وللحصول على بيانات عن التدين والاكتئاب، انظر: ساسان فاسيغ وآخرون «العوامل الروحية والدينية المساهمة في الاكتئاب»، *دراسة الاكتئاب ومعالجته*، منشور على الإنترنت في 18 أيلول 2012 (doi: 10.1155 /2012 /298056).

الكتاب يمكن أن يساعد بعض الناس، مما يعني أنه قد يجعل كلًّا من حياتي والعالم من حولي أفضل قليلًا من ذي قبل.

فهل أنا متأكّد من هذا؟ لا، لست متأكدًا. لكن، هذه هي قصة «قبل/بعد» الخاصّة بي، وأنا متمسّك بها. إنها تجعلني أستيقظ في الصباح وتجعلني متحمّسًا لحياتي. ليست المسألة هنا هي أن هذا شيء غير سيّئ ولا ضرر منه... المسألة هي أنه الشيء الوحيد لدينا.

لدى بعض الناس، تكون قصة «قبل/بعد» هي تنشئة أطفالهم على نحو جيد. ولدى أناس آخرين، تكون تلك القصّة هي حفظ البيئة وإنقاذها. ولدى غيرهم يمكن أن تكون القصّة حيازة مال كثير وامتلاك قارب ضخم. وقد تكون القصّة لدى نفر آخر من الناس أمرًا بسيطًا جدًّا من قبيل تحسين قدرتهم على قذف كرة الغولف.

وسواء أدركنا الأمر أم لم ندركه، فإن لدينا جميعًا هذه القصص التي اخترناها لسبب من الأسباب. ليس مهمًّا إن كنت تصل إلى الأمل عن طريق الإيمان الديني أو عن طريق نظرية قائمة على الأدلّة أو عن طريق الحدس، أو حتى عن طريق مناقشة منطقية محكمة. تؤدّي هذه الطرق كلّها إلى النتيجة نفسها: يصير لديك إيمانٌ بأن (آ) ثمة إمكانية للنمو أو التطور أو الخلاص في المستقبل؛ (ب) ثمة سبل نستطيع سلوكها حتى نصل إلى ذلك المكان. هذا هو الأمر. يومًا بعد يوم، وسنة بعد سنة، تتكوّن حياتنا من طبقات لا نهاية لها من قصص الأمل هذه. إنها «الجَزَرة» النفسية المعلّقة من طرف العصا.

إذا بدا لك هذا طرحًا عدمياً، فأرجو ألّا تسيء فهم فكرتي. ليس هذا الكتاب دفاعًا عن العدميّة. إنه كتاب ضد العدميّة، سواءٌ كانت العدمية الموجودة في داخلنا أو ذلك الإحساس العام المتنامي بالعدميّة الذي

يبدو أنه قد ظهر مع ظهور العالم الحديث[1]. حتى تنجح في إقامة الحجّة في مواجهة العدميّة، فإن عليك أن تبدأ بالعدميّة نفسها. عليك أن تبدأ بالحقيقة غير المريحة. انطلاقًا من هذه النقطة، يكون عليك أن تنشئ (ببطء) قصّة مقنعة من أجل الأمل. وحتى يكون مقنعًا، فإن من الضروري أن يكون أملًا مستدامًا وأن يكون فيه خير للآخرين. يجب أن يكون أملًا قادرًا على تقريبنا، لا على تفريقنا. يجب أن يكون أملًا متينًا قويًا قائمًا على المنطق والواقع. يجب أن يكون أملًا قادرًا على حملنا حتى آخر أيامنا بحيث يكون لدينا أحساس بالرضا والعرفان.

من الواضح أن فعل هذا ليس بالأمر السهل. بل يمكن القول إنه صار في القرن الحادي والعشرين أكثر صعوبة من أي وقت مضى. إن العدميّة والانغماس الصرف في الرغبات التي ترافقها أمران ينطبقان على عالمنا الحديث. إنها السلطة من أجل السلطة. النجاح من أجل النجاح. والمسرّة من أجل المسرّة. لا تعترف العدميّة بأية «لماذا» شاملة، ولا تلتزم بأية قضية أو حقيقة كبرى. إنها مجرد «أفعلُ هذا لأنه يعجبني». هذا ما يجعل كل شيء يبدو في غاية السوء، كما سنرى في هذا الكتاب.

مفارقة التقدّم

يلفت الزمن الذي نعيش فيه النظر من حيث يمكن القول إن الأشياء قد صارت، من الناحية المادية، أفضل من أي وقت مضى؛ لكننا نبدو كلنا كما لو أننا نعيش حالة جنون عندما نفكّر في أن عالمنا قد صار

---

(1) تبين دراسات أجريت في أكثر من 132 بلدًا أنه كلما ازداد ثراء البلد، كلما ازداد صراع السكان بحثًا عن مشاعر الغاية والمعنى. انظر شيديهيرو أويشي وإد دينر، «لدى سكان البلدان الفقيرة إحساس بمعنى الحياة أكبر مما هو لدى البلدان الغنية»، *علم النفس* 25 العدد 2 (2014): 422 - 430.

مرحاضًا كبيرًا غاصًا بالقاذورات. ينتشر إحساس غير منطقي بالعجز في أنحاء العالم الغنيّ المتقدّم. إنها مفارقة التقدّم: كلّما تحسّنت الأمور، كلما بدا أن الناس يصيرون أشدّ قلقًا وأكثر يأسًا[1].

خلال السنوات الأخيرة، عمل عدد من الكتّاب، من بينهم ستيفن بيكر وهانز روزلينغ، على البرهنة على أننا مخطئون في إحساسنا بهذا التشاؤم كلّه؛ وذهبوا إلى أن كلّ شيء قد صار في واقع الأمر أحسن حالًا من ذي قبل، فضلًا عن أن من المحتمل كثيرًا أن يتواصل هذا التحسن[2]. ملأ الكاتبان المذكوران كتبًا كبيرةً ثقيلةً بمخططات ورسوم بيانية كثيرة تبدأ كلها من زاوية الصفحة وتنتهي - على نحو ما - في الزاوية المقابلة[3].

---

(1) إن التفاؤل منتشر كثيرًا في العالم الثري المتقدم. عندما أجرت شركة يوغوف لبيانات الرأي العام استطلاعًا شمل أشخاصًا في سبعة عشر بلدًا في سنة 2015 سألتهم فيه عما إذا كانوا يعتقدون أن العالم يصير أحسن، أم أسوأ، أم يظل على حاله؟ اتضح أن أقل من عشرة بالمئة من سكان البلدان الأكثر ثراء يرون أن العالم يصير أحسن. ففي الولايات المتحدة الأميركية، لم تقل إلا ستة بالمئة إن العالم يتحسن. وفي أستراليا وفرنسا، كان ذلك الرقم ثلاثة بالمئة فقط. انظر ماكس روزر، «أنباء طيبة: العالم يتحسن. أنباء سيئة: لقد كنت مخطئًا في ما يتعلق باتجاه تغير الأمور»، 15 آب 2018، المنتدى الاقتصادي العالمي
https://www.weforum.org/agenda/2018/08/good - newsthe - world - is - getting - better - bad - news - you - were - wrong - about - how - thingshave - changed

(2) الكتب التي أشير إليها هنا: «*التنوير الآن: دفاعًا عن العقل والعلم والإنسانية*»، بينكر، (نيويورك: فايكينغ، 2018)، و«*الواقعية: عشرة أسباب تقف خلف اعتقادنا الخاطئ عن العالم - ولماذا تكون الأمور أفضل مما تظن*»، روزلينغ (نيويورك: فلاتيرون بوكس، 2018). إنني أزعج الكاتبين قليلًا هنا، إلا أن هذان الكاتبان رائعان ومهمان.

(3) إن هذه العبارة الظريفة على وزن عمل أندرو سوليفان الرائع في هذا الموضوع نفسه. انظر أندرو سوليفان، «العالم أفضل من أي وقت مضى. لماذا أنت بائس؟» *ذا إنتيلجنسر*، 9 آذار 2018.

لقد شرح الرجلان شرحًا مطوّلًا الفرضيات الخاطئة ووجهات النظر المسبقة التي نحملها جميعًا والتي تجعلنا نشعر بأن الأشياء قد صارت أكثر سوءًا. يدافع الرجلان عن فكرة أنّ التقدّم ظلّ مستمرًّا من غير انقطاع خلال العصر الحديث كلّه. صار الناس أحسن تعليمًا وأقل جهلًا من ذي قبل[1]. كما أن العنف يتراجع منذ عقود؛ بل ربما منذ قرون[2]. وبلغت العنصرية والتمييز، والتمييز الجنسي، والعنف ضد المرأة، أدنى مستوياتها في التاريخ المسجّل كلّه[3]. صارت لدينا حقوق أكثر من أي وقت مضى[4]. ويتمتّع نصف سكان الأرض بالقدرة على النفّاذ إلى شبكة الإنترنت[5]. صار الفقر الشّديد في أدنى مستوياته على امتداد العالم كلّه[6]. صارت الحروب أصغر حجمًا وأقل تكرارًا من أي وقت مضى في التاريخ[7]. انخفضت معدلات وفيّات الأطفال؛ وصار الناس

---

(1) ماكس روزر وإستيبان روسيز أوسبينا: «صعود التعليم على المستوى العالمي»، منشور في الإنترنت على موقع:
OurWorldInData.org, 2018, https://ourworldindata.org/global-rise-of-education.

(2) إن كتاب بينكر واحد من الكتب التي لا يمكن الاستغناء عنها للاطلاع على معالجة شاملة لموضوع التراجع التاريخي في مستوى العنف. انظر ستيفن بينكر، «The Better Angels Of Our Nature» (نيويورك: بينكوين بوكس، 2012).

(3) بينكر، «*التنوير الآن*»، ص: 214 - 232.

(4) المصدر السابق، ص: 199 - 213.

(5) «مستخدمو الإنترنت في العالم بحسب المناطق، 30 حزيران 2018»، تمثيل بياني.
InternetWorldStats.com, https://www.internetworldstats.com/stats.htm.

(6) ديانا بيلتكيان واستيبان أورتيز أوزبينا: «الفقر الشديد في تراجع: كيف يتغيّر الفقر بحسب خطوط فقر أعلى من السابق؟»، 5 آذار 2018.
Our WorldInData.org, https://ourworldindata.org/poverty-at-higher-poverty-lines.

(7) بينكر: «The Better Angels of Our Nature»، ص: 249 - 267.

يعيشون أعمارًا أطول[1]. ازدادت الثروة أكثر من أي وقت مضى[2]. كما أننا تمكّنا من التخلّص من جملة كبيرة من الأمراض[3].

إنهما محقّان. ومن المهمّ أن يعرف المرء هذه الحقائق. لكن قراءة هذه الكتب شبيهة إلى حد ما بأن تجلس وتستمتع إلى عمّك العجوز يخبرك كيف كان كل شيء أكثر سوءًا عندما كان في مثل سنّك. على الرغم من صدق ما يقوله لك، فإن هذا لا يعني بالضرورة أن يصير لديك إحساس أفضل تجاه مشكلاتك أنت، أي تجاه المشكلات التي تعيشها الآن.

فما السبب في هذا؟ على الرغم من كل ما ينشر اليوم من أخبار طيبة، فها هي إحصائيات مفاجئة أخرى. في الولايات المتحدة الأميركية، تُواصل أعراض الاكتئاب والقلق ازديادها بين الشباب منذ ثمانين عامًا، وتواصل ازديادها بين البالغين منذ عشرين عامًا[4]. لا يقف الأمر عند كون

---

(1) بينكر، *«التنوير الآن»*، ص: 53 – 61.

(2) المصدر السابق، ص: 79 – 96.

(3) قد تكون اللقاحات أعظم تقدم حدث خلال السنوات المئة الماضية. كشفت إحدى الدراسات أن من المحتمل أن تكون حملة التلقيح الدولية التي قامت بها منظمة الصحة العالمية في عقد الثمانينات قد نجحت في الوقاية من أكثر من عشرين مليون إصابة بالأمراض الخطيرة على مستوى العالم كله، ووفرت 1,53 تريليون دولار من نفقات الرعاية الصحية. كما أنه لم يمكن استئصال أية أمراض استئصالًا تامًا من غير أية لقاحات. هذا واحد من الأسباب التي تجعل الحركة المضادة للقاحات مدعاة لأشد الغضب. انظر وولتر آ. أورنشتاين، ورافي أحمد، «ببساطة: اللقاحات تنقذ الأرواح»، PNAS، 114، العدد 16 (2017): 4031 – 4033.

(4) ج. ل. كليرمان، و. م. م. وايزمان، «معدلات الاكتئاب المتزايدة»، *مجلة الجمعية الطبية الأميركية* 261 (1989): 2229 – 2235. انظر أيضًا: ج. م. توينج، «الفترة الزمنية واختلافات مجموعات الولادات من حيث أعراض الاكتئاب في الولايات المتحدة الأميركية، 1982 – 2013»، *دراسة المؤشرات الاجتماعية* 121 (2015): 437 – 454.

أعداد متزايدة من الناس قد صارت تعاني الاكتئاب، بل إن هناك تزايدًا في نسبة من يعانونه في مرحلة عمرية تزداد تبكيرًا مع كل جيل جديد[1]. فمنذ سنة 1985، يعبّر الرجال والنساء عن مستوى أدنى من رضاهم عن حياتهم[2]. قد يكون جزء من هذا الأمر عائدًا إلى أن مستويات الشدّة النفسية قد ارتفعت خلال السنوات الثلاثين الماضية[3]. لقد بلغ معدّل تعاطي جرعات زائدة من المخدرات أعلى مستوى على الإطلاق؛ وهذه ظاهرة منتشرة في الولايات المتحدة وكندا[4]. وعلى امتداد الطّيف السكّاني في الولايات المتحدة، تتزايد معدلات الإحساس بالوحدة والعزلة الاجتماعية. وفي يومنا هذا، يقول قرابة نصف الأميركيين إنهم يعانون مشاعر العزلة، ويحسّون بأنهم منبوذون، أو متروكون وحدهم في حياتهم[5]. ثم إن الثقة الاجتماعية ليست في حالة تراجع فحسب في أنحاء العالم المتقدّم كله، بل هي في حالة انخفاض شديد السّرعة، بمعنى

---

(1) د. ميرنا م. وايزمان، د. بريا ويكرماراتني، ستيفن غرينوالد، وآخرون: «النسب المتغيرة للاكتئاب الشديد»، JAMA Psychiatry 268، 21 (1992): 3098 - 3105.

(2) س. م. هيربست: «هل هو تراجع غير متوقع؟ نظرة أخرى إلى الانخفاض النسبي في سعادة الإناث»، *مجلة علم النفس الاقتصادي* 32 (2011): 773 - 788.

(3) س. كوهن، د. جانيكي ديفرتز: «من يصاب بالاكتئاب؟ توزع الشدة النفسية في الولايات المتحدة وفق نماذج الاحتمالية من سنوات 1983، 2006، 2009»، *مجلة علم النفس الاجتماعي التطبيقي* 42 (2012): 1320 - 1334.

(4) للاطلاع على تحليل حماسي مروّع لأزمة المخدرات التي تجتاح أميركا الشمالية، انظر أندرو سوليفان: «السمّ الذي نجنيه»، *نيويورك ماغازين*، شباط 2018.

http://nymag.com/intelligencer/2018/02/americas - opioid - epidemic.html.

(5) «دراسة جديدة لمركز سيغنا تكشف مستويات وبائية للوحدة في أميركا»، مؤشر سينغا للوحدة، 1 أيار 2018.

https://www.multivu.com/players/English/8294451 - cigna - us - loneliness - survey./

أن عدد من يثقون بحكومتهم، أو بالإعلام، أو ببعضهم، قد صار أقل من أي وقت مضى[1]. في الثمانينات، وجّه الباحثون إلى المشاركين في أحد الاستطلاعات أسئلة عن عدد الأشخاص الذين ناقشوا معهم أمورًا شخصية مهمّة خلال الأشهر الستة الأخيرة، فكانت «ثلاثة أشخاص» هي الإجابة الأكثر شيوعًا. وأما في العام 2006، فقد صارت الإجابة الأكثر شيوعًا «صفر»[2]. وفي الوقت نفسه، فإن البيئة في حالة تدهور شديد. صار المجانين يمتلكون أسلحة نووية، أو صاروا على مسافة قريبة من امتلاكها. يواصل التطرف النمو على امتداد العالم كلّه - تطرّف بمختلف الأشكال، من اليمين ومن اليسار، وتطرّف ديني، وتطرّف علماني. نظريّات المؤامرة، وميليشيات المواطنين، و«المتأهبون للكارثة» (كأولئك الذين يتّخذون احتياطاتهم لنشوب حرب أو كارثة تشمل العالم كله)... صارت هذه كلّها ثقافات فرعية أكثر انتشارًا وشعبية إلى حدٍّ يهدّد بأن تصبح تيارًا متطرّفًا سائدًا.

من حيث الأساس، فإننا أكثر الناس أمانًا ورخاء في تاريخ العالم كلّه. لكننا نشعر بمزيد من انعدام الأمل مقارنة بأي وقت مضى. كلما حصلنا على أشياء أفضل، كلما بدونا أكثر يأسًا. إنها مفارقة التقدّم. ولعل من الممكن تلخيصها في حقيقة صادمة واحدة: كلما كان المكان الذي

(1) وجد مؤشر صندوق إيدلمان تراجعًا متواصلاً في مستوى الثقة الاجتماعية على امتداد معظم بلدان العالم المتقدم. انظر: «باروميتر الثقة العالمي في سنة 2018: التقرير العالمي».

https://www.edelman.com/sites/g/files/aatuss191/files/2018-10/2018_Edelman_Trust_Barometer_Global_Report_FEB.pdf.

(2) ميلر ماكفرسون، لين سميث - لوفين، ماثيو إ. براشيرز: «العزلة الاجتماعية في أميركا: تغير في شبكات المناقشة الرئيسية خلال عقدين من السنين»، *أميركان سوسيولوجيكال ريفيو* 71، العدد 3 (2006): 353 - 375.

تعيش فيه أكثر ثراء وأمانًا، كلما ازداد احتمال إقدامك على الانتحار[1].

إن التقدّم الهائل الذي تحقق في الثروة والأمن والرخاء المادّي على امتداد بضعة قرون مضت أمر لا سبيل إلى إنكاره أبدًا. لكن هذه كلّها إحصائيات عن الماضي، لا عن المستقبل. ولا مفر من البحث عن الأمل هنا تحديدًا: في رؤيتنا إلى المستقبل.

لا يقوم الأمل على الإحصائيات. ولا يلقي الأمل بالًا إلى ميل عدد حالات الوفاة الناجمة عن إطلاق النار أو عن حوادث السيارات إلى الانخفاض. وهو لا يلقي بالًا إلى عدم وقوع أية حادثة تحطم طائرة تجارية السنة الماضية، ولا إلى أن منغوليا قد حقّقت أعلى مستوى من التخلّص من الأمية في تاريخها كلّه (حسنًا، إلا إذا كنتَ من منغوليا)[2].

لا يلقي الأمل بالًا إلى المشكلات التي قد وجدت حلًا لها. لا يلقي الأمل بالًا إلا إلى المشكلات التي لا تزال في حاجة إلى حل. كلما صار العالم أحسن، كلما صار أثر أية خسارة أعظم شأنًا. وكلما كانت الخسارة أكبر، كلما صرنا نحس بأن ما ينبغي أن نحلم به قد صار أقل.

لا بد لنا من ثلاثة أشياء حتى نبني الأمل ونديمه. إحساس بأننا في

---

(1) إن في البلدان الأكثر ثراء، بشكل متوسط، معدلات انتحار أعلى مما هو موجود في البلدان الأكثر فقرًا. يمكن العثور على البيانات من منظمة الصحة العالمية، «بيانات نسب الانتحار بحسب البلدان».

http://apps.who.int/gho/data/node.main.MHSUICIDEASDR?lang=en.

كما أن الانتحار أكثر تفشيًا في الأحياء الثرية. انظر جوش سانبورن، «لماذا يكون الانتحار أكثر شيوعًا في الأحياء الثرية؟»، *تايم*، 8 تشرين الثاني 2012.

http://business.time.com/2012/11/08/why - suicides - are - more - common - in - richer - neighborhoods/

(2) بالمناسبة، كل نقطة من هذه النقاط صحيحة.

موقع السيطرة، واقتناع بقيمة شيء ما، وجماعة من البشر ننتمي إليها[1]. تعني «السيطرة» أننا نشعر بالقدر على التحكّم بحياتنا، وأننا قادرون على التأثير في قدرنا. وتعني «القيمة، أو القيم» أننا نجد في شيء ما أهمية كافية لأن تجعلنا نعمل من أجله لأنه شيء أفضل يستحق العناء. وتعني «الجماعة البشرية» أننا جزء من مجموعة تجد قيمةً في الأشياء التي تفعلها، وتعمل في اتجاه تحقيق تلك الأشياء. فمن غير جماعة بشرية،

---

(1) إن تعريفي ذا الأجزاء الثلاثة للأمل ناتج عن دمج نظريات عن التحفيز، والقيمة، والمعنى. ونتيجة هذا، فقد دمجت بضعة نماذج أكاديمية معًا على النحو الملائم لغاياتي.

النموذج الأول هو نظرية «التقرير الذاتي» التي تنص على أننا في حاجة إلى ثلاثة أشياء حتى نشعر بوجود الحافز والرضا في حياتنا: الاستقلالية الذاتية، والصلاحية، والارتباط. وقد دمجت الاستقلالية الذاتية والصلاحية تحت مظلة واحدة أسميتها «التحكم بالنفس»؛ ولأسباب ستصير واضحة في الفصل الرابع، فقد أعدت تشكيل الارتباط وأسميته «الجماعة». ما هو مفقود في نظرية التقرير الذاتي - أو، بالأحرى، ما هو ضمني فيها - هو أن هناك شيء يستحق وجود حافز من أجله، *وأن هناك شيء قيم في العالم، وهو موجود ويستحق السعي إليه. وهنا يأتي دور المكون الثالث من مكونات الأمل، ألا وهو القيم.*

وفي ما يتعلق بمعنى القيمة، أو الغاية، أو الهدف، فقد استفدت من نموذج «وجود المعنى» لروي بوميستر. وفي هذا النموذج، لا بد لنا من أربعة أشياء حتى نشعر بأن حياتنا ذات معنى: الغاية، والقيم، والفعالية، والإحساس بالقيمة الذاتية. ومن جديد، فقد أدرجت «الفعالية» تحت مظلة «التحكم بالنفس». وأما العناصر الثلاثة الباقية فقد وضعتها تحت مظلة «القيم». أي الأشياء التي نعتقد بأن لها قيمة وبأنها مهمة وتخلق لدينا شعورًا طيبًا في ما يخصّ ذواتنا. سوف يرد في الفصل الثالث تشريح مطول لفهمي فكرة القيم. ولمعرفة المزيد عن نظرية «التقرير الذاتي»، انظر ر. م. رايان، إ. ل. ديسي: «نظرية التقرير الذاتي وتسهيل التحفيز الأصيل، والتنمية الاجتماعية، والرفاه»، *عالم النفس الأميركي* 55 (2000): 68 - 78. ولقراءة المزيد عن نموذج باوميستر، انظر روي باوميستر: «*معنى الحياة*»، (نيويورك: منشورات غيلفورد برس، 1992)، ص: 29 - 56.

نشعر بأننا في عزلة، وبأن قيَمنا تكف عن أن يكون لها أي معنى. ومن غير القيم، يبدو لنا أن ما من شيء يستحق متابعته والعمل من أجله. ومن غير الإحساس بالسيطرة أو التحكم، فإننا نشعر بانعدام الحَوْل والعزم من أجل عمل أي شيء. إذا فقدت أي واحد من هذه الأشياء الثلاثة، فإنك ستفقد الشيئين الآخرين. افقد أي واحد من هذه الأشياء الثلاثة، وسوف تفقد الأمل. وحتى نفهم السبب الذي يجعلنا نعاني أزمة الأمل هذه التي نعيشها الآن، علينا أن نفهم آليات الأمل، وكيف يجري خلقه والمحافظة عليه. ستتناول الفصول الثلاثة التالية كيفية تنمية هذه المجالات الثلاثة في حياتنا: إحساسنا بالسيطرة على الأمور أو على التحكم بها (الفصل الثاني)، وقيمنا (الفصل الثالث)، وجماعاتنا البشرية (الفصل الرابع).

ثم نعود بعد ذلك إلى السؤال الأصلي: ما الذي يجري في عالمنا فيجعلنا نشعر بأننا في حالة أسوأ على الرغم من أن كل شيء يتحسّن دائمًا ومن غير انقطاع؟

قد تفاجئك الإجابة.

الفصل الثاني

التحكّم بالنفس وهمٌ

بدأ الأمر كلّه بحالة صداع[1].

كان «إليوت» رجلًا ناجحًا، ويعمل في شركة ناجحة أيضًا. كان محبوبًا بين زملائه وجيرانه، وكان قادرًا على أن يكون شخصًا ساحرًا ومرحًا إلى حدٍّ كبيرٍ. وكان زوجًا وأبًا وصديقًا؛ ويذهب لقضاء عطلات رائعة على شاطئ البحر.

لكن نوبات من الصداع راحت تصيبه على نحو مستمر. لم يكن ذلك صداعًا من النوع الذي يمكن أن يزول بعد تناول الدواء. كانت نوبات صداعه نوبات عنيفة تسحق دماغه كأن كرة معدنية ضخمة تصطدم بعينيه من الداخل.

كان إليوت يتناول الأدوية، ويستعين بقيلولة أثناء النهار ويحاول أن يخفّف توتّره ويسترخي وينفض الهموم والمشاغل عن ذهنه. لكن نوبات صداعه ظلّت متواصلة. الحقيقة أنها ازدادت سوءًا. سرعان ما صارت نوبات الصداع عنيفة إلى حد جعل إليوت عاجزًا عن النوم ليلًا، وعن العمل نهارًا. وفي آخر المطاف، ذهب إليوت إلى الطبيب.

---

(1) اقتبست حالة إليوت من كتاب أنتونيو داماسيو: «*غلطة ديكارت: العواطف، والأسباب، والدماغ البشري*»، (نيويورك: بينغوين بوكس، 2005)، ص: 34 – 51. «إليوت» هو الاسم المستعار الذي أعطاه داماسيو للمريض.

فحصه الطبيب وأجرى له اختبارات وتحاليلَ. وبعد تلقّي نتائج الاختبارات، أبلغ الطبيب إليوت بالأخبار السيئة. إنه مصاب بورم دماغي في الفص الجبهي من دماغه. ها هو. هل تراه؟ إنه تلك البقعة الرمادية في الأمام. إنه ورم كبير. أظنّه في حجم كرة البيسبول.

استأصل الجراح ذلك الورم، وعاد إليوت إلى بيته. عاد إلى عمله أيضًا. عاد إلى أصدقائه وأسرته. بدا أن كل شيء قد صار جيدًا... لقد عاد رجلًا طبيعيًا. ثم ساء كلّ شيءٍ بشكلٍ فظيعٍ.

تراجع أداء إليوت في عمله. وصارت المهمات التي كانت في غاية السهولة بالنسبة إليه تتطلّب جبالًا من الجهد والتركيز. وصارت قرارات بسيطة، من قبيل تقرير استخدام القلم الأزرق أو الأسود، تستلزم ساعات من وقته. كان يرتكب أغلاطًا في أمور أساسية، ثم يتركها على حالها أسابيع كثيرة. بدأ يهمل الاجتماعات والمواعيد النهائية لإنجاز العمل كما لو أنه شخص لا علاقة له بالزمن أبدًا.

تعاطف زملاؤه معه أول الأمر، وحاولوا التغطية على تقصيره. ففي آخر المطاف، أصيب هذا الرجل بورم دماغي كبير في حجم كرة البيسبول مما أدى إلى استئصال جزء من دماغه. لكن، سرعان ما صارت التغطية عليه عبئًا كبيرًا بالنسبة إليهم؛ وصارت أعذار إليوت غير منطقية على الإطلاق. هل تخلّفتَ عن اجتماع مع أحد المستثمرين حتى تذهب لشراء ثقّابة ورق جديدة، يا إليوت؟ هل فعلت هذا حقاً؟ أين كان عقلك[1]؟

وبعد شهور من الاجتماعات الكثيرة التي تخلّف عنها إليوت، وبعد

---

(1) هذا المثال، وغيره أمثلة كثيرة مأخوذة من حياة أسرته (المباريات، واحتفالات الأسرة، إلخ) موضوعة من قبلي بهدف شرح الفكرة. إنها غير واردة في كتاب داماسيو، ولعلها لم تحدث أبدًا.

الأغلاط الكثيرة التي ارتكبها، صارت الحقيقة أمرًا لا سبيل لإنكاره، لقد خسر إليوت في تلك العملية الجراحية ما هو أكثر من ذلك الورم الذي كان في رأسه. ومن وجهة نظر زملائه ورؤسائه في العمل، كان ذلك الشيء الذي خسره يعادل كمية كبيرة من أموال الشركة. وهكذا، فقد فُصل إليوت من عمله.

لم تكن حياته المنزلية في حال أفضل في تلك الأثناء. تخيل أن تأخذ أبًا مفلسًا فتضعه ضمن شخصية رجل شديد الخمول، وتضيف إليه مشاجرات عائلية متكررة، ثم تدخله إلى فرن حرارته 180 درجة مئوية أربعًا وعشرين ساعةً! هكذا كانت حياة إليوت الجديدة. صار يتخلّف عن حضور المباريات التي يشارك فيها ابنه. كما تغيّب عن اجتماع أولياء الأمور مع المعلّمين لكي يجلس ويتابع برنامجًا سخيفًا في التلفزيون. ونسي أن زوجته تحبّ أن يتحدّث معها أكثر من مرة واحدة في الأسبوع.

بدأت المشاجرات تحدث في حياة إليوت الزوجية نتيجة أشياء جديدة غير متوقّعة... إلا أن اعتبارها «مشاجرات» كان أمرًا غير دقيق في حقيقة الأمر. تتطلّب المشاجرة وجود شخصين مختلفين على أمر ما. كانت زوجته تغضب غضبًا شديدًا، في حين يظل إليوت عاجزًا عن إدراك سبب غضبها. وبدلًا من اتخاذ إجراءات سريعة من أجل تغيير مسار الأمور، أو من أجل إصلاحه، حتى يُظهر أنه يحب الأشخاص الذين هم أفراد أسرته وأنه مهتم بهم، ظل إليوت منعزلًا غير مبالٍ بشيء. كان ذلك كما لو أنه يعيش في مكان آخر، في مكان لا يستطيع أحد على وجه الأرض أن يصل إليه.

وفي النهاية، لم تعد زوجته قادرة على احتمال المزيد. لقد خسر إليوت ما هو أكثر من الورم!... هكذا كانت تصيح. وذلك الشيء هو قلبُه! طلّقته زوجته، وأخذت الأطفال. صار إليوت وحيدًا.

بدأ إليوت، المنبوذ، المشوَّش، يبحث عن سبل للعودة إلى العمل من جديد. تورّط في مشاريع أعمال فاشلة. وسلبه أحد المحتالين القسم الأكبر من مدّخراته المالية. ثم أغوته امرأة سيئة النية فأقنعته بأن يتزوجها، ولم تلبث أن طلّقته بعد سنة وأخذت نصف ما بقي لديه. صار إليوت يسكن هنا وهناك في شقق لا تنفك تزداد رخصًا وبؤسًا إلى أن صار متشرّدًا حقيقيًا بعد بضع سنوات. آواه أخوه وبدأ يساعده ماليًا. كان أصدقاؤه وأقاربه في حالة ذهول لأن هذا الشخص الذي كان موضع إعجابهم في ما مضى قد انقلب رأسًا على عقب خلال سنوات قليلة فقط ورمى بحياته كلّها إلى الخراب. لم يستطع أحد فهم هذا. لم يكن ممكنًا إنكار أن شيئًا في إليوت قد تغيّر وأن نوبات الصداع الفظيعة تلك قد سبّبت له ما هو أكثر من الألم.

وكان السؤال: ما الذي تغيّر؟

بدأ أخوه يرافقه في زيارات إلى أطباء كُثُر. كان يقول: «إنه ليس هو نفسه. لديه مشكلة. يبدو على ما يرام، لكنه ليس كذلك. أنا متأكّد من هذا».

فحصه الأطباء كثيرًا، وأجروا له اختبارات كثيرة. لكنهم قالوا آخر الأمر إن إليوت في حالة طبيعية تمامًا... أو إن حالته - على الأقل - واقعة ضمن تعريفهم لما هو «طبيعي»؛ بل حتى أحسن من ذلك قليلًا! كانت نتائج التصوير المقطعي المُحَوسَب جيدة. وكانت نتائج اختبار معدل الذكاء مرتفعة. ظلت قدرته على المحاكمة العقلية متينة. وظلت ذاكرته في حالة ممتازة. كان قادرًا على إجراء مناقشة مطولة لتداعيات خياراته السيئة ونتائجها. وكان قادرًا أيضًا على التحدث في جملة واسعة من الموضوعات مع المحافظة على ما كان لديه من سحر وحسّ بالفكاهة. قال طبيبه النفسي إنه ليس مصابًا بالاكتئاب؛ بل على العكس

من ذلك: إن لديه تقديرًا مرتفعًا لنفسه، ولا تظهر عليه أيّ علامات تشير إلى القلق المزمن أو الشدّة النفسية - كان في حالة هدوء شديد في مواجهة الإعصار الذي نتج عن إهماله وتقصيره.

لم يستطع أخوه قبول هذه النتائج. ثمة شيء خاطئ! لقد فقد إليوت شيئًا ما!

وفي محاولة أخيرة، جرت إحالة إليوت إلى طبيب أعصاب شهير اسمه أنتونيو داماسيو.

كان ما فعله د. أنتونيو داماسيو في البداية مثلما ما فعله بقية الأطباء: أجرى لإليوت مجموعة اختبارات من أجل فحص قدراته الإدراكية. الذاكرة، والمنعكسات، والذكاء، والشخصية، وإدراك المكان والأشكال، والمناقشة الأخلاقية... فحص الطبيب كلَّ شيء. وكانت نتائج إليوت ممتازة في كل شيء.

عندها، فعل داماسيو شيئًا لم يفكر أي طبيب قبله بفعله لإليوت: لقد تحدّث معه!... أجرى معه حديثًا حقيقيًا! أراد أن يعرف منه كل شيء: كل غلطة، وكل زلّة، وكل ما ندم عليه. كيف فقد عمله؟ وكيف فقد أسرته؟ وكيف فقد بيته؟ وكيف فقد مدخراته؟... اجعلني أرى خطوات اتخاذ كل قرار، واشرحْ لي عملية التفكير آنذاك (أو، عدم وجود عملية التفكير، في هذه الحالة).

استطاع إليوت أن يشرح القرارات التي اتخذها شرحًا تفصيليًا، لكنه لم يستطع شرح ما جعله يتّخذ تلك القرارات. كان قادرًا على تذكّر الحقائق وتسلسل الحوادث بدقّة تامّة، بل إنه تذكّر ذلك كله بصورة حيوية نشطة. لكن، عندما طلب منه الطبيب تحليل قراراته وكيفية اتخاذها: لماذا قرّر أن شراء ثقّابة جديدة للورق كان أكثر أهمية من الاجتماع مع المستثمر؟ ولماذا قرّر أن متابعة ذلك البرنامج التلفزيوني

كان أكثر أهمية من أطفاله؟... عند ذلك لم يعرف إليوت شيئًا. لم تكن لديه أية إجابات. والأغرب من هذا هو أنه لم يكن منزعجًا على الإطلاق نتيجة عدم وجود أية إجابات لديه. حقيقة الأمر أنه كان غير مبالٍ بذلك.

كان إليوت رجلًا خسر كل شيء بسبب أغلاطه وخياراته الخاطئة، رجلًا لم يظهر أي قدر من القدرة على التحكّم بنفسه. كان رجلًا يدرك تمامًا حجم الكارثة التي أصابت حياته، لكن من الواضح أنه غير آسف على الإطلاق. لم يكره نفسه، بل لم يظهر عليه أي قدر من الحرج. وصل ما لا حصر له من الأشخاص إلى الانتحار نتيجة أشياء أقل كثيرًا مما أصاب إليوت! إلا أن إليوت لم يكن مرتاحًا فحسب إزاء ما أصابه، بل غير مبالٍ به أبدًا. عند ذلك، توصل داماسيو إلى فكرة ذكية: لقد كانت الاختبارات النفسية التي خضع لها إليوت مصمّمة من أجل قياس قدرته على التفكير؛ لكنها لم تكن اختبارات مصمّمة لقياس قدرته على الإحساس. كان كل طبيب من الأطباء الذين فحصوه معنيًا بالتحقّق من القدرات المنطقية لدى إليوت؛ ولم يتوقف أحد منهم للتفكير في احتمال أن تكون قدرات إليوت العاطفية والانفعالية هي موضع المشكلة. وحتى لو أنهم أدركوا ذلك، فما من طريقة معيارية لقياس ذلك الضرر.

وفي يوم من الأيام، قام أحد زملاء داماسيو بطباعة مجموعة من الصور المثيرة للفزع. كان في تلك الصور ضحايا حروق شديدة، ومشاهد قتل مُروّعة، ومدن دمرتها الحرب، وأطفال جائعون. جعل إليوت يرى تلك الصور، واحدة بعد أخرى. ظل إليوت غير مبالٍ على الإطلاق. لم يشعر بأي شيء. كان عدم اهتمامه أمرًا صادمًا إلى حد جعله، هو نفسه، يعلّق على مدى سوء حالته. لقد أقرَّ بمعرفته الأكيدة بأن تلك الصور كانت ستسبّب له اضطرابًا شديدًا في الماضي، وقال إن قلبه كان سينفطر ألمًا وذعرًا وإشفاقًا. قال إنه ما كان يستطيع النظر إلى تلك الصور، وإنه كان

سيدير وجهه حتى لا يراها. وأما الآن؟!... لقد ظلّ جالسًا هناك ينظر إلى أكثر ما يعرفه البشر قسوة وظلامًا، لكنه لم يشعر بأي شيء.

اكتشف داماسيو أن هذه هي مشكلة إليوت: بقيت معرفته وقدرته على المحاكمة المنطقية سليمة، لكن الورم (أو العملية الجراحية التي أجريت من أجل استئصال ذلك الورم) أدى إلى إلحاق ضعف شديد بقدرته على الشعور والتعاطف. لم يعد في عالمه الداخلي ظلمة ونور، بل صار مستنقعًا رماديًا من غير نهاية. صار ذهابه لرؤية ابنته والاستماع إليها وهي تتمرّن على عزف البيانو لا يثير في نفسه فرحة واعتزازًا أبويين بأكثر مما يثيره فيها شراء زوج جديد من الجوارب. صار إحساسه بخسارة مليون دولار كما لو أنه يملأ خزان سيارته بالوقود، أو يأخذ بياضات السرير إلى الغسيل، أو يشاهد برنامجًا تلفزيونيًا تافهًا. لقد صار أشبه بآلة قادرة على الكلام والمشي، لكنها غير مبالية بأي شيء. لم تعد هناك أهمية لمستوى ذكائه بعد أن فقد القدرة على الحكم على قيمة الأشياء وعلى التمييز بين الجيّد والسيّئ. لقد فقد إليوت تحكمه بنفسه[1].

لكن هذا أدى إلى طرح سؤال كبير: إذا كانت قدرات إليوت المعرفية (ذكاؤه، وذاكرته، وانتباهه) في حالة جيدة جدًا، فما الذي جعله غير قادر على اتخاذ قرارات صحيحة فعالة؟ حيّر هذا الأمر داماسيو وزملاءه. يمرّ كلٌّ منا بحالات يتمنّى فيها لو أنه كان من غير مشاعر. وذلك لأن مشاعرنا تقودنا، في حالات كثيرة، إلى القيام بأفعال غبيّة نندم عليها في وقت لاحق. ظل الفلاسفة وعلماء النفس قرونًا يظنون بأن التخلّص من

---

(1) المصدر السابق، ص: 38. يستخدم داماسيو مصطلح «الإرادة الحرة» حيث أستخدم مصطلح «التحكم بالنفس». يمكن التفكير في هذين المصطلحين انطلاقًا من نظرية «التقرير الذاتي» باعتبارهما الحاجة إلى الاستقلالية (انظر داماسيو: «*غلطة ديكارت*»، الفصل الأول، الهامش رقم 32).

مشاعرنا وانفعالاتنا، أو كبتها هو الحل لمشكلاتنا كلّها. لكن، ها هو رجلٌ جُرّد تجريدًا تامًا من مشاعره وانفعالاته وقدرته على التعاطف، رجلٌ ما عاد لديه شيء غير ذكائه وقدرته العقلانية على المناقشة المنطقية، فتدهورت حياته تدهورًا سريعًا إلى أن صارت كارثة حقيقية. لقد كانت حالته مخالفة لكل ما هو معروف عن السيطرة على النفس واتخاذ القرارات العقلانية.

لكن، كان هناك سؤالٌ ثانٍ يثير قدرًا من الحيرة لا يقل عما يثيره السؤال الأول: إذا كان إليوت لا يزال حادّ الذكاء، ولا يزال قادرًا على التفكير العقلاني في المشكلات المطروحة عليه، فلماذا شهد أداؤه في العمل ذلك التردّي الكبير؟ لماذا تحوّلت إنتاجيته المرتفعة إلى أداء في غاية السوء؟ ولماذا أهمل أسرته إهمالًا أدى إلى انهيارها على الرغم من معرفته التامّة بالعواقب السلبية التي ستنتج عن ذلك؟ حتى إذا كففت عن الاهتمام بزوجتك، أو بعملك، فمن المفترض أن تظل قادرًا على إجراء المحاكمة العقلية التي تقول لك إن من المهم أن تحافظ عليهما. أليس هذا صحيحًا؟ أعني أن هذا ما يستطيع المعتلّون اجتماعيًا التوصل إليه في آخر المطاف. إذًا، لماذا لم يستطع إليوت التوصل إلى هذه النتيجة؟ وكم تبلغ صعوبة الذهاب إلى مباراة رياضية للأطفال، ولو مرة واحدة كل بضعة شهور؟ على نحو ما، فقد إليوت قدرته على اتخاذ القرارات مع فقدانه قدرته على الإحساس بأية مشاعر. لقد فقد قدرته على التحكم بحياته نفسها.

يمرّ كل واحد منا بحالات يعرف فيها ما ينبغي عليه فعله، لكنه لا يفعله. ويحدث لنا جميعًا أن نؤجّل أعمالًا مهمة، ونتجاهل أشخاصًا يهمّنا أمرهم، ونتقاعس عن القيام بأمور من مصلحتنا الواضحة أن نقوم بها. وعندما نمتنع عن فعل الأشياء التي ينبغي علينا فعلها، نفترض أن هذا يحدث لأننا غير قادرين على التحكم بمشاعرنا وانفعالاتنا بالقدر اللازم. نقول إننا غير منضبطين، أو إننا مفتقرون إلى الفهم الكافي.

إلا أن حالة إليوت وضعتْ هذا كلّه موضع التساؤل. لقد وضعتْ فكرة التحكّم بالنفس موضع التساؤل، أي الفكرة القائلة بأننا نستطيع بالمنطق أن نرغم أنفسنا على فعل أشياء جيدة لنا على الرغم من دوافعنا ومشاعرنا التي تجعلنا ننفر منها.

حتى نتمكّن من خلق الأمل في حياتنا، لا بد لنا أولًا من الإحساس بأننا قادرون على التحكّم بحياتنا. يجب أن نشعر بأن التصرف وفقًا لما نعرفه أمر صحيح، وبأنه أمر حسن؛ أي أن يكون لدينا شعور بأننا نسعى إلى «شيء أفضل». لكن أشخاصًا كثيرين منا يعانون عدم القدرة على التحكم بأنفسهم. وسوف تكون حالة إليوت سببًا في اكتشاف شديد الأهمية في ما يخص فهم سبب حدوث هذا الأمر. هذا الرجل الفقير، المعزول، الوحيد... هذا الرجل الذي ينظر إلى صور أجساد ممزقة وصور أنقاض خلفتها هزة أرضية... ينظر من غير أي مشاعر إلى صور يمكن أن تكون تعبيرًا عن حياته هو... هذا الرجل الذي فقد كلّ شيء، فقد كلّ شيء بالمطلق، لكنه لا يزال قادرًا على الابتسام عندما يتحدّث عن ذلك... سيكون هذا الرجل مفتاح ثورة حقيقية في فهم العقل البشري، وفي فهم كيف نتخذ القرارات ومقدار ما نملكه فعلًا من تحكّم بأنفسنا.

الافتراض التقليدي

قال الموسيقي توم ويتس عندما سئل عن سبب إكثاره من تناول الشرب: «أن تكون أمامي زجاجة شراب أفضل من أن يكون أمامي 'بَضْعُ الفَصّ'!». يبدو أنه كان في حالة سكر شديد عندما قال ذلك. والمشكلة هو أنه كان يقوله على شاشة التلفزيون الوطني[1].

---

(1) قال ويتس هذه النكتة في برنامج نورمان لير التلفزيوني «*فيرنوود تو نايت*» في سنة 1977، لكنه لم يتقيد بها. لا يعرف أحد أصل هذه النكتة؛ وإذا جرّبت البحث عنها في الإنترنت فسوف تضيع في زحمة كبيرة من النظريات. ينسب

إن «بضع الفص» جراحة دماغية يجري فيها إحداث ثقب في الجمجمة عن طريق الأنف، ثم يتم إحداث قطع في الفص الدماغي الجبهي باستخدام إزميل[1]. ابتكرت هذه العملية الجراحية في سنة 1935 على يد جراح أعصاب اسمه أنطونيو إيغاز مونيز[2]. اكتشف إيغاز مونيز أنك إذا أخذت شخصًا مصابًا بحالة شديدة من القلق، وباكتئاب انتحاري، أو بغير ذلك من الأمراض العقلية (من بينها 'أزمات الأمل')، و«جرحت» دماغه بطريقة صحيحة، فسوف تتحسّن حالته.

كان إيغاز مونيز مقتنعًا بأن إجراء جراحة بضع الفص يمكن أن يشفي الأمراض العقلية. وقد سوّق هذه الجراحة في العالم استنادًا إلى تلك القناعة. صار إجراء هذه العملية أمرًا واسع الانتشار في أواخر عقد الأربعينات؛ وقد أجريت على عشرات آلاف المرضى في أنحاء العالم. كما فاز إيغاز مونيز بجائزة نوبل لقاء اكتشافه هذا.

لكن الناس بدأوا في الخمسينات يلاحظون أن حفر ثقب في وجه شخص ما وإزالة جزء من دماغه مثلما تزيل الجليد عن زجاج السيارة الأمامي يسبب بضعة آثار جانبية سلبية. أعني بتعبير «بضعة آثار جانبية

= بعض الناس هذه النكتة إلى الكاتبة دوروثي باكر، وينسبها غيرهم إلى الكوميدي ستيف آلن. وقد زعم ويتس نفسه أنه لا يتذكر أين سمعها أول مرة. وقد أقر أيضًا بأن النكتة ليست من عنده.

(1) لقد استخدم المخرز بالفعل في عدد من عمليات بضع الفص الجبهي الأولى. لقد كان أكبر خصوم هذه العملية في الولايات المتحدة الأميركية، وولتر فريمان، لا يستخدم غير المخرز، وذلك قبل أن يبتعد عن هذه العمليات لأن المخرز كان ينكسر أحيانًا ويبقى عالقًا في رأس المريض. انظر هينريش ج. أكاريا: «صعود جراحة بضع الفص وأفولها»، وذلك في كتاب من تحرير و. أ. وايت لو بعنوان *«مجريات الدورة السنوية الثالثة عشر من أيام التاريخ الطبي»* (كالغاري، جامعة كالغاري، كلية الطب، 2004)، ص: 32 - 41.

(2) نعم... إن كل عالم أعصاب في هذا الكتاب يحمل اسم أنطونيو.

سلبية» أن المرضى يصيرون في حالة مزرية. صحيح أن هذه العملية الجراحية «تشفي» المرضى من مشكلاتهم الانفعالية العنيفة (تشفيهم أكثر الأحيان)، إلا أنها تجعلهم غير قادرين على التركيز أو اتخاذ القرارات، أو وضع خطط بعيدة المدى، أو التقدّم في العمل، أو التفكير في أنفسهم تفكيرًا مجرّدًا. من حيث الأساس، يصير أولئك الناس كائنات «زومبي» راضية عن أنفسها كل الرضى كأنها من غير عقول. أي أنهم يصيرون مثل إليوت.

كان الاتحاد االسوفياتي (الاتحاد السوفياتي دونًا عن أي مكانٍ آخر)، البلد الأول الذي يعتبر هذه العملية الجراحية في الدماغ مخالفة للقانون. أعلن السوفيات أنها عملية «مخالفة للمبادئ الإنسانية»، وزعموا أنها «تحوّل الشخص المصاب بالجنون إلى شخص معتوه»[1]. كان هذا بالنسبة إلى بقية العالم أشبه بانطلاق جرس الساعة المنبّهة. فعندما يلقي عليك جوزيف ستالين محاضرة في الأخلاق وفي المبادئ الإنسانية، فإن هذا يعني أنك في حالة يُرثى لها.

بعد ذلك، بدأت بقية العالم (بدأت ببطء) تحظّر تلك الجراحة بحيث لم يأت عقد الستينات إلا وقد صارت مرفوضة لدى الجميع. أجريت آخر عملية «بضع الفص» في الولايات المتحدة الأميركية، وكان ذلك في سنة 1967. ولم يلبث المريض أن مات بعد العملية. قال السكير توم ويتس جملته الشهيرة على شاشة التلفزيون بعد عشر سنين من ذلك. وأما البقية فقد صارت تاريخًا، كما يقولون.

كان توم ويتس مدمنًا على الكحول. وقد أمضى عقد السبعينات كلّه

---

(1) غريتشن ديفنباخ، دونالد ديفنباخ، ألان بوميستر، مارك ويست: «صورة جراحة بضع الفص في الصحافة الشعبية: 1935 – 1960»، *مجلة تاريخ علوم الأعصاب* 8، العددا (1999): 60 – 69.

محاولًا أن يبقي عينيه مفتوحتين وأن يتذكّر أين وضع علبة سجائره[1]. لكنه استطاع خلال تلك الفترة أن يعثر على الوقت اللازم لتأليف سبعة ألبومات غنائية لامعة وتسجيلها. كان شخصًا عميقًا خصب الإنتاج؛ وفاز بعدة جوائز؛ وباع ملايين النسخ من أغانيه التي اشتهرت في العالم. كان واحدًا من أولئك الفنانين العالميين الذين يتميّزون بنظرة ثاقبة مدهشة إلى الشرط البشري.

لعل جملة ويتس عن عملية «بضع الفص» تثير ضحكنا الآن، لكن فيها حكمة خفية: إنه يفضّل أن يعاني مشكلة الضعف العاطفي أمام زجاجة الشراب على أن يفقد كلّ عاطفة على الإطلاق؛ بمعنى أن العثور على الأمل في أماكن وضيعة يظل أفضل من عدم العثور على أي أمل. هذا يعني أيضًا أننا نصير لا شيء إذا فقدنا اندفاعاتنا المجنونة الجامحة.

لقد كان هناك على الدوام افتراض ضمني مفاده أن مشاعرنا وانفعالاتنا هي السبب في مشكلاتنا كلها، وأنه ينبغي على عقلنا أن يتدخّل لكي يزيل تلك الفوضى! يرجع هذا المنهج في التفكير إلى عهد بعيد، إلى زمان سقراط الذي أعلن أن العقل هو منبع الفضائل كلها[2]. وفي أوائل عصر الأنوار، ذهب ديكارت إلى أن عقلنا مستقل عن رغباتنا الحيوانية،

---

(1) لقد راجت نظرية مؤامرة غريبة بين صحافيي الغناء والموسيقى في السبعينات. ومفادها أن توم ويتس كان يتظاهر كذبًا بأنه مدمن على الكحول. وقد كتبت مقالات، بل كتب كاملة، عن هذا الأمر. صحيح أن من المحتمل كثيرًا أن يكون ويتس قد بالغ في الظهور بمظهر الشخص السكير من أجل تعزيز أدائه، لكنه علّق صراحة على إدمانه منذ سنوات. ومن آخر الأمثلة على ذلك مقابلة له في سنة 2006 مع صحيفة الغارديان. قال في تلك المقابلة: «إن لدي مشكلة - مشكلة كحول. يظن كثير من الناس أنها من مخاطر اللجنة. لقد أنقذت زوجتي حياتي». انظر شون أوهاغان: «نشاز»، *الغارديان*، 28 تشرين الأول 2006.

https: / /www.theguardian.com /music /2006 /oct /29 /popandrock1

(2) كزينوفون: «*ميمورابيليا*»، ترجمة آني ل. بونيت (إيثاكا، نيويورك: منشورات جامعة كورنيل، 2014)، الكتاب الثالث، الفصل 9، ص: 5.

وإلى أن عليه أن يتعلّم كيف يسيطر على تلك الرغبات[1]. قال الفيلسوف كانط أيضًا شيئًا يشبه هذا[2]. ثم جاء فرويد وكرّر الفكرة نفسها، لكنه أضاف إليها بعدًا جنسيًا طاغيًا[3]. وأنا واثق من أن إيغاز مونيز كان يظن بأنه اكتشف طريقة فعل ذلك عندما ثقب جمجمة مريضه الأول في سنة 1935؛ وذلك أن الفلاسفة ظلّوا أكثر من ألفي سنة يؤكّدون على ضرورة فعله: جعلُ العقل مهيمنًا على العواطف الجامحة من أجل التوصّل أخيرًا إلى مساعدة الإنسانية في إحراز قدرٍ من التحكّم بنفسها.

لقد ساد هذا الافتراض عبر قرون من الزمان (افتراض أن علينا استخدام عقلنا الواعي للهيمنة على عواطفنا وانفعالاتنا)، وهو لا يزال يحدّد قسمًا كبيرًا من ثقافتنا اليوم. سنطلق على هذا الافتراض «الافتراض الكلاسيكي». يقول الافتراض الكلاسيكي إنه إذا كان لدينا شخص غير منضبط، أو جانح الطباع، أو شرير، فهذا لأنه مفتقر إلى القدرة على ضبط مشاعره وإخضاعها، مما يعني أنه شخص ضعيف الإرادة أو معتوه تمامًا. يرى الافتراض التقليدي أن العواطف والمشاعر والانفعالات ليست إلا اختلالات أو عيوبًا في النفس البشرية لا بد من التغلب عليها وإصلاحها في تلك النفس.

---

(1) رينيه ديكارت: *«أعمال ديكارت الفلسفية»*، ترجمة إليزابيث س. هالدين وج. ر. ت. روس (1637)؛ أعيدت الطباعة في نيويورك: منشورات جامعة كامبردج (1970)، الفصل الأول: 101.

(2) الحقيقة أن كانط ذهب إلى القول بأن العقل هو جذر الأخلاق، وبأن العواطف يمكن اعتبارها أمرًا لا أهمية له. ففي نظر كانط، لم يكن شعورك مهمًا طالما أنك تفعل الشيء الصحيح. لكننا سنصل إلى الحديث عن كانط في الفصل السادس. انظر إيمانويل كانط: *«عمل تأسيسي في ميتافيزيقيات الأخلاق»*، ترجمة جيمس و. إلينغتون (1785)؛ أعيدت طباعته في إنديانابوليس: شركة هاتشيت للنشر، 1993.

(3) انظر سيغموند فرويد: «قلق في الحضارة»، ترجمة جيمس ستراتشي (1930)؛ أعيدت طباعته في نيويورك: و. و. نورتون وشركاه، 2010.

وفي أيامنا هذه، عادة ما نطلق أحكامنا على الناس استنادًا إلى هذا «الافتراض الكلاسيكي». يسخر الناس من الشخص البدين لأنهم يعتبرون بدانته ناتجة عن فشله في السيطرة على نفسه. فهو «يعرف» أن عليه أن يكون رشيقًا، لكنه يستمر في الأكل، فلماذا؟ لا بد أن لديه شيئًا غير صحيح... هذا ما نفترضه. والمدخّن: الحكاية نفسها. وبالطبع، نجد تلك النظرة نفسها تجاه مدمني المخدرات، لكن ذلك غالبًا ما يترافق مع وصمة إضافية تعتبرهم نوعًا من المجرمين.

يجري إخضاع الأشخاص المكتئبين، وذوي الميول الانتحارية، إلى الافتراض الكلاسيكي بطريقة خطيرة إذ يقال لهم إنهم يتحمّلون مسؤولية عدم قدرتهم على خلق المعنى والأمل في حياتهم، وإنهم قد يتخلّصون من ميلهم إلى شنق أنفسهم إذا بذلوا جهدًا أكبر لإصلاح حالهم.

إننا نعتبر خضوع المرء لدوافعه الانفعالية والعاطفية نوعًا من الخلل الأخلاقي. ونرى في الافتقار إلى القدرة على التحكّم بالنفس علامة دالّة على الشخصية الفاشلة المَعيبة. وبالعكس، فإننا نحتفي بالأشخاص الذين يهزمون مشاعرهم ويجعلونها تستسلم لإرادتهم. نصفّق جميعًا للرياضيين ورجال الأعمال والقادة متحجري القلوب الذين يتمتّعون بكفاءة روبوتية. إذا صار واحد من المديرين التنفيذيين ينام في مكتبه ولا يرى أطفاله إلا كل ستة أسابيع... فنعم، هذا هو التصميم! هل رأيتم؟ يستطيع أي شخص أن يصير ناجحًا!

من الواضح أن ما من صعوبة أبدًا في رؤية كيف يمكن أن يؤدّي الافتراض الكلاسيكي إلى بعض «الافتراضات» الضارة. إذا كان الافتراض الكلاسيكي صحيحًا، فإن علينا أن نكون قادرين على التحكم بأنفسنا وعلى الحيلولة دون الانفجارات الانفعالية والجرائم النابعة من العاطفة، فضلًا عن التخلص من الإدمان ومن الموبقات الأخرى، وذلك

من خلال الجهد العقلي وحده. وكل فشل في فعل ذلك يعكس وجودًا أصيلًا لشيء مَعيب أو معطوب في داخلنا.

هذا ما يدفعنا، في أحيان كثيرة، إلى التوصّل إلى إيمان زائف بأن علينا أن نغيّر طبيعة أنفسنا. فإذا كنا غير قادرين على تحقيق أهدافنا، وإذا كنا عاجزين عن تخفيف أوزاننا، أو عن الحصول على ترقية في العمل، أو عن اكتساب هذه المهارة أو تلك، فإن هذا يشير إلى خللٍ داخلي فينا. وهكذا نقرّر، حتى نحافظ على أملنا، أن علينا أن نغير أنفسناً بحيث يصير الواحد منا شخصًا جديدًا مختلفًا تمامًا. وعند ذلك، تشحننا هذه الرغبة في أنفسنا بالأمل. لم يستطع «أنا القديم» التخلّص من عادة التدخين الفظيعة؛ لكن «أنا الجديد» قادر على ذلك. ثم ننطلق إلى السباق من جديد.

وعند ذلك، تصير هذه الرغبة الدائمة في تغيير النفس نوعًا قائمًا بذاته من أنواع الإدمان: تؤدّي كل دورة من دورات «تغيير النفس» إلى حالات مماثلة من الفشل في السيطرة على النفس مما يدفعك إلى الإحساس بأنك في حاجة إلى «تغيير نفسك» من جديد. إن كل دورة من هذه الدورات تعيد تغذيتك بالأمل الذي تبحث عنه. وفي أثناء هذا، يظل الافتراض الكلاسيكي، الذي هو جذر المشكلة، من غير أن يقترب منه أحد، ومن غير أن يضعه أحد موضع التساؤل، ناهيك عن أن يتمكّن أحد من التخلص منه.

إن هذا يشبه قصة حَب الشباب الذي نشأت بسببه، خلال القرنين الماضيين، صناعة كاملة تمحورت حول «تغيير الذات». إن هذه الصناعة مليئة بالوعود الكاذبة التي ترشد المرء إلى أسرار السعادة والنجاح والتحكّم بالنفس. إلا أن كل ما تفعله تلك الصناعة يظل منحصرًا في تعزيز الميول التي تدفع الناس إلى الإحساس بالنقص[1].

---

(1) أعرف هذا لأنني جزء من هذه الصناعة، للأسف. غالبًا ما أمزح فأقول إنني

الحقيقة هي أن العقل البشري أكثر تعقيدًا من أي «سرٍّ». أنت غير قادر على تغيير نفسك؛ وليس عليك أن تشعر دائمًا بأنه ينبغي لك فعل ذلك!

إننا متعلّقون بهذه الحكاية عن السيطرة على النفس نتيجة اعتقادنا بأن سيطرتنا التامّة على أنفسنا منبعٌ كبيرٌ من منابع الأمل. ونحن «نريد» الاقتناع بأن تغيير أنفسنا أمرٌ بسيطٌ مثل معرفة ما ينبغي تغييره. نحن «نريد» الاقتناع بأن القدرة على فعل شيء ما أمر يعادل في بساطته اتخاذ القرار بفعله وحشد قوة الإرادة الكافية لفعله. ونحن «نريد» إقناع أنفسنا بأننا سادة مصيرنا، وبأننا قادرون على فعل كل ما نحلم به.

هذا ما جعل اكتشاف داماسيو عندما حاول معالجة إليوت اكتشافًا كبيرًا بالفعل: لقد بيّن هذا الاكتشاف أن الافتراض الكلاسيكي غير صحيح. فإذا كان الافتراض الكلاسيكي أمرًا صحيحًا، وإذا كانت الحياة أمرًا بسيطًا مثل تعلّم المرء السيطرة على انفعالاته وعواطفه واتخاذ القرارات استنادًا إلى العقل، فهذا يعني أن إليوت كان شديد القوة، مجدًّا في عمله، يتخذ القرارات من غير أية مشكلة. وعلى نحو مماثل، إذا كان الافتراض الكلاسيكي صحيحًا، فإن من يخضعون لعملية بضع الفص يجب أن يكونوا أكثر الناس نجاحًا. لو كان الأمر كذلك، لاندفعنا جميعًا إلى توفير المال من أجل إجراء هذه العملية كما لو أنها عملية لتجميل الأنف أو الثديين.

إلا أن عملية بضع الفص غير ناجحة؛ وحياة إليوت قد صارت خرابًا!

الحقيقة هي أننا في حاجة إلى ما يتجاوز قوة الإرادة حتى نتمكن من

= «مرشد مساعدة ذاتية يكره نفسه». والحقيقة هي أنني أرى القسم الأكبر من هذه الصناعة هراء خالصًا، وأن الطريقة الوحيدة لتحسين حياتك تحسينًا حقيقيًا لا تكون من خلال شعورك الطيّب، بل من خلال تحسنك في التعامل مع شعورك السيئ.

التحكّم بأنفسنا. لقد اتضح أن عواطفنا وانفعالاتنا أمر ذو أهمية كبرى في اتخاذ القرار وفي الإقدام على الفعل. لكننا لا ندرك هذا الأمر دائمًا.

إن لك دماغان وهما ليسا على وفاق في ما بينهما

فلنتظاهر بأن دماغك سيّارة. ولنعط هذه السيارة اسمًا هو «سيارة الوعي». تسير سيارة الوعي في طريق الحياة. وفي هذا الطريق تقاطعات، ومداخل، ومخارج. تمثّل هذه الطرق والتقاطعات القرارات التي يتعيّن عليك اتخاذها أثناء القيادة؛ وهي التي ستحدّد مصيرك.

والآن، هناك شخصان في سيارة الوعي هذه: الدماغ المفكّر، والدماغ الذي يشعر[1]. يمثل الدماغ المفكر أفكارك الواعية وقدرتك على إجراء الحسابات وقدرتك على الموازنة المنطقية بين خيارات متعدّدة والتعبير عن الأفكار من خلال اللغة. ويمثل الدماغ الذي يشعر دوافعك وحدسك وغرائزك. في حين يكون دماغك المفكر منهمكًا في حساب المدفوعات في سجل بطاقتك الائتمانية، يكون دماغك الذي يشعر راغبًا في بيع كل شيء والفرار إلى تاهيتي.

---

(1) منذ الأزل، يقسم كبار المفكرين العقل البشري إلى قسمين، أو إلى ثلاثة أقسام. وأما «الدماغان» اللذان أرسمهما هنا فهما خلاصة مفاهيم أولئك القدامى. قال أفلاطون إن للنفس ثلاثة أجزاء. العقل (الدماغ المفكّر)، والشهوات، والروح (الدماغ الذي يشعر). وقال هيوم إن التجارب والخبرات كلها إما أن تكون (انطباعات) أو أفكار (الدماغ المفكّر). وأما عند فرويد، فهناك الإيغو (الدماغ المفكّر) والإيد (الدماغ الذي يشعر). وفي الآونة الأخيرة، طرح دانيل كاهنيمان وآموس تفيرسكي نظامين اثنين: النظام الأول (الدماغ الذي يشعر)، والنظام الثاني (الدماغ الذي يفكّر). أو كما يدعوهما كاهنيمان في كتابه: «*التفكير: سريع وبطيء*». (نيويورك: فرار، شتراوس وغيرو، 2011)، أي الدماغ «السريع» والدماغ «البطيء».

إن لكل واحد من دماغيك نقاط قوةٍ ونقاط ضعفٍ. فالدماغ المفكّر دماغ دقيق غير متحيّز، وهو صاحب ضمير أيضًا. إنه دماغ منهجي عقلاني، لكنه بطيء أيضًا. إنه في حاجة إلى طاقة كبيرة وإلى جهد كبير؛ كما أنه في حاجة إلى التكوين والبناء على مر الزمن (مثل العضلات)، ويمكن أن يصاب بحالات من الإرهاق وفرط الإجهاد[1]. لكن الدّماغ الذي يشعر يصل إلى استنتاجاته بسرعة ومن غير جهد. إلا أن مشكلته هي أنه غالبًا ما يكون غير دقيقٍ وغير عقلانيٍّ. ثم إن الدماغ الذي يشعر مولع بالدراما، ولديه عادة سيئة ألا وهي عادة المبالغة في ردود الأفعال.

عندما نفكّر في أنفسنا وفي الطريقة التي نتخذ بها قراراتنا، فإننا نفترض عادة أن الدماغ المفكّر هو الذي يقود سيارة الوعي، وأن الدماغ الذي يشعر يكون جالسًا إلى جانبه وهو يصيح ويخبر السائق بالوجهة التي يريد الذهاب إليها. نمضي في قيادة السيارة، وننجز أهدافنا ونبدأ طريق العودة إلى البيت، عندها يرى الدماغ الذي يشعر شيئًا لامعًا أو مغريًا أو مفرحًا فيمدّ يده ويدير عجلة القيادة في اتجاهه فيجعل السيارة تندفع في مواجهة سيارات قادمة، ويوقع الأذى بسيارات الوعي الخاصّة بأشخاص آخرين، وأيضًا بسيارة الوعي الذي هو جالس فيها.

هذا هو الافتراض الكلاسيكي، أي الاعتقاد بأن عقلنا المنطقي يمارس التحكّم النهائي بحياتنا، وأن علينا تدريب مشاعرنا وانفعالاتنا بحيث تظل جالسة مطبقة فمها بينما يتولّى الدماغ المفكّر القيادة. ونحن

---

(1) إن نظرية قوة الإرادة المعروفة باسم «قوة الإرادة باعتبارها عضلة» معروفة أيضًا باسم «استنفاد الإيغو»، موضع إقبال شديد الآن في العالم الأكاديمي. لقد فشل عدد من الدراسات الكبرى في الحلول محل «استنفاد الإيغو». وقد توصّل بعض «التحليلات البَعدية» إلى نتائج مهمة فيما يخص هذه النظرية، في حين لم يتوصّل بعضها الآخر إلى نتائج. والظاهر أن الأمر لا يزال معلّقًا في الآونة الراهنة.

نهلّل لهذا الاختطاف ولهذا الظلم الواقعين على مشاعرنا ونهنئ أنفسنا على نجاحنا في التحكّم في أنفسنا.

لكن سيارتنا، سيارة الوعي، لا تعمل بهذه الطريقة! عندما أزيل الورم من رأس إليوت، فقد أُلقي بدماغه الذي يشعر من نافذة سيارة وعيه، ولم يعد لديه من يقوم بمهمّته. الحقيقة هي أن سيارة وعيه قد توقفت. ما يتعرّض له الأشخاص الذين يجرون هذه العملية هو أن أدمغتهم التي تشعر تصير مقيَّدة ومرمية في صندوق الأمتعة في السيارة، فيجعلهم هذا مخدَّرين، كسالى، غير قادرين - معظم الوقت - على النهوض من السرير، ولا حتى على ارتداء ملابسهم.

وأما توم ويتس فكان، في معظمه، «دماغًا يشعر» طيلة الوقت. وكان يتلقى مالًا كثيرًا مقابل ظهوره ثملًا في البرامج التلفزيونية. إذًا... هذا هو الأمر!

هذه هي الحقيقة: إن الدماغ الذي يشعر هو من يقود سيارة الوعي. لا يهمني كم تظن نفسك شخصًا من أهل العلم؛ ولا يهمّني عدد الألقاب التي تضعها إلى جانب اسمك... فأنت تظلّ واحدًا منا، يا صاحبي. أنت روبوت مصنوع من اللحم يقوده «دماغ يشعر» مجنون تمامًا مثل الدماغ الذي يشعر عند أي واحد منا، فاحتفظ بأفكارك لنفسك، من فضلك!

يقود الدماغ الذي يشعر سيارة الوعي لأننا، في نهاية المطاف، نتحرّك في اتجاه الفعل نتيجة مشاعرنا وانفعالاتنا فحسب. فالفعل مصنوع من مشاعر[1]. إن مشاعرنا وانفعالاتنا هي النظام «الهيدروليكي» البيولوجي الذي يدفع أجسامنا إلى الحركة. ليس الخوف بشيء سحري يخترعه عقلك. لا... إنه شيء يحدث في أجسامنا. إنه تقلّص المعدة، وتوتر

(1) داماسيو: «*غلطة ديكارت*»، ص: 128 - 130.

العضلات، وإطلاق هرمون الأدرينالين، والرغبة الجارفة في أن يكون جسدك غير مقيَّدٍ بشيء. وأما الدماغ المفكّر فهو موجود، حصرًا، ضمن التشابكات العصبيّة في جمجمتك؛ في حين أن الدماغ الذي يشعر هو كل ما في جسدك من حكمة ومن حماقة. يدفع الغضب بجسدك إلى الحركة. ويشدّه القلق إلى الانزواء والتراجع. تضيء الفرحة عضلات الوجه، في حين يحاول الحزن حجب وجودك عن الأنظار. المشاعر والانفعالات هي ما يدعوك إلى الفعل، كما أن الفعل يثير فيك مشاعر وانفعالات أيضًا. لا سبيل إلى الفصل بين الاثنين.

يقودنا هذا إلى إجابة بسيطة شديدة الوضوح عن السؤال الأزلي: لماذا لا نفعل أشياء نعرف أن علينا فعلها؟

الأمر واضح: لأننا لا نحبّ أن نفعلها!

ليست أية مشكلة من مشكلات التحكّم في النفس مشكلة معلومات أو انضباط أو منطق، بل هي مشكلة مشاعر وانفعالات. التحكّم في النفس مشكلة انفعالية. والكسل مشكلة انفعالية. والتسويف مشكلة انفعالية. وانخفاض الأداء مشكلة انفعالية. والتهوّر مشكلة انفعالية.

وهذا أمر سيّئ! هذا سيّئ لأن التعامل مع المشكلات الانفعالية أصعب كثيرًا من التعامل مع المشكلات المنطقية. هناك معادلات تساعدك في حساب دفعاتك المالية الشهرية. لكن، لا وجود لمعادلات تساعدك في إنهاء علاقة عاطفية فاشلة. وكما أظنك صرت تدرك الآن، فإن الفهم العقلي لكيفية تغيير سلوكك لا يؤدّي في حدِّ ذاته إلى تغيير ذلك السلوك. (صدقني، لقد قرأت نحو اثني عشر كتابًا عن التغذية، لكنني لا أزال أقضم المقرمشات اللذيذة وأنا أكتب هذه الكلمات). نعرف أن علينا الكف عن تدخين السجائر، أو الكف عن تناول السكر، أو الكف عن ذكر أصدقائنا بالسوء من خلف ظهورهم؛ لكننا نواصل فعل ذلك كلِّه. لا نواصل فعل ذلك لأننا لا ندرك أنه سيّئ، بل لأنه يعجبنا!

المشكلات الانفعالية مشكلات غير عقلانية، بمعنى أنها غير قابلة للمناقشة المنطقية. هذا ما يصل بنا إلى أخبار أسوأ مما تقدّم: ليس للمشكلات الانفعالية إلا حلول انفعالية. والأمر كله متعلّق بالدماغ الذي يشعر. إذا كنت قد رأيت كيف تكون قيادة الدماغ الذي يشعر عند معظم الناس، فأنت تعرف أنها شيء مخيف فعلًا!

في هذه الأثناء، وبينما يحدث هذا كله، يكون الدماغ المفكِّر جالسًا إلى جانب السائق متخيّلًا أنه مسيطر على الوضع تمامًا. إذا كان الدماغ الذي يشعر هو سائقنا، فإن الدماغ المفكِّر هو الملّاح الذي يتولّى تحديد الاتجاه. إن لديه أكداسًا من خرائط الواقع التي استنتجها وراكمها خلال الحياة. يعرف هذا العقل كيف يعود أدراجه وكيف يبحث عن طرق بديلة للوصول إلى الهدف نفسه. وهو يعرف مواضع المنعطفات الخطيرة، وأين يجد طرقات مختصرة. إنه يرى - محقًّا - أنه الدماغ العقلاني الذكي؛ ويؤمن بأن هذا يعطيه أفضلية لقيادة سيارة الوعي والتحكُّم بمسارها. لكن هذا لا يحدث، للأسف! وكما عبر دانييل كاهنيمان عن هذا الأمر ذات مرة، فإن الدماغ المفكر هو «الشخصية الثانوية التي تتخيل أنها بطل المسرحية»[1].

وحتى في الأحيان التي لا يطيق فيها أحد الدماغين الآخر، فإن كل واحد منهما غير قادر على الاستغناء عن رفيقه. يقوم الدماغ الذي يشعر بتوليد المشاعر والانفعالات التي تحدّد الهدف، ويقترح الدماغ المفكِّر وجهة ذلك الفعل. الكلمة المفتاح هنا هي «يقترح». في حين لا يستطيع الدماغ المفكِّر أن يتحكَّم بالدماغ الذي يشعر فإنه يظلّ قادرًا على التأثير عليه؛ ويكون هذا التأثير كبيرًا بعض الأحيان. يستطيع الدماغ

---

(1) كاهنيمان: «التفكير: سريع وبطيء»، ص: 31.

المفكّر إقناع الدماغ الذي يشعر بسلوك طريق جديد إلى مستقبل أفضل، وبالاستدارة والعودة حيث يرتكب غلطة، أو بإعادة النظر والتفكير في طرق جديدة أو مناطق جديدة كان يتجاهلها قبل ذلك. إلا أن الدماغ الذي يشعر عنيد؛ وإذا أراد مواصلة المضي في اتجاه ما، فسوف يتابع القيادة في ذلك الاتجاه مهما يكن حجم المعلومات والبيانات التي يقدّمها الدماغ المفكّر. يشبّه اختصاصي علم النفس الأخلاقي جوناثان هيدت هذين الدماغين بفيلٍ وراكبه الذي يقوده: يستطيع من يقود الفيل أن يوجهه برفق وأن يدفعه إلى السير في وجهة بعينها؛ لكن الفيل سيسير - في نهاية المطاف - في الوجهة التي يحبّ السير فيها[1].

سيارة المهرّجين

إن للدماغ الذي يشعر، مهما تكن عظمته، جانبًا مظلمًا. ففي سيارة الوعي، يكون الدماغ الذي يشعر أشبه بشاب مزعج كثير الشتائم مسافر مع صديقته. إنه يرفض التوقّف لكي يسأل أحدًا عن الاتجاهات... يكره أن يقول له أحد أين يذهب، وسوف يجعل حياة صديقته بائسة إذا أبدت أية ملاحظات في ما يتعلّق بقيادته السيارة.

بغية تجنّب هذه المشكلات النفسية، وبغية المحافظة على الأمل، ينشأ لدى الدماغ المفكّر مَيْل إلى رسم خرائط قادرة على إيجاد المبرّرات اللازمة لاتخاذ الوجهة التي قرّر الدماغ الذي يشعر اتخاذها. إذا كان الدماغ الذي يشعر راغبًا في تناول الآيس كريم، فإن الدماغ المفكّر يمتنع عن مخالفته وتذكيره بمساوئ السكّر المعالَج والحريرات

---

(1) جوناثان هيدت: «*فرضية السعادة: العثور على الحقيقة الحديثة في الحكمة القديمة*»، (نيويورك، بنغوين بوكس، 2006)، ص: 2 - 5. يقول هيدت إنه استعار تشبيه الفيل من بوذا.

الزائدة. وبالتالي، فهو يقول له: «هل تعرف؟... لقد تعبت اليوم كثيرًا. أستحق تناول الآيس كريم»، فيستجيب الدماغ الذي يشعر لهذا الكلام بأن يصير راضيًا متساهلًا. إذا قرر دماغك الذي يشعر أن صديقتك سيئة وأنك لم تفعل شيئًا خاطئًا، فإن ردة الفعل المباشرة لدماغك المفكِّر ستكون محاولةَ تذكّر الحالات التي كنت فيها شديد الصبر والتواضع في حين كانت صديقتك تنسج المكائد وتثير المشكلات من أجل تخريب حياتك.

على هذا النحو، تنشأ بين الدماغين علاقة غير صحية أبدًا، يمكن أن تشبه ما لعله كان يجري بين أمك وأبيك في سفرة بالسيارة عندما كنت صغيرًا. يصنع الدماغ المفكِّر كلامًا فارغًا يعرف أن الدماغ الذي يشعر راغب في سماعه. وبدوره، يعدّه الدماغ الذي يشعر بألّا يسيء قيادة السيارة من جديد، وبألّا يسبّب الأذى لأحدٍ.

يصعب تصديق سهولة سماح دماغك المفكّر لنفسه بالسقوط في الفخ الذي هو تقديم الخرائط التي يرغب الدماغ الذي يشعر في اتباعها. هذا ما يدعى «الانحياز للذات»[1]. إنه أساس قدر لا يستهان به أبدًا من كل ما هو سيّئ لدى البشر.

عادة ما يجعلك انحيازك لذاتك متمسّكًا بأفكارك المسبقة بعض الشيء، ومتمركزًا حول نفسك إلى حدٍّ ما. فأنت تفترض أن ما تحسّه صحيحًا هو أمر صحيح. وأنت تطلق أحكامًا سريعة على الناس والجماعات والأفكار، لكنَّ كثيرًا من تلك الأحكام يكون غير منصف، بل حتى إنه يحمل قدرًا من التعصب بعض الأحيان.

---

(1) الانحياز للذات: هو أية عملية معرفية أو إدراكية مشوَّهة بفعل الحاجة إلى تعزيز تقدير الذات والمحافظة عليه؛ أو هي نزوع الشخص إلى النظر إلى نفسه بنوع من المحاباة الزائدة.

وأما في حالته القصوى، فإن من الممكن أن يصير الانحياز للذات وهمًا خالصًا فيجعلك مؤمنًا بواقع لا وجود حقيقيًا له، ويشوّش ذكرياتك، ويضخّم بعض الحقائق... وهذا كلّه من أجل إرضاء متطلّبات لا نهاية لها عند الدماغ الذي يشعر. إذا كان الدماغ المفكّر ضعيفًا و/ أو قليل الحظ من التعليم والثقافة، أو إذا كان الدماغ الذي يشعر في حالة غضب وإثارة شديدين، فإن الدماغ المفكّر يخضع للنزوات النارية لدى الدماغ الذي يشعر ولقيادته المتهوّرة الخطيرة. إنه يفقد القدرة على التفكير المستقلّ أو على مخالفة ما يتوصل إليه الدماغ الذي يشعر.

هذا ما يحوّل سيارة الوعي إلى سيارة مهرجين لها عجلات حمراء كبيرة تنطنط على الطريق بينما تصدح موسيقى السيرك من مكبر الصوت أينما ذهبت تلك السيارة[1]. تصير سيارة وعيك سيارة مهرّجين عندما يستسلم دماغك المفكّر لدماغك الذي يشعر استسلامًا تامًا. أي عندما تتقرّر مقاصدك في الحياة بفعل الحاجة إلى إرضاء النفس من دون أي شيء آخر، فتتحوّل الحقائق إلى صورٍ هزليةٍ لجملة من الافتراضات المتّجهة إلى خدمة الذات، وتضيع المعتقدات والمبادئ كلّها في بحر من العدميّة.

---

(1) في واقع الأمر، يكون هذا التشبيه السخيف بسيارة المهرجين ناجحًا في وصف كيف تتشكّل العلاقات السامة بين الأشخاص النرجسيين الأنانيين. فكل من يكون غنيًا من الناحية النفسية، وكل من لا يكون عقله سيارة مهرجين، يستطيع أن يسمع صوت سيارة المهرجين قادمة من مسافة ميل، وأن يتجنّب الاحتكاك بها إلى أقصى حد ممكن. وأما إذا كنت أنت نفسك سيارة مهرجين، فإن موسيقى السيرك المنبعثة منك ستكون قادرة على منعك من سماع الصوت نفسه القادم إليك من سيارات مهرجين أخرى. سوف يبدو لك طبيعيًا شكل تلك السيارات وصوتها، وسوف تخالطها ظانًّا أن سيارات الوعي المعافاة مملّة كلّها، وأنها لا تثير لديك أي اهتمام. وهكذا فإنك تبدأ علاقة سامة بعد علاقة سامة، وهكذا دواليك.

تسير سيارة المهرجين، لا محالة، صوب الإدمان والنرجسية والاندفاعات التي لا يستطيع صاحبها مقاومتها. يسهل التلاعب بالناس الذين تكون عقولهم سيارات مهرجين من جانب أي شخص (أو أية مجموعة أشخاص) يعرف كيف يجعلهم مسرورين على الدوام... سواء كان ذلك الشخص سياسيًا أم زعيمًا دينيًا، أم واحدًا من مرشدي المساعدة الذاتية، أم منتدى من تلك المنتديات الخبيثة على الإنترنت. تكون سيارة المهرجين سعيدة باجتذاب سيارات الوعي الأخرى (أي الأشخاص الآخرين) بعجلاتها الكبيرة الحمراء، وذلك لأن دماغها المفكّر سوف يبرّر هذا بالقول إنهم يستحقّون ذلك: إنهم أشرار، أو أقل شأنًا، أو جزء من مشكلة مصطنعة.

يتّجه قسم من سيارات المهرجين في اتجاه المتعة والمرح... إنه الاهتمام بالشرب والجنس والحفلات. لكن هناك قسمًا آخر يتّجه إلى أشكال مختلفة من ممارسة السلطة. هذا هو القسم الأكثر خطورة. سيارات مهرجين تنكَبُّ فيها الأدمغة المفكِّرة على العمل من أجل تبرير الإساءة إلى الآخرين وإخضاعهم من خلال نظريات ذات مظهر عميق، نظريات في الاقتصاد والسياسة والأعراق والجنس والجينات والبيولوجيا والتاريخ، وهلم جرًّا. ومن الممكن أيضًا أن تتّخذ سيارة المهرجين وجهة الكراهية، لأن الكراهية توفّر لأصحابها نوعًا غريبًا من الرضا والاطمئنان. تكون العقول التي من هذا النوع ميّالة إلى الغضب الراضي عن نفسه لأن وجود هدف خارجي لديها يطمئنها إلى تفوّقها الأخلاقي. ولا مفر من أن تنطلق تلك السيارات صوب تدمير الآخرين لأن دوافعها الداخلية التي لا نهاية لها لا تعرف الرضا والإشباع إلا من خلال إخضاع العالم الخارجي وتدميره.

من الصعب إخراج شخص ما من سيارة المهرجين بعد أن يصير

جالسًا فيها. ففي سيارة المهرجين، يكون الدماغ المفكّر قد اعتاد الإساءة والتنمر من جانب الدماغ الذي يشعر، وذلك على امتداد فترة طويلة، فينشأ عنده نوع من أنواع متلازمة استوكهولم، ويصير غير قادر على تخيّل أي شيء في الحياة غير إرضاء الدماغ الذي يشعر والعمل على تقديم المبررات إليه. يكون الدماغ المفكّر عاجزًا عن سبر تناقضات الدماغ الذي يشعر، ولا يستطيع معارضة الوجهة التي يتّخذها؛ ثم إنه يكره من يشيرُ عليه بوجوب فعل ذلك. ففي وجود سيارة المهرجين، لا يوجد تفكيرٌ مستقلٌ ولا قدرة على قياس التناقضات أو على تغيير الآراء أو المعتقدات. وبمعنى من المعاني، فإن الشخص الذي يكون عقله سيارة مهرّجين يصير من غير هوية مستقلّة على الإطلاق.

هذا هو السبب الذي يجعل القادة ذوي الأطوار الغريبة يبدأون دائمًا بتشجيع الناس على إسكات أدمغتهم المفكّرة إلى أقصى حدٍّ ممكنٍ. في البداية، يبدو هذا الأمر للناس جيّدًا لأن الدماغ المفكّر غالبًا ما يعاني ويبذل الجهد حتى يصحح مسار الدماغ الذي يشعر، ويجعله يرى أين خطا خطوة خاطئة. وهكذا، فإن إسكات الدماغ المفكّر يمنح المرء إحساسًا طيبًا جدًا لفترة قصيرة من الزمن. لكن الحقيقة المحزنة هي أن الناس يخطئون دائمًا في التمييز بين ما يمنحهم إحساسًا جيدًا وبين ما هو جيّد.

إن سيارة المهرّجين المجازيّة تلك هي ما دعا الفلاسفة القدامى إلى التحذير من فرط الانغماس في المشاعر ومن فرط تقديرها[1]. لقد كان الخوف من سيارة المهرجين هو ما دعا الإغريق والرومان إلى تعليم

---

(1) يرى بعض الباحثين أن أفلاطون كتب *«الجمهورية»* ردًا على الاضطرابات السياسية والعنف السياسي اللذين قد انفجرا في أثينا قبل ذلك. انظر *«جمهورية أفلاطون»*، ترجمة آلان بلوم (نيويورك: بيسك بوكس، 1968)، ص: 11.

الفضائل؛ وهو ما جعل الكنيسة المسيحية توصي بالتقشّف وإنكار الذات[1]. لقد رأى كل من الكنيسة والفلاسفة الكلاسيكيون الخراب الذي سبّبه أشخاص نرجسيون أو مصابون بجنون العظمة بعد أن صاروا في السلطة. وكان الفلاسفة والكنيسة معًا مقتنعين بأن ما من سبيل إلى ضبط الدماغ الذي يشعر إلا بحرمانه وبإعطائه أقل قدرٍ ممكنٍ من «الأوكسجين» بحيث يظلّ غير قادر على الانفجار وتخريب العالم من حوله. هذا التفكير هو ما أدّى إلى ظهور الافتراض الكلاسيكي: السبيل الوحيد إلى أن يكون الإنسان شخصًا جيدًا هو أن يهيمن دماغه الذي يفكّر على دماغه الذي يشعر، أي أنه تفوّق العقل على المشاعر، وتفوق الواجب على الرغبة.

على امتداد الشطر الأعظم من تاريخ البشرية، كان الناس قساة، مؤمنين بالخرافات، وجاهلين أيضًا. كانوا في العصور الوسطى يعذّبون القطط كنوع من التسلية، ويأخذون أطفالهم لرؤية اللصوص يعاقبون بالخصي في ساحة البلدة[2]. كان الناس ساديين، وكانوا يتصرّفون من غير تفكير. وعلى امتداد القسم الأكبر من التاريخ، لم يكن العالم مكانًا

---

(1) استعارت المسيحية من أفلاطون قسمًا كبيرًا من فلسفتها الأخلاقية، كما اهتمت بالمحافظة على أعماله مثلما فعلت بكثير من أعمال الفلاسفة القدامى. يقول ستيفن غرينبلات في كتابه: «*الانعطاف: كيف صار العالم حديثًا*» (نيويورك: و. و. نورتون وشركاه، 2012)، إن المسيحيين الأوائل كانوا متمسكين بأفكار أفلاطون وأرسطو لأن هذين الفيلسوفين كانا مؤمنين بالروح المنفصلة عن الجسد. لقد كانت فكرة الانفصال بين الروح والجسد موجودة في المسيحية، لكن في الحياة الأخرى. وهي أيضًا الفكرة التي أنتجت الافتراض التقليدي.

(2) بينكر: «The Better Angels Of Our Nature»، ص: 4 – 18. وأما فكرة خِصاء شخص ما، فهي زخرفة من عندي... بالطبع.

يطيب العيش فيه لأن الدماغ الذي يشعر كان مسيطرًا لدى الجميع[1]. وغالبًا ما كان الافتراض الكلاسيكي هو الشيء الوحيد الذي يستطيع الحيلولة دون وقوع المدنية في حالة فوضى شاملة.

ثم حدث شيء جديد في القرنين الأخيرين. صنع الناس قطارات وسيارات، واخترعوا التدفئة المركزية وأشياء كثيرة. تجاوز الرخاء الاقتصادي الدافع البشري إلى التهوّر والجنون. لم يعد لدى الناس قلق من أن يعجزوا عن الحصول على الطعام أو من أن يُقتلوا لأنهم أهانوا الملك. صارت الحياة أكثر راحة وأكثر سهولة. وصار لدى الناس الآن قدر كبير من الوقت الحر لكي يجلسوا ويفكروا ويقلقوا بشأن أمور وجودية لم يفكروا فيها من قبل. نتيجة هذا، ظهرت حركات كثيرة في القرن العشرين تُعلي من شأن الدماغ الذي يشعر[2]. والواقع أن تحرير الدماغ الذي يشعر من اضطهاد الدماغ المفكّر كان سبيلًا ناجحًا جدًّا لمعالجة ملايين الأشخاص (وهو لا يزال هكذا إلى الآن).

المشكلة هي أن الناس قد ذهبوا في هذا الاتجاه إلى أبعد مما ينبغي لهم الذهاب. فقد انتقلوا من الاعتراف بمشاعرهم وتقديرها حقّ قدرها إلى حالة متطرّفة من الاعتقاد بأن مشاعرهم هي الشيء الوحيد الذي له أهمّية. يصحّ هذا خاصّة على المترفين من أبناء الطبقة الوسطى البيضاء الذين نشأوا على الافتراض الكلاسيكي، ثم صاروا يشعرون بالبؤس، ثم التقوا بأدمغتهم التي تشعر في سن متأخّرة بعض الشيء. بما أن أولئك الناس لم يواجهوا أية مشكلات حقيقية في حياتهم باستثناء إحساسهم

(1) المصدر السابق، ص 482 - 488.

(2) كان الشعار كثير التكرار الذي رفعه وودستوك وقسم كبير من حركة الحب الحر في الستينات «إن كان هذا يمنحك شعورًا طيبًا، فافعله». إن هذا التوجّه أساسي لدى كثير من حركات العصر الجديد والحركات المضادة للثقافة في أيامنا هذه.

الذاتي بالبؤس، فإنهم يتوصّلون إلى قناعة خاطئة مفادها أن المشاعر هي كلّ ما له أهمية وأن الخطط والخرائط التي يضعها الدماغ المفكّر ليست إلا ابتعادًا خاطئًا عن تلك المشاعر. يشير كثيرون من أولئك الناس إلى هذا «الإسكات» لصوت الدماغ المفكّر في صالح الدماغ الذي يشعر باسم «التطوّر الروحي»، ويقنعون أنفسهم بأن تحوّلهم إلى أشخاص بغيضين منشغلين بأنفسهم يجعلهم أقرب إلى الاستنارة[1]، في حين أنهم لا يفعلون في حقيقة الأمر شيئًا أكثر من إبداء تساهل مفرط إزاء الدماغ الذي يشعر. إنها سيارة المهرّجين القديمة نفسها، لكن بعد طلائها بلون جديد يمنحها مظهرًا «روحانيًا»[2].

يؤدّي فرط التساهل مع المشاعر والانفعالات إلى أزمة الأمل، لكن هذا ما يفعله أيضًا كبت تلك المشاعر والانفعالات[3].

عندما ينكر الإنسان دماغه الذي يشعر، فإنه يخدّر نفسه تجاه العالم الذي من حوله. ومن خلال رفضه مشاعره وانفعالاته، فهو يرفض أن تكون

---

(1) يصوّر برنامج نتفلكس الوثائقي *«بلاد جامحة، جامحة»* (2018)، مثالاً ممتازًا على هذا التساهل مع النفس باسم الروحانية؛ وهو يتحدّث عن المعلم الروحاني باغوان شير راجنيش (يدعونه أوشو)، وعن أتباعه.

(2) إن أفضل تحليل رأيته لهذا الميل لدى الحركات الروحانية في القرن العشرين، أي الميل إلى الخلط بين إقدام المرء على الانغماس في مشاعره وبين يقظة روحية عليا، هو التحليل الذي قدمه الكاتب اللامع كين ويلبر. لقد دعا هذا باسم «مغالطة قبل/ خلال»، وقال إن العواطف والانفعالات هي «قبل - عقلانية»، بينما تكون اليقظة الروحية «بعد - عقلانية»، فيخلط الناس بين الأولى والثانية لأنهما غير عقلانيتين، كلاهما. انظر كين ويلبر: *«وجهًا لوجه: بحثًا عن نموذج جديد»* (بوسطن، ماساشوستس: مؤسسة شامبالا، 1983)، ص: 180 - 221.

(3) آ. آلدو، س. نولين هوكسيما، س. شويزر: «استراتيجيات تنظيم المشاعر في علم النفس المرضي: مراجعة شبه تحليلية»، *مجلة علم النفس السريري* 30 (2010): 217 - 237.

لديه أحكام القيمة التي بواسطتها يقرّر أن شيئًا من الأشياء أفضل من شيء آخر. نتيجة هذا، يصير ذلك الإنسان غير مبالٍ بالحياة ولا بنتائج قراراته، ويصير مضطرًا إلى بذل جهود كبيرة حتى يستطيع مخالطة الآخرين، فتتدهور علاقاته. وفي آخر المطاف، تأخذه لا مبالاته المزمنة في زيارة مزعجة إلى الحقيقة غير المريحة. فبعد كل حساب، إذا لم يكن هناك شيء أكثر أهميّة، أو أقل أهمية، فما من سبب يدعو إلى فعل أي شيء، وإذا لم يكن هناك سبب يدعو إلى فعل أي شيء، فلماذا يعيش المرء أصلًا؟

إلّا أن من ينكر دماغه المفكّر يصير شخصًا أنانيًا طائشًا ينكر الواقع حتى يستطيع أن يعمل وفق نزواته وأهوائه التي تصير عصية على الإشباع. أزمة الأمل لديه هي أنه مهما أكل أو شرب أو تسلط أو مارس الجنس فإنه لا يشعر بأي اكتفاء... ولن يكون لذلك كله دلالة أو أهمية كافية عنده. وسوف تطحنه دائمًا رحى القنوط فيجري باستمرار من غير أن يتحرّك من مكانه أبدًا. وإذا توقّف في لحظة ما، فإن الحقيقة غير المريحة تطبق فكّيها عليه من فورها.

أعرف أنني أطرح الأمر على نحو درامي. لكن عليَّ أن أفعل هذا، أيها الدماغ المفكّر، وإلا فإن الملل سيصيب الدماغ الذي يشعر فيكفّ عن قراءة هذا الكتاب. هل فكّرت يومًا في السبب الذي يجعل المرء يستمر في قراءة كتاب من الكتب؟ لست أنت من يستمر في قراءة الكتاب، أيها الأحمق... إنه دماغك الذي يشعر. إنه الترقّب والتشويق... متعة الاكتشاف والرضا عند الوصول إلى نتيجة. الكتابة الجيدة هي الكتابة التي تستطيع مخاطبة كل من الدماغين وتحريضه في وقت واحد.

هذه هي المشكلة كلها: مخاطبة كل من الدماغين وجعل دماغينا يجتمعان في كلّ موحّدٍ منسقٍ متعاونٍ. فإذا كان التحكّم بالنفس وهمًا من أوهام الإعجاب المتضخّم بالنفس لدى الدماغ المفكّر، فإن قبولنا

لأنفسنا كما هي سيكون قادرًا على إنقاذنا: قبولنا لمشاعرنا وانفعالاتنا والعمل معها بدلًا من العمل ضدها. لكن، لا بد لنا من بذل بعض الجهد حتى نطوّر لدينا قبول الذات، أي لا بد لنا من تدريب الدماغ المفكّر. سوف نتحدّث عن هذا الأمر في وقت لاحق.

رسالة مفتوحة إلى دماغك المفكّر

مرحبًا أيها الدماغ المفكّر.

كيف حالك؟ وكيف العائلة؟ وكيف هي أحوالك المالية؟

أوه، انتظر. لا تهتمّ. أووف... لقد نسيت... إنني لا أهتمّ أبدًا.

انظر، أعرف أن الدماغ الذي يشعر يفسد عليك بعض الأمور. لعلّه يفسد علاقة عاطفية مهمّة. لعله يجعلك تجري مكالمات هاتفية محرجة في الساعة الثالثة صباحًا. لعله يحاول معالجة نفسه عن طريق تعاطي موادَّ لا يجدر به تعاطيها. أعرف أن هناك شيئًا تريد أن تكون قادرًا على ضبطه والتحكم فيه، لكنك لا تستطيع. وأظن أن هذه المشكلة تجعلك تفقد الأمل أحيانًا.

لكن، اصغ إليَّ أيها الدماغ المفكّر؛ فتلك الأشياء التي تكرهها كثيرًا في الدماغ الذي يشعر... الاندفاعات المتهوِّرة، والرغبات المفرطة، والطريقة المرعبة في اتخاذ القرارات!... عليك أن تجد سبيلًا إلى تفهمها كلّها والتعاطف معها. أقول هذا لأن تلك هي اللغة الوحيدة التي يستطيع الدماغ الذي يشعر فهمها: لغة التفهم والتعاطف! فالدماغ الذي يشعر مخلوق حساس؛ ولا تنس أنه مصنوع من مشاعرك. ليت هذا لم يكن صحيحًا، وليتك كنت قادرًا على جعل الدماغ الذي يشعر ينظر إلى ورقة تحتوي الحقائق كلها فيفهم!... يفهم مثلما نفهم نحن. لكنك غير قادر على هذا.

بدلًا من إمطار الدماغ الذي يشعر بالحقائق وبالمنطق، ابدأ بأن تسأله عن شعوره. قل له شيئًا من قبيل «مرحبًا، أيها الدماغ الذي يشعر! ما هو شعورك تجاه الذهاب إلى الصالة الرياضية اليوم؟». أو «كيف تشعر تجاه الانتقال إلى عمل جديد؟». أو «كيف تشعر تجاه بيع كل شيء والانتقال للعيش في تاهيتي؟».

لن يستجيب الدماغ الذي يشعر بكلمات يقولها. لا، فالكلمات وسيلة بطيئة بالنسبة إلى ذلك الدماغ الذي يشعر. بدلًا من ذلك، يستجيب من خلال المشاعر. صحيح... أعرف أن هذا أمر واضح جدًا؛ لكنك تكون في غاية الغباء أحيانًا، أيها الدماغ المفكّر!

قد يستجيب الدماغ الذي يشعر من خلال إحساسٍ بالكسل، أو من خلال إحساسٍ بالقلق. بل يمكن أيضًا أن تظهر مشاعر متعدّدة... قليل من الإثارة مع لمسة من الغضب ضمن هذا المزيج. مهما تكن استجابته، فإن عليك - أيها الدماغ المفكّر (أيها الدماغ العاقل المسؤول في هذه الجمجمة) - أن تتحاشى إطلاق أي حكم على المشاعر التي تظهر. هل تشعر بالكسل؟ لا بأس بهذا؛ إننا نشعر بالكسل أحيانًا. هل تشعر بأنك تكره نفسك؟ لعل هذه دعوة إلى مزيد من الكلام بيننا. تستطيع الصالة الرياضية أن تنتظر!

من المهم أن نترك الدماغ الذي يشعر ينفّس عن مشاعره السيئة المزعجة. وما عليك إلا أن تأخذ تلك المشاعر إلى حيث تصير قادرة على التنفس، فكلما تنفسَتْ أكثر، كلما تراخت قبضتها على عجلة القيادة في سيارة الوعي[1].

---

(1) أولغا م. سلافين - سبين، جاي ل. كوهن، ليندسي م. أوبرلتنر، مارك آ. لوملي: «آثار الطرائق المختلفة في الكشف العاطفي/ الانفعالي: اختلاف النمو بعد الصدمة عن أعراض الشدة النفسية»، مجلة *علم النفس السريري* 67، العدد 10 (2011): 993 - 1007.

بعد ذلك، وعندما تشعر بأنك قد بلغت نقطة التفاهم مع دماغك الذي يشعر، يكون وقت مخاطبته بطريقة يفهمها قد حان: مخاطبته من خلال المشاعر. لعل من الممكن أن تفكر في المنافع التي تنتج عن سلوك جديد مرغوب فيه. وقد تحكي له عن الأشياء البرّاقة، الجذابة، الممتعة التي تنتظره في آخر الطريق. ومن الممكن أيضًا أن تذكّر الدماغ الذي يشعر بالإحساس الطيّب الذي يكون لدى المرء بعد ممارسة التمرينات الرياضية، أو بالإحساس الجميل الذي سيكون لديك عندما تظهر رشيقًا في ثوب السباحة هذا الصيف، أو بمقدار ما تحسّه من احترام لنفسك عندما تحقّق الأهداف التي وضعتها نصب عينيك، أو بالسعادة التي تنالها عندما تعيش بما ينسجم مع قِيَمك وعندما يتخذك الأشخاص الذين تحبهم مثالًا لهم.

من حيث الأساس، يتعيّن عليك إجراء مساومة مع دماغك الذي يشعر مثلما تساوم بائع سجاد مغربي: يجب أن يقتنع دماغك الذي يشعر بأنه يحصل على صفقة جيدة، وإلا فلن تكون النتيجة غير صياح حانق وتلويح بالأيدي من غير التوصل إلى أيّ نتيجة. قد تقبل بأن تفعل شيئًا يحبّه دماغك الذي يشعر لقاء قبوله بأن يفعل شيئًا لا يحب فعله. تابع برنامجك المفضل على التلفزيون شرط أن تتابعه في الصالة الرياضية وأنت تتمرّن على جهاز الجري. اخرج للسهر مع أصدقائك، لكن بعد أن تكون قد سدَّدت فواتيرك لهذا الشهر[1].

اجعل البداية سهلة. وتذكّر أن الدماغ الذي يشعر شديد الحساسية، وأنه دماغ غير منطقي على الإطلاق.

---

(1) يسمّون هذا الأسلوب مبدأ بريماك، وذلك نسبة إلى عالم النفس ديفيد بريماك. وهو مستخدم من وصف استخدام السلوكيات المحبّذة كنوع من الثواب. انظر جون إ. ركولين، *قاموس النظريات، القوانين والمفاهيم في علم النفس* (ويستبورت، سينسيناتي: غرينوود برس، 1998)، ص 384.

عندما تقترح فعل شيء سهل يحقق مكتسبات لها علاقة بالمشاعر (الشعور الطيب الذي يكون لدى المرء بعد ممارسة التمرينات الرياضية، أو العمل في وظيفة تمنح إحساسًا بالأهمية، أو أن يكون المرء موضع إعجاب أطفاله واحترامهم)، فإن الدماغ الذي يشعر سيستجيب بمشاعر أخرى قد تكون إيجابية أو سلبية. إذا كانت المشاعر إيجابية، فمعنى هذا إن الدماغ الذي يشعر مستعد للمضي مسافة إضافية صغيرة في ذلك الاتجاه... لكنها مسافة صغيرة فقط! تذكّر: المشاعر لا تدوم أبدًا! هذا ما يجعل البدايات الصغيرة أمرًا مستحسنًا. يا دماغي الذي يشعر، ما عليك اليوم إلا أن تضع حذاء الرياضة. هذا كل شيء. فلنرَ ما يحدث بعد ذلك[1].

إذا كانت استجابة الدماغ الذي يشعر سلبية، فما عليك إلا أن تعترف بتلك المشاعر السلبية، ثم تعرض تسوية أخرى وتنظر كيف تكون استجابة دماغك الذي يشعر. وإذا لم تحصل على الاستجابة المطلوبة، فإن عليك أن تكرّر المحاولة وتبدأ من جديد.

لكن، ومهما يكن ما تفعله، فإياك أن تتورّط في مشاجرة مع دماغك الذي يشعر. لن يؤدّي هذا إلا إلى جعل الأمور أسوأ مما كانت. أنت لن تفوز عليه أبدًا! الدماغ الذي يشعر هو من يتولى القيادة دائمًا. ثم إن دخول معركة مع الدماغ الذي يشعر في ما يتعلّق بمشاعره السيئة لن يؤدّي إلا إلى جعل مشاعره أكثر سوءًا من ذي قبل. فلماذا تفعل هذا؟ من المفترض أن تكون أنت هو الطرف الذكي العاقل، أيها الدماغ المفكر!

سوف يتواصل هذا الحوار مع دماغك الذي يشعر، جيئة وذهابًا؛ وسوف يستمر أيامًا أو أسابيع أو شهورًا. بل من الممكن أن يستمر عدة

(1) للمزيد عن «البدء صغيرًا» من خلال تغييرات السلوك، انظر: «مبدأ افعل شيئًا ما»، في كتابي السابق *«فن اللامبالاة: لعيش حياة تخالف المألوف»* (نيويورك: هاربر ون، 2016)، ص: 158 - 163. النسخة العربية: دار التنوير.

سنين. إن هذا الحوار بين الدماغين في حاجة إلى تمرين وإلى مواظبة. لدى بعض الناس، يمكن أن يتركّز هذا التمرين على الاعتراف بالمشاعر التي تنشأ لدى الدماغ الذي يشعر. لقد تجاهل الدماغ المفكّر لدى بعض الناس وجود الدماغ الذي يشعر زمنًا طويلًا جدًّا، فصار لا بد لهم من تعلم الإصغاء إليه من جديد.

وقد تكون لدى أشخاص آخرين مشكلة معاكسة: ينبغي لهم تمرين أدمغتهم المفكّرة على الكلام، وإرغامها على اقتراح أفكار مستقلة عن مشاعر الدماغ الذي يشعر (اقتراح توجّهات جديدة). سيكون عليهم أن يسألوا أنفسهم: ألا يمكن أن يكون دماغي الذي يشعر مخطئًا في هذا الشعور؟ وبعد ذلك، عليهم التفكير في بدائل. سيكون القيام بهذا صعبًا عليهم في أول الأمر. لكن، كلما استمر هذا الحوار، كلما صار كل واحد من الدماغين أكثر استعدادًا للإصغاء إلى الآخر. سوف يبدأ الدماغ الذي يشعر بالإفصاح عن مشاعر وعواطف مختلفة؛ وسيكون على الدماغ المفكّر أن يتوصّل إلى فهم أفضل لكيفية مساعدة الدماغ الذي يشعر في السير في طريق الحياة.

هذا ما يشير إليه علم النفس باسم «التنظيم الشعوري والانفعالي»؛ وهو في جوهره تعلّم كيفية وضع حواجز وإشارات السير في اتجاه واحد على امتداد طريق الحياة بغية منع الدماغ الذي يشعر من الخروج عن الطريق والقفز في الهاوية[1]. إنه عمل شاق، لكن من الممكن القول إنه العمل الوحيد الذي يمكن أن يأتي بالثمرة المطلوبة.

---

(1) يمكن النظر إلى «الوقايات» من أجل سيارة الوعي باعتبارها تطوير عادات «إذا/فإن» صغيرة لتنفيذ ما تعتزمه، وذلك بحيث توجّه سلوكك توجيهًا غير واعٍ. انظر ف. م. غولويتزر، ف. براندستاتر: «تمثيل النوايا والسعي الفعال إلى الأهداف»، *مجلة الشخصية وعلم النفس الاجتماعي* 73 (1967): 168 - 199.

أقول لك هذا لأنك غير قادر على التحكم في مشاعرك، أيها الدماغ المفكر. التحكّم في النفس وهم. ينشأ هذا الوهم عندما يحدث أن يكون الدماغان منسجمَيْن سائرَيْن معًا في طريق واحد. إنه وهم مصمَّم لكي يمنح الناس أملًا. وعندما لا يكون الدماغ المفكّر منسجمًا مع الدماغ الذي يشعر، فإن الإنسان يحسّ بالعجز وبأن ما من أمل في العالم الذي من حوله. الطريقة الوحيدة للمحافظة على ذلك الوهم هي التواصل والانسجام المستمرَّين بين الدماغين واتفاقهما على قيم موحّدة. إنها مهارة يمكن اكتسابها، تمامًا مثلما يكتسب المرء مهارة ممارسة لعبة من الألعاب الرياضية. لكن التوصل إلى هذا يستلزم زمنًا. ستكون هناك إخفاقات في الطريق. وقد يتعرّض المرء لإصابات موجعة. لكن هذه هي تكلفة قبول كلّ من الدماغين بالآخر.

إلا أن لديك شيئًا مهمًا، أيها الدماغ المفكّر. صحيح أنك لا تملك القدرة على السيطرة على النفس، لكن لديك قدرة على التحكم بالمعنى. هذه هي نقطة تفوّقك. إنها موهبتك. أنت قادر على التحكم بمعنى دوافعك ومشاعرك. ولك أن تفسّر تلك الدوافع والمشاعر بالطريقة التي تراها مناسبة. أنت من يرسم الخريطة. وهذا شيء ذو قوة بالغة لأن المعنى الذي ننسبه إلى مشاعرنا هو ما يكون - أكثر الأحيان - قادرًا على تغيير ردود أفعال الدماغ الذي يشعر إزاء تلك المشاعر. هكذا تتمكّن من توليد الأمل. وهكذا تتمكّن من توليد الإحساس بأن المستقبل يمكن أن يكون سعيدًا، وبأنه يمكن أن يكون مثمرًا: من خلال تفسير ما يقذف به الدماغ الذي يشعر من مشاعر متضاربة تفسيرًا مفيدًا متعمقًا. فبدلًا من تبرير تلك الاندفاعات العشوائية والسماح لها باستعبادك، يمكنك أن تتحدّاها وأن تحلّلها. يمكنك أن تغيّر شكلها وطبيعتها.

من حيث الأساس، هذا هو معنى المعالجة الجيدة! قبول الذات،

والذكاء الانفعالي، وتلك الأشياء كلّها! والواقع أن مسألة «تعليم دماغك المفكّر كيف يفسّر المشاعر، وكيف يتعاون مع دماغك الذي يشعر، بدلًا من إطلاق الأحكام عليه واعتباره شيئًا شريرًا مؤذيًا» هو أساس ما يُعرف باسم «المعالجة السلوكية المعرفية»، وهو أساس «المعالجة من خلال القبول والالتزام»، فضلًا عن أسماء أخرى كثيرة لأشياء ابتكرها علماء النفس من أجل تحسين حياتنا.

غالبًا ما تبدأ أزمات الأمل لدينا بإحساس أوّلي عميق بأننا غير قادرين على التحكّم بأنفسنا، أو بمصيرنا. نحسّ كما لو أننا ضحايا العالم الذي من حولنا. وأسوأ من هذا أننا نرى أنفسنا ضحايا عقولنا. إننا نقاتل أدمغتنا التي تشعر ونحاول أن نهزمها ونجعلها تستسلم لنا، أو أننا نفعل العكس فنسير خلف تلك العقول من غير تفكير. إننا نُتفّه أنفسنا ونختبئ من العالم بسبب الافتراض الكلاسيكي. وبطرق كثيرة، تؤدي الوفرة وسهولة التواصل التي يوفّرها العالم الحديث إلى جعل ألم وهم التحكّم بالذات أشد سوءًا بكثير.

لكن هذه هي مهمتك، أيها الدماغ المفكّر، إن أردت قبول القيام بها: توصّل إلى تفاهم مع الدماغ الذي يشعر بناء على شروطه هو. اخلق بيئة قادرة على جعل الدماغ الذي يشعر ينتج أفضل ما لديه من اندفاعات وحدس بدلًا من أن يقدّم إليك أسوأ ما لديه. اقبل الدماغ الذي يشعر، واعمل معه، بدلًا من أن تفعل العكس... وذلك مهما يكن ما يبصقه الدماغ الذي يشعر في وجهك.

كل ما عدا ذلك وهم (الأحكام كلّها، والافتراضات، والمبالغات الذاتية). وقد كان وهمًا على الدوام. أنت لست في موقع التحكّم، أيها الدماغ المفكّر. لم تكن في موقع التحكّم يومًا، ولن تكون. لكن عليك ألّا تفقد الأمل.

انتهى الأمر بالطبيب أنتونيو داماسيو بأن ألّف كتابًا شهيرًا اسمه «غلطة ديكارت»، تحدّث فيه عن تجاربه مع إليوت، فضلًا عن كثير من أبحاثه الأخرى. وفي ذلك الكتاب، يذهب داماسيو إلى أن الدماغ الذي يشعر يبني نمطًا خاصًا به من المعرفة المحمّلة بأحكام القيمة بالطريقة نفسها التي ينتج بها الدماغ المفكّر صيغة واقعية منطقية من المعرفة[1]. ينشئ الدماغ المفكّر ترابطات بين الحقائق والمعلومات والملاحظات؛ وعلى نحو مماثل، يبني الدماغ الذي يشعر أحكام قيمة قائمة على تلك الحقائق والمعلومات والملاحظات نفسها. يقرر الدماغ الذي يشعر ما هو جيد وما هو سيّئ، ما هو مرغوب فيه وما هو غير مرغوب فيه. وأهم من هذا هو أنه يقرّر ما نستحقه وما لا نستحقه.

الدماغ المفكّر دماغ موضوعي معتمد على الحقائق الواقعية. وأما الدماغ الذي يشعر، فهو دماغ ذاتي نسبي. لا يمكننا ترجمة أحد شكلي المعرفة هذين إلى شكل آخر، مهما فعلنا[2]. هذه هي مشكلة الأمل الحقيقية. لا يحدث إلا في حالات نادرة أن نعجز عن الفهم العقلي لما يجب أن نفعله لكي نقلّل استهلاكنا من الكاربوهيدرات، أو لكي نستيقظ في وقت أبكر، أو لكي نكفّ عن التدخين. لكن المشكلة تكون في أن

(1) داماسيو: *«غلطة ديكارت»*، ص: 173 - 200.

(2) هذا ما يُعرف في الفلسفة باسم مفصلة هيوم: لا يمكنك اشتقاق «ينبغي» من «يكون». لا يمكنك اشتقاق القيم من الحقائق. لا يمكنك اشتقاق معرفة الدماغ الذي يشعر من معرفة الدماغ المفكّر. لقد جعلت مفصلة هيوم الفلاسفة والعلماء حائرين منذ قرون. يحاول بعض المفكّرين دحضها بالإشارة إلى أنك تستطيع امتلاك معرفة واقعية بالقيم - أي أنه إذا اعتقدت بأن المعاناة أمر سيئ، فإن هذه حقيقة واقعية عن اعتقادي، لكنها لا تكافئ كون اعتقادي حقيقة واقعة. يمكن التعبير عن الأمر بطريقة أخرى: من الممكن أن تكون لديك حقائق واقعية قائمة على القيم، لكن لا يمكن أبدًا أن يكون لديك قيم قائمة على حقائق واقعية.

دماغنا الذي يشعر قد قرّر في دخيلته أننا لا نستحق فعل هذه الأشياء، وأننا أقل من أن نفعلها. هذا ما يجعل إحساسنا تجاه الأمر كله في غاية السوء.

عادة ما يكون هذا الإحساس بعدم الاستحقاق ناتجًا عن شيء سيّئ حدث لنا في وقت من الأوقات. نعاني حالة مزعجة، أو سيئة جدًا، فيقرّر دماغنا الذي يشعر أننا نستحق ما جرى لنا. وبالتالي، فإنه ينطلق إلى تكرار عيش تلك المعاناة على الرغم من محاولات الدماغ المفكّر.

هذه هي المشكلة الجوهرية في مسألة التحكّم بالنفس. هذه هي المشكلة الجوهرية في الأمل: ليست هي مشكلة دماغ مفكّر ضعيف الاستعداد، بل مشكلة ضعف استعداد الدماغ الذي يشعر، ذلك الدماغ الذي تكيّف مع أحكام القيمة السيئة عن نفسه وعن العالم، وقبِلَها. هذا هو العمل الحقيقي الذي يمكن أن يؤدي إلى الشفاء النفسي: تطبيق قيمنا على أنفسنا بشكل صحيح واضح حتى نصير قادرين على تطبيقها على العالم من حولنا.

يمكن التعبير عن الأمر بطريقة أخرى والقول إن المشكلة ليست كامنة في كوننا لا نعرف كيف نتجنّب أن تصيبنا لكمة في الوجه. المشكلة هي أننا، في لحظة سابقة يحتمل أن نكون قد عشناها منذ زمن بعيد، قد تلقّينا لكمة في الوجه. وبدلًا من أن نرد عليها بلكمة مثلها، قررنا أننا نستحق تلك اللكمة التي أصابتنا.

الفصل الثالث

قوانين نيوتن في المشاعر والانفعالات

تلقى إسحاق نيوتن أول صفعة على وجهه عندما كان واقفًا في الحقل. كان عمه يشرح له سبب زراعة القمح في خطوط مائلة. لكن إسحاق لم يكن مصغيًا إليه. كان ينظر إلى الشمس ويتساءل عن الضوء وعما هو مصنوع منه.

كان لا يزال في السابعة من عمره[1].

صفعه عمه بظهر يده صفعة قوية على خده الأيسر فسقط على الأرض. كاد يفقد الوعي وشعر بأنه قد صار محطَّمًا. وحتى بعد أن تمكنت أجزاء نفسه من التماسك من جديد، ظل جزء صغير منها مرميًا على التراب... ظل هناك في ذلك المكان الذي لن يستعيده أحد منه.

كان والد إسحاق قد مات قبل ولادته، ثم تركته أمه وذهبت لكي تتزوج شخصًا ثريًا كبير السن في قرية أخرى. نتيجة هذا، أمضى إسحاق سنوات تكوينه متنقلًا بين الأعمام وأبناء العمومة والجدَّيْن. ما كان أحد يريده، وما كان أحد يعرف ما يفعله به. لقد كان عبئًا على الجميع. عاش حياة شبه خالية من الحب، وما كان الحب يأتي إلا بصعوبة.

كان عم إسحاق شخصًا سكّيرًا غير متعلّم. لكنه كان يعرف كيف

---

(1) إن الأجزاء المتعلّقة بحياة نيوتن الواردة في هذا الفصل خيال تاريخي محض.

يحصي المساكب والخطوط في الحقل. وكانت هذه مهارته العقلية الوحيدة. ولهذا السبب فلعله كان يمارسها أكثر مما تدعو إليه الحاجة. وكثيرًا ما كان إسحاق يرافقه في «جلسات» إحصاء الخطوط هذه لأنها كانت الوقت الوحيد الذي يوليه فيه عمه بعض الانتباه. وكما يكون الماء عزيزًا في الصحراء، كان هذا الاهتمام موضع ترحيب شديد لدى الصبي. ثم اتضح أن ذلك الصبي كان أعجوبة. ففي سن الثامنة، كان قادرًا على توقّع كمية العلف اللازم للأغنام والأبقار طيلة الموسم القادم. وفي التاسعة، كان قادرًا على حساب مساحات حقول القمح والشعير والبطاطس.

وعندما صار إسحاق في العاشرة من العمر، قرر أن الزراعة أمر غبي فتحوّل اهتمامه إلى حساب تغيّرات المسار الدقيق للشمس مع تغيّر الفصول. لم يكن عمّه معنيًا بحساب تغيرات المسار الدقيق للشمس مع تغير الفصول لأن هذا الأمر لا يحقق منفعة ملموسة (لا يحقّق منفعة مباشرة، على الأقل)، وهكذا فقد ضرب إسحاق مرة أخرى. لم تكن الأمور في المدرسة أحسن حالًا، فقد كان إسحاق طفلًا هزيلًا شاحبًا شارد الذهن. كان مفتقرًا إلى المهارات الاجتماعية. وما كان مهتمًا إلا بالتوافه التي يهتم بها من يحبون الدراسة كثيرًا: الساعات الشمسية، والمستويات الكارتيزية، وتحديد ما إذا كان القمر كرويًا حقًا. كان بقية الأولاد يلعبون الكريكت ويركضون في الغابات، في حين يحدق إسحاق ساعات طويلة في جدول من الماء متسائلًا عما يجعل كرة العين قادرة على رؤية الضوء.

كانت الفترة الأولى من حياة إسحاق ضربات متتالية. ومع كل ضربة، كان دماغه الذي يشعر يتعلّم أن يشعر بحقيقة قاسية موجودة دائمًا: لا بد أن فيه شيئًا غير صحيح! لو لم يكن الأمر كذلك، فلماذا تركه أبوه وأمه؟

وإن لم يكن الأمر كذلك، فلماذا يسخر زملاؤه منه؟ فهل هناك أي تفسير آخر لوحدته شبه الدائمة؟ وبينما كان دماغه المفكّر يشغل نفسه برسم مخططات بيانية عجيبة وصور لخسوف القمر، كان دماغه الذي يشعر منطويًا على نفسه لمعرفته بأن هناك شيئًا أساسيًا معطوبًا في هذا الصبي الإنكليزي الصغير من لنكولنشاير.

كتب في دفتره المدرسي ذات يوم: «أنا طفل صغير. أنا ضعيف شاحب اللون. لا مكان لي؛ لا في البيت، ولا في قعر الجحيم! فماذا أستطيع أن أفعل؟ ما الذي أنا صالح له؟ لا أستطيع شيئًا غير البكاء»[1].

كل ما قرأته عن إسحاق نيوتن حتى هذه النقطة صحيح... أو إنه، على الأقل، قابل للتصديق إلى حد بعيد. لكن، فلنتظاهر لحظة بأن هناك كونًا موازيًا. ولنقل إن في ذلك الكون الموازي إسحاق نيوتن آخر يشبه كثيرًا إسحاق نيوتن الذي في كوننا. وهو آتٍ مثله من أسرة محطمة تقسو عليه. إنه يعيش حياته في عزلة خانقة. وهو عبقري في قياس وحساب كل ما يراه.

لكن، لنفترض أن إسحاق نيوتن في هذا الكون الموازي لا يحسب ويقيس العالم الخارجي الطبيعي بهذه الطريقة الوسواسية، بل يحسب ويقيس العالم النفسي الداخلي، أي عالم عقل الإنسان وقلبه.

هذه ليست قفزة كبيرة في الخيال لأن ضحايا سوء المعاملة كثيرًا ما يكونون مراقبين دقيقين للطبيعة البشرية. ففي نظري، وفي نظرك، يمكن أن تكون الفرجة على الناس أمرًا ممتعًا إن مارسها المرء عَرَضًا في الحديقة في يوم من أيام العطلة. وأما من تُساء معاملتهم، فإن هذه

---

(1) الحقيقة أن نيوتن كتب هذا في مذكراته عندما كان مراهقًا. انظر جيمس غليك: *«إسحاق نيوتن»* (نيويورك: فينتيج بوكس، 2003)، ص: 13.

المراقبة أمر ضروري من أجل البقاء. فبالنسبة إليهم، من الممكن أن ينفجر العنف ضدهم في أية لحظة، وهذا ما يجعلهم يطورون إحساسًا دقيقًا بما يجري من حولهم بغية حماية أنفسهم. تغيّر طفيف في نبرة صوت شخص ما، أو ارتفاع حاجب شخص ما، أو عمق تنهد شخص آخر... يكون أي شيء قادرًا على إطلاق إشارة تحذير في داخلهم.

فلنتخيل إذًا أن نيوتن الذي في الكون الموازي قد حوّل انتباهه إلى الناس الذين من حوله. إنه يحتفظ بدفاتر يسجل فيها كل ما يلاحظه في سلوك زملائه وأفراد عائلته. وهو يكتب دائمًا ويحرص على توثيق كل فعل من الأفعال، وكل كلمة. يملأ مئات الصفحات بملاحظات تفصيلية لا معنى لها عن أشياء لا يلاحظ أصحابها أنهم يفعلونها. ينصبّ أمل هذا النيوتن الموازي على أنه قد يكون من الممكن التنبؤ بعالم المشاعر والانفعالات الداخلي، والتحكم فيه، بما أن من الممكن التنبؤ بما يحدث في العالم الطبيعي وما يطرأ من تغيرات على حركة وأشكال الشمس والقمر والنجوم.

ومن خلال ملاحظاته، يدرك نيوتن الموازي أمرًا مؤلمًا يعرفه كلنا، على نحو ما، لكن قلائل فقط يُقِرّون به: الناس كاذبون... نحن جميعًا! إننا نكذب دائمًا؛ وهي عادة لدينا[1]. نكذب في أشياء مهمة. ونكذب في أشياء تافهة. وعادة، فإننا لا نكذب انطلاقًا من نوايا سيئة، بل نكذب على الآخرين لأننا اعتدنا كثيرًا على الكذب على أنفسنا[2]. لاحظ إسحاق أن

---

(1) نينا مازار ودان آريلي: «الكذب في الحياة اليومية وآثاره على السياسات»، *مجلة التسويق والسياسات العامة* 25، العدد 1 (ربيع 2006): 117 - 126.

(2) نينا مازار، أون أمير، دان آريلي: «كذب الناس الصادقين: نظرية في المحافظة على تصوّر الذات»، *مجلة أبحاث التسويق* 45، العدد 6 (كانون الأول 2008): 633 - 644.

الضوء ينكسر عند مروره بقلوب الناس بطرق يبدو أنهم - هم أنفسهم - لا يرونها. وأن الناس يقولون إنهم يحبون من يبدو من سلوكهم أنهم يكرهونهم؛ وأن الناس يعبّرون عن إيمانهم بأمر من الأمور في حين يفعلون أمرًا آخر؛ وأن الناس يتخيّلون أنفسهم من أصحاب الخلق القويم في حين يقومون بأفعال على قدر كبير من القسوة والالتواء. لكنهم يظلون مقتنعين، في عقولهم، بأن أفعالهم صادقة، وبأنها صحيحة.

يقرر إسحاق أن من غير الممكن الثقة بأحد من الناس على الإطلاق. وبموجب حساباته، يتبيّن له أن ألمه متناسب تناسبًا عكسيًا مع مربع المسافة التي يجعلها بينه وبين العالم. من هنا، فإنه يظل منعزلًا بعيدًا عن مدار أي شخص بحيث يضمن بقاءه خارج تأثير جاذبية أي قلب بشري آخر. ليس لديه أصدقاء؛ فقد قرّر أنه لا يريد أي صديق. وهو يستنتج أن العالم مكان قاحل بشع وأن القيمة الوحيدة لحياته الحزينة هي قدرته على توثيق تلك الشرور وحسابها.

كان إسحاق على علم تام بأن الموهبة لا تنقصه أبدًا. أراد أن يعرف مسارات قلوب الناس، وسرعة ألمهم. أراد أن يعرف مقدار قوة ألمهم ومقدار «كتلة» أحلامهم. وأهم من هذا كله، أراد أن يفهم العلاقات بين هذه العناصر كلِّها. قرر أن يكتب قوانين نيوتن الثلاثة في العواطف/ الانفعالات[1].

(1) إذًا، إذا كنت لا تعرف نيوتن، أو إذا كنت لا تتذكّر ما تعلّمته في المدرسة الثانوية، فإن نيوتن يُعتبر الأب الأكبر للفيزياء الحديثة. ومن حيث أثر اكتشافاته، فمن الممكن القول إنه المفكر الأكبر تأثيرًا في تاريخ العالم كله. ومن بين اكتشافاته الكثيرة أفكاره الجوهرية في الفيزياء (العطالة، وحفظ القوة، إلخ). وهي أفكار واردة في قوانين الحركة الثلاثة لنيوتن. وعندما أطرح هنا قوانين نيوتن الثلاثة في العاطفة، فإنني أحاول الاستفادة من اكتشافاته الأصلية.

قانون نيوتن الأوّل: في العواطف / الانفعالات

لكلّ فعلٍ هناك رد فعل انفعالي يكافئه ويعاكسه في الاتجاه

تخيّل أنني وجّهت لكمة إلى وجهك. من غير سبب. من غير تبرير. عنف محض، ولا شيء أكثر من ذلك.

ستكون ردة فعلك الغريزية هي محاولة الانتقام بطريقة من الطرق. قد يكون انتقامك جسديًا: توجّه لكمة مماثلة إلى وجهي؛ وقد يكون انتقامك لفظيًا: تغمرني بوابل من الشتائم. أو قد يكون انتقامك اجتماعيًا: سوف تتّصل بالشرطة، أو بجهة أخرى ذات صلاحية، وتجعلهم يعاقبونني لأنني هاجمتك.

بصرف النظر عن طبيعة استجابتك، فسوف تشعر نحوي بموجة من العاطفة السلبية. من الواضح أن عاطفتك السلبية هذه ستكون محقّة لأنني شخص فظيع. ففي آخر المطاف، تظل فكرة أنني سببت لك ألمًا من غير مبرر، ومن غير أن تكون مستحقًا ذلك الألم، فكرة تخلق إحساسًا بغياب العدالة والإنصاف في ما بيننا. تنفتح هوّة أخلاقية بيني وبينك: إحساس كل منا بأنه محق تمامًا، وبأن الآخر شخص وضيع[1].

يسبب الألم هوّات أخلاقية! لا يقتصر وجود هذا الأمر على علاقة بين البشر. إذا عضّك كلب، فسوف تدفعك غريزتك إلى معاقبته. وإذا اصطدم إصبعك بساق الطاولة، فماذا تفعل؟ إنك تصرخ على تلك الطاولة الملعونة. وإذا أتى طوفان وجرف بيتك، فإن الحزن يغمرك وتصير غاضبًا على قوى الطبيعة والكون، وعلى الحياة نفسها.

---

(1) انظر مايكل توماسيلو: *«تاريخي طبيعي للأخلاقيات البشرية»* (كامبردج، ماساشوستس: منشورات جامعة هارفارد، 2016)، ص: 78 - 81.

هذه كلها هوّات أخلاقية. إنها إحساسك بأن شيئًا خاطئًا قد حدث لك، وبأنك تستحق (أو يستحق شخص آخر) تعويضًا ما عن ذلك. حيثما يوجد الألم، يوجد دائمًا إحساس ملازم بالتفوّق/ الدونية. والحياة فيها ألم دائمًا.

عندما تواجهنا هوّات أخلاقية، تنشأ لدينا مشاعر وانفعالات تدفع في اتجاه التوازن الأخلاقي، أو في اتجاه العودة إلى توازن أخلاقي كان قائمًا قبل ذلك. تتخذ هذه الرغبة في التوازن شكل إحساس بالاستحقاق. بما أنني وجهت لكمة إلى وجهك، فأنت تشعر بأنني أستحق أن أتلقّى لكمة مقابلة، أو بأنني أستحق أن أتلقّى عقابًا بطريقة أخرى. وسوف يؤدّي إحساسي هذا (بأنك تستحقّ الألم) إلى أن تصير لديك مشاعر قوية تجاهي (مشاعر غضب، على الأرجح). وسوف تنشأ لديك أيضًا مشاعر قوية في ما يتعلّق بإحساسك بأنك لا تستحق لكمة على وجهك، وبأنك لم تفعل شيئًا خاطئًا، وبأنك تستحقّ معاملة أفضل من جانبي ومن جانب الآخرين جميعًا. قد تتّخذ هذه المشاعر شكل الحزن، أو الإشفاق على النفس، أو الاضطراب.

ليس هذا الإحساس بـ«الاستحقاق» إلا حكم قيمة نتخذه عندما نواجه هوّة أخلاقية. وحكم القيمة هو قرار بأن شيئًا بعينه هو أفضل من شيء آخر، أو بأن شخصًا بعينه هو أكثر صلاحًا أو إنصافًا من شخص آخر، أو أن حدثًا بعينه هو أقل قبولًا لدينا من حدث آخر. الهوّات الأخلاقية هي المكان الذي تولد فيه قيَمنا.

والآن، لنتخيل أنني اعتذرت منك بعد أن لكمتك على وجهك. أقول لك: «أنت، أيها القارئ، كان ذلك سلوكًا غير منصف على الإطلاق، وأنا... أنا آسف لأنني تصرّفت تصرّفًا سيئًا. لن يحدث هذا مرة أخرى. لن يحدث أبدًا. وكدليل على أسفي الشديد وإحساسي بالذنب، فإنني سأصنع لك هذه الكعكة. سوف أعطيك مئة دولار أيضًا. استمتع بها».

فلنتظاهر أيضًا بأن هذا قد كان مُرضيًا لك على نحو ما. أنت تقبل اعتذاري والكعكة التي صنعتها لك، وكذلك الدولارات المئة، وتحسّ إحساسًا صادقًا بأن كل شيء على ما يرام. لقد تحقّق التوازن: «تعادلنا»؛ وزالت الهوّة الأخلاقية التي كانت بيننا. لقد «عُوِّضتَ» عن الأمر. بل من الممكن أيضًا أن تقول لي إننا متعادلان - لا أحد منا أحسن من الآخر أو أسوأ منه، ولا أحد منا يستحق بعد الآن معاملة أحسن من الآخر أو أسوأ منه. هكذا نصير على المستوى الأخلاقي نفسه.

إن توازنًا من هذا النوع يستعيد الأمل. وهو يعني أن ما من شيء خاطئ فيه (ليس بالضرورة)، ولا في العالم. يعني هذا أنك تستطيع عيش يومك في ظل شعورك بأنك متحكّم بنفسك... ومعك أيضًا مئة دولار وكعكة لذيذة حلوة.

فلنتخيّل الآن شكلًا مختلفًا لهذا السيناريو. ولنقل هذه المرة إنني لا أسدد إلى وجهك لكمة، بل أشتري لك بيتًا.

نعم، أيها القارئ، لقد اشتريت لك بيتًا!

سوف يفتح هذا الأمر هوّة أخلاقية جديدة بيننا. لكن، بدلًا من أن يكون لديك إحساس غامر بالرغبة في موازنة الألم الذي سبّبته لك، ستعيش إحساسًا طاغيًا بالرغبة في موازنة الفرحة التي صنعتها لك. قد تعانقني، وقد تقول لي «شكرًا» مئة مرة، وقد تقدّم لي بالمقابل هدية جميلة... أو من الممكن أن تعدني بأن تعتني بقطتي كل يوم، من الآن وإلى الأبد.

أو... إذا كنت شخصًا حسن التصرف على نحو متميّز (ولديك شيء من التحكم بالنفس) فقد تحاول أيضًا أن تمتنع عن قبول عرضي شراء بيت لك نتيجة إدراكك أن من شأن ذلك أن يفتح بيننا هوّة أخلاقية لن تكون قادرًا على تجاوزها. قد تعبّر عن هذا الأمر بأن تقول لي «شكرًا لك، لكني لا أستطيع قبول هذا أبدًا. لن أستطيع أن أجد وسيلة لمكافأتك».

وكما كانت الحال بالنسبة إلى الهوة الأخلاقية السلبية، سوف

تجعلك الهوة الأخلاقية الإيجابية تشعر بأنك مَدين لي، وبأنني أستحق شيئًا حسنًا، أو بأن عليك أن «تكافئني» بطريقة من الطرق. سوف يكون لديك تجاهي إحساس شديد بالشكر والعرفان. بل من الممكن أيضًا أن تذرف بعض دموع الفرح... (أوه، يا عزيزي القارئ)!

هذا هو ميلنا النفسي الطبيعي إلى تحقيق التوازن بين جانبي الهوة الأخلاقية، وإلى أن تكون أفعالنا متبادلة في الاتجاهين: شيء إيجابي مقابل شيء إيجابي، وشيء سلبي مقابل شيء سلبي. أما القوى التي تدفعنا إلى ردم تلك الهوة فهي مشاعرنا وانفعالاتنا. وبهذا المعنى، فإن كل فعل يتطلّب ردة فعل انفعالية مساوية في الاتجاه المعاكس. هذا هو قانون نيوتن الأول في العواطف/ الانفعالات.

إن قانون نيوتن الأول هو ما يملي علينا دائمًا مجرى حياتنا لأنه الخوارزمية التي يستخدمها دماغنا الذي يشعر لكي يفسر العالم[1]. إذا جعلك فيلم من الأفلام تشعر بألم يفوق ما يسبّبه لك من ارتياح، فإنك تصير ضجرًا، بل يمكن حتى أن تغضب. (من الممكن أن تحاول إحداث التوازن من خلال المطالبة بإعادة نقودك إليك. وإذا نسيتْ أمك يوم ميلادك، فقد تحاول موازنة ذلك من خلال تجاهلها طيلة الأشهر الستة التالية. أو من الممكن أن تعمد، إذا كنت أكثر نضجًا، إلى مصارحتها بانزعاجك وخيبة أملك[2]. وإذا تكبّد فريقك المفضّل خسارة فادحة،

---

(1) داماسيو: «*غلطة ديكارت*»، ص: 172 - 189.

(2) هذا ما يجعل العدوانية السلبية أمرًا غير صحي في العلاقات: إنها لا تحدّد بوضوح أين يرى الشخص الهوّة الأخلاقية. إنها، ببساطة، تفتح هوّة أخلاقية أخرى بدلًا من ذلك. يمكنك القول إن جذر الخلاف بين الأشخاص آتٍ من إدراكهم المختلف للهوات الأخلاقية القائمة بينهم. تظن أنني سيئ معك. وأظن أنني لطيف معك. من هنا، فإن هناك نزاعًا أو اختلافًا بيننا. فإذا لم نعبر تعبيرًا واضحًا عن قيمنا وعما يراه كل واحد منا، فلن نتمكّن أبدًا من إحداث التوازن أو من استعادة الأمل إلى العلاقة القائمة بيننا.

فسوف تشعر بأن لديك ما يدفعك إلى تقليل عدد مبارياته التي تذهب إليها، أو إلى تقليل هتافاتك التشجيعية له في الملعب. وإذا اكتشفت أن لديك موهبة في الرسم، فإن الرضا والسرور المستمَدَّين من هذه القدرة سوف يحفزانك في اتجاه استثمار الوقت والطاقة والمشاعر والمال في ذلك الاتجاه. وإذا انتخبت بلادك شخصاً غبياً لا تستطيع أن تطيقه، فسوف تشعر بشيء من انقطاع الصلة بينك وبين بلدك وحكومتك، بل حتى بينك وبين المواطنين الآخرين. سوف تشعر أيضًا كما لو أن عليك أن تفعل شيئًا لمواجهة سياساته السيئة.

إن الموازنة موجودة في كل تجربة نعيشها لأن الدافع إليها هي المشاعر نفسها. فالحزن إحساس بالعجز وعدم القدرة على تعويض ما يتصور المرء أنه خسره. والغضب رغبة في تحقيق التوازن من خلال القوة، أو من خلال العدوانية. والسعادة إحساس بالتحرّر من الألم؛ في حين أن الإحساس بالذنب شعورٌ بأنك تستحق شيئًا من الألم[1]. إن هذه الرغبة في الموازنة كامنةٌ خلف إحساسنا بالعدالة. وقد تم تنظيمها، عبر العصور، في صور قواعد وقوانين من قبيل قاعدة الملك البابلي حمورابي «العين بالعين، والسن بالسن»، أو من قبيل القاعدة الذهبية في التوراة «افعل للآخرين ما تريد أن يفعلوه لك». هذا ما تعرّفه البيولوجيا الارتقائية باسم «الغيرية المتبادلة»[2]، وما تعرّفه نظرية الألعاب باسم استراتيجية «واحدة بواحدة»[3].

إن قانون نيوتن الأول يولّد إحساسنا بالأخلاق. وهو كامن وراء

---

(1) يمكنك القول إن المشاعر السلبية تأتي من الإحساس بفقدان التحكّم، في حين تأتي المشاعر الإيجابية من خلال الإحساس بالتحكم.

(2) توماسيلو: «*تاريخ طبيعي للأخلاقيات البشرية*»، ص 13 - 14.

(3) روبرت أكسلرود، *نشوء التعاون* (نيويورك: بنسك بوكس، 1984)، ص: 27 - 54.

تصوّراتنا عن الإنصاف. إنه أساس كل حضارة بشريّة. و... هو «نظام تشغيل» الدماغ الذي يشعر.

وفي حين يخلق دماغنا المفكّر معرفة واقعية مبنية على الملاحظة والمنطق، يخلق دماغنا الذي يشعر قيَمنا انطلاقًا من تجارب الألم التي نعيشها. إن التجارب التي تسبب لنا ألمًا تخلق هوة أخلاقية في عقولنا، فيعتبرها دماغنا الذي يشعر تجارب سيئة غير مرغوب فيها. وأما التجارب التي تزيل ألمنا فهي تخلق لدينا هوة أخلاقية في الاتجاه المعاكس. وهذا ما يدفع دماغنا الذي يشعر إلى اعتبار هذه التجارب جيدةً مرغوبًا فيها.

يمكن النظر إلى هذا من خلال التفكير في أن الدماغ المفكّر يخلق روابط جانبية بين الحوادث (التشابه والتضاد، والسبب/ الأثر، إلخ)، في حين أن دماغنا الذي يشعر يخلق ارتباطات ذات تراتب هرمي (أحسن/ أسوأ، مرغوب فيه أكثر/ مرغوب فيه أقل، جيد أخلاقيًا/ سيئ أخلاقيًا)[1]. إن دماغنا المفكّر يفكّر أفقيًا (كيف تترابط هذه الأشياء في ما بينها؟) في حين أن دماغنا الذي يشعر يفكّر شاقوليًا (أيٌّ من هذه الأشياء أفضل/ أو أسوأ). يقرر دماغنا المفكّر كيف هي الأمور، وأما دماغنا الذي يشعر فيقرر كيف يجب أن تكون الأمور.

عندما نمر بتجارب، فإن دماغنا الذي يشعر يخلق نوعًا من «تراتبية قيَم» من أجل هذه التجارب[2]. يشبه هذا الأمر أن تكون لدينا خزانة

---

(1) إن هذا مستمد أيضًا من ديفيد هيوم، *بحث في الفاهمة البشرية*، من تحرير إيريك ستينبرغ (1748)؛ أعيدت طباعته في إنديانابوليس: هاكيت كلاسيكس، الطبعة الثانية، 1993، الفصل الثالث: «عن ترابطات الأفكار»؛ وكذلك هيوم، *رسائل في الطبيعة البشرية*، الكتاب الثاني: *في العواطف*، الجزءان الأول والثاني.

(2) إنني أعزو الفضل في هذا المصطلح إلى مقابلات عالم النفس جوردان بيترسون ومحاضراته، على الرغم من أنه لم يخترعه بنفسه. لقد ساهم بيترسون في الانتشار الكبير لمصطلح *«تراتبية القيم»* في السنوات الأخيرة.

كبيرة للكتب موجودة في لا وعينا حيث تكون أفضل التجارب في حياتنا وأهمها (مع الأسرة والأصدقاء والأشياء الممتعة) موضوعة على الرفّ العلوي، وتكون التجارب السيئة (الموت، والضرائب، وعسر الهضم) على الرفِّ السفلي. وعند ذلك، يتّخذ دماغنا الذي يشعر قراراته - ببساطة - من خلال السعي إلى التجارب الموجودة في أعلى رف ممكن في تلك الخزانة.

يكون كلٌّ من الدماغين مطّلعًا على التراتبية القيَمية للتجارب، ففي حين يقرّر الدماغ الذي يشعر الرفَّ الذي تكون فيه تجربة من التجارب، يستطيع الدماغ المفكّر أن يحدّد الصلات القائمة بين تجارب بعينها لكي يقترح كيف يجب أن يكون تنظيم تراتبية القيم. ومن حيث الأساس، فإن هذا هو معنى «النمو»: إعادة ترتيب أولويات تراتبية القيَم لدى الشخص بطريقة مثلى[1].

على سبيل المثال، كان لي في ما مضى صديقة أظنّها أكثر الناس الذين عرفتهم في حياتي ولعًا بالحفلات. كانت تحتفل وتسهر طيلة الليل، ثم تذهب من السهرة مباشرة إلى عملها في الصباح، ولا تنام أبدًا. كانت ترى أن الاستيقاظ في وقت مبكّر أو البقاء في البيت يوم العطلة سلوكًا غير طبيعي. كانت تراتبية القيم لديها على النحو التالي:

- «دي جي» ممتاز.
- توفُّر مخدّرات جيّدة حقًا.
- العمل.
- النوم.

وكان التنبؤ بسلوكها ممكنًا من خلال هذه التراتبية وحدها. إنها تفضّل

---

(1) مانسون، *فن اللامبالاة*، ص: 81 - 89.

العمل على النوم. وتفضل الذهاب إلى الحفلات وممارسة الجنس على العمل. وتفضّل الموسيقى والأغاني على كل شيء آخر.

وفي يوم من الأيام، أقدمت تلك الصديقة على الذهاب للقيام بعمل تطوعي في الخارج... واحد من تلك الأشياء التي يذهب إليها الشباب فيمضون بضعة أشهر مع الأطفال اليتامى في بلد من بلدان العالم الثالث. حسنًا، لقد غيّر هذا كل شيء. كانت تلك التجربة شديدة الأثر من الناحية العاطفية والانفعالية بحيث أعادت ترتيب أولوياتها. الآن، صارت تراتبية الأولويات لديها على الشكل التالي:

- إنقاذ الأطفال من المعاناة التي لا ضرورة لها.
- العمل.
- النوم.
- الحفلات.

على نحو مفاجئ، كما لو أن ذلك حدث بفعل سحر، لم تعد الحفلات مصدر متعة لها! لماذا؟ لأنها متعارضة مع الشيء الذي صار له أكبر قيمة لديها: مساعدة الأطفال الذين يعانون. غيّرت تلك الصديقة عملها؛ وصارت حياتها كلّها عملًا. كانت تواصل العمل حتى ساعة متأخّرة، معظم الليالي. وأقلعت عن الشراب، وعن المخدّرات. صارت تنام جيدًا... ففي آخر المطاف، لا بد لها من طاقة كبيرة حتى تنقذ العالم.

صار أصدقاؤها في الحفلات ينظرون إليها نظرة إشفاق. إنهم يحكمون عليها من خلال قِيَمهم التي كانت قيمها في ما مضى. صارت فتاة الحفلات المسكينة تلك مضطرة إلى الذهاب إلى النوم من غير سهر كثير حتى تستطيع الاستيقاظ من أجل العمل في صباح اليوم التالي. صارت فتاة الحفلات المسكينة غير قادرة على تعاطي المخدّرات في كل عطلة نهاية أسبوع.

لكنْ، هناك شيء غريب في تراتبية القيم: عندما تتغيّر هذه التراتبية، فإنك لا تخسر شيئًا في واقع الأمر. لم تقرّر صديقتي أن تبدأ التخلّي عن متعة الحفلات من أجل تقدّمها في العمل! كل ما في الأمر هو أن الحفلات لم تعد مصدر متعة لديها. وهذا لأن «المتعة» منتَج من منتجات تراتبية القيم لدينا. عندما نكفّ عن تقييم شيء من الأشياء تقييمًا عاليًا، فإنه يكفّ عن كونه مصدر متعة لنا أو عن كونه مثيرًا لاهتمامنا. من هنا، فإن الأمر يخلو تمامًا من أي إحساس بالخسارة؛ ولا نشعر بأننا فقدنا شيئًا عندما نكفّ عن فعله. على العكس من هذا، نجد أنفسنا ننظر إلى الماضي ونعجب مما جعلنا ننفق ذلك الوقت كلّه في الاهتمام بشيء سخيف، أو تافه، إلى هذا الحدّ، ونعجب مما جعلنا ننفق ذلك القدر كله من الطاقة على أمور لا أهمية لها. إن هذه «الوخزات» من الأسف أو الحرج أمر جيّد: هي دليل على النمو والتطوّر. إنها نتيجة تمكّننا من تحقيق آمالنا.

قيمتنا في نظر أنفسنا تساوي حصيلة عواطفنا وانفعالاتنا عبر الزمن

لنعد الآن إلى مثال اللكمة التي وجّهها إليّ صديقي. لكننا سنتظاهر هذه المرة بأنني موجود ضمن «حقل قوى» سحري يقيني عواقب أي شيء يصيبني: لا يمكنك أن تضربني إذا ضربتك. ولا يمكنك أن تقول لي أي شيء. بل إنك غير قادر أيضًا على قول أي شيء عنّي لأي شخص آخر. إنني منيع تمامًا: أرى كل شيء، وأستطيع فعل كلّ شيء... لقد صرت قوّة شريرة فائقة.

بحسب قانون نيوتن الأول في العواطف/ الانفعالات، عندما يسبّب لنا شخص (أو شيء) ألمًا، فإن هوة أخلاقية تنفتح، ويحشد دماغنا الذي يشعر عواطفنا السلبية لكي يحفِّزنا على إعادة التوازن.

لكن، ماذا لو أن ذلك التوازن لا يتحقّق أبدًا؟ ماذا لو جعلَنا شخصٌ (أو شيء) نشعر شعورًا سيئًا جدًا، لكننا كنا غير قادرين على الانتقام منه، ولا على الوصول إلى شكلٍ من أشكال التسوية معه؟ ماذا لو شعرنا بالعجز عن فعل أي شيء من أجل إعادة التوازن، أو من أجل «تصحيح الأمور»؟ وماذا لو كان «حقل القوى» الذي يحميني أقوى منك؟

عندما يستمر وجود الهوّات الأخلاقية زمنًا طويلًا جدًا، فإنه يصير من طبيعة الأمور[1]. تصير هذه الهوّات هي ما نتوقعه في الأحوال العادية، فتضع أنفسها ضمن تراتبية القيم لدينا. إذا ضربَنا شخصٌ ما، وكنا غير

---

(1) انظر مارتين إ. ب. سيليغمان، *انعدام الحَوْل: في الاكتئاب والتطور والموت* (نيويورك: تايمز بوكس، 1975).

قادرين على الردّ على ضربته بمثلها، فإن دماغنا الذي يشعر سيتوصّل آخر الأمر إلى نتيجة مفاجئة: نحن نستحقّ أن نُضرب.

لو أننا لا نستحق ما جرى لنا، لكنا قادرين على إعادة التوازن! أليس هذا صحيحًا؟ تعني عدم قدرتنا على إعادة التوازن أنه يجب أن يكون فينا شيء عميق أدنى منزلة و/ أو شيء أعلى منزلة في الشخص الذي ضربنا.

إن هذا أيضًا جزءٌ من استجابة الأمل لدينا. فعندما يبدو التوازن مستحيلًا، ينتقل دماغنا الذي يشعر إلى الحل التالي: الاستسلام، وقبول الهزيمة، والحكم على أنفسنا بأننا أقل شأنًا وأدنى قيمة. عندما يؤذينا أحد ما، فإن ردّة فعلنا الفورية عادة ما تكون «إنه سيئ؛ وأنا جيّد». وأما إذا وجدت نفسي غير قادر على التوازن وعلى التصرّف انطلاقًا من أنني على حق، فإن الدماغ الذي يشعر سوف يلجأ إلى التفسير البديل الممكن الوحيد: «أنا سيئ، وهو على حق»[1].

إن هذا الاستسلام أمام الهوّات الأخلاقية التي لا نستطيع معالجتها جزء أساسي من طبيعة الدماغ الذي يشعر. هذا هو قانون نيوتن الثاني. كيفية تقييمنا كل شيء في الحياة بالنسبة إلى أنفسنا هي حصيلة عواطفنا وانفعالاتنا مع مرور الزمن.

إن استسلامنا هذا، وقبول أننا أقل شأنًا هو ما يشار إليه عادة باسم «الإحساس بالعار»، أو «قلّة تقدير الذات». مهما يكن الاسم الذي تطلقه عليه فإن النتيجة تظل هي نفسها: تسدّد إليك الحياة ضربات في كل وقت؛ وأما أنت فتشعر بأنك عاجز عن منعها من فعل ذلك، وبالتالي فإن دماغك الذي يشعر يستنتج أنك تستحق ما يصيبك.

---

(1) هناك بديل ثالث: يمكنك أن ترفض الاعتراف بوجود الهوة الأخلاقية. ويمكن أن تدعو هذا «صفحًا».

وبطبيعة الحال، فإن الهوة الأخلاقية المعاكسة صحيحة أيضًا. إذا تلقينا شيئًا قيّمًا من غير أن نكون قد كسبناه فعلًا «كؤوس مشاركة في حدث ما، أو زيادة غير مبررة في الدرجات التي نحصل عليها، أو ميداليات ذهبية لقاء الحلول في المركز التاسع»، فإننا نصير مقتنعين (قناعة زائفة) بأننا أعلى شأنًا مما نحن عليه في حقيقة الأمر. وبالتالي، تنشأ لدينا نسخة وهمية من «القيمة الذاتية المرتفعة»، أو... يُعرف الشخص في هذه الحالة بأنه «أبله». إن القيمة الذاتية أمر متعلّق بظروفه. إذا تعرّضت لتنمّر زملائك عليك في الطفولة بسبب نظّارتك الغريبة وأنفك المضحك، فإن دماغك الذي يشعر سوف «يدرك» أنك شخص تافه لا قيمة له حتى إذا كبرت وصرت شديد الجاذبية. كما أن الناس الذين يترعرعون في بيئة دينية متشددة ويتلقّون عقوبات قاسية بسبب دوافعهم الجنسية غالبًا ما تظلّ أدمغتهم التي تشعر، بعد أن يكبروا، «تعرف» أن الجنس أمر سيئ؛ وذلك على الرغم من أن أدمغتهم المفكّرة قد توصّلت منذ زمن بعيد إلى أن الجنس أمر طبيعي، وإلى أنه شيء ممتع.

إن القيمة الذاتية المرتفعة والقيمة الذاتية المتدنيّة تبدوان مختلفتين عند النظر إليهما من الخارج، لكنهما وجهان لعملة مزيفة واحدة. فسواء كنت ترى أنك أفضل من بقية الناس، أو أسوأ من بقية الناس، فإن الأمر نفسه يظلّ صحيحًا: أنت تتخيّل نفسك شيئًا خاصًّا، شيئًا منفصلًا عن بقية العالم.

فالشخص الذي يكون مقتنعًا بأنه يستحقّ معاملة خاصّة لأنه شخص عظيم ليس مختلفًا كثيرًا عن شخص يرى أنه يستحقّ معاملة خاصة لأنه سيئ ووضيع. إنهما شخصان نرجسيان يظن كل منهما أنه حالة خاصّة. يظنّ كل من هذين الاثنين أن العالم يقبل استثناءهما وأن يستجيب لقيَمهما ومشاعرهما بصرف النظر عن قيم الآخرين ومشاعرهم.

يتأرجح النرجسيون بين الشعور بالتفوق والشعور بالدونية[1]. فإما أن يحبّهم الجميع، أو أن يكرههم الجميع. وكل شيء رائع، أو كلّ شيء خربان. وإما أن يكون حدثٌ ما أفضل لحظة في حياتهم، أو أن يكون مصيبة لهم. لا شيء في مرتبة وسط عند النرجسي، وذلك لأن إدراكه الواقع المتنوع المعقد الذي أمامه يفرض عليه أن يتخلّى عن نظرته المتعالية التي مفادها أنه شخص متميّز ذو وضع خاص. وأكثر الأحيان، يكون النرجسيون أشخاصًا يصعب أن يطيقهم المرء لأنهم يعتبرون أن كلّ شيء يدور من حولهم ويطالبون الناس بأن يشاطروهم هذه النظرة.

سوف ترى الكثير من أولئك المتقلّبين بين التقييم العالي لأنفسهم والتقييم المتدنّي لأنفسهم، إن أنت انتبهت جيّدًا: الديكتاتوريون، ومن يقتلون الناس بالجملة، والأطفال كثيرو التذمّر، وقريبتك المزعجة التي تفسد كل احتفال تذهب إليه. كان هتلر يقول إن العالم أساء معاملة ألمانيا كثيرًا بعد الحرب العالمية الأولى لأنه خائف من التفوّق الألماني[2]. ومنذ فترة قريبة، برّر رجل مختل في كاليفورنيا قيامه بمحاولة إطلاق النار على بيت للطالبات بالقول إن النساء يصاحبن رجالًا «أقل منزلة

---

(1) ما يلفت الانتباه هو أن الأشخاص النرجسيين يقدِمون حتى على تبرير ألمهم بزعم تفوقهم. ألم تسمع أحدًا يقول: «إنهم يكرهونني بسبب الحسد»؟ أو «يهاجمونني لأنهم خائفون مني»؟ أو «إنهم لا يريدون الاعتراف بأنني أفضل منهم»؟ يقوم الدماغ الذي يشعر بقلب القيمة الذاتية رأسًا على عقب: نحن لا نتعرّض للأذى لأننا سيئون، بل نتعرض للأذى لأننا عظماء! وهكذا، فإن النرجسي ينتقل من الإحساس بأن ذاته لا تستحق أي شيء إلى الإحساس بأن ذاته تستحق كل شيء.

(2) المفارقة هنا هو أنه كان محقًا ببعض الشيء. لقد أدت معاهدة فرساي إلى إضعاف ألمانيا اقتصاديًا؛ وكانت مسؤولة عن كثير من النزاعات الداخلية التي سمحت لهتلر بالوصول إلى السلطة. من الواضح أن رسائل هتلر التي كانت على نمط «يكرهوننا لأننا عظماء» قد لقيت تجاوبًا لدى الألمان الذين يشعرون بالحصار.

منه»، في حين يضطرّ هو إلى البقاء من غير امرأة[1]. يمكنك أيضًا أن تعثر على ذلك في داخل نفسك... إن كنت صادقًا. كلما اشتدّ إحساسك بقلّة الأمان في ما يتعلّق بأمر ما، كلما صرت تطير جيئة وذهابًا بين مشاعر التفوّق الواهمة («أنا هو الأفضل!») ومشاعر الدونية الواهمة («لست إلا قمامة!»).

إن القيمة الذاتية وهم[2]. وهي إنشاءٌ نفسيٌ يبنيه دماغنا الذي يشعر حتى يستطيع توقّع ما سوف يساعده وما سوف يؤذيه. وفي النهاية، لا بد لنا أن نشعر بشيء ما إزاء أنفسنا حتى نشعر بشيء إزاء العالم. فمن غير هذه المشاعر، يكون عثورنا على الأمل مستحيلًا.

يمتلك كل منا قدرًا من النرجسية. هذا شيء لا يمكن تجنّبه مثل كل شيء عرفناه أو عشناه أو تعلّمناه. إن طبيعة وعينا تُملي أن يحدث كل شيء من خلالنا. هذا أمر طبيعي، لكننا نفترض بعد ذلك مباشرة أننا مركز كل شيء... لأننا مركز كل شيء نعيشه[3].

يبالغ كل منا في تقدير مهاراته ومقاصده، ويقلل من شأن مهارات الآخرين ومقاصدهم. ويعتقد أكثر الناس بأن ذكاءهم أعلى من المعدل

---

(1) أشير هنا إلى إليوت رودجر الذي وضع على يوتيوب مقطع فيديو مخيفًا اسمه «انتقام إليوت رودجر» قبل أن يقود سيارته إلى ذلك المكان الذي ارتكب فيه جريمته.

(2) القيمة الذاتية وهم لأن القيم كلها ذات طبيعة وهمية، ولأنها قائمة على الإيمان (انظر الفصل الرابع لمزيد من مناقشة هذا الأمر)، ولأن الذات وهم في حد ذاتها. للاطلاع على مناقشة لهذه الفكرة، انظر سام هاريس، *اليقظة: دليل إلى الروحانية من غير دين* (نيويورك: سايمون وشوستر، 2014)، ص: 81 – 116.

(3) تحدّث ديفيد فوستر والاس عن هذا «الوضعية» للوعي (التي نختارها تلقائيًا من غير انتباه) في كلمته الرائعة «هذا ماء». انظر ديفيد فوستر والاس، *هذا ماء: بعض الأفكار، المقدّمة في مناسبة مهمة، عن عيش حياة ملؤها التعاطف*، (نيويورك: شركة ليتل وبراون، 2009)، ص: 44 – 45.

الوسطي، وأنهم يتمتعون بقدرات تفوق المعدل الوسطي في معظم الأشياء، وخاصة عندما لا يتمتّعون بذلك الذكاء وبتلك القدرات[4]. ونميل كلنا إلى الاعتقاد بأننا أكثر صدقًا وأخلاقًا مما نحن عليه في حقيقة الأمر[5]. وسوف يقوم كل منا، إن سنحت له الفرصة، بتضليل نفسه لجعلها تعتقد بأن ما هو جيّد له جيّد للآخرين أيضًا[6]. وعندما نفشل، نكون مَيّالين إلى افتراض أن فشلنا كان نتيجة مصادفة سيئة[7]. وأما عندما يفشل أحد غيرنا، فإننا نسرع دائمًا إلى إطلاق الأحكام عليه[8].

إن النرجسية المستمرّة على المستوى المنخفض أمر طبيعي، لكن من المرجَّح أيضًا أن تكون جَذر قسم كبير من مشكلاتنا الاجتماعية السياسية. هذه ليست مشكلة يسار، ولا مشكلة يمين. ولا هي مشكلة الجيل الأكبر سنًّا، ولا مشكلة الجيل الأصغر سنًا. وهي ليست مشكلة الشرق، ولا مشكلة الغرب. إنها مشكلة البشرية كلها.

---

(4) هذا ما يعرف على نطاق واسع باسم «مفعول دونينغ - كروكر»، وذلك نسبة إلى الباحثين اللذين اكتشفاه. انظر جوستين كروكر، ديفيد دونينغ، «*غير ماهر وغير مدرك ذلك: كيف تؤدي صعوبة اعتراف المرء بنواقصه إلى تقييم مضخم للنفس*»، *مجلة الشخصية وعلم النفس الاجتماعي* 77، العدد 6 (1999): 1121 - 1134.

(5) ماكس هـ . بيزرمان، آن إ. تنبرونسل، *بقع عمياء: لماذا نفشل في فعل ما هو صحيح، وما العمل بشأن ذلك* (برنستون، نيوجرسي: منشورات جامعة برنستون، 2011).

(6) يسمّون هذا الأمر «مفعول الإجماع الزائف». انظر توماس غيلوفيتش، «التفارق الإنشائي ومفعول الإجماع الزائف»، *مجلة الشخصية وعلم النفس الاجتماعي* 59، العدد 4 (1990): 623 - 634.

(7) اعتاد الرسام التلفزيوني المتوفى بوب روس أن يقول: «لا وجود لشيء اسمه أخطاء... هي مجرد حوادث سعيدة».

(8) هذا ما يُعرف باسم «انحياز الفاعل - المراقب»، وهو يفسر سبب كون كل شخص «فاشلًا». انظر إدوارد جونز وريتشارد نيزبيت، *الفاعل والمراقب: إدراكان مختلفان لأسباب السلوك* (نيويورك: جنرال ليرنينغ برس، 1971).

تميل كل مؤسسة إلى التآكل وإلى الفساد. ويمكن توقّع أن كل شخص - إذا حاز مزيدًا من القوّة وقدرًا أقلّ من الضوابط - سوف يستخدم تلك السلطة على النحو الذي يناسبه. ويتعامى كلّ إنسان عن عيوبه، أو عيوبها، في حين يرى عيوبًا شديدة الوضوح لدى الآخرين.

أهلًا بكم على كوكب الأرض. استمتعوا بالإقامة هنا!

يقوم دماغنا الذي يشعر بتغليف الواقع بطريقة تجعلنا مقتنعين بأن ما لدينا من مشكلات ومن ألم شيء خاص فريد من نوعه في العالم كلّه، وذلك على الرغم من الأدلة الكثيرة التي تشير إلى عكس هذا. إن بني البشر في حاجة إلى هذا المستوى من النرجسية المتأصلة، لأن النرجسية هي خط الدفاع الأخير في مواجهة الحقيقة غير المريحة. فلنكن واقعيين: الناس سيئون؛ والحياة تزداد صعوبة واستعصاء على التوقّع. ومعظمنا يتدبّر أموره كيفما اتّفق... هذا إن لم يعجز أصلًا عن تدبّرها. فإذا لم يكن لدينا اعتقاد زائف بأننا متفوقون (أو بأننا أقل مستوى)، وإذا لم يكن لدينا اعتقاد واهم بأننا ممتازون في شيء ما، فسوف نلقي بأنفسنا من فوق أقرب جسر. من غير قدر طفيف من ذلك الوهم النرجسي، ومن غير كذبة خصوصيتنا التي نقولها لنفسنا دائمًا، فمن المحتمل كثيرًا أن نفقد أي أمل.

لكن هذه النرجسية الملازمة لنا ليست من غير تكلفة علينا. وسواء كنت ترى نفسك أفضل من في العالم، أو أسوأ من في العالم، فإن هناك شيئًا صحيحًا واحدًا: أنت منفصل عن العالم.

وهذا الانفصال هو ما يديم المعاناة التي لا ضرورة لها[1].

---

(1) من حيث الجوهر، كلما ازداد الألم الذي نعيشه، كلما كبُرت الهوة الأخلاقية؛ وكلما كبرت الهوة الأخلاقية، كلما صرنا أكثر ميلًا إلى نزع الصفة البشرية عن أنفسنا و/ أو عن الآخرين؛ وكلما نزعنا الصفة البشرية عن أنفسنا و/ أو عن الآخرين، صار أكثر سهولة علينا أن نبرر إنزال المعاناة بأنفسنا أو بالآخرين.



هويتك تظلّ هويتك
إلى أن تعارضها تجربة جديدة

ها هي قصة حزينة شائعة كثيرًا. شاب يخون فتاته. قلب الفتاة مكسور. الفتاة يائسة. الشاب يهجر الفتاة فتعيش في ألم يمتدّ أعوامًا بعد ذلك. تشعر الفتاة بأنها قليلة القيمة إلى أقصى حدٍّ. وحتى يحافظ دماغها الذي يشعر على الأمل، لا بد لدماغها المفكّر من الاختيار بين تفسيرين ممكنين اثنين. يمكنها الاعتقاد بأن: آ) الشبان سيئون كلّهم؛ ب) هي فتاة سيئة[1].

لكن هذا سيئ! هذان خياران سيئان، كلاهما.

لكن الفتاة تقرّر الاقتناع بالخيار (آ، «الشبان سيئون كلّهم»)، وهذا لأنها مضطرّة، بعد كل حساب، أن تعيش مع نفسها. إلا أن هذا الخيار لا يُتخذ على نحو واعٍ! إنه «يحدث» فحسب[2].

نقفز بضع سنين إلى الأمام. تلتقي الفتاة شابًا آخر. هذا الشاب ليس سيئًا. الحقيقة أنه عكس ذلك تمامًا. إنه رائع بالفعل. إنه شاب حلو المعشر؛ وهو مهتمٌّ بها... إنه مهتمٌّ بها فعلًا.

---

(1) تكون ردة الفعل الصحية هنا هي خيار «بعض الشبان سيئون»، وأما عندما نتعرض لألم شديد، فإن دماغنا الذي يشعر يولّد مشاعر عنيفة تجاه فئات بأسرها من التجارب ولا يكون قادرًا على هذه التمييزات.

(2) من الواضح أن هناك متغيرات كثيرة تفعل فعلها في هذه الحالة: القيم التي كانت لدى الفتاة سابقًا، ونظرتها إلى قيمتها الذاتية، وطبيعة الانفصال، وقدرتها على التوصل إلى الحميمية، وسنها، وأصولها الإثنية، وقيمها الأخلاقية، وهكذا دواليك.

لكن الفتاة تواجه لغزًا. كيف يمكن أن يكون هذا الشاب حقيقيًا؟ كيف يمكن أن يكون ما تراه فيه صحيحًا؟ هي تعرف أن الشباب سيئون جميعًا! هذه حقيقة. يجب أن تكون حقيقة؛ فلديها جراح عاطفية تبيّن أن هذه هي الحقيقة.

المحزن هنا أن إدراك الفتاة أن هذا الشاب ليس سيئًا يكون أمرًا مؤلمًا جدًّا لدماغها الذي يشعر بحيث يصعب عليه التعامل معه. وهكذا فإنها تقنع نفسها بأن هذا الشاب سيء في حقيقة الأمر. إنها تتصيّد أصغر عيوبه. وهي تلاحظ كل كلمة غير مناسبة يقولها، وكل لفتة يلتفتها، وكل لمسة غريبة. يتركّز انتباهها على أصغر أغلاطه وأقلّها أهمية إلى أن تصير تلك الأغلاط فاقعة الوضوح في ذهنها كأنها ضوء وامض يصيح بها: «اهربي! أنقذي نفسك!».

هذا ما تفعله الفتاة. إنها تهرب. لكنها تهرب بأسوأ طريقة ممكنة. تتركه وتذهب إلى شاب آخر. ففي آخر المطاف، الفتيان جميعًا سيئون! فما الفارق بين واحد وآخر؟ هذا لا معنى له.

ينكسر قلب الشاب. الشاب يائس. يستمر ألمه عدة سنين، ويتحوّل إلى إحساس بالعار. يجعله إحساسه بالعار في موقف صعب. وذلك لأن دماغه الذي يفكّر يجد نفسه أمام ضرورة الاختيار بين أمرين: آ) الفتيات كلهنّ سيئات؛ ب) هو سيء.

ليست قيمنا مجرّد تجميع لمشاعرنا. إنها قصصٌ عشناها.

عندما يحسّ دماغنا الذي يشعر بشيء من الأشياء، فإن دماغنا الذي يفكّر ينكَبّ على العمل لإنشاء قصة تشرح ذلك الشيء. ليست خسارتك وظيفتك أمرًا سيئًا فحسب، بل إنك تنشئ من حوله قصّة كاملة: لقد أساء إليك مديرك التافه بعد سنوات من العمل المخلص! لقد وهبت تلك الشركة نفسَك كلّها! فما الذي حصلت عليه مقابل ذلك؟

تظل هذه القصص التي ننشئها ملتصقة بأذهاننا. إنها تلتصق بهوياتنا كأنها ملابس ضيّقة مبتلّة. نحملها معنا ونعرّف أنفسنا بها. ونحن نبادل قصصنا بقصص أخرى، ونبحث عن أشخاص لديهم قصص تلائم قصصنا. ندعو أولئك الأشخاص أصدقاء أو حلفاء، أو أشخاصًا طيبين. وأما من يحملون قصصًا تعارض قصصنا، فنحن نعتبرهم أشرارًا.

من حيث الأساس، تكون قصصنا عن أنفسنا متعلقة بـ: آ) قيمة شيء أو شخص؛ ب) مدى استحقاق ذلك الشيء أو الشخص تلك القيمة. وتكون القصص كلها مبنية بالطريقة التالية:

تحدث أشياء سيئة لشخص (أو لشيء)؛ وهو لا يستحقّها.

تحدث أشياء جيدة لشخص (أو لشيء)؛ وهو لا يستحقّها.

تحدث أشياء جيدة لشخص (أو لشيء)؛ وهو يستحقّها.

تحدث أشياء سيئة لشخص (أو لشيء)؛ وهو يستحقّها.

ما من كتاب، أو أسطورة أو خرافة... أو ما من معنى من المعاني البشرية التي يتبادلها الناس ويتذكّرونها، إلا وهو صدى لتلك القصص المحمّلة بالقيم، واحدة بعد أخرى، من الآن وإلى الأبد[1].

---

(1) وجدت دراسة على نموذج حاسوبي جرت في سنة 2016 أن هناك ستة أنماط من القصص: الصعود (من الفقر إلى الغنى)، والسقوط (من الغنى إلى الفقر)، والصعود ثم السقوط (إيكاروس)، والسقوط ثم الصعود (رجل في حفرة)، والصعود ثم السقوط ثم الصعود (سندريلا)، والسقوط ثم الصعود ثم السقوط (أوديب). هذه كلها - من حيث الجوهر - أشكال مختلفة لتجربة «جيد/ سيئ» نفسها، بالإضافة إلى الاستحقاق الجيد/ الاستحقاق السيئ. أنظر أدريين لافرانس، «الاتجاهات الرئيسية الستة في القصص»، *ذي أتلانتيك*، 12 تموز 2016.
https://www.theatlantic.com/technology/archive/2016/07/the - six - main - arcs - in - storytelling - identified - by - a - computer/490733/.

إننا نخترع هذه القصص من أجل أنفسنا، وهي قصص متعلّقة بما نراه مهمًا أو غير مهم، مستحَقًا أو غير مستحَقٍ... تلتصق هذه القصص بنا، وتُعرّفُنا، وتقرّر كيف تكون علاقتنا بالعالم وكيف تكون علاقة كل منا بالآخر. إنها تقرر كيف نشعر تجاه أنفسنا - ما إذا كنا نستحقّ حياة جيدة أو لا نستحقّها؛ وما إذا كنا نستحقّ أن نكون محبوبين أو لا نستحقّ أن نكون محبوبين؛ وما إذا كنا نستحقّ النجاح أو لا نستحقّه. وهي تحدّد ما نعرفه وما نفهمه عن أنفسنا.

هذه الشبكة من القصص القائمة على القيم هي هويتنا. عندما تقول في نفسك إنك قبطان مركب شجاعٌ، فإن هذه هي القصّة التي أنشأتها لكي تُعرّف نفسك، ولكي تعرِف نفسك. إنها واحد من مكونات ذاتك التي تتحرّك وتتحدّث... مُكوِّنٌ تقدّمه إلى الآخرين وتضعه على صفحتك في فايسبوك. أنت تقود المراكب؛ وأنت تفعل ذلك على نحو جيّد. وبالتالي، فأنت تستحقّ الأشياء الجيدة.

لكن، ها هو الشيء الغريب: عندما تتبنّى هذه القصص وتجعلها هوية لك، فإنك تهتم بحمايتها وتستجيب لها استجابة انفعالية كما لو أنها جزء حقيقي أصيل منك. ومثلما يمكن أن تثير قرصة مؤلمة ردة فعل عنيفةً لديك، يؤدي مجيء شخص ما وقوله إنك قبطان مركب فاشلٌ إلى إنتاج ردة الفعل السلبية نفسها؛ وهذا لأننا نستجيب بردة فعل تحاول حماية جسدنا اللاماديّ مثلما نستجيب بردّة فعل تحاول حماية جسدنا المادي.

تكبر هوياتنا خلال حياتنا مثلما تكبر كرة الثلج عند تدحرجها فتراكم مزيدًا ومزيدًا من القيم والمعاني مع مرور الزمن. تكون قريبًا من أمّك في طفولتك، فتمنحك تلك العلاقة الأمل مما يجعلك تنشئ في ذهنك قصة توفر تعريفًا جزئيًا لك، مثلما يتحدّد تعريفك - جزئيًا - بشعرك الكثيف أو بعينيك البنّيتين أو الشكل الغريب لأظافر قدميك. تكون أمّك جزءًا

كبيرًا من حياتك. إنها امرأة مدهشة. أنت مدين لأمّك بكل شيء. وذلك الكلام كلّه الذي يقوله الناس في المناسبات الكبيرة. تجد عند ذلك أنك تحمي ذلك الجزء من هويتك كما لو أنه جزء منك أنت. يأتي شخص ما ويقول عن أمك كلامًا سيئًا فيغضبك هذا كثيرًا ويجعلك شخصًا عنيفًا.

ثم تخلق تلك التجربة في ذهنك قصة جديدة وقيمة جديدة. تقرر أنك شخص لديه مشكلة الغضب غير الطبيعي... عندما يتعلّق الأمر بأمك خاصة. الآن، يصير هذا القرار جزءًا لا يتجزّأ من هويتك.

هكذا تجري الأمور.

كلما طال زمن احتفاظنا بقيمة من القيم، كلما صارت في مكان أعمق داخل كرة الثلج، وكلما صارت أساسية بالنسبة إلى نظرتنا أنفسنا، وكذلك بالنسبة إلى نظرتنا إلى العالم.

يشبه هذا الأمر تزايد الفائدة في قرض مصرفي، إذ إن قيَمنا تتضاعف مع الزمن وتصير أكثر قوة وتصبغ تجاربنا المستقبلية بصبغتها. لا يكون الأمر ناتجًا عن الإساءة التي تعرضتَ لها عندما كنت في المدرسة فحسب، بل هو ناتج عن كل ما أصابك من إساءات غيرها، إضافة إلى النرجسية والكره اللذين تحملهما معك عشرات السنين وتضعهما في علاقاتك المستقبلية مما يؤدّي إلى فشلها وإلى تفاقم الأمر مع مرور الزمن.

هناك أمور كثيرة لا يعرفها علماء النفس معرفة أكيدة[1]، لكنهم

---

(1) إن ميدان علم النفس واقع الآن في «أزمة تكرار»، بمعنى أن هناك نسبة كبيرة من اكتشافاته الرئيسية لا يتكرر ظهورها من خلال إجراء مزيد من التجارب. انظر إد يونغ: «أزمة التكرار في علم النفس تفقد أعذارها»، *ذي أتلانتيك*، 18 تشرين الثاني 2018
https://www.theatlantic.com/science/archive/2018/11/psychologys - replication - crisis - real/576223/.

يعرفون بالتأكيد أن ما نتعرّض له في الطفولة يؤذينا[1]. إن «مفعول كرة الثلج» الذي يخصّ القيَم التي يكتسبها المرء في وقت مبكّر من حياته، هو ما يجعل تجاربنا في الطفولة (سواء كانت تجارب جيدة أو تجارب سيئة)، تترك أثرًا بعيد الأمد على هوياتنا وتولّد في نفوسنا قيمًا أساسية لا تلبث أن تصير عاملًا محدِّدًا لقسم كبير من حياتنا. تصير تجاربك الأولى هي قيمك الجوهرية؛ وإذا كانت قيمك الجوهرية سيئة، فإنها تخلق أثرًا سيئًا مستمرًا يمتد عبر السنين ويكون له أثره السامُّ على تجاربك كلّها، كبيرها وصغيرها.

عندما نكون في مقتبل العمر، تكون هوياتنا صغيرة هشّة. لا تزال تجربتنا قليلة. ونحن معتمدون في كل شيء اعتمادًا تامًّا على الأشخاص الذين يعتنون بنا. إن من المحتّم أن يقع أولئك الأشخاص في تقصير، أو في أخطاء. ويمكن للإهمال، أو الأذى، أن يسبّب ردات فعل عاطفية شديدة تكون نتيجتها هوّات أخلاقية كبيرة لا تتم موازنتها أبدًا. يهجر والدك البيت فيقرر عقلك الذي يشعر (الذي يكون عمره ثلاث سنوات) أنك لست شخصًا محبوبًا على الإطلاق. أو تتركك أمك لكي تتزوج رجلًا ثريًا، فيقرّر عقلك أن الصلة القوية الحميمة بين الناس أمر لا وجود له، وأن الثقة بأي شخص أمر غير ممكن.

لا عجب إذًا في أن يكون نيوتن شخصًا منعزلًا غريب الأطوار[2].

---

(1) دائرة الوقاية من العنف، «دراسة ACE لتجارب الطفولة غير المواتية»، المركز القومي لمراقبة الإصابات والوقاية منها، مراكز مراقبة الأمراض والوقاية منها، أتلانتا، أيار 2014.

https://www.cdc.gov/violenceprevention/acestudy/index.html

(2) كان نيوتن في حياته الحقيقية شخصًا غاضبًا محبًا للانتقام. ثم إنه كان شخصًا منعزلًا أيضًا. ومن الواضح أنه مات من غير أن يتزوج. توحي السجلات المتوفّرة بأن من المحتمل تمامًا أنه كان معتزًا بتلك الحقيقة.

لكن أكثر ما في الأمور سوءًا هو أن انتباهنا إلى حقيقة أننا نحمل هذه القصص معنا زمنًا طويلًا يتناقص كلّما طال أمدُ تمسكنا بها. تصير تلك القصص خلفية عامة دائمة في أفكارنا كلها كأنها ديكورات داخلية في عقولنا. فعلى الرغم من كونها قصصًا اعتباطية مختلقة تمامًا، فإنها تبدو لنا طبيعية جدًّا، بل حتمية أيضًا[1].

تتبلور القيم التي نلتقطها ونحملها على امتداد حياتنا وتتصلّب مشكّلةً طبقة مترسِّبة فوق شخصيتنا[2]. وتكون الطريقة الوحيدة لتغيير قيمنا هي أن نخوض تجارب تعاكس تلك القيم. ولا مفر من أن تكون أية محاولة

---

(1) هذا ما يعتبره فرويد - مخطئًا - نوعًا من الاكتئاب. كان يرى أننا نمضي حياتنا في كبت ذكريات طفولتنا المؤلمة؛ وأننا نستطيع تحرير المشاعر السلبية المحبوسة داخل أنفسنا من خلال استعادة تلك الذكريات من اللاوعي إلى الوعي. لكن ما اتضح في وقت لاحق هو أن تذكر أذيّات الماضي لا يحقّق كبير فائدة. لا يركز القسم الأكبر من أساليب المعالجة المتبعة اليوم على استعادة الماضي بقدر ما يركز على تعلم كيفية تدبير المشاعر والانفعالات في المستقبل.

(2) كثيرًا ما يخلط الناس بين قيمنا الجوهرية وشخصياتنا، والعكس بالعكس. الشخصية شيء عصيّ على التغير إلى حدٍّ بعيد. وبحسب نموذج الشخصية المسمى «الخمسة الكبار»، تتألف شخصية المرء من خمس سمات أساسية: الانفتاح، والضمير، والمقبولية، والاستجابات العصبية، وتقبُّل التجارب الجديدة. وأما قيمنا الجوهرية فهي الأحكام التي تتكوّن لدينا في مرحلة مبكرة من العمر استنادًا، في جزء منها، إلى الشخصية. على سبيل المثال، يمكن أن أكون شديد التقبل للتجارب الجديدة، وهذا ما يجعلني أرى قيمة في الاستكشاف والفضول، وذلك منذ مرحلة مبكرة من عمري. سوف يكون لهذه القيمة المبكرة أثرها على تجاربي اللاحقة، وسوف تخلق عندي قيمًا أخرى تكون مرتبطة بها. إن التنقيب عن القيم الجوهرية وتغييرها أمر صعب، في حين لا يمكن أن تتغيّر الشخصية تغيرًا كبيرًا، أو لا يمكن أن تتغيّر على الإطلاق. للاطلاع على المزيد في ما يخص نموذج الشخصية المسمى «الخمسة الكبار»، انظر الكتاب الذي حرّره توماس أ. ويدغارد: *«دليل أوكسفورد إلى نموذج العوامل الخمسة»*، (نيويورك: منشورات جامعة أوكسفورد، 2017).

للتخلّص من تلك القيم القديمة عن طريق تجارب جديدة مخالفة لها أمرًا مؤلمًا غير مريح"[1]. هذا هو السبب الكامن خلف حقيقة أنه ما من تغيّرٍ خالٍ من الألم، وما من نمو أو تطور خال من عدم الارتياح. هذا هو سبب استحالة أن تصير شخصًا جديدًا من غير أن تحزن حزنًا شديدًا، أول الأمر، على الشخص الذي كنته قبل ذلك.

فعندما نفقد قيمنا، يصيبنا حزن شديد على موت تلك القصص التي كانت تعريفًا لنا، وذلك كما لو أننا فقدنا جزءًا من أنفسنا، والحقيقة أننا نكون قد فقدنا جزءًا من أنفسنا. الحقيقة هي أننا نحزن عند خسارة شخص نحبّه، أو خسارة بيت، أو عملنا، أو الجماعة التي كنا نعيش بينها، أو معتقدنا الروحي، أو صداقتنا. هذه كلّها أجزاء معرِّفة أساسية منا. وعندما تنسلخ عنا، فإن الأمل الذي تقدمه لنا ينسلخ عنا بدوره ويتركنا معرَّضين من جديد للحقيقة غير المريحة.

هناك طريقتان لكي تشفي نفسك، أي لكي تستبدل بالقيم القديمة المَعيبة قيمًا أفضل منها. الطريقة الأولى هي إعادة تفحّص تجارب الماضي وإعادة صياغة القصص التي أنشأناها من حولنا. انتظر!... هل سدّد إليَّ ذلك الشخص لكمة لأنني شخص سيئ أم لأنه هو الشخص السيئ؟

تسمح لنا إعادة تفحّص قصص حياتنا بأن نبنيها من جديد، وبأن نتخذ قرارًا: نعم، ربما لم أكن قبطان مركب عظيمًا في حقيقة الأمر؛ لكن هذه ليست مشكلة! غالبًا ما ندرك، مع مرور الزمن، أن ما كنا نعتقد أنه مهمٌّ بشأن عالمنا ليس مهمًّا في حقيقة الأمر. وفي أوقات أخرى، ننظر

---

(1) ويليام سوان، بيتر رنتفراو، جينفر سيلر: «التحقّق من الذات: البحث عن الانسجام»، *دليل الذات والهوية* (نيويورك: منشورات غيلفورد، 2003)، ص: 367 - 383.

إلى الحكاية كلها من جديد حتى نراها بصورة أوضح في ضوء قيمتنا الذاتية - أوه، لقد تركتْني لأن شخصًا تافهًا تركها فأحستْ بالعار وبأنها فاشلة في العلاقات الحميمة - وعلى نحو مفاجئ لنا، يبدو ابتلاع حقيقة حصول ذلك الانفصال أمرًا شديد السهولة.

هناك طريقة أخرى لتغيير قيمك، ألا وهي أن تبدأ إعادة كتابة قصص مستقبلك بنفسك، وأن تتصوّر كيف ستكون الحياة عندما تكون لك مجموعة بعينها من القيم، أو عندما تمتلك هوية بعينها. من خلال تصور المستقبل الذي نريده لأنفسنا، نسمح لدماغنا الذي يشعر بأن «يجرّب» تلك القيم (كما يجرب المرء الملابس قبل شرائها) حتى نعرف كيف يكون إحساسنا بها قبل أن نُقدم على الخطوة النهائية. وفي آخر المطاف، وبعد أن نقوم بهذا قدرًا كافيًا من المرات، يكون الدماغ الذي يشعر قد اعتاد تلك القيم الجديدة، ويكون قد بدأ «الاقتناع» بها وتقبّلها.

عادة ما يجري تعليم هذا النوع من «تصوّر المستقبل» بأسوأ الطرق: «تخيل أنك ثري جدًا وأن لديك أسطولًا من اليخوت! عندها سيصير ذلك حقيقة»[1].

المؤسف أن ذلك النوع من التصوّر لا يستبدل بالقيم الحالية غير الصحيّة (النزعة الماديّة) قيمًا أفضل منها. إنه ليس أكثر من إثارة لقيمك الحالية. وأما التغيير الحقيقي فيشتمل على تخيّل كيف يمكن أن يكون شعورك عندما «لا ترغب في امتلاك اليخوت أصلًا».

ينبغي أن يكون التخيل المثمر غيرَ مريح إلى حد ما. ينبغي أن يتحدّاك

---

(1) هذا هو هراء «قانون التجاذب» الذي يجده المرء كثيرًا في ميدان المساعدة الذاتية، وذلك على امتداد عشرات السنين. من أجل نظرة شاملة إلى هذا النوع من الهراء، انظر مارك مانسون: «الهراء المفزع عن 'السر'»، MarkManson.net، 26 شباط 2015، https: / /markmanson.net /the – secret.

وأن يطرح عليك أشياء ليس من السهل أن تفهمها. إذا لم يكن كذلك، فهذا يعني أن ما من شيء يتغير.

لا يعرف الدماغ الذي يشعر الفرق بين الماضي والحاضر والمستقبل؛ فهذا هو ميدان نشاط الدماغ المفكّر[1]. ومن الاستراتيجيات التي يستخدمها الدماغ المفكّر لحشر الدماغ الذي يشعر في الزاوية أسلوب طرح أسئلة من قبيل «ماذا لو»: ماذا لو كرهتَ المراكب، ورحت بدلًا من ذلك، تمضي وقتك في مساعدة الأطفال المعوقين؟ ماذا لو كنت غير مضطر إلى إثبات أي شيء للناس الذين في حياتك حتى تصير محبوبًا لديهم؟ ماذا لو كانت عدم قدرتك على الالتقاء بالناس أمرًا ناتجًا عن مشكلة فيهم لا عن مشكلة فيك؟

وفي حالات أخرى، يمكنك أن تكتفي بأن تخبر دماغك الذي يشعر قصصًا قد تكون صحيحة أو غير صحيحة، لكنها تبدو صحيحة. يقول الكاتب جوكو ويلينك، الذي كان جنديًا في القوات الخاصة في البحرية الأميركية في كتابه «الانضباط يساوي الحرية: دليل عمل ميداني»، إنه يستيقظ في الرابعة والنصف من صباح كل يوم لأنه يتخيل أن عدوّه آتٍ لمهاجمته في مكان ما من العالم[2]. هو لا يعرف المكان، لكنه يفترض أن عدوه يريد قتله. وهو يعرف أنه إذا كان مستيقظًا قبل عدوّه، فإن هذا

(1) لا تظهر القدرة على تذكّر التجارب السابقة وتصوّر تجارب المستقبل إلا مع تطور الفص الجبهي في الدماغ (هذا هو الاسم الذي يطلقه علم الأعصاب على الدماغ المفكّر). انظر و. يونغ، أ. رين، «المكتشفات الخاصة بتركيبة ووظائف الفص الدماغي الجبهي لدى الأفراد العنيفين والمعادين للمجتمع والمصابين بالذّهان: تحليل مقارب»، *أبحاث علم النفس* 174، العدد 2 (تشرين الثاني 2009): 81 - 88.

(2) جوكو ويلينغ، *«الانضباط يساوي الحرية: دليل ميداني»*، (نيويورك: منشورات سينت مارتن، 2017)، ص: 4 - 6.

يمنحه أفضلية عليه. اخترع ويلينك هذه القصة لنفسه عندما كان جنديًا في حرب العراق حيث كان لديه أعداء حقيقيون يريدون قتله. لكنه احتفظ بتلك القصة بعد عودته إلى الحياة المدنية.

من الناحية الموضوعية، ليس لهذه القصة التي اخترعها ويلينك لنفسه أي معنى على الإطلاق. فأيُّ عدو هذا؟ وأين هو؟ أما من الناحية المجازية والشعورية/ الانفعالية، فهي قصة قوية فعّالة إلى حدٍّ لا يصدق. لا يزال دماغ ويلينك الذي يشعر يصدّق هذه القصة، ولا يزال هذا الأمر يجعله ينهض من فراشه قبل أن ينهي بعض الناس سهرة الليلة السابقة. هذا هو وهم التحكّم بالنفس.

فمن غير هذه القصص – من غير أن نصنع صورة واضحة للمستقبل الذي نريده وللقيم التي نريد تبنّيها، وللهويات التي نريد أن نتخلّى عنها أو أن نعتمدها – نظلّ محكومين دائمًا بتكرار فشلنا السابق وما يرافقه من ألم. إن قصص ماضينا هي التي تحدّد هوياتنا. وقصص مستقبلنا تحدّد آمالنا. وقدرتنا على دخول هذه القصص والعيش فيها، وجعلها حقيقة واقعة، هي ما يمنح حياتنا معناها.

الجاذبية الانفعالية

كان نيوتن جالسًا وحيدًا في غرفة نومه في طفولته. الظلام مخيّم في الخارج. لم يعرف كم من الوقت مر منذ استيقاظه، ولا كم كانت الساعة، ولا في أي يوم هو. إنه يعمل وحيدًا في غرفته منذ أسابيع. لم يأكل شيئًا من الطعام الذي أتى به أقاربه وتركوه عند الباب. لقد تعفّن الطعام. يتناول ورقة بيضاء ويرسم عليها دائرة كبيرة. يحدّد نقاطًا على محيط تلك الدائرة، ثم يشير بخط متقطع إلى القوة التي تشد كل نقطة منها إلى المركز. يكتب تحت الرسم «إن لقيمنا جاذبية انفعالية: نحن

نجتذب الأشخاص الواقعين ضمن مدارنا ممن يحملون القيم نفسها التي نحملها. ونحن نتنابذ غريزيًا، كما يتنابذ مغناطيسان، مع أولئك الذين يحملون قيمًا تعاكس قيمنا[1]. تشكّل هذه التجاذبات مدارات كبيرة من الأشخاص من ذوي العقلية المتشابهة الذين يدورون من حول المبادئ نفسها. يمرّ كل منهم عبر المسار نفسه، ويدور ويدور من حول الشيء المهم نفسه».

ثم يرسم نيوتن دائرة أخرى إلى جانب الدائرة الأولى. تكاد الدائرتان تتلامسان. ثم يرسم خطوط التجاذب والشد بين حافتي الدائرتين في الأماكن التي تتعرّض لتأثير الجذب من الاتجاهين مما يشوّه انتظام كل مدار. يكتب نيوتن: «كتل كبيرة من الناس تتجمّع معًا وتشكّل مدارات وجماعات قائمة على تقييمات متشابهة لتواريخها الانفعالية. أنت تعتبر أن للعلم قيمة كبيرة، يا سيدي. وأنا أيضًا أرى له قيمة كبيرة. من هنا، فإن هناك تجاذبًا مغناطيسيًا بيننا. تتجاذب قيمنا وتجعل كلًا منا يقع ضمن مدار الآخر. تتناغم قيمنا فتصير قضيتنا واحدة»...

«لكن...! لنقل إن لدينا شخصين يرى أحدهما القيمة في الكنيسة البيوريتانية، ويرى الآخر القيمة في الكنيسة الأنغليكانية. إنهما مقيمان ضمن جاذبيتين اثنتين مختلفتين على الرغم من أن الصلة بينهما وثيقة. هذا ما يؤدّي إلى أن يُلحق كل منهما تشويشًا بمدار الآخر، ويسبّب توترًا ضمن تراتبية القيم، ويمثل تحدّيًا لهوية الآخر، وبالتالي فإنه يولّد مشاعر وانفعالات سلبية تدفعهما إلى التباعد وتضع قضيتيهما على طرفي نقيض»...

---

(1) مارتين ليا وستيف داك: «نموذج من أجل دور تماثلية القيم في تطور علاقات الصداقة»، *المجلة البريطانية لعلم النفس الاجتماعي* 21، العدد 4 (تشرين الثاني 1982)، 301 – 310.

«أستطيع أن أعلن الآن أن هذه الجاذبية العاطفية/ الانفعالية هي النظام الأساسي لكل ما لدى البشر من طموحات ونزاعات»...

عند هذه النقطة، يتناول إسحاق نيوتن ورقة بيضاء أخرى ويرسم مجموعات من دوائر مختلفة الأقطار. إنه يكتب: «كلما ازداد تمسكنا بقيمة من القيم، أي كلما شدّدنا تشديدًا أكثر قوة على تفوّق شيء ما على كل ما عداه، أو على كونه أقل مما عداه، كلما ازدادت جاذبية هذا الشيء، وكلما صار المدار من حوله أقل اتساعًا وصار التشويش على مسار ذلك الشيء وهدفه من قبل قوى خارجية أمرًا أكثر صعوبة»[1]...

«من هنا، فإن قيمنا الأكثر قوة تطالب الآخرين بقدر أكبر من الانجذاب والولاء، أو بقدر أكبر من الابتعاد والنفور - كلما ازداد عدد الناس الذين يقاسموننا القيمة نفسها، كلما ازداد تكتل أولئك الناس وانتظامهم ضمن جسم موحد منسجم من حول تلك القيمة: العلماء مع العلماء، ورجال الدِّين مع رجال الدِّين. إن الناس الذين يحبّون الشيء نفسه، يحبّ أحدهم الآخر. والناس الذين يكرهون الشيء نفسه يكره أحدهم الآخر. والناس الذين يحبّون (أو يكرهون) أشياء مختلفة، يكره أحدهم الآخر. وفي نهاية المطاف، تصل الأنظمة البشرية كلّها إلى التوازن من خلال هذا التجمع والتوافق ضمن منظومات من الأنظمة القيَمية المشتركة - يتجمّع الناس معًا ويتقاربون، فيغيّرون قصصهم الشخصية ويعدّلونها إلى أن تصير قصصهم كلّها قصة واحدة. ومن هنا، تصير الهوية الشخصية هي هوية الجماعة نفسها»...

---

(1) من حيث الأساس، تقول هذه الاستعارة إن ازدياد القيمة التي نراها في شيء ما يؤدّي إلى تناقص استعدادنا لوضع تلك القيمة موضع تساؤل، أو لتغييرها. وبالتالي، فإن الألم يكون أكبر عندما تخذلنا تلك القيمة ويتبيّن لنا أنها غير صحيحة.

«لعلك تقول الآن 'لكن، يا صديقي نيوتن... ألا تتمثّل القيمة في الأشياء نفسها لدى أكثر الناس؟ ألا يريد أكثر الناس طعامًا ومكانًا آمنًا لكي يناموا في الليل؟'... ردًا على هذا، أقول إنك محق يا عزيزي!»...

«إن أوجه التشابه بين الشعوب كلها أكثر من أوجه الاختلاف. ويريد أكثرنا الأشياء نفسها من هذه الحياة. لكن تلك الاختلافات الطفيفة بيننا هي ما يولّد مشاعرنا وانفعالاتنا التي تولّد بدورها إحساسًا بالأهمية. وبالتالي، ينشأ لدينا تصور غير متناسب أبدًا في ما يخص أهمية تلك الاختلافات مقارنة بأهمية التشابهات. هذه هي مأساة الإنسان الحقيقية: إننا محكومون بالتنازع الدائم حول اختلافاتنا الطفيفة»...[1].

«إن هذه النظرية في التجاذب العاطفي، وفي التوافق والتجاذب بين القيم المتشابهة، هي ما يفسر تاريخ الشعوب[2]. هناك عوامل جغرافية مختلفة في الأجزاء المختلفة من العالم. قد تكون منطقة من المناطق وعرة، صعبة المسالك، يسهل الدفاع عنها في مواجهة الغزاة. وهذا ما يجعل ميل سكانها إلى العزلة والحياد أمرًا طبيعيًا. وسوف يصير هذا الميل هوية جماعية لهم. وقد تكون هناك منطقة أخرى فيها وفرة فائضة من الطعام والشراب، فيميل أهلها إلى قيم حسن الضيافة والانفتاح والبهجة. سوف تصير هذه القيم هوية لهم. وقد تكون لدينا منطقة أخرى قاحلة يصعب العيش فيها، لكن لها آفاقًا مفتوحة تصلها بأراضٍ بعيدة

---

(1) هذا ما سماه فرويد «نرجسية الاختلافات الصغيرة»، فقد لاحظ أن مشاعر الكراهية بين شخص وآخر تبلغ أشد حالاتها ضمن المجموعات التي يكون بينها أكبر قدر من المشتركات. انظر سيغموند فرويد، «*المدنية وما فيها من عدم الرضا*»، ترجمة ديفيد ماكليتوك (1941)؛ أعيد نشره في نيويورك: بينغوين بوكس، 2002، ص: 50 - 51.

(2) توماسيلو، «*تاريخ طبيعي للأخلاق البشرية*»، ص: 85 - 93.

كثيرة. سوف تتركّز قيم أهل هذه الأرض على السلطة والقيادة العسكرية القوية والهيمنة المطلقة، فتصير هذه القيم هوية لهم»...[1].

«ومثلما يحمي الفرد هويته من خلال قناعاته وأفكاره المسبقة والتبريرات المنطقية التي يضعها لها، فإن الجماعات البشرية والقبائل والأمم تحمي هوياتها بالطريقة نفسها[2]. وفي آخر المطاف، تتصلّب هذه الثقافات وتتبلور فتصير أممًا لا تلبث أن تتوسّع وتجذب مزيدًا من الناس إلى الانضواء تحت مظلة منظومة القيم الخاصة بها. وبعد ذلك، تتصادم تلك الأمم وتتصادم قيمها المختلفة»...

لا يجد أكثر الناس لأنفسهم قيمة أعلى من قيمهم الثقافية وقيم جماعاتهم. من هنا، يكون كثير من الناس مستعدين للموت في سبيل قيمهم العليا، في سبيل الأسرة، والناس الذين يحبّونهم، وفي سبيل أمتهم أو إلههم. ونتيجة هذا الاستعداد للموت من أجل القيم، لا بد أن تؤدّي الاصطدامات بين الثقافات المختلفة إلى حروب»[3]...

«ليست الحرب إلا اختبارًا دنيويًا للأمل. إن البلد أو الشعب الذي يتبنّى قيمًا تشدّد أقصى تشديد على آمال عناصره ومواردهم هو الذي يخرج منتصرًا. وكلما غزت أمّة من الأمم مزيدًا من الشعوب المجاورة وأخضعتها، كلما ازداد إحساس أبناء الأمة الفاتحة بأنهم يستحقّون أن يهيمنوا على غيرهم من الناس، وكلما ازداد ميلهم إلى اعتبار قيم

---

(1) هذه الفكرة معروفة باسم «الجغرافيا الثقافية». للاطلاع على مناقشة ساحرة لها، انظر جارد ديموند: *«بنادق وجراثيم وفولاذ: أقدار المجتمعات البشرية»*، (نيويورك: و. و. نورتون وشركاه، 1997).

(2) توماسيلو: *«تاريخ طبيعي للأخلاق البشرية»*، ص: 114 - 115.

(3) يعبّر المنظّر العسكري كارل فون كلاوشفيتز عن هذا الأمر بجملة شهيرة: «الحرب هي استمرار للسياسة بوسائل أخرى».

أمتهم نورًا هاديًا ينبغي أن يقود البشرية كلّها. ثم لا يلبث تفوّق تلك القيم المنتصرة أن يستمر ويتواصل، فيجري تدوين تلك القيم والإشادة بها في كتب التاريخ، وتتحوّل إلى قصص تُروى مرة بعد مرة ويجري تناقلها لكي تمنح أجيال المستقبل أملًا. وبعد ذلك، عندما تفقد هذه القيم فعاليتها، فإنها تخسر أمام قيم أمّة أخرى أحدث عهدًا، فتبدأ حقبة تاريخية أخرى»...

... «وأنا أعلن أن هذا هو شكل التطوّر البشري».

ينتهي نيوتن من الكتابة. ثم يضع نظريته في التجاذب العاطفي على الرف نفسه الذي وضع عليه قوانينه الثلاث. وبعد ذلك، يتوقّف للتأمل في ما توصل إليه.

في تلك اللحظة الهادئة من الليل، ينظر إسحاق نيوتن إلى الدوائر التي رسمها على الورق فيدرك شيئًا مفاجئًا مقلقًا: ليس له مدار! فعلى امتداد سنين من الصدمات والفشل الاجتماعي، فصل نيوتن نفسه طوعًا عن كل شيء وعن كل إنسان، فصار كأنه نجم وحيد يتحرّك على مساره الخاصّ حيث لا تعيقه ولا تؤثّر عليه جاذبية أية منظومة أخرى.

يدرك نيوتن أنه لا يجد القيمة في أي شخص - ولا حتى في نفسه - فيسبّب له هذا الإدراك إحساسًا غامرًا بالوحدة وبالحزن. لا يستطيع أي مقدار من المنطق ومن الحسابات أن يكون تعويضًا عن اليأس الممض الناجم عن الصراع المستمرّ للدماغ الذي يشعر للعثور على أمل في هذا العالم.

أتمنى لو كنت أستطيع الآن إخباركم بأن نيوتن الموجود في ذلك الكون الموازي قد تغلّب على حزنه وعلى عزلته. وأتمنّى لو كنت أستطيع الآن إخباركم بأنه تعلّم كيف يجد القيمة في نفسه وفي الآخرين. لكن حياة نيوتن التي في الكون الموازي ستنقضي في وحدة وغضب

وبؤس مثلما انقضت حياة إسحاق نيوتن الذي عاش في كوننا هذا.

إن الأسئلة التي أجاب عليها هذان النيوتنان في ذلك الصيف من سنة 1665 قد حيّرت الفلاسفة والعلماء على امتداد أجيال كثيرة. إلا أن هذا الشاب المشاكس المبتعد عن المجتمع الذي كان في الخامسة والعشرين من العمر قد تمكّن من حل اللغز خلال بضعة شهور فقط. هناك، عند آخر حدود الاكتشافات الفكرية، رمى نيوتن بمكتشفاته جانبًا في زاوية بائسة منسية من غرفة ضيقة في قرية نائية واقعة على مسيرة أيام كثيرة إلى الشمال من لندن.

وهناك، ستظل مكتشفاته محجوبة عن العالم وقد كساها الغبار[1].

(1) لقد بقيت قوانين نيوتن الحقيقية، قوانين الحركة، تجمع الغبار على الرف نحو عشرين سنة قبل أن يستعيدها ويجعل الآخرين يرونها.

الفصل الرابع

كيف تجعل أحلامك كلّها تتحقّق

تخيل المشهد التالي: إنها الساعة الثانية بعد منتصف الليل. أنت لا تزال مستيقظًا، جالسًا على الأريكة تحدّق في شاشة التلفزيون بعينين زائغتين ودماغ ضبابي. لماذا تفعل هذا؟ أنت لا تعرف! ببساطة، العطالة هي ما يجعل الجلوس هناك ومتابعة النظر إلى التلفزيون أكثر سهولة من النهوض والذهاب إلى السرير، ولهذا فإنك تظلّ جالسًا تشاهد التلفزيون.

عظيم! هكذا أراك في أحيان كثيرة عندما تشعر بالحزن والضياع وبالسلبية التامة في مواجهة أقدارك. لا يمكن أن يظل أحدٌ جالسًا ينظر إلى التلفزيون حتى الساعة الثانية بعد منتصف الليل إن كان لديه شيء مهم يفعله في اليوم التالي. ولا يمكن أن يجد أي شخص صعوبة كبيرة في استجماع الإرادة اللازمة لكي يحرّك مؤخرته وينهض عن الأريكة، ويستمر في هذا الصراع ساعات طويلة، إلا إذا كانت لديه أزمة أمل داخلية من نوع ما. هذه الأزمة تحديدًا هي ما أريد الحديث عنه.

ثم أظهر أمامك على شاشة التلفزيون. إنني إعصار من الطاقة. ألوان صاخبة متحرّكة، ومؤثّرات صوتية عجيبة. إنني لا أتحدّث حديثًا عاديًا، بل أصيح صياحًا. لكن ابتسامتي تظلّ مسترخية لطيفة على نحو ما. إنني مرتاح. يبدو لك الأمر كما لو أنني أنظر إلى عينيك أنت، أنت فقط. أقول لك: «ماذا لو قلت لك إنني قادر على حلّ مشكلاتك كلّها؟». فتقول في

نفسك: أوووف، ما هذا؟ أنت لا تعرف ولو حتى نصف مشكلاتي، يا صاحبي!

«وماذا لو قلت لك إنني أعرف كيف أجعل أحلامك كلّها تتحقّق؟».

تقول في نفسك: واوو!... وأنا جنية الأسنان التي يتحدّثون عنها.

أقول لك: «انظر، أعرف كيف هو إحساسك الآن».

يأتي ردّك التلقائي مفاجئًا لك: لا يعرف أحد كيف هو شعوري.

أقول لك: «وأنا أيضًا كنت أشعر بالضياع ذات يوم. كنت أشعر بأنني وحيد معزول يائس. وأنا أيضًا كنت أظلّ مستلقيًا صاحيًا في الليل من غير سبب محدّد. أسأل نفسي إن كان هناك شيء خاطئ عندي... وأتساءل عما إن كانت هناك قوة غير مرئية تقف بيني وبين أحلامي. وأنا أعرف أن هذا هو ما تشعر به. أعرف أنك فقدت شيئًا ما، لكنّك لا تعرف ما فقدت».

حقيقة الأمر هي أنني أقول هذه الأشياء لأن كل إنسان يمرّ بها. إنها واحدة من حقائق الوجود البشري. يشعر كل منا بالعجز عن التوازن إزاء الإحساس بالذنب الذي يرافق وجودنا. وبدرجات مختلفة، يعاني كل منا، ويشعر بأنه ضحية، وذلك في مقتبل العمر خاصّة. ويمضي كل واحد منا عمره محاولًا التعويض عن تلك المعاناة.

حتى في تلك اللحظات من حياتنا عندما يسير كل شيء على نحو جيد تمامًا، فإن هذا هو ما يجعلنا نشعر بنوع من اليأس.

لكن، مثلما يحدث مع أكثر الناس الذين يعانون هذه الصعوبات، فإنك منغمس كثيرًا في ألمك إلى حد يجعلك تنسى أن هذا الألم أمر شائع وأن معاناتك ليست معاناة فريدة تخصك أنت وحدك... على العكس تمامًا، فإن معاناتك هذه معاناة عامة. ولأنك نسيت هذا، تشعر

الآن بأنني أتحدّث إليك مباشرة كما لو أنني قادر، بقدرة سحرية ما، على النظر في داخل روحك وعلى قراءة ما في قلبك. هذا هو سبب جلوسك وانتباهك إلى ما أقوله لك.

أكرر ما قلته لك قبل قليل: «لأن لدي حلًا لمشكلاتك كلّها. أنا قادر على جعل أحلامك تتحقّق كلها». أشير بإصبعي الذي يبدو عملاقًا على شاشة التلفزيون... «لدي الإجابات كلّها، ولديَّ سِرّ السعادة الدائمة والحياة الأبدية. السرّ هو...».

يكون ما أقوله بعد ذلك شديد الغرابة، شديد السخف؛ ويكون كلامًا متهكّمًا شاذًا إلى حدٍّ يجعلك تظن أنه قد يكون صحيحًا. المشكلة هي أنك راغب في تصديقي. أنت في حاجة إلى أن تصدقني. إنني أمثّل الأمل والخلاص الذي يتوق إليهما دماغك الذي يشعر بيأس شديد... إنني أمثّل الأمل والخلاص اللذين هو في حاجة إليهما. وهكذا، فإن دماغك المفكّر يتوصّل ببطء إلى أن الفكرة التي أطرحها فكرة مجنونة تمامًا... مجنونة إلى حد قد يجعلها تنجح.

ومع استمرار البرنامج التلفزيوني، تتحطّم حاجتك الوجودية إلى العثور على معنًى في مكان ما، في أي مكان... تنهار حواجزك الدفاعية النفسية فتسمح لي بالدخول. ألم أبيّن لك معرفتي الجيّدة بألمك، وبالمدخل السرّي إلى حقيقتك الدفينة، وبذلك الشريان العميق الذاهب إلى قلبك؟ تدرك الآن أنني قلت لك: لقد كنت في حالة بائسة مثلك، ذات يوم... وقد وجدت طريق الخروج منها. تعال معي!

أواصل كلامي. إنني أتألق الآن. تنتقل الكاميرا جيئة وذهابًا وتصورني من الأمام مرة وبشكل جانبي مرة. وفجأة يظهر جمهور أمامي في الاستوديو. إنهم مستغرقون تمامًا في كل كلمة أقولها. امرأة تبكي. ورجل انفتح فمه ذهولًا. فمك ينفتح أيضًا. إنني داخلَ مشكلتك الآن.

وسوف أعطيك إجابة شافية دائمة. سوف أملأ أية هوّة وأسدُّ أيّ ثقب. ما عليك إلا أن تبادر إلى الالتحاق بهذه الدورة مقابل سعر مخفَّض. ما قيمة ما يحدث بالنسبة إليك؟ ما قيمة الأمل بالنسبة إليك؟

تحرّك الآن، بادر إلى التسجيل. اليوم.

مع تلك الكلمات، تمتدّ يدك إلى هاتفك. تدخل ذلك الموقع على الإنترنت. وتقوم بالتسجيل.

الحقيقة والخلاص والسعادة الدائمة... كلّها لك. إنها آتية إليك. فهل أنت مستعدٌ؟

كيف تبدأ دينًا خاصًا بك

مدخلٌ إلى نظام مضمون يساعدك في تحقيق السعادة الدائمة والخلاص الأبدي! (وإلا فسوف نعيد إليك نقودك)

أهلًا بك. أهنّئك على القيام بالخطوة الأولى في اتجاه تحقيق أحلامك كلها. في نهاية هذه الدورة، ستحلّ مشكلاتك كلّها. سوف تعيش حياة الوفرة والحرية. وسوف تكون محاطًا بمن تحبهم، وبأصدقاء يعبدونك عبادة.

كل شيء مضمون[1]!

الأمر في غاية البساطة، ويستطيع أي إنسان فعله. لا حاجة إلى أية شهادة وإلى أي مستوى تعليمي. لست في حاجة إلا إلى اتصال بالإنترنت ولوحة مفاتيح تعمل جيدًا حتى تصير أنت أيضًا قادرًا على إنشاء دِينك الخاص بك.

نعم، لقد سمعتني جيدًا. أنت أيضًا قادر على بدء دِينك الخاص بك – اليوم – وستبدأ جني المكاسب من آلاف الأتباع المخلصين لك إخلاصًا أعمى ممن يغدقون عليك حبًّا غير مشروط، وعطايا مالية، وإعجابات لا تنتهي على وسائل التواصل الاجتماعي.

سوف نغطي ما يلي من خلال هذا البرنامج البسيط المكون من ست خطوات والذي يستطيع أي شخص تنفيذه.

أنظمة الإيمان – هل تريد أن يكون دِينك الجديد روحانيًا أم علمانيًا؟ هل تريد أن ينصَبَّ تركيزه على الحاضر أم على الماضي؟ وهل

(1) تطبّق الشروط والأحكام.

تريد أن يكون دينًا عنيفًا أم غير عنيفٍ؟ هذه أسئلة بالغة الأهمية. لكن، لا تقلق، فلن يطّلع أحد غيري على الإجابات.

كيف تعثر على أول المريدين - والأكثر أهمية من هذا: كيف تريد أن يكون أتباعك ومريدوك؟ أثرياء؟ فقراء؟ ذكورًا؟ إناثًا؟ نباتيين؟ إنني أعرف المعلومات السرية!

الشعائر، الشعائر، الشعائر! - قل هذا. قف هناك. كرّر هذا. انحنِ، واركع، وضمّ كفيك معًا! افعل هذا وذاك، ودر حول نفسك! هذا هو الأمر كله! الشيء الأكثر متعة في هذا الدِين هو ابتكار حركات غبيّة يعرف الجميع أن لا معنى لها. سوف أقدّم إليك دليلًا شاملًا من أجل تطوير أحدث أنواع الشعائر وأظرفها. سوف يتحدّث عنها الأولاد كلّهم... لأنهم سيكونون مرغمين على الحديث عنها.

كيف تختار كبش فداء - لا يكتمل أي دِين من غير وجود عدو مشترك يستطيع المرء أن يسقط عليه مشكلاته الداخلية. الحياة صعبة؛ لكن، لماذا تعالج مشكلاتك حين تكون قادرًا على الاكتفاء بلوم غيرك عليها؟ هذا صحيح. وسوف تكتشف الطريقة الأفضل لاختيار بعبع شرير وكيفية إقناع أتباعك بكرهه. لا شيء يوحّدنا مثل كره عدو مشترك بيننا جميعًا. استعد للهجوم.

وأخيرًا، كيف تجني المال - لماذا تنشئ دِينًا خاصًّا بك إذا كنت لا تستفيد منه. سوف يعطيك هذا الدليل كل ما يلزم من معلومات تفصيلية بخصوص كيفية احتلاب أقصى ما يمكن احتلابه من أتباعك. سواء كنت ساعيًا خلف المال أو الشهرة أو النفوذ السياسي أو سفك الدماء، فأنا قادر على جعلك تحقّق ذلك كلّه.

انظر جيدًا!... إننا جميعًا في حاجة إلى جماعات بشرية حتى نستطيع

أن نبني أملًا. ونحن كلّنا في حاجة إلى الأمل حتى لا نفقد عقولنا ونقوم بأفعال مجنونة.

إن الدِّيانات هي أساس ذلك الأمل الجماعي المشترك. وسوف نتعلم كيفية إنشائها من الصفر.

الدِّيانات شيء جميل. فعندما تستطيع جمع عددٍ كافٍ من الأشخاص الذين يحملون القيم نفسها، فإنهم يتصرّفون بطريقة لا يمكن أن يتصرّفوا بها عندما يكونون أفرادًا. إن أملهم يكبر ضمن شبكة من التأثير المتبادل، وتؤدّي الثقة الاجتماعية الناجمة عن كونهم جزءًا من جماعة أكبر إلى اختطاف أدمغتهم المفكّرة وترك أدمغتهم التي تشعر تجري منطلقة على هواها[1].

إن الدِّيانات تقرب بين جماعات من الناس بحيث تعزز كل منها الأخرى وتجعلها تشعر بأهميتها. إنه اتفاق كبير صامت على أننا سنشعر بالقيمة وبالأهمية إذا اجتمعنا كلنا معًا خلف غاية مشتركة، فتصير الحقيقة غير المريحة أكثر بعدًا عنا[2].

إن هذا الأمر مُرضٍ كثيرًا من الناحية النفسية. يتخلّص الناس من مشكلاتهم! وأروع ما في الأمر هو أن إقناعهم يصير في غاية السهولة. وأما المفارقة، فهي أن الفرد لا يتصوّر أنه متحكّم بنفسه تمامًا إلا عندما يكون ضمن وسط جماعي لا تَحَكُّمَ له بنفسه فيه. إلا أن خطورة هذا الوصول المباشر إلى الدماغ الذي يشعر هي أن الجماعات الكبيرة من

---

(1) غوستاف لو بون، «*الجمهور: دراسة في العقل الجماعي الشعبي*»، (1896)؛ أعيد نشره في نيويورك: منشورات دوفر، 2002، ص: 17.

(2) يسمي جوناثان هيدت هذه الظاهرة «فرضية خلية النحل». انظر جوناثان هيدت: «*العقل المقتنع بصلاحه: لماذا يكون الناس الجيدون منقسمين بفعل السياسة والدين*»، (نيويورك، فينتيج بوكس، 2012)، ص: 261 – 270.

الناس تصير مَيّالة إلى الإقدام على أفعال متهوّرة لا عقلانية. إذًا، فمن ناحية أولى، يشعر الناس بأن هناك من يفهمهم ويحبّهم. ومن ناحية أخرى، هم يتحوّلون أحيانًا إلى قتلة جماعيين، وإلى جمهرة غاضبة من الغوغاء[1].

سوف يسير بك هذا الدليل عبر تفاصيل عملية إنشاء الدِّين الخاصّ بك حتى تصير قادرًا على جني المكاسب من آلاف الأتباع الذين يسهل التأثير عليهم. فلنبدأ.

(1) لو بون: «الجمهور»، ص: 24 - 29.

كيف تبدأ دينًا خاصًا بك

الخطوة الأولى: بع الأمل لليائسين

لا أنسى أبدًا تلك المرة الأولى التي قال لي أحدهم فيها إن على يدي دمًا. أتذكر ذلك كما لو أنه حدث يوم أمس.

كان ذلك في سنة 2005، في صباح يوم مشمس منعش في مدينة بوسطن بولاية ماساشوستس. كنت في ذلك الوقت طالبًا جامعيًا؛ وكنت ذاهبًا إلى دروسي حين رأيت مجموعة من الأولاد يحملون صورًا لهجمات التاسع من سبتمبر الإرهابية كُتب عليها «أميركا تستحق هذا».

لا أعتبر نفسي شخصًا شديد الوطنية بأي حال من الأحوال. لكني أحسّ بأن أي شخص يحمل لافتة من هذا النوع في وضح النهار يصير شخصًا مستفزًا للجميع.

توقّفت وتحدّثت مع أولئك الفتيان وسألتهم عما يفعلونه. كانت لديهم طاولة صغيرة عليها بعض المنشورات. كانت في واحدة من تلك المنشورات صورة لوزير الدفاع ديك تشيني وقد رسموا له قرنَيْ شيطان وكتبوا تحت صورته «قاتل بالجملة». صورة أخرى للرئيس جورج دبليو بوش بشاربَيْ هتلر.

كان أولئك الطلبة من حركة لاروش الشبابية، وهي جماعة أسسها الإيديولوجي اليساري المتطرِّف ليندون لاروش في نيو هامبشاير. كان أتباعه مستعدين لقضاء ساعات لا نهاية لها واقفين حول المباني الجامعية شمال شرق الولايات المتحدة حيث يوزعون المنشورات على الطلبة الجامعيين الذين يسهل التأثير عليهم. عندما تحدّثت معهم، لم يستغرق الأمر أكثر من عشر ثوانٍ قبل أن أدرك ما كانوه في حقيقة الأمر: إنه دِين!

هذا صحيح. لقد كانوا دِينًا إيديولوجيًا: دِين ضد الحكومة، ضد الرأسمالية، ضد كبار السن، ضد المؤسّسة. وكانوا يقولون إن النظام العالمي، من قمته إلى أسفله، نظام فاسد. قالوا أيضًا إنه لا سبب لشنّ حرب العراق سوى أن أصدقاء الرئيس بوش أرادوا الحصول على مزيد من المال. قالوا أيضًا إن الإرهاب وحوادث القتل الجماعي أمور لا وجود لها. وإنها ليست أكثر من مسرحيات حكومية أُعدّت جيدًا من أجل ضبط السكان والتحكّم بهم. لا تقلقوا يا أصدقائي اليمينيين؛ فسوف نرى بعد سنوات شاربَيْ هتلر على صورة الرئيس أوباما وسنسمع المزاعم نفسها عنه... إن كان هذا يجعلكم أكثر ارتياحًا.

ما تفعله حركة لاروش الشبابية أمر عبقريٌ تمامًا. إنها تبحث عن طلبة جامعيين ساخطين، متوتّرين (عادة ما يكونون ذكورًا صغار السنّ). إنهم أولاد مذعورون وغاضبون في الوقت نفسه (مذعورون جراء المسؤولية المفاجئة التي صاروا مرغمين على حملها، وغاضبون نتيجة المتطلّبات المترتّبة على أن يصير المرء راشدًا، وخيبة الأمل الناتجة عن ذلك)، ثم يوجّهون إليهم رسالة بسيطة واحدة: «الذنب ليس ذنبك أنت».

نعم، أيها الشاب... كنت تظن أن الذنب ذنب أمك وأبيك، لكنه ليس ذنبهما. لا. أعرف أيضًا أنك كنت قد ظننته ذنب أساتذتك السيئين وذنب الكليات الجامعية ذات التكاليف المرتفعة. لا. ليس الذنب ذنب هؤلاء. بل لعلك ظننت أيضًا أنه ذنب الحكومة. اقتربت قليلًا... لكن أيضًا، لا.

إنه ذنب النظام كلّه، ذنب ذلك الكيان الضخم الغامض الذي تسمع عنه دائمًا.

هذا هو الإيمان الذي كانت حركة لاروش تُسوِّق له: إذا استطعنا الإطاحة «بالنظام»، فإن كل شيء سيصير على ما يُرام. لا مزيد من الحروب. ولا مزيد من المعاناة. ولا مزيد من الظلم.

تذكّر أنه لا بد لنا، حتى نشعر بأن هناك أملًا، من الشعور بأن هناك مستقبلًا أفضل (القيم). إننا في حاجة إلى الشعور بأننا قادرون على الوصول إلى ذلك المستقبل الأفضل (التحكّم بالنفس). ونحن في حاجة إلى العثور على أشخاص آخرين يشاطروننا القيم نفسها ويساندون مسعانا (الجماعة).

تتميّز مرحلة بداية النضج بأنها المرحلة التي يعاني فيها كثير من الناس مشكلات القيَم والتحكّم بالنفس والجماعة. فللمرّة الأولى في حياتهم، يصير مسموحًا لهم بأن يقرروا بأنفسهم كيف يريدون أن يكونوا في المستقبل. هل يريد أحدهم أن يصير طبيبًا؟ هل يريد دراسة الأعمال؟ هل يريد الانتساب إلى برنامج لدراسة علم النفس؟ من الممكن أن تكون كثرة الخيارات مذهلة[1]. إن ما يواجهه أولئك الشباب من حيرة وإحباط أمر لا مفرّ منه، وهو يجعل قسمًا كبيرًا منهم يضع قيَمه موضع التساؤل، ويفقد الأمل.

فضلًا على هذا، يجد الشباب الصغار مشقّة في السيطرة على النفس[2]. فللمرّة الأولى في الحياة، يجدون أنفسهم من غير شخصية ذات سلطة تتولّى مراقبتهم أربعًا وعشرين ساعة في كلّ يوم من الأيام. ومن ناحية

---

(1) باري شوارتز وأندرو وارد: «أداء أفضل وشعور أسوأ: مفارقة الاختيار»، لدى ب. ألكس لاينلي وستيفن جوزيف، *«علم النفس الإيجابي في التطبيق»*، (هوبوكن، نيو جيرسي: جون وايلي وأبناؤه، 2004)، ص: 86 - 105.

(2) تواصل أدمغة المراهقين تطورها حتى مرحلة متقدمة من العشرينات من أعمارهم، وخاصة تلك الأجزاء من الدماغ التي تكون مسؤولة عن الوظائف التنفيذية. انظر س. ب. جونسون، ر. و. بلوم، ج. ن. جيد، «نضج المراهق ودماغه: وعود وإخفاقات دراسات علوم الأعصاب في السياسات الصحية للمراهقين»، مجلة *صحة المراهق: نشرة رسمية للجمعية في موضوع طب المراهقة* 45، العدد 3 (2009)، 216 - 221.

أولى، فإن من الممكن أن يبعث هذا فيهم إحساسًا بالإثارة وبالتحرّر. ومن ناحية أخرى، يصيرون الآن مسؤولين عن قراراتهم التي يتّخذونها بأنفسهم. وإذا ما فشلوا في جعل أنفسهم يستيقظون في الوقت المناسب لكي يذهبوا إلى دروسهم أو إلى أعمالهم، وإذا فشلوا في الدراسة كما ينبغي، فإن من الصعب عليهم الإقرار بأن ما من أحد يستطيعون لومه على ذلك غير أنفسهم.

أخيرًا، يكون أولئك الشباب منشغلين انشغالًا خاصًا بالعثور على مكان لهم ضمن الجماعة البشرية التي يعيشون فيها[1]. هذا أمر مهم من أجل تطوّرهم العاطفي/ الانفعالي؛ وهو يساعدهم أيضًا في العثور على هوية لأنفسهم وفي تمتين تلك الهوية[2].

يستفيد أشخاص من أمثال ليندون لاروش من الشباب الضائع الذي لم يجد لنفسه هدفًا. لقد قدّم إليهم لاروش تفسيرًا سياسيًا معقّدًا يوفّر لهم مبرّرًا لذلك السخط الذي يعتمل في نفوسهم. وقد أعطاهم إحساسًا بأنهم متحكّمون بأنفسهم، وبأنهم يمتلكون القدرة، من خلال إرشادهم إلى سبيل من أجل تغيير العالم (مثلما يظنّون). وأخيرًا، فقد أعطاهم «جماعة» يعرفونها ويستطيعون الاندماج بها.

هذا يعني أنه أعطاهم أملًا[3].

---

(1) س. تشودوري، س. ج. بليكمور، ت. تشارمان، «التطوّر المعرفي الاجتماعي خلال فترة المراهقة»، *علم الأعصاب الاجتماعي المعرفي والتأثيري*، الجزء 1، العدد 3 (2006): 165 – 174.

(2) إن هذا العمل في تعريف الشخصية وتحديدها أهمُّ مشروع تناول المراهقين وصغار السن من البالغين. انظر إيريك هـ. إيركسون: *«الطفولة والمجتمع»*، (نيويورك: و. و. نورتون وشركاه، 1963)، ص: 261 – 265.

(3) أظن أن الناس الذين مثل لاروش ليسوا «استغلاليين» عن وعي. فمن المرجح أن يكون لاروش نفسه لا يزال عالقًا من الناحية النفسية عند مستوى نضج لا يتجاوز

في ذلك اليوم، سألت أولئك الطلبة مشيرًا إلى صور برجَيْ مركز التجارة العالمي على منشوراتهم: «ألا ترون أنكم تذهبون إلى أبعد مما ينبغي؟»[1].

أجابني واحد منهم: «على الإطلاق، يا رجل. بل أقول لك إنك أنت الذي لا يذهب إلى الحد الكافي».

«انظر... أنا لم أمنح الرئيس بوش صوتي في الانتخابات. وأنا لست موافقًا على حرب العراق، لكن...».

«لا أهمية للشخص الذي منحته صوتك في الانتخابات. التصويت لأي كان ليس أكثر من تصويت للنظام الفاسد القمعي! إن يديك ملوثتان بالدم».

«عفوًا، ماذا تقول؟».

لم أكن أعرف حتى كيف أوجّه لكمة إلى شخص ما، لكنني وجدت نفسي أشد قبضة يدي. هذا الفتى... من يظن نفسه؟

تابع الشاب كلامه: «أنت ترتكب ذلك من خلال مشاركتك في النظام. وبالتالي فأنت مشارك في قتل ملايين المدنيين الأبرياء في أنحاء العالم. خذ. اقرأ هذا». قدّم لي منشورًا من مناشيرهم. نظرت إلى المنشور، ثم قلبته على الوجه الآخر.

قلت له: «هذا شيء غبيّ جدًا».

استمر «نقاشنا» بضع دقائق على هذا النحو. كانت معرفتي محدودة

= مستوى المراهقة، وبالتالي فهو يسعى خلف قضايا منتمية إلى المراهقة ويستميل أشخاصًا آخرين ضائعين في مرحلة المراهقة. انظر الفصل السادس.

(1) هذا الحوار منقول نقلاً تقريبيًا هنا، وذلك بالاعتماد على ذاكرتي. كان هذا منذ خمسة عشر عامًا؛ ومن الطبيعي ألا أكون قادرًا على تذكّر الكلمات التي قيلت بالضبط.

في ذلك الوقت. وكنت لا أزال أظن أن الأمور التي من هذا النوع تكون مبنية على المنطق والدليل، لا على المشاعر والقيم. لا يمكن تغيير القيم من خلال أية مناقشة منطقية؛ فالقيم لا تتغير إلا عبر التجربة.

فاض بي الكيل في آخر المطاف، وشعرت بقدر غير قليل من الانزعاج، فقرّرت الذهاب. بدأت الحركة، فحاول الفتى جعلي أسجل اسمي من أجل حضور ندوة نقاش مجّانية. قال لي: «ينبغي أن يكون عقلك منفتحًا. إن الحقيقة أمر مخيف».

نظرت إليه وأجبته بعبارة لكارل ساغان قرأتها في واحد من المنتديات على الإنترنت: «أظن أن عقلك منفتح كثيرًا إلى حد جعله يسقط منك»[1].

أحسست بأنني ذكي. كنت معجبًا بنفسي. وأظنّه كان يحس نفسه ذكيًا. وكان معجبًا بنفسه. ولكن... لم يتغيّر شيء في عقلي، ولا في عقل ذلك الشاب.

نكون في أقصى حالات القابلية للتأثّر عندما تصير الأمور في أسوأ أحوالها[2]. عندما تتهاوى حياتنا يكون هذا إشارة إلى أن قيمنا لم تسعفنا فتتحسّس أيدينا الضوء من حولنا بحثًا عن قيم جديدة تحل محلّها. تسقط دِيانة كانت موجودة، وينفتح المجال من أجل حلول دِيانة أخرى محلّها. يبحث الأشخاص الذين فقدوا إيمانهم بإلههم الروحاني عن إله دنيوي

---

(1) قرّرت البحث عن المكان الذي قال فيه ساغان هذا الأمر، فاتضح لي أن مقولته هذه تخصّ شخصًا آخر (على غرار أكثر ما نجده في الإنترنت من مقولات يُستشهد بها)، ثم إن هذه المقولة سبقت ساغان بخمسين سنة. من الواضح أن البروفيسور وولتر غوتشينغ هو أول من كُتب أنه قالها، وذلك في سنة 1949. انظر: https://quoteinvestigator.com/2014/04/13/open - mind/

(2) إيريك هوفر: *«المؤمن الحق، أفكار في طبيعة الحركات الجماعية»*، (نيويورك: هاربر بيريميال، 1951)، ص: 3 – 11.

بديل. ويبحث الناس الذين فقدوا الأسرة عن انتماء بديل إلى جماعة، عرق أو عقيدة أو أمّة. ويلجأ الناس الذين فقدوا إيمانهم بحكومتهم أو ببلادهم إلى إيديولوجيات متطرّفة حتى تمنحهم أملًا[1].

هناك سبب جعل الديانات الكبرى في العالم، كلّها، ترسل مبشّرين إلى أفقر مناطق العالم وأكثرها حرمانًا: يكون الجائعون مستعدين للإيمان بأي شيء إذا وفّر لهم ذلك الإيمان طعامًا. وفي ما يخص دِينك الجديد، فإن من الأفضل أن تبدأ التبشير برسالته لدى من تكون حياتهم في غاية السوء: الفقراء، والمنبوذون، والمنسيّون، ومَن يتعرّضون للإساءات. ومن جملة هؤلاء، لديك الأشخاص الذين يمضون النهار كلّه على فايسبوك[2]. لقد كوّن جيم جونز جماعة من الأتباع من خلال استقطاب المشرّدين والأقليات المهمشة من خلال رسالة اشتراكية زيّنها بفهمه الخاص (المختلّ) للمسيحية. عجبًا!... ما الذي أقوله الآن؟!... لقد فعل يسوع المسيح الأمر نفسه[3]. فعله بوذا أيضًا. وفعله موسى... أظنّكم أدركتم الفكرة. يتوجّه القادة الدِّينيون إلى الفقراء وإلى المسحوقين والمستعبدين فيقولون لهم إنهم يستحقّون مملكة السماء. من حيث الجوهر، يكون هذا إدانة مفتوحة للنخب الفاسدة في ذلك الزمان. إن استقطاب الناس للوقوف خلف هذه الرسالة ليس أمرًا صعبًا على الإطلاق.

---

(1) المصدر السابق، ص: 16 - 21.

(2) المصدر السابق، ص: 26 - 45.

(3) ما يلفت النظر بالنسبة إلى يسوع هو أن السجل التاريخي يوحي بأنه - على الأرجح - كان متطرفًا سياسيًا في بداية مشواره، وكان يحاول قيادة انتفاضة ضد احتلال الإمبراطورية الرومانية لأرض «إسرائيل». ولم يحدث إلا بعد وفاته أن تحوّل دينه الإيديولوجي إلى دين أكثر روحانية. انظر رضا أصلان: «*المتحمّس: حياة يسوع الناصري وزمانه*»، (نيويورك: راندم هاوس بوكس، 2013).

في يومنا هذا، صار الوصول إلى اليائسين أكثر سهولة من أي وقت مضى. لست في حاجة إلا إلى حساب في إحدى وسائل التواصل الاجتماعي: ابدأ نشر الهراء المتطرّف المجنون، واترك الإنترنت يقوم ببقية المهمة. كلما ازداد جنون ما تنشره، وكلما ازداد تطرفه، كلما حظيت بانتباه أكبر، وكلما تجمع لديك اليائسون مثلما يتجمّع الذباب على روث البقر. ليس هذا صعبًا على الإطلاق!

لكنك لا تستطيع الاكتفاء بالنشر عبر الإنترنت وقول أي شيء. لا... ينبغي أن تكون رسالتك منسجمة (بعض الشيء). يجب أن تكون لديك رؤية. هذا لأن من السهل جعل الناس مستفزين غاضبين تجاه شيء ما - لقد قدمت وسائل الإعلام الإخبارية نموذجًا حقيقيًا لهذا الأمر. لكنك لا تستطيع إعطاء الناس أملًا إلا إذا جعلتهم يشعرون بأنهم جزء من حركة كبيرة وبأنهم موشكون على أن يصيروا في الجانب المنتصر في التاريخ.

حتى يتحقّق هذا، لا بد لك من منحهم إيمانًا.

الخطوة الثانية: اختر إيمانك

لا بد لأيّ شخص منا أن يكون مؤمنًا بشيء ما، فلا أمل من غير إيمان.

إن لدى الناس غير المتدينين نفورًا من كلمة «إيمان»؛ لكن امتلاك الإيمان أمر لا مهرب منه. فالعلوم والبراهينِ قائمة على تجارب الماضي. وأما الأمل فهو مستند إلى تجارب متوقَّعَة في المستقبل. ولا بد لك دائمًا من الاعتماد على درجة ما من درجات الإيمان بأن شيئًا ما سيحدث في المستقبل[1]. أنت تسدّد أقساط بيتك لأن لديك إيمانًا

---

(1) يأتي هذا المفهوم من أفكار كارل بوبر عن «قابلية الدحض». فمن حيث الجوهر، يعتمد بوبر على ديفيد هيوم في القول إن الشيء، مهما يكن حدوثه قد تكرّر في الماضي، لا يمكن منطقيًا إثبات أنه سوف يحدث في المستقبل مرة أخرى. فعلى الرغم من أن الشمس تشرق من جهة الشرق وتغيب في الغرب، منذ آلاف السنين، ومن أن ما من أحد قد رأى عكس ذلك، فإن هذا لا يبرهن على أن الشمس ستظهر من جهة الشرق يوم غد. كل ما يبرهن عليه هذا الأمر هو أنه يقول لنا إن الاحتمال الأغلب هو أن هناك احتمالًا كبيرًا جدًا لأن تظهر الشمس غدًا من جهة الشرق. ويذهب بوبر إلى القول بأن الحقيقة التجريبية الوحيدة التي نستطيع معرفتها لا تكون من خلال التجريب نفسه، بل من خلال إثبات قابلية الدحض. لا يمكن إثبات شيء على الإطلاق. الممكن فقط هو نقض إثبات الشيء. من هنا، فحتى بالنسبة لأشياء معتادة وواضحة من قبيل ظهور الشمس من جهة الشرق وغروبها في جهة الغرب، يظلّ الأمر مسألة إيمان، إلى حد ما، على الرغم من كون حدوثه يكاد يكون مؤكّدًا تمامًا. إن أفكار بوبر مهمة لأنها تبين – من الناحية المنطقية – أن الحقائق العلمية نفسها مستندة إلى قدر من الإيمان. يمكنك تكرار التجربة مليون مرة، والحصول على النتيجة نفسها في كل مرة منها، لكنّ هذا كلّه لا يثبت أن النتيجة نفسها ستظهر عند تكرار التجربة للمرة رقم مليون وواحد. ففي لحظة ما، نختار بأن نعتمد على إيماننا بأن ما حدث سوف يواصل الحدوث بعد أن صارت نتائجه الإحصائية شديدة الوضوح بحيث يكون من الجنون عدم الإيمان بها. لمزيد من الإطلاع على أفكار بوبر عن «قابلية الدحض»، انظر كارل

بأن ذلك المال حقيقيٌ، وبأن قرض البيت حقيقي، وبأن التزام المصرف تجاهك أمر حقيقي أيضًا[1]. تقول لأطفالك إن عليهم أداء واجباتهم البيتية لأنك مؤمن بأن التعليم أمرٌ مهم، وبأنه يؤدّي إلى جعلهم أشخاصًا أكثر سعادة وصحة عندما يكبرون. أنت مؤمن بأن السعادة موجودة، وبأنها ممكنة. وأنت مؤمن بقيمة العيش زمنًا أطول، وهذا ما يجعلك تبذل الجهد للمحافظة على صحتك وسلامتك. لديك إيمان أيضًا بأن الحب مهمٌ، وبأن عملك مهمٌ، وبأن كل شيء من هذه الأشياء له أهمّيته.

هذا يعني أنه لا وجود للشيء الذي يسمّونه «انعدام الإيمان». هذا معتمد على ما تعنيه بتعبير «انعدام الإيمان»، أو «الإلحاد»[2]. فكرتي هي أنه لا بد لنا كلّنا من الاعتقاد، استنادًا إلى الإيمان، بأن شيئًا من الأشياء مهمٌّ. حتى إذا كنت شخصًا عدميًا، فإنك تكون مقتنعًا، أو مؤمنًا، بأن لا أهمية لأي شيء أكثر من أي شيء آخر.

= بوبر: *«منطق البحث العلمي»*، (1959)؛ أعيدت طباعته في نيويورك: روتليج كلاسيكس، 1992. ما أجده لافتًا للنظر في هذا المرض العقلي الذي يحرض على الوهم والهلوسة، وما إلى ذلك، يمكن أن يكون – من حيث جوهره – تعطلًا في وظيفة الإيمان. يعتبر أكثرنا أن من المؤكد أن الشمس ستظهر من جهة الشرق وأننا لن ننتهي جميعًا إذا قررت الجاذبية أن «تأخذ استراحة». لكنّ عقلًا يسعى جاهدًا إلى بناء إيمان بأي شيء، والمحافظة عليه، من الممكن أن تعذّبه هذه الاحتمالات الموجودة طيلة الوقت فتجعله يصاب بالجنون.

(1) يفترض الإيمان أيضًا أن مفرزات جسمك حقيقية وأنك لست مجرد دماغ في وعاء يتخيّل إدراكاتك الحسية كلّها – هذا تشبيه يحبه الفلاسفة. من أجل غوص ممتع في مسألة ما إذا كنت قادرًا حقًا على معرفة إن كان أي شيء موجودًا، عد إلى رينيه ديكارت: *«تأملات في الفلسفة الأولى»*.

(2) من الممكن أن تشير كلمة «ملحد» إلى عدد من الأشياء. وأما هنا، فإنني أكتفي بتبيان أنه لا بد لنا جميعًا من القبول بشيء من الإيمان ومن القيم القائمة على الإيمان، حتى إذا لم يكن إيماننا وقيمنا فوق طبيعيين. انظر جون غراي: *«سبعة أنماط من الإلحاد»*، (نيويورك: فرار وشتراوس وغيرو، 2018).

إذًا، فالأمر كلّه متعلّق بنوع من الإيمان، في آخر المطاف[1].

هنا، يكون السؤال المهم هو التالي: الإيمان بماذا؟ ما الذي نختار أن نكون مؤمنين به؟ مهما يكن الشيء الذي يعتبره دماغنا الذي يشعر أسمى قيمة على الإطلاق، فإن تلك القمة ضمن تراتبية القيم لدينا تصير هي العدسة التي نفسّر القيم كلّها من خلالها. فلنعطِ هذه القيمة الأكثر سموًّا اسم «قيمة إلهيّة»[2]. القيمة الإلهيّة لدى بعض الناس هي المال؛ وهكذا فإن أولئك الناس ينظرون إلى أي شيء آخر (الأسرة، والحب، والمكانة الاجتماعية، والسياسة) من خلال عدسة المال. لن تحبهم أسرتهم إلا إذا جنوا مالًا كافيًا. ولن يحترمهم الناس إلا إذا كان لديهم مال. كل نزاع، وغيرة، وتوتّر، وقلق... يمكن اختصاره إلى المال[3].

وهناك أشخاص يكون الحب هو القيمة الإلهية لديهم. إنهم ينظرون إلى القيم الأخرى كلها من خلال عدسة الحبّ - إنهم ضد الشقاق

---

(1) ديفيد هيوم: *«رسالة في الطبيعة البشرية»*. كتب هيوم أن «المعرفة كلّها تتفكّك إلى احتمالات؛ وتكون هذه الاحتمالات أكبر أو أصغر بحسب تجاربنا في ما يتعلق بصدق فهمنا أو زيفه، وكذلك بحسب مدى بساطة المسألة أو تعقيدها. (1739، القسم الرابع، الجزء الأول).

(2) ليست «القيمة الإلهية» شيئًا مثل «الحفرة التي على شكل إله» لدى باسكال. رأى باسكال أن كون رغبات الإنسان غير قابلة للإشباع، فإن ما من شيء قادر على ضبطها إلا إذا كان لا نهائيًا - ويكون هذا الشيء اللانهائي إلهًا. القيمة الإلهية أمر مختلف من حيث إنها ليست أكثر من قمة تراتبية القيم لدى الشخص. قد تحسّ نفسك بائسًا فارغًا، لكنك تظل محتفظًا بالقيمة الإلهية. والواقع أن القيمة الإلهية التي اخترتها قد تكون هي السبب في بؤسك وفراغك.

(3) لمزيد من مناقشة كيفية تأثير القيم الإلهية السطحية - كالمال مثلاً - على حياتك، انظر مارك مانسون: *«كيفية حكمنا على الآخرين ليست إلا كيفية حكمنا على أنفسنا»*، متوفّر على موقعي على الإنترنت، 9 كانون الثاني 2014.
https://markmanson.net/how - we - judge - others

والنزاع بمختلف أشكاله؛ وهم ضد كل شيء يقسم الناس أو يباعد بينهم.

ومن الطبيعي أيضًا أن هناك بشرًا كثيرين جدًا يرون القيمة الإلهية في الأنبياء، كيسوع المسيح أو محمد أو بوذا. وهم يفسّرون كل شيء يعيشونه من خلال العدسة التي توفّرها لهم تعاليم قائدهم الروحي.

يجد بعض الناس القيمة الإلهية في أنفسهم، أو... بالأحرى، في قدراتهم ومسرّاتهم. هذه هي النرجسية: دين تعظيم الذات[1]. يتركز إيمان أولئك الناس على تفوّقهم واستحقاقهم.

وهناك أيضًا من يجدون القيمة الإلهيّة في شخص آخر. غالبًا ما تدعى هذه الحالة «التعلّق العاطفي المرَضي»، أو «الاعتماد المتبادل»[2].

---

(1) على غرار المال أو الحكومة أو الأخلاقيات، تكون «الذات» أيضًا إنشاء عقليًا اعتباطيًا قائمًا على الإيمان. ما من دليل على أن تجربتك «ذاتك» موجودة فعلًا. إنها مجرد شيء مرتبط بتجربة وعيك، أي أنها صلة مشتركة بين الحسّ والعقل. انظر ديريك بارفيت: *«عقول وأشخاص»*، (كامبردج، المملكة المتحدة: منشورات جامعة كامبردج، 1984)، ص: 199 - 280.

(2) هناك عدد من الطرق لوصف الأشكال غير الصحية من الارتباط بشخص آخر، لكنني أستخدم هنا مصطلح «الاعتماد المتبادل» لأن استخدامه واسع الانتشار في أكثر الأدبيات. إن هذا التعبير مستمدّ من حركة «Alcoholics Anonymous». لاحظ الكحوليون أن أصدقاءهم وأفراد عائلاتهم يبدو عليهم إدمان على مساندتهم ورعايتهم في إدمانهم على الكحول مثلما هم مدمنون على الزجاجة. يعتمد الكحوليون على الكحول لكي يحسّوا بأنهم في حالة طبيعية جيدة، ويكون لدى أهلهم وأصدقائهم «اعتماد متبادل» لأنهم يستخدمون الإدمان على الكحول حتى يصير لديهم إحساس جيّد تجاه أنفسهم. ومنذ ذلك الوقت، حظي هذا المصطلح باستخدام واسع - فمن حيث الأساس، صار من الممكن وصف كل من يكون «مدمنًا» على مساندة شخص آخر ورعايته والحصول على تقدير ذاتي نتيجة ذلك بأن لديه حالة «الاعتماد المتبادل». هذه صيغة غريبة من التملّك بحيث تضع شخصًا على قاعدة كأنه تمثال وتجعله مركز عالمك وأساس أفكارك وأحاسيسك وجذر تقديرك لنفسك. بكلمات أخرى، فإنك تجعل ذلك الشخص

يستمدّ أولئك الناس أملهم كلّه من صلتهم بشخص آخر؛ ويكونون مستعدين للتضحية بأنفسهم وبمصالحهم من أجل ذلك الشخص. وهم يبنون سلوكهم كلّه، وقراراتهم، ومعتقداتهم، على ما يظنون أنه يسرّ ذلك الشخص - الذي يصير كأنه «إلههم» الشخصي. وهذا ما يقودهم عادة إلى علاقات مختلّة مع... (نعم، لقد حزرتم)... مع الأشخاص النرجسيين. ففي نهاية المطاف، تتركّز القيمة الإلهية لدى النرجسي في نفسه؛ وتكون القيمة الإلهية لدى أصحاب التعلّق العاطفي المرَضي متركّزة على المحافظة على صلتهم بذلك الشخص النرجسي. وهكذا، فإن العلاقة تتجلّى بطريقة مرضيّة غير سوية. (لكن، ليس تمامًا).

ينبغي أن تكون نقطة البدء في كل دين هي توفر إيمان قائم على قيمة إلهية ما. لا أهمية لطبيعة تلك القيمة الإلهية. إن عبادة القطط، أو الإيمان بالضرائب المنخفضة، أو الإيمان بعدم السماح لأطفالك بالخروج من البيت... كلها قيم قائمة على الإيمان بأن هذا الشيء الوحيد سوف ينتج أفضل واقع ممكن في المستقبل؛ وبالتالي فإنه يمنح أكبر قدر من الأمل. وعند ذلك، فإننا ننظّم حياتنا، وننظم قيَمنا كلّها، من حول تلك النقطة المركزية. ونحن نبحث عن نشاطات تعزز ذلك الإيمان، وعن أفكار تسانده؛ والأهم من ذلك هو أننا نبحث عن جماعة من البشر تشاطرنا إيماننا.

لقد حان الوقت الآن لأن يبدأ بعض القراء من ذوي العقول العلمية

= الآخر «قيمة إلهية» لديك. ومن المؤسف أن هذا يؤدّي إلى علاقات هدّامة إلى أقصى حد. انظر ميلودي بيتي، *«كفى اعتمادًا متبادلًا: كيف تكف عن التحكم بالآخرين وتبدأ رعاية نفسك»*، (سنتر ستي: منشورات هيزلدين، 1986)؛ د. تيمن ل. سيرماك، *«تشخيص الاعتماد المتبادل ومعالجته: دليل إرشادي للاختصاصيين العاملين مع الأشخاص المعتمدين على المواد الكيميائية، ومع أزواجهم وزوجاتهم وأطفالهم»*، (سنتر ستي: منشورات هيزلدين، 1986).

برفع أيديهم والإشارة إلى أن هناك أشياء اسمها «حقائق»، وإلى أن هناك ما يكفي من الأدلّة لبيان أن تلك الحقائق موجودة، وكذلك إلى أننا لسنا في حاجة إلى أي نوع من الإيمان حتى نعرف أن هناك أشياء حقيقية.

هذا صحيح. لكني أريد قول شيء عن الأدلة: إنها لا تغير شيئًا! إن الأدلة منتمية إلى عالم الدماغ المفكّر، في حين أن الدماغ الذي يشعر هو الذي يقرّر القيم. أنت لست قادرًا على التحقّق من القيم، فهي - بالتعريف - ذاتية وعشوائية. وبالتالي، يمكنك أن تستمر في المجادلة في الحقائق إلى أن يزرقّ وجهك، لكن ذلك لا أهمية له في آخر المطاف لأن الناس يفسّرون مغزى تجاربهم من خلال قيمهم[1].

إذا ضرب نيزك المدينة وقتل نصف سكانها، فسوف ينظر المتمسّك بالدِّين إلى ذلك ويقول إنه حدث بسبب كثرة الخاطئين في المدينة. وأما الملحد، فسوف ينظر إلى الحدث ويقول إنه دليل على عدم وجود الرب (وبالمناسبة، هذا اعتقاد قائم على الإيمان أيضًا)، فكيف يمكن لإله خيّر قدير أن يسمح بحدوث هذا الشيء الفظيع؟ وسوف ينظر المؤمن بمذهب المتعة إلى الأمر ويقرّر أنه علينا اغتنام المُتَع لأن من الممكن أن نموت كلّنا في أية لحظة. وسينظر الرأسمالي إلى ما حدث ويبدأ التفكير في كيفية الاستثمار في مشروع للتصدي للنيازك.

---

(1) هذا ما يُعرف في الفلسفة باسم مقصلة هيوم: لا يمكنك اشتقاق «ينبغي» من «يكون». لا يمكنك اشتقاق القيم من الحقائق. لا يمكنك اشتقاق معرفة الدماغ الذي يشعر من معرفة الدماغ المفكّر. لقد جعلت مقصلة هيوم الفلاسفة والعلماء حائرين منذ قرون. يحاول بعض المفكّرين دحضها بالإشارة إلى أنك تستطيع امتلاك معرفة واقعية بالقيم - أي أنه إذا اعتقدت بأن المعاناة أمر سيء، فإن هذه حقيقة واقعية عن اعتقادي، لكنها لا تكافئ كون اعتقادي حقيقة واقعة. يمكن التعبير عن الأمر بطريقة أخرى: من الممكن أن تكون لديك حقائق واقعية قائمة على القيم، لكن لا يمكن أبدًا أن يكون لديك قيم قائمة على حقائق واقعية.

تخدم الأدلة مصالح القيمة الإلهية، وليس العكس. والثغرة الوحيدة في هذا الترتيب كلّه هو اللحظة التي تصير فيها الأدلة نفسها قيمة إلهية. فالدين القائم على عبادة الدليل هو ذلك الشيء الذي نسميه «العلم»... ويمكن القول إنه أفضل ما اخترعه الجنس البشري. لكننا سنتطرق إلى العلم، وإلى تشعباته، في الفصل التالي.

النقطة التي أحاول توضيحها هي أن القيم كلها معتقدات قائمة على الإيمان. من هنا، فإن كلّ أمل (وبالتالي، كل دين) قائم على الإيمان أيضًا: الإيمان بأن هناك شيئًا يمكن أن يكون مهمًا، قيّمًا، صحيحًا، على الرغم من حقيقة عدم إمكانية توفر طريقة للتثبت من ذلك تثبتًا لا يمكن أن يرقى إليه الشك.

ولهذه الغاية، أحدد هنا، ثلاثة أنماط من الأديان يقوم كل نمط منها على نوع مختلف من القيمة الإلهية:

الأديان الروحانية: تستمد الدِّيانات الروحانية الأمل من معتقدات فوق طبيعية، أي أنها تؤمن بأشياء موجودة خارج الميدان الفيزيائي، أو المادي. تلتمس هذه الدِّيانات مستقبلًا أفضل خارج هذا العالم وخارج هذه الحياة. ومن الأمثلة على هذه الديانات، المسيحية واليهودية والإسلام والبوذية والدِّيانات الإحيائية والميثولوجيا اليونانية.

الأديان الإيديولوجية: تستمد الدِّيانات الإيديولوجية الأمل من العالم الطبيعي. إنها تسعى إلى الخلاص والنماء وتطوير المعتقدات القائمة على الإيمان بما هو مستمَدّ من هذا العالم. ومن أمثلة ذلك، الرأسمالية والشيوعية والليبرالية والفاشية والنزعة البيئية والنزعة التحرّرية.

الأديان القائمة بين الأشخاص: تستمدّ الدِّيانات القائمة بين الأشخاص

الأمل من أشخاص آخرين في حياتنا. فتؤمن بعظَمَتهم، ومن الأمثلة على ذلك، الحب الرومانسي، والرياضيون، والقادة السياسيون، والمشاهير.

إن الدِّيانات الروحانية دِيانات مرتفعة المخاطر ومرتفعة الجزاء. وهي تتطلّب (بفارق ضخم) قدرًا كبيرًا من المهارات والكاريزما حتى تستطيع الاستمرار. لكنها الأعلى عائدًا من حيث إخلاص الأتباع، ومن حيث المكاسب (أعني... هل رأيت الفاتيكان؟)... وإذا أحسنتَ بناءها، فسوف تستمر زمنًا طويلًا بعد موتك.

وأما الدِّيانات الإيديولوجية فهي تلعب لعبة صياغة الدين ضمن مجال «الدرجة العادية من الصعوبة». تتطلّب هذه الدِّيانات عملًا وجهدًا كبيرين حتى يتم إنشاؤها، لكنّها شائعة إلى حد غير قليل. لكن، ولأنها شائعة، فهي معرّضة لقدر كبير من التنافس على آمال الناس. كثيرًا ما توصف هذه الدِّيانات بأنها «توجّهات» ثقافية. والواقع أن معظمها لا يعيش أكثر من بضع سنوات، أو بضعة عقود من السنين. ولا يفلح في البقاء عدة قرون إلا أفضلها وأقواها.

وأخيرًا، تلعب الدِّيانات القائمة بين الأشخاص لعبة تشكيل الدين على المستوى «السهل». وهذا لأنها كثيرة ككثرة الناس أنفسهم. إن نسبة كبيرة منا، في وقت من أوقات العمر، تسلّم أنفسها تسليمًا تامًا (وتسلّم قيمتها الذاتية أيضًا) لشخص آخر. كما أن هذه الديانات القائمة بين الأشخاص تُعاش، أحيانًا، على صورة «مرحلة مراهقة» أو «شكل ساذج من أشكال الحب»؛ وهي ذلك النوع من الأشياء الذي لا بد من معاناته قبل أن يكبر المرء ويتجاوزه.

فلنبدأ بالدِّيانات الروحانية لأنها صاحبة الرهانات الأعلى، ولأن من الممكن القول إنها أكثر الديانات أهمية في تاريخ البشر.

الدِّيانات الروحانية

منذ زمن الشعائر الوثنية وشعائر تقديس الحيوانات التي كانت موجودة في الحضارات الإنسانية الأولى، وصولًا إلى الآلهة الوثنيين في قديم الزمان، ثم إلى الدِّيانات التوحيدية الكبرى التي لا تزال موجودة إلى يومنا هذا، هيمن على الشطر الأكبر من تاريخ البشر إيمان بقوى فوق طبيعية، وكذلك أملٌ (هذه هي النقطة الأكثر أهمية) في أن من شأن أفعال ومعتقدات بعينها في هذه الحياة أن تثمر مكافآتٍ وتحسّنًا في حياة لاحقة.

لقد نشأ هذا الانشغال بالحياة اللاحقة لأن كل شيء كان خربانَ تمامًا خلال الشطر الأعظم من تاريخ البشرية، ولأن تسعة وتسعين بالمئة من البشر لم يكن لديهم أمل بأن يطرأ على حياتهم أي تحسّن مادي. إذا كنت تظن أن الأمور سيئة في زماننا هذا، فما عليك إلا أن تفكّر في الأوبئة التي كانت تودي بثلث عدد السكان في قارة بأسرها[1]، أو في الحروب التي انطوت على بيع عشرات ألوف الأطفال ليصيروا عبيدًا[2]. الحقيقة هي أن الأمور كانت شديدة السوء في الزمن الماضي إلى حد جعل السبيل الوحيد للحماية من الجنون هو وعد الناس بأمل في حياة لاحقة. لقد

---

(1) لقد قتل الموت الأسود (الطاعون) ما يتراوح من مئة مليون إلى مئتي مليون إنسان في أوروبا خلال القرن الرابع عشر، فانخفض عدد السكان بنسبة من 30 إلى 60 بالمئة.

(2) هذه إشارة إلى الذكرى المخزية لـ«حملة الأطفال الصليبية» في سنة 1212. فبعد بضع حملات فاشلة أطلقها المسيحيون لاستعادة الأراضي المقدسة من أيدي المسلمين، ارتحل عشرات آلاف الأطفال إلى إيطاليا للتطوع والذهاب إلى الأرض المقدسة وتحويل المسلمين سلميًا إلى الدين المسيحي. وعد قائد مسيحي أولئك الأطفال بأن البحر سينشق أمامهم عندما يصلون إلى سواحل المتوسط فيسمح لهم بالعبور إلى القدس سيرًا على الأقدام. لكن البحر لم ينشق أمامهم. بدلًا من ذلك، أخذت سفن تجار الرقيق أولئك الأطفال فعبرت بهم البحر إلى تونس حيث بيع أكثرهم عبيدًا.

تمكّنت الدِّيانات التقليدية من المحافظة على لُحمة المجتمع لأنها قدّمت لجموع الناس ضمانة بأن معاناتهم ليست عديمة المعنى، وبأن الإله يراها، وبأنه سيجزيهم عنها خير جزاء.

ينبغي أن نلاحظ أن الدِّيانات الروحانية مرنة إلى حدٍّ لا يُصدَّق. وهي تعيش مئات السنين، بل حتى آلاف السنين. هذا لأن المعتقدات فوق الطبيعية غير قابلة أبدًا للإثبات أو للنقض. وبالتالي، فما أن يتوطّد إيمان فوق طبيعي فيصير قيمة إلهية عند شخص ما، حتى يصبح نزعه أمرًا شبه مستحيل.

ثم إن الدِّيانات الروحانية قوية أيضًا لأنها، في أحيان كثيرة، تعزّز الأمل من خلال الموت. وهذا ما ينتج أثرًا جانبيًا متمثّلًا في جعل أشخاص كثيرين مستعدين للموت من أجل معتقداتهم التي لا يمكن إثباتها. إن منافسة هذه المزية أمر صعب!

الدِّيانات الإيديولوجية

تولّد الدِّيانات الإيديولوجية الأمل من خلال إقامة شبكات من المعتقدات القائلة بأن من شأن أفعال بعينها أن تثمر نتائج أفضل في هذه الحياة شريطة أن تصبح عامّة. ومن هذه الإيديولوجيات: التحرّرية، والقوميّة، والمادّية، والعنصريّة، والجنسانيّة، والنباتيّة، والشيوعيّة، والرأسماليّة، والاشتراكيّة، والكلبيّة (السينيكية)، والتشكّكيّة، إلخ. خلافًا للدِّيانات الروحانيّة، تكون الإيديولوجيّات قابلة للتحقّق من صحتها، وذلك بدرجات مختلفة. من الممكن نظريًا إجراء اختبار لرؤية ما إذا كان من شأن وجود مصرف مركزي أن يجعل الوضع المالي أكثر استقرارًا أو أقل استقرارًا، وكذلك اختبار ما إذا كانت الديمقراطية تجعل المجتمع أكثر إنصافًا، أو ما إذا كان التعليم يجعل الناس أقل عدوانية في ما بينهم. إلا أن معظم الإيديولوجيات تظلّ معتمدة على الإيمان. هناك سببان لهذا الأمر. السبب الأول هو أن اختبار بعض الأشياء والتحقّق منها يكون شديد

الصعوبة، إن لم يكن مستحيلًا. والسبب الآخر هو أن إيديولوجيات كثيرة تعتمد على جعل كل فرد في المجتمع مؤمنًا بالشيء نفسه.

على سبيل المثال، لا يمكنك أن تثبت علميًا أن المال ذو قيمة في حد ذاته. لكننا مؤمنون جميعًا بأنه كذلك، وبالتالي فإنه كذلك[1]. وبالتالي، لا يمكنك إثبات أن المواطَنة في دولة من الدول أمر حقيقي، ولا حتى أن الإثنيات موجودة[2]. فهذه كلها معتقدات منشأة اجتماعيًا قبلناها كلّنا وآمنا بوجودها فصار هذا الوجود حقيقيًا.

المشكلة مع الدليل والإيديولوجيات هي أن البشر ميّالون إلى التقاط

---

(1) مما يثير الاهتمام أنك تستطيع القول إن النقود قد اخترعت لكي تكون وسيلة من أجل تتبع الهوّات الأخلاقية وإحصائها. لقد اخترعنا مفهوم الدَّين من أجل تبرير ما لدينا من هُوّات أخلاقية - إنني أقدّم إليك جميلًا، وهكذا فأنت مدين لي بشيء مقابله - واخترعنا النقود لكي نستخدمها وسيلة من أجل تتبع ديوننا وإدارتها في المجتمع. هذا ما يُعرف باسم «نظرية الائتمان: في النقود»؛ وقد كان أول من اقترحها ألفريد ميتشل إنز في سنة 1913، وذلك في مقالة صحافية حملت عنوان «ما هي النقود؟» للاطلاع على عرض لطيف عن ميتشل إنز ونظرية الائتمان هذه، انظر ديفيد غرايبر، «*الدَّين: أول خمسة آلاف سنة، طبعة محدثة ومزيدة*»، (2011)؛ أعيدت طباعته في بروكلين، نيويورك: دار ميلفيل للنشر، 2014؛ ص: 46 - 52. وللاطلاع على مناقشة ملفتة للنظر تناولت أهمية الدَّين في المجتمع البشري، انظر مارغريت آتوود، «*التسديد: الدَّين والظل الجانبي للثروة*»، (بيركلي، كاليفورنيا: دار أنانسي للنشر، 2007).

(2) حسنًا... يظل ما يتعلّق بالإثنيات موضع نقاش، بعض الشيء. هناك اختلافات بيولوجية صغيرة جدًا بين الناس المنحدرين من أسلاف مختلفين، لكن التميز بين الناس استنادًا إلى هذه الاختلافات أمر اعتباطي أيضًا؛ وهو فعل قائم على نوع من الإيمان. على سبيل المثال، من عساه يستطيع القول إن أصحاب العيون الخضر جميعًا لا يشكّلون إثنية خاصّة بهم؟ هذا صحيح. لا يستطيع أحد أن يقول هذا. لكن، لو قرّر ملك من الملوك منذ مئات السنين في الماضي أن أصحاب العيون الخضر عرق مختلف يستحق أن يلقى أسوأ معاملة، لكان من المحتمل كثيرًا أن نجد نفسنا عالقين، حتى اليوم، في مشكلات سياسية متعلّقة بـ«لون العيون».

قدر طفيف من الأدلة والجري به بعيدًا، أو إلى تعميم فكرة بسيطة أو فكرتين بسيطتين على جماعات البشر وعلى الكوكب كلّه[1]. هذا هو أثر نرجسيتنا البشرية - حاجتنا إلى اختراع أهميتنا الذاتية، ودماغنا الذي يشعر وقد انفلت على هواه. إذًا، وعلى الرغم من أن الإيديولوجيات خاضعة للدليل وللتحقّق، فإننا لا نحسن التحقّق منها[2]. البشرية كبيرة معقّدة إلى حد يجعل أدمغتنا تجد صعوبة في استيعابها كلّها. هناك تحولات كثيرة جدًا. وهذا ما يجعل أدمغتنا المفكّرة تسلك طرقًا مختصرة للإبقاء على بعض المعتقدات التي هي معتقدات ضعيفة. تستمر الإيديولوجيات السيئة، كالعنصريّة أو الجنسانيّة، نتيجة الجهل إلى حد أكبر كثيرًا من أن يكون استمرارها ناتجًا عن الخبث أو الحقد. ويتمسّك الناس بهذه الإيديولوجيات السيئة، لأنها - هذا أمر محزن - توفّر لأتباعها شيئًا من الأمل.

يكون بدء الدِّيانات الإيديولوجية أمرًا صعبًا، لكن عددها أكبر كثيرًا من عدد الدِّيانات الروحانيّة. كل ما عليك فعله هو العثور على تفسير للمساوئ الموجودة. وكلما بدا هذا التفسير منطقيًا، استطاع أن يتمدّد ويجمع جماعات واسعة من السكان بطريقة تمنح الناس بعض الأمل.

---

(1) مثلما أفعل أنا في هذا الكتاب.

(2) لعلّه مما يستحق الإشارة إليه أن هناك أزمة تكرار جارية في العلوم الاجتماعية. إن أكثر «الاكتشافات» الكبرى في علم النفس والاقتصاد، بل حتى الطب، غير قادرة على التكرر بطريقة متسقة. إذًا، وحتى إذا تمكّنا من تدبّر تعقيدات قياس أعداد الجماعات البشرية، فسوف يظل من الصعب كثيرًا أن نجد دليلًا تجريبيًا متّسقًا على أن متغيرًا بعينه له أثر راجح على غيره من المتغيرات. انظر إد يونغ: «لم تعد أزمة التكرار في علم النفس بقادرة على إيجاد الأعذار»، ذي أتلانتيك، 19 تشرين الثاني 2018.
https://www.theatlantic.com/science/archive/2018/11/psychologys - replication - crisis - real/576223/

إن لديك، أنت نفسك، دِيانة إيديولوجية. إذا كنت تعيش منذ أكثر من عشرين عامًا، فمن المؤكد أنك رأيت هذا يحدث عدة مرات حتى الآن. خلال فترة حياتي وحدها، ظهرت حركات تؤمن بحقوق «LGBQ»[1]، وباحثي الخلايا الجذعية، وتؤمن بأنه يجب نزع الصفة الجرمية عن استخدام المخدرات. والواقع أن قدرًا كبيرًا مما يجعل الجميع في حالة فزع الآن آتٍ من حقيقة أن الإيديولوجيات الشعبوية والقومية والتقليدانية تفوز بالسلطة السياسية في أنحاء كثيرة من العالم. في حين تسعى هذه الإيديولوجيات إلى تفكيك معظم ما أنجزته الإيديولوجيات البيئية والنسوية والعولمية والنيوليبرالية على امتداد القرن العشرين.

الدِّيانات القائمة بين الأشخاص

في كل يوم أحد، يأتي ملايين الناس معًا لينظروا إلى ميدان أخضر فارغ. وقد رُسمت في هذا الميدان خطوطٌ بيضاء. لقد وافقت هذه الملايين كلّها على الاعتقاد (انطلاقًا من الإيمان) بأن لهذه الخطوط معنى مهمًّا وأنها الحدود التي يجب التصرّف وفقها. وبعد ذلك، ينزل إلى الميدان عدد من الرجال الأقوياء (أو من النساء القويات) ويصطفّون ضمن تشكيلة، ثم يرمون (أو يركلون) قطعة كروية منفوخة مصنوعة من الجلد. وبحسب المكان الذي تذهب إليه هذه القطعة، واللحظة التي تذهب فيها، تهتف مجموعة من الناس مهلّلة فرحة، وتصاب مجموعة أخرى بغَمٍّ شديد.

الألعاب الرياضية نوع من أنواع الدِّين. إنها منظومات قيَمية عشوائية مصمَّمة لكي تمنح الناس أملًا بانتصار. ارم الكرة إلى هذا المكان، وسوف تصير بطلًا! ارم الكرة إلى ذلك المكان الآخر، وسوف تخرج خاسرًا! تؤلّه الرياضة بعض الأفراد، وتشيطن أفرادًا آخرين. إن تيد

(1) اختصار يشير إلى المثليين، بأنواعهم المختلفة، وإلى متحوّلي الجنس.

ويليامز أفضل رامٍ في البيسبول على مر التاريخ. ومن هنا، كما يرى البعض، فهو بطلٌ أميركي، وأيقونة، ونموذج يحتذى. وتجري شيطنة رياضيين آخرين بسبب تقصيرهم، وبسبب تضييعهم مواهبهم، وكذلك بسبب خذلانهم جمهورهم[1].

إلا أن هناك مثالًا أكبر من الرياضيين على الديانات القائمة على الأشخاص: السياسيون! فعلى امتداد العالم كله، ننطوي كلنا تحت منظومات متشابهة من القيم ونقرر اعتبار عدد صغير من الناس موضع سلطة وزعامة وفضيلة. إن الأنظمة السياسية مختلقة بالكامل على غرار الخطوط المرسومة في ملعب كرة القدم. كما أن مواقع السلطة لا توجد إلا بفعل إيمان السكان بها. وسواء كان الحكم ديمقراطيًا أو ديكتاتوريًا فإن النتيجة هي نفسها: عدد صغير من القادة يجري تمجيده والاحتفاء به (أو تجري شيطنته) في الوعي الاجتماعي[2]. تمنحنا الدِّيانات بين الأشخاص أملًا بأن إنسانًا آخر سوف يأتينا بالخلاص وبالسعادة،

---

(1) كنت مسحورًا طيلة حياتي بتحول الرياضيين من أبطال إلى أشرار، ثم إلى أبطال من جديد. تايغر وودز، وكوبي براينت، ومايكل جوردان، وأندريه أغاسي، كانوا كلهم أنصاف آلهة في أذهان الناس. ثم انكشف أمر ما فجعلهم يصبرون منبوذين. هذا ما يعود بنا إلى ما قلته في الفصل الثاني عن أن إحساس الشخص بالفوقية/ الدونية يمكن بسهولة أن ينقلب رأسًا على عقب لأن ما يبقى على حاله هو حجم الهوة الأخلاقية. ففي حالة شخص مثل كوبي براينت، وسواء كان بطلًا أو شريرًا، فإن ما يظل على حاله هو شدة ردة فعلنا الشعورية/ الانفعالية تجاهه. وهذه الشدة ناتجة عن حجم الهوة الأخلاقية التي نحسّها.

(2) لا بد لي من توجيه التحية إلى يوفال نواه حراري وإلى كتابه اللامع: *«العاقل: تاريخ مختصر لبني البشر»*، (نيويورك: هاربر كولينز، 2015)، وذلك لأنه وصف الحكومات والمؤسسات المالية، وغيرها من الهياكل الاجتماعية، بأنها أنظمة أسطورية موجودة فقط بفضل الاعتقادات المشتركة لدى السكان. كان حراري أول من ركّب هذه الأفكار، ولست أفعل هنا غير الاستعارة منه. إن الكتاب كلّه يستحق القراءة.

وبأن فردًا واحدًا (أو مجموعة أفراد) متفوقٌ على كل من عداه. كما أن الدِّيانات بين الأشخاص تقترن أحيانًا بمعتقدات فوق طبيعية وبمعتقدات إيديولوجية مما يؤدّي إلى وجود منبوذين وشهداء وأبطال وقديسين. ينشأ كثير مما لدينا من ديانات بين الأشخاص من حول قادتنا. ومن الممكن أن يبلغ زعيم كاريزمي (أو واحد من المشاهير)، يبدو لنا أنه يدرك كل ما نعانيه، مرتبةَ قيمة إلهية في عيوننا، فيمرّ كلّ ما نعتبره صحيحًا أو خاطئًا عبر مصفاة يقرّر الحسن والسيئ فيها زعيمنا المحبوب.

بشكل عام، يمكن اعتبار الإعجاب بالمشاهير نوعًا من سوية منخفضة من الدين. إن المعجبين بـ ويل سميث، أو كيتي بيري، أو إيلون موسك، يفعلون كل ما يفعله الشخص الذي هو موضع إعجابهم، ويتعلّقون بكل كلمة يقولها، وينظرون إليه باعتباره شخصًا «مباركًا»، على نحو ما. إن «عبادة تلك الشخصية» تمنح المعجب به أملًا بمستقبل أفضل، حتى عندما يكون ذلك المستقبل الأفضل على صورة شيء بسيط جدًا، كأن يكون فيلمًا أو أغنية أو اختراعًا.

إلا أن أكثر الدِّيانات القائمة بين الأشخاص أهمية هي علاقاتنا العائلية وعلاقاتنا الرومانسية. إن المعتقدات والمشاعر الموجودة في هذه العلاقات ذات طبيعة ارتقائية، بمعنى أنها تنشأ ثم تتطوّر. لكنها تظل قائمة على الإيمان[1]. إن كل أسرة «كنيسة» مصغّرة في حد ذاتها، فهي مجموعة أشخاص يعتقدون، مؤمنين، أن كون الواحد منهم جزءًا من هذه المجموعة يمنح حياته معنًى وأملًا، ويمنحه خلاصًا. وبطبيعة الحال، يمكن أن يكون الحب الرومانسي تجربة شبه روحانية[2]. نحسّ

---

(1) إن الغيرية المتبادلة، والارتباط بين شخصين استراتيجيتين تطوريتين تظهران في الوعي باعتبارهما ارتباطًا عاطفيًا/ انفعاليًا.

(2) إن تعريف «التجارب الروحية» الذي أحبه أكثر من أي تعريف آخر هو أنها تجارب تتجاوز الذات - وهذا بمعنى بأن هويتك، أو إحساسك «بنفسك»

كما لو أننا نفقد أنفسنا تجاه شخص نهواه، وننسج مختلف أنواع القصص عن الأهمية الكونية لعلاقتنا به.

وسواء كان هذا أمرًا جيدًا أو سيئًا، فقد جعلتنا الحضارة الحديثة مغتربين كثيرًا عن هذه الدِّيانات الصغيرة بين الأشخاص وعن جماعات الأشخاص الصغيرة فأحلّت محلّها الديانات الإيديولوجيات الكبرى، القومية والأممية[1].

هذه أخبار حسنة لنا، أنا وأنت، يا صديقي الذي يريد إنشاء دين يخصّه هو. وذلك لأننا لا نملك ارتباطات حميمة كثيرة لا بد لنا من قطعها حتى نجعل أتباعنا مرتبطين بنا عاطفيًا.

أقول هذا لأن الدِّين، كما سنرى، متعلّق كله بالارتباط العاطفي. وأفضل الطرق لبناء تلك الارتباطات العاطفية هو جعل الناس يكفّون عن التفكير النقدي.

= يتجاوز جسدك ووعيك ويمتد حتى يشتمل على الواقع المُدرَك كلّه. من الممكن التوصّل إلى التجارب التي تتجاوز الذات بطرق كثيرة: الأدوية النفسية، والتأمل المكثف لفترات طويلة، واللحظات القصوى من الحب والعواطف. يصير المرء في هذه الحالات التي «يعلو» فيها قادرًا على «الذوبان» في الشريك، ويحس كما لو أنهما صارا شيئًا واحدًا، مما يعني أنه قد وصل إلى حالة تجاوز الذات بشكل مؤقت. إن هذا «الذوبان» في شخص آخر (أو في الكون) هو ما يجعل الناس ينظرون إلى التجارب الروحانية كما لو أنها «حب»، فهي تنازل المرء عن هويته الذاتية من ناحية، وقبول غير مشروط بهوية أكبر، من ناحية أخرى. للتعرف على شرح لطيف لهذا النوع من الأشياء، وهو شرح قائم على علم جونغيان للنفس، انظر كيم ويلبر: *«لا حدود: المقاربتان الشرقية والغربية للنمو الشخصي»*، (1979)؛ أعيدت طباعته في بوسطن، ماساشوستس: شامبالا، 2001.

(1) مع تزايد التصنيع في كل بلد، ينخفض مستوى التدين فيه انخفاضًا متسارعًا. انظر بيبا نوريس ورونالد إنغلهارد: *«المقدس والعلماني: الدين والسياسة في أنحاء العالم»*، الطبعة الثانية (2004)؛ أعيدت طباعته في نيويورك: منشورات جامعة كامبردج، 2011، ص: 53 – 82.

الخطوة الثالثة: الإبطال المسبق لكل نقدٍ ولكل مساءلةٍ خارجيةٍ

الآن، بعد أن وضعت لدِينِك الوليد أركان إيمانه الأساسية، عليك أن تجد طريقة لحماية ذلك الإيمان من الانتقادات التي لا يمكن تجنبها مما سيستهدفه، بالتأكيد، من انتقادات. هناك طريقة ذكية لفعل ذلك، ألا وهي اعتماد إيمان يخلق ثنائية «نحن» مقابل «هم» التي تعزّز نفسها بنفسها؛ أي خلق تصوّر عن «نحن» ووضعه مقابل «هم» بطريقة تجعل كل من يوجّه أي انتقاد أو تشكيك إلى «نحن» يتحوّل فورًا إلى «هم». يبدو هذا أمرًا صعبًا، لكنه سهل في واقع الأمر. إليك بعض الأمثلة:

- إذا لم تكن مؤيّدًا للحرب التي نشنّها، فأنت مؤيد للإرهابيين.
- خلق الرب العلم لكي يختبر إيماننا. بالتالي، فإن أي شيء علمي يخالف الإنجيل يكون اختبارًا لإيماننا.
- كل من يوجّه انتقادًا إلى الحركة النسوية ليس إلا شخصًا ضد النسوية.
- كل من ينتقد الرأسمالية شيوعي.
- كل من ينتقد الزعيم خائن.
- كل من يرى أن كوبي برايانت كان أفضل من مايكل جوردان لا يفهم شيئًا في كرة السلة؛ وبالتالي فلا قيمة لأي رأي يبديه حول كرة السلة.

هدف هذه الثنائيات الزائفة («نحن» مقابل «هم») هو تسديد ضربة موجعة إلى أيّ مناقشة أو إلى أي تحليل منطقي قبل أن يبدأ أتباعك وضع

إيمانهم موضع التساؤل. كما أن لهذه الثنائيات الزائفة («نحن» مقابل «هم») فائدة إضافية من حيث قدرتها الدائمة على وضع الجماعة في مواجهة عدو مشترك.

إن الأعداء المشتركين أمر فائق الأهمية. أعرف أننا نحب جميعًا أن نفكّر في أننا نفضّل العيش في عالم من السلم والانسجام الكاملين، لكن هذا العالم لن يستمر أكثر من بضع دقائق! يخلق الأعداء المشتركون وحدة ضمن الدِّين الخاصّ بنا. كما أن وجود كبش فداء (سواء كان ذلك عن حق أو عن غير حق) أمر ضروري لكي نتمكّن من تحميله مسؤولية آلامنا والاحتفاظ بأملنا[1]. توفّر لنا ثنائيات «نحن» مقابل «هم» الأعداء الذين لا نستطيع الاستغناء عنهم.

ففي آخر المطاف، عليك أن تتمكّن من رسم صورة بسيطة من أجل أتباعك. هناك من يدركون «الحقيقة»، وهناك من لا يدركون «الحقيقة». من يدركونها هم الذين سينقذون العالم، ومن لا يدركونها سيدمّرون العالم. انتهت المناقشة! وأما طبيعة تلك «الحقيقة» فهي معتمدة على الإيمان الذي تحاول تسويقه: هذا النبي أو ذاك، أو هذه النزعة التحرّرية، أو الحميّة الغذائية الخالية من الغلوتين، أو الصيام على مراحل، أو النوم في حجرات مضغوطة والعيش على المصّاصات فقط. ثم إنه ليس كافيًا أن تقول لأتباعك إن غير المؤمنين أشخاص سيئون. عليك أن تشيطنهم. إنهم نقيض كل ما هو حسن وكل ما هو مقدس. إنهم يدمّرون كلّ شيء. إنهم الشرّ نفسه.

وعليك بعد هذا أن تقنع أتباعك أن من المهم كثيرًا أن يتمَّ وضع حدّ

(1) رينيه جيرار: *«أشياء خفية منذ تأسيس العالم»*، ترجمة ستيفن بان ومايكل ماتير (أعيدت طباعته في سنة 1978؛ ستانفورد، كاليفورنيا: منشورات جامعة ستانفورد، 1987، ص: 23 – 30).

لكل شخص لا يدرك «الحقيقة»، وذلك بأيّ وسيلة من الوسائل. إما أن يكون الناس قريبين من قمة تراتبية القيم، وإما أن يكونوا في أسفلها؛ ولا محل للوسطيين في ديانتنا[1].

كلما ازداد الخوف، كلما كان ذلك أفضل. اكذب قليلًا، إن اضطررت إلى ذلك - تذكّر أن الناس يريدون بالغريزة أن يشعروا كما لو أنهم يخوضون حربًا مقدّسة، ويريدون الإيمان بأنهم المحاربون المقدَّسون باسم الحقيقة والعدالة والخلاص. إذًا، قل ما يتعين عليك قوله. اجعلهم يشعرون بأنهم الأشخاص الصالحون الذين يجعلون ديانتهم تتابع مسارها.

وهنا تصير نظريات المؤامرة مفيدة جدًا. لا تقف هذه النظريات عند أفكار من قبيل أن اللقاحات تسبّب التوحد، بل إنها تصل إلى القول بأن الصناعات الطبية والدوائية تراكم الثروات من خلال تدمير صحة أسرة كل واحد منا. وهي لا تكتفي بالقول بأن أنصار الإجهاض يملكون نظرة مختلفة إلى الحالة البيولوجية للجنين، بل تكتشف هم جنود أرسلهم الشيطان لتدمير الأسرة المسيحية الصالحة. وهي لا تكتفي بالقول بأن تغير المناخ كذبة كبيرة، بل تعتبرها كذبة اخترعتها الحكومة الصينية من أجل إبطاء الاقتصاد الأميركي حتى تستولي الصين على العالم كله[2].

---

(1) على غرار كون العلم دينًا من حيث إننا «نعبد» الدليل، يمكن أيضًا اعتبار النزعة الإنسانوية عبادة لحالة «التوسط» بين الناس جميعًا - أي القول بأن ما من بشر أخيار أو أشرار بطبيعتهم الأصلية. لقد عبر ألكساندر سولجينتسين عن هذا بقوله: «إن الخط الفاصل بين الخير والشر يمر عبر قلوب الناس جميعًا».

(2) مما يؤسف له أن نظريات المؤامرات هذه سائدة في الولايات المتحدة الأميركية الآن.

الخطوة الرابعة: التضحية الطّقسيّة للمبتدئين - سهلة، يستطيع أيٌّ شخصٍ القيام بها

أثناء طفولتي في تكساس، كان يسوع وكرة القدم الإلهين الوحيدين اللذين أرى لهما أهمية. وفي حين تعلمت كيف أستمتع بكرة القدم على الرغم من كوني لاعبًا سيئًا جدًا، فإن قصة يسوع كلها لم تعنِ لي شيئًا كثيرًا. كان يسوع حيًّا، ثم مات، لكنه عاد حيًّا من جديد، ثم مات مرة أخرى. وقد كان رجلًا، لكنه كان إلهًا أيضًا، وهو الآن نوع من رجل/ إله/ روح يحب الجميع حبًا أبديًا (ربما باستثناء المثليين، فهذا معتمد على الشخص الذي تسأله). كان ذلك يفاجئني لأنني كنت أراه خليطًا عشوائيًا؛ وقد أحسّست - كيف أعبر عن هذا؟... أحسست كما لو أن الناس يختلقون ذلك كله.

لا تفهمني فهمًا خاطئًا: لقد كنت قادرًا على التقيد بالقسم الأكبر من التعاليم الأخلاقية التي جاء بها المسيح: كن لطيفًا وأحبب جارك... وتلك الأشياء كلها. وقد كانت مجموعات الشباب شيئًا ممتعًا حقًا. (قد يكون «مخيم يسوع» نشاطًا صيفيًا أهم كثيرًا مما يعتبره كثير من الناس). كما كان في الكنيسة عادةً حلويات مجانية يخبئونها في مكان ما، في غرفة ما، صباح كل يوم أحد. وهذا أمر مثير حقًّا عندما يكون المرء طفلًا.

وأما إذا أردنا الصدق، فإن عليَّ القول إن كوني مسيحيًا لم يكن يعجبني. لم يكن يعجبني لسببٍ غبيٍّ حقًا: كان أبي وأمي يجعلانني أرتدي ثوبًا طويلًا غريب الشكل. هذه هي الحقيقة. بدأت الشك في إيمان أبي وأمي، ثم غدوت ملحدًا في الثانية عشرة من عمري بسبب تلك الملابس.

أتذكّر أنني كنت أسأل أبي: «إذا كان الرب يعرف كل شيء، وإذا كان يحبّني مهما فعلت، فلماذا أهتم بما أرتديه يوم الأحد؟». كان أبي يسكتني. «لكن، يا بابا، إذا كان الرب سيصفح عن خطايانا مهما حدث، فلماذا لا نكذب ونغش ونسرق طيلة الوقت؟». ويسكتني أبي من جديد. «لكن، يا بابا،... ». لم تكن أموري مع الكنيسة تسير على نحو جيد. كنت أجلب خفية قمصانًا ملونة إلى مدرسة الأحد قبل أن تبدأ مراهقتي. وبعد سنين قليلة، بدأت قراءة أول كتاب لنيتشه. ثم تابعت ابتعادي عن الكنيسة منذ ذلك الوقت. وبدأت أتصرّف تصرفات غير مقبولة. كنت أهرب من مدرسة الأحد لكي أذهب وأدخّن السجائر في ساحة مجاورة لوقوف السيارات. لقد انتهى الأمر، وصرت وثنيًا.

في المرة الأولى التي بدأت فيها أشكّك في المسيحية وأضعها موضع التساؤل، انتحى بي معلم مدرسة الأحد ذات صباح وأبرم معي اتفاقًا: سوف يمنحني درجة كاملة ويقول لأهلي إنني طالب نموذجي شريطة أن أتوقّف عن طرح أسئلة أمام بقية الطلاب تتعلّق بعدم الترابط المنطقي في الكتاب المقدس. وقد قبلت هذا العرض.

قد لا يكون هذا مفاجئًا لكم، لكني لست شديد الميل إلى الروحانيات - لا أريد أية معتقدات فوق طبيعية... شكرًا جزيلًا! وأنا أجد متعة مريضة في الفوضى واللايقين. وللأسف، فقد جعلني هذا محكومًا بحياة كلها صراع مع الحقيقة غير المريحة. إنما توصلت إلى قبول هذا الشيء في نفسي.

لكني صرت قادرًا على قبول تلك الملابس بعد أن كبرت. فبصرف النظر عما كنت أفكر فيه أيام طفولتي، لم تكن مطالبتي بارتداء تلك الملابس تعذيبًا لي من قبل أبي وأمي (أو من قبل الرب)، بل كان الأمر كلّه متعلقًا بالاحترام... لا باحترام الرب، بل باحترام المجتمع، وباحترام

الدين. ليس ارتداء تلك الملابس يوم الأحد إلا إشارة موجهة إلى بقية مرتادي الكنيسة تقول إن صاحب تلك الملابس متمسك بالفضيلة. كأنه يقول لهم «إن أشياء يسوع هذه أمر مهم». هذا جزء من دينامية «نحن» مقابل «هم». إنها إشارة إلى أنك واحد من «نحن»، وإلى أنه ينبغي التعامل معك على هذا الأساس.

ثم أتت تلك الأثواب الطويلة!... هل لاحظتم أن أهم لحظات حياتنا يكون فيها دائمًا شخص يرتدي ثوبًا طويلًا، حفلات الزفاف، والتخرّج، والجنازات، والمحاكمات، وجلسات اللجان القضائية، وجراحة القلب المفتوح، والتعميد، و... نعم، وحتى الطقوس الكنسية.

انتبهت أول مرة إلى قصة الثوب الطويل هذه عندما تخرّجت من الكلية. كنت أعاني من آثار الشراب في الليلة السابقة التي لم أنم فيها إلا ثلاث ساعات. سرت بصعوبة إلى مقعدي في الصالة التي تقام فيها مراسم التخرج. نظرت من حولي وقلت في نفسي: يا إلهي، لم أرَ في حياتي في مكان هذا العدد من الأشخاص الذين يرتدون أثوابًا طويلة منذ أن توقّفت عن الذهاب إلى الكنيسة! ثم نظرت إلى نفسي، وأدركت - مذعورًا - أنني واحد ممن يرتدون تلك الأثواب الطويلة. إن ذلك الثوب الذي هو دليل بصري يشير إلى الحرية والمكانة، جزء من شيء طقسي. ونحن في حاجة إلى الطقوس لأنها تجعل قيمنا ملموسة. لا يمكنك الاكتفاء بالتفكير في أن تعتبر شيئًا ما ذا قيمة كبيرة. عليك أن تعيش ذلك. عليك أن تختبره بنفسك. ومن الطرق المناسبة لكي يصير من السهل على الآخرين أن يعيشوا قيمة من القيم أن تصنع لهم ملابس متميّزة يرتدونها وتعطيهم كلمات مفخّمة يقولونها - أي أن تصنع لهم طقوسًا. الطقوس شيء مرئي؛ وهي تجسيد ملموس لما نعتبره مهمًّا. هذا ما يجعل كل دين جيّد محتويًا على طقوس خاصّة به.

فلنتذكّر أن الانفعالات والمشاعر أفعال، لا فرق أبدًا بين هذه وتلك. من هنا، وحتى نعدل تراتبية القيم لدى الدماغ الذي يشعر (أو حتى نعززها)، فإننا في حاجة إلى جعل الناس يؤدّون أفعالًا سهلة التكرار، لكنها فريدة وقادرة على تمييزهم عن غيرهم. هذا هو دور الطقوس والشعائر.

تكون الطقوس مصمّمة لكي يجري تكرارها على امتداد زمن طويل، وهذا الزمن يمنحها إيحاء أكبر بالأهمية. ففي حقيقة الأمر، من النادر تمامًا أن يقوم المرء بالشيء نفسه الذي كان يقوم به أشخاص آخرون منذ خمسمئة سنة إلا إذا كان ذلك الشيء شعيرة دينية. إن لهذا أثره الحقيقي. ثم إن الطقوس رمزية أيضًا. وعلى غرار القيم، ينبغي أن تجسّد الطقوس قصة أو حكاية ما. تجعل الكنائس أشخاصًا في أثواب طويلة يغمسون الخبز في النبيذ (أو في عصير العنب) ويقدّمونه إلى مجموعة من الناس على أنه يمثّل جسد المسيح. يرمز هذا إلى تضحية المسيح (لم يكن يستحقها!) من أجل خلاصنا (لم نكن نستحقّ ذلك بدورنا؛ لكن هذا ما يجعل للأمر أثرًا قويًا!).

تنشئ الدول طقوسًا من حول قصة تأسيسها أو من حول بعض الحروب التي انتصرت فيها (أو التي خسرتها)، فنخرج في مسيرات استعراضية ونلوّح بالأعلام ونطلق الألعاب النارية، ويعمنا إحساس مشترك بأن هذا كله يرمز إلى شيء كبير القيمة. ويخترع المتزوجون طقوسهم وعاداتهم الصغيرة الخاصة بهم، ونكاتهم السرية، وذلك كله من أجل التأكيد على قيمة العلاقة بين الزوجين، أي على الدِّين المتبادل الخاص بهما. إن الطقوس تحقق اتصالنا بالماضي. وهي تحقّق اتصالنا بقيمنا. إنها تأكيد على هويتنا.

عادة ما تكون الطقوس مرتبطة بتضحية ما. ففي ماضي الزمان، كان

الكهنة والزعماء يقتلون أشخاصًا على المذبح، بل ينتزعون أحيانًا قلوبهم التي لا تزال نابضة، فيصيح الناس ويهللون ويقرعون الطبول ويقومون بأشياء مجنونة[1]. تقدّم هذه الأضاحي بغية استرضاء إله غاضب، أو ضمان محصول جيد، أو تحقيق أية نتائج مرجوة أخرى. لكن السبب الحقيقي لطقوس التضحية كان أكثر عمقًا من ذلك.

البشر مخلوقات تعاني إحساسًا فظيعًا بالذنب. لنقل إنك عثرت على محفظة فيها مئة دولار، لكنك لم تجد فيها بطاقة شخصية أو أي شيء آخر مما قد يشير إلى هوية صاحبها. لا أحد من حولك، ولا تعرف كيف تعثر على صاحب المحفظة؛ وهكذا فإنك تحتفظ بها. يقول قانون نيوتن الأول في العواطف/ الانفعالات إن كل فعل ينتج رد فعل مساوٍ له في القيمة ومعاكس في الاتجاه، وفي هذه الحالة، يحدث معك شيء جيد من غير أن تستحقه. إحساس بالذنب!

إنك تفكر في الأمر على هذا النحو: أنت موجود. أنت لم تفعل شيئًا يجعلك تستحق وجودك. وأنت لا تعرف حتى ما جعلك تصير موجودًا؛ لقد وُجدت فحسب. فجأة صارت لك حياة. ليست لديك أية فكرة عن مصدر هذه الحياة أو عن سببها. إن كنت مؤمنًا بأن الرب وهبك هذه الحياة فهذا جيد! هل أنت مدين له بهذا؟ وحتى إذا لم تكن مؤمنًا بالرب... فقد حظيت بهذه الحياة! ما الذي فعلته حتى تستحق حياتك؟ كيف تستطيع العيش بطريقة تجعل لحياتك قيمة؟ هذا هو سؤال الشرط البشري، السؤال الدائم الذي ما من إجابة عليه؛ وهو السبب الذي يجعل

---

(1) إنني أتخذ وجهة درامية هنا، لكن التضحيات البشرية كانت تحدث في جزء كبير جدًا من الحضارات الكبرى التي نعرف بها، في الأزمان القديمة وما قبل التاريخ. انظر نيجل ديفيس: *«التضحية البشرية في التاريخ وفي الزمن الحاضر»*، (نيويورك: هيبوكرين بوكس، 1988).

ذلك الإحساس بالذنب، الملازم لوعينا، حجر الزاوية في كل ديانة روحانية تقريبًا.

كانت الأضاحي التي يقدمها الناس في الديانات الروحانية القديمة تتم من أجل إعطاء أتباع تلك الدِّيانات إحساسًا بأنهم يسدّدون ذلك الدَّين، وبأنهم يعيشون حياة ذات قيمة. وفي ذلك الزمان، كانوا يقدّمون أضحيات بشرية حقيقية - حياة مقابل حياة - ثم تطوّر تفكير الناس وأدركوا أن من الممكن الاكتفاء بالتضحية بالحياة تضحية رمزية (حياة يسوع، أو أي كان)، من أجل خلاص البشرية كلّها. وبتلك الطريقة، صرنا غير مضطرين إلى تنظيف مذبح الكنيسة من الدم كل بضعة أيام. (علينا أن نتخلص من الحشرات أيضًا... لا أريد الحديث عن الحشرات!)[1].

إن الشطر الأكبر من الممارسات الدينية مصمّم من أجل التخفف من الإحساس بالذنب. بل يمكن القول إن هذا هو محتوى الصلاة كله: حلقات مصغّرة من التخفّف من الذنب. لا يقول المرء حين يصلي «عجبًا! إنني شخص رائع!»... لا. إن الصلاة أشبه ببطاقة شكر... قبل اختراع بطاقات الشكر... «شكرًا لك يا ربي لأنك أوجدتني، على الرغم من المصاعب التي ألقاها في حياتي. وأنا آسف لأنني فكرت في تلك الأشياء السيئة كلّها، وفعلت تلك الأشياء السيّئة كلّها». انتهى الأمر! زال عنك إحساسك بالذنب، لفترة من الزمن على الأقل.

تعالج الدِّيانات الإيديولوجية سؤال الإحساس بالذنب بطريقة أكثر فعالية من الدِّيانات الروحانية. توجّه الأمم شعور الناس الوجودي بالذنب في اتجاه الخدمة - لقد منحتكم البلاد هذه الفرص وما عليكم

---

(1) للاطلاع على مناقشة لافتة للإحساس الداخلي الملازم بالذنب ولدور التضحية البشرية، انظر إيرنست بيكر: *«هروب من الشر»*، (نيويورك: فريدوم برس، 1985).

إلا أن ترتدوا الملابس العسكرية وتقاتلوا من أجل حمايتها. عادة ما تنظر الإيديولوجيات اليمينية إلى التضحية الضرورية من منظور حماية المرء بلده وأسرته. وعادة ما تنظر الإيديولوجيات اليسارية إلى التضحيات الضرورية من منظور تقديمها من أجل الخير العام للمجتمع بأسره.

وأخيرًا، فإن تضحية المرء بنفسه في الديانات بين الأشخاص تولّد لديه إحساسًا بالولاء وبالرومانسية. (فكّروا في مثال الزواج: يقف المرء أمام المذبح ويتعهّد بأن يهب الشخص الآخر حياتَه). نعاني كلّنا إحساسًا بأننا نستحق أن نكون محبوبين. وحتى إذا كان أبوك وأمك رائعين، فإنك تتساءل أحيانًا عن السبب الذي يجعلهما يحبانك. ماذا فعلت حتى أستحق هذا الحب؟ إن لدى الدِّيانات بين الأشخاص أنواعًا كثيرة من الطقوس ومن التضحيات المصمّمة لجعل الناس يشعرون بأنهم يستحقّون الحب: الخواتم، والهدايا، والذكرى السنوية، ومسح البول عن الأرض عندما أخطئ توجيهه إلى المرحاض... إنها الأشياء الصغيرة التي تتجمّع كلها في شيء كبير واحد: أنت مرحّب بك، يا حبيبي!

الخطوة الخامسة: عِدْهم بالجنّة واعطهم الجحيم

إذا بلغت هذه النقطة من مشروع إقامة دِينٍ خاصٍّ بك، فهذا يعني أنك تمكّنت من تكوين مجموعة من الناس اليائسين الذين يحاولون تجنّب الحقيقة غير المريحة من خلال دراسة تلك الترّهات التي صنعتها من أجلهم، فصاروا يتجاهلون أصدقاءهم ويبتعدون عن عائلاتهم.

الآن، حان وقت الجد.

الشيء الجميل في هذا الدِّين هو أنك مهما وعدت أتباعك بالخلاص والاستنارة والسلم العالمي والسعادة المطلقة، أو بأي شيء، كلما أخفقوا في تلبية المتطلبات التي لا بد منها من أجل تحقق ذلك الوعد. وكلما ازدادوا إخفاقًا في تلبية تلك المتطلّبات، كلما ألقوا باللائمة على أنفسهم وازداد إحساسهم بالذنب. وكلما لاموا أنفسهم أكثر وازداد إحساسهم بالذنب، كلما صاروا أكثر استعدادًا لفعل كل ما تقوله لهم حتى يكفّروا عما اقترفوه.

قد يرى بعض الناس أن هذا ليس دائرة مفرغة من الاضطهاد النفسي. لكن، علينا ألا نسمح لمصطلحات من هذا النوع بأن تفسد علينا بهجتنا!

إن النموذج الهرمي للمبيعات يقوم بهذا الأمر بطريقة جيدة حقًا. فأنت تعطي شخصًا بعض المال مقابل حصولك على مجموعة من المنتجات التي لا تريدها ولا تحتاج إليها، ثم تمضي ثلاثة شهور بعد ذلك محاولًا جعل أشخاص آخرين ينضمون إلى المشروع، من خلفك، ويشترون ويبيعون منتجات لا يريدها أحد ولا يحتاج إليها أحد.

لكن الأمر لا ينجح!

عند ذلك، وبدلًا من رؤية ما هو واضح (ليس الأمر أكثر من قيام شخص تافه بشراء أشياء تافهة من شخص تافه آخر حتى يشتريها منه أشخاص تافهون آخرون)، فإنك تلقي باللوم على نفسك... لأن، انظر، الشخص الذي في قمة الهرم لديه سيارة فيراري، وأنت تريد أن يكون لديك سيارة فيراري. إذًا، فمن الواضح أن المشكلة موجودة فيك، أليس هذا صحيحًا؟

ولحسن حظك، تكتشف أن الشخص الذي لديه سيارة فيراري قد تكرّم وقرّر إقامة دورة تعليمية لمساعدتك في بيع المزيد من تلك التوافه التي لا يريد أحد أن يشتريها، وذلك حتى يشتريها منك أشخاص يحاولون بعد ذلك بيع المزيد من تلك الأشياء التي لا يريدها أحد لأشخاص يبيعونها بدورهم... وهكذا دواليك.

وفي تلك الدورة الموعودة، ينقضي القسم الأكبر من الوقت في إعدادك نفسيًا من خلال الموسيقى والترانيم، ومن خلال خلق ثنائية «نحن» مقابل «هم»، («الفائزون لا يستسلمون أبدًا! ويعتقد الخاسرون بأنهم لن ينجحوا!»)، فتخرج من ذلك المكان متحمسًا بالفعل، لكنك تظل من غير أية فكرة عن كيفية التمكّن من بيع أي شيء، خاصّة إذا كان شيئًا تافهًا لا يريد أحد شراءه. لكن، بدلًا من أن ينصبَّ غضبك على ذلك الدِّين القائم على المال الذي أقنعوك به، فإنك تشعر بالغضب تجاه نفسك. أنت تلوم نفسك على فشلك في الارتقاء إلى مستوى تلك القيمة الإلهية، وذلك بصرف النظر عن مدى سوئها.

يمكنك أن ترى دورة اليأس هذه نفسها في مجالات أخرى كثيرة. خطط اللياقة البدنية والأنظمة الغذائية، والنشاط السياسي، ودورات المساعدة الذاتية، والتخطيط المالي، وذهابك في زيارة إلى جدتك في العطلة... الرسالة هي نفسها دائمًا: كلما ازداد قيامك بالأمر، كلما قيل

لك إن عليك أن تقوم به أكثر حتى تصل إلى عيش الرضا الموعود. لكن ذلك الرضا لا يأتي أبدًا.

فلنتوقف الآن لحظة واحدة. ولأكن الشخص الذي يبلغك بالخبر السيئ: الألم البشري يشبه لعبة من الألعاب الإلكترونية، كلما نجحت في التخلّص من نوع من أنواع ذلك الألم، ظهر لك نوع جديد. وكلما كنت أسرع في التخلص من تلك الآلام تباعًا، كلما صار مجيئها إليك أكثر سرعة.

قد يتحسّن الألم، وقد يتغيّر شكله، وقد يكون أقل كارثية في كل مرة. لكنه سيظل موجودًا. إنه جزء منا[1]. إنه نحن.

يجني كثيرون من المتحدّثين الدِّينيين أموالًا طائلة زاعمين أنهم يستطيعون تخليصك من هذا الألم الذي لا يزول... تخليصك مرة وإلى الأبد. لكن الحقيقة هي أن ما من نهاية لتلك الآلام. كلّما كنت أكثر سرعة في هزيمتها، كلّما صارت أكثر سرعة في العودة إليك. هكذا يتمكّن أولئك الأشخاص من المحافظة على أعمالهم مزدهرة: بدلًا من الاعتراف بأن هذه هي طبيعة الأمور، وبأن طبيعتنا البشرية مصمَّمة في الأساس بحيث تولّد الألم، فإنهم يلومونك على عدم الفوز في تلك اللعبة. بل قد يفعلون أسوأ من هذا عندما يلقون باللائمة على شيء مبهم... «هم»! إذا تمكّنت من التخلّص من «هم»، فسوف تتوقّف معاناتك. إنها إجابة مغرية[2]. لكن ذلك أيضًا لا ينجح. إنه ينقل الألم من مجموعة إلى أخرى، ويضاعفه أيضًا.

لو كان أحد ما قادرًا حقًا على حل مشكلاتك كلّها، فسوف يجد نفسه من غير عمل بعد أيام قليلة (أو سيفقد منصبه في الأسبوع التالي).

---

(1) فرويد: *«قلق في الحضارة»*، ص: 14 – 15.

(2) المصدر السابق، ص: 18.

إن الزعماء في حاجة إلى إبقاء أتباعهم غير راضين، فهذا أمر جيّد لعملهم: القيادة. إذا صار كل شيء جيدًا من غير أية مشكلة، فلن يبقى أي سبب لاتّباع أي شخص. ما من دِينٍ قادر على جعلك تشعر بالسلام والهناء طيلة الوقت. وما من بلد يمكن أن يجعلك تحسّ إحساسًا كاملًا بالعدل والأمان. وما من فلسفة سياسية قادرة على حل مشكلات الجميع طيلة الوقت. المساواة الحقيقية أمر لا يمكن التوصل إليه أبدًا لأن شخصًا ما، في مكان ما، سوف يكون خاسرًا. والحرية الحقيقية غير موجودة لأن على كل منا أن يضحّي بشيء من استقلاليته من أجل الاستقرار. وما من أحد، مهما أحبّك ومهما أحببته، قادر على تخليصك من إحساسك الداخلي بالذنب لمجرّد أنك موجود. هكذا كان الأمر دائمًا؛ وسوف يظلّ الأمر هكذا على الدوام. لا وجود لأية حلول... لا وجود إلا لتدابير مؤقتة ولتحسّن متدرّج بطيء بحيث تكون النتيجة شكلًا أحسن قليلًا من ذلك الوضع الذي كان من قبله. كفانا هربًا من هذا الأمر. علينا أن نتقبّله[1].

هذا هو عالمنا البائس. وهؤلاء نحن الذين نعيش فيه.

---

(1) مانسون: *«فن اللامبالاة»* دار التنوير، 2018، ص: 23 - 29.

الخطوة السادسة: نبيّ من أجل الربح

إذًا، هكذا هو الأمر! بلغت نقطة النهاية. صار لديك دينك الخاص بك، وحان وقت جني الأرباح والمكتسبات. صار لديك الآن أتباع يعطونك مالهم ويقومون بخدمتك؛ وصرت أخيرًا قادرًا على الحصول على كل ما أنت راغب فيه!

هل تريد اثنتا عشرة جارية؟ ما عليك إلا أن تشير بإصبعك. أعطِ أتباعك «كتابًا مقدّسًا» وقل لهم إن «المرحلة السادسة من الاستنارة» لا يمكن الوصول إليها إلا عندما ينتشي نبيكم!

هل أنت راغب في قطعة أرض كبيرة في مكان ما؟ ما عليك إلا أن تقول لأتباعك إنك الشخص الوحيد القادر على بناء جنّة من أجلهم. وأن هذه الجنة يجب أن تكون في مكان آتٍ تختاره... وبالمناسبة، عليهم أن يدفعوا مالًا لقاء الذهاب إليها.

هل أنت راغب في السلطة والمكانة؟ قل لأتباعك أن ينتخبوك لتصير حاكمًا. أو لديك أيضًا ما هو أفضل من هذا: إسقاط الحكومة بالعنف. إذا قمت بعملك على نحو جيد، فسوف يكونون مستعدين لتقديم أرواحهم من أجلك.

الفرص لا نهاية لها، في حقيقة الأمر.

لا وحدة بعد الآن. ولا مشكلات مع النساء بعد الآن. ولا مآزق مالية. صرت قادرًا على تحقيق أكثر أحلامك جنونًا. ليس عليك إلا أن تدوس آمال وأحلام آلاف الأشخاص الآخرين حتى تصل إلى حيث تريد.

نعم يا صديقي، لقد عملت كثيرًا من أجل هذا. وبالتالي، فأنت

تستحق المكاسب كلها من غير أية مشكلات اجتماعية تزعجك، ومن غير أي كلام متحذلق عن الأخلاق وعما يشبهها. السبب هو أن ذلك ما يكون عليك فعله عندما تبدأ دِينك الخاص بك: أنت من يقرر ما هو أخلاقي. أنت من يقرر ما هو صحيح. وأنت من يقرر من هو المؤمن الحق.

ربما تجعلك حكاية «بدء دينٍ خاصٍّ بك» تجفل بعض الشيء! حسنًا، لا أحب أن أقول لك هذا، لكنك ضمن دين من الأديان، منذ الآن. فسواء أدركت الأمر أم لم تدركه، فإنك تتبنّى معتقدات وقيم جماعة ما، وتشارك في طقوسها وشعائرها، وتقدّم الأضاحي، وترسم الخط الفاصل بين «نحن» و«هم»، وتعزل نفسك فكريًا. هذا ما نفعله كلنا. إن تلك المعتقدات الدينية وما يرافقها من سلوكيات قَبَلية جزء أساسي من طبيعتنا[1]. ومن المستحيل ألا تتبناها. إذا كنت تظنّ نفسك فوق الدين، وتظن أنك تستخدم العقل والمنطق، فإن من دواعي أسفي أن أقول لك إنك مخطئ. أنت واحد منا[2]. إذا كنت تظن نفسك حسن الاطلاع، رفيع الثقافة، فأنت لست كذلك: أنت لا تزال فاشلًا مسكينًا[3].

---

(1) إ. و. ويلسون: «في الطبيعة البشرية»، (1978)؛ أعيدت طباعته في كامبردج، ماساشوستس: منشورات جامعة هارفارد، 2004، ص: 169 - 192.

(2) تتهاوى مهارات المحاكمة العقلية عندما تواجه المرء مشكلات ذات حمولة عاطفية/ انفعالية كبيرة (أي عندما تكون مسائل تلامس قيمنا العليا). انظر فلاديميرا تشافويوفا، ياكوب شرول، ماغدالينا أداموس: «وجهة نظري صحيحة؛ ووجهة نظرك غير صحيحة: انحياز كل شخص إلى وجهة نظره عندما مناقشة موضوع الإجهاض»، مجلة علم النفس الإدراكي 30، العدد 7 (2018): 656 - 669.

(3) الواقع أن من الممكن طرح مزيد من الأسئلة. تبيّن الدراسات أنه كلّما كان الشخص أكثر ثقافة واطلاعًا، كلما كانت آراؤه السياسية أكثر استقطابًا. انظر ت. بالفري، ك. مول، «العلاقة بين المعلومات والإيديولوجيا والسلوك الانتخابي»، المجلة الأميركية للعلوم السياسية 31، العدد 3 (1987): 511 - 530.

لا بد لنا كلنا من أن يكون لدينا إيمان بشيء ما. ولا بد لنا من العثور على قيمة في مكان ما. هكذا نستمر من الناحية النفسية، وهكذا ننمو. الأمر متعلّق كلّه بكيفية العثور على الأمل. وحتى إذا كانت لديك رؤية لمستقبل أفضل، فمن الصعب كثيرًا أن تسير في الدرب وحدك. حتى نحقق أي حلم، لا بد لنا من شبكات مساندة ودعم، من الناحية العاطفية ومن الناحية العملية. إن الأمر في حاجة إلى جيش كامل.

إنها تراتبيات القيم لدينا (كما يجري التعبير عنها من خلال قصص الديانات فتصير مشتركة بين آلاف البشر، أو بين ملايين البشر) تقوم بدور الجاذب والمنظِّم والدافع للأنظمة البشرية وتدفع بها إلى الأمام في نوع من الصراع الدارويني. إن الدِّيانات في العالم تتنافس على الموارد؛ والديانات التي تكون أقرب إلى الفوز هي تلك التي تكون لديها تراتبيات قيم تجعلها أكثر فاعلية في استخدام رأس المال ونتاج العمل. وعندما تفوز ديانة في هذا السباق، فإن المزيد والمزيد من الناس يتبنّون تراتبية قيَمها لأنها استطاعت التعبير عن أعلى قيمة في نظر الأفراد ضمن جماعة من السكان. وبعد ذلك، تستقر هذه الديانات المنتصرة وتصير أساسًا للحضارة[1].

لكن لدينا مشكلة هنا: كلما نجحت دِيانة من الدِّيانات، وكلما نشرت رسالتها على نطاق واسع وصارت مهيمنة على مساحة كبيرة من حياة البشر ومشاعرهم، كلما تغيّرت قيَمها. تكف القيمة الإلهية في الدِّيانة

---

(1) ظهرت هذه الفكرة منشورة أول مرة لدى ف. ت. كلوك جونيور: «هل علم السلوك الثقافي ممكن؟»، الإيكولوجيا البشرية، 3، العدد 3 (1975): 161 - 182. وللاطلاع على مناقشة أقل اتسامًا بالصفة الأكاديمية، انظر آرون لينتش، «عدوى الأفكار: كيف تنتشر المعتقدات في المجتمع»، (نيويورك: بيسك بوكس، 1996)، ص: 97 - 134.

المعنية عن كونها نقطة اجتماع المبادئ التي ألهمت تلك الديانة في المقام الأول. وتنزاح تلك القيمة الإلهية انزياحًا بطيئًا نحو مهمة المحافظة على الديانة نفسها: أي عدم خسارة ما كسبته.

هنا يبدأ الفساد. عندما تُزاح جانبًا القيم التي كانت تشكّل تعريف الديانة أو الحركة أو الثورة من أجل المحافظة على الوضع القائم، يكون ذلك هو النرجسية على المستوى التنظيمي. هكذا يتحوّل الأمر من يسوع المسيح إلى الحملات الصليبية، ومن الماركسية إلى معسكرات العمل القسري، ومن حفل الزفاف إلى محكمة الطلاق. إن هذا الفساد الذي يدبّ في القيم الأصلية للديانة يمتد إلى أتباعها فيؤدّي إلى بروز ديانات جديدة تهزم الديانة الأصلية في نهاية المطاف. ثم تبدأ العملية كلها من جديد.

بهذا المعنى، يكون النجاح أقل استقرارًا من الفشل، أقل كثيرًا. وهذا لأنك إن كسبت كثيرًا فسوف تخسر كثيرًا، ولأنك كلما خسرت أكثر تصير محافظتك على الأمل أكثر صعوبة. وأهم من هذا هو أننا نفقد آمالنا لأننا نعيشها ونختبرها. نرى أن رؤانا الجميلة عن مستقبل لا تشوبه شائبة ليست على تلك الدرجة من الكمال، وأن أحلامنا وطموحاتنا نفسها مشوبة بعيوب غير متوقّعة وتضحيات غير مرتقبة.

هذا لأن الشيء الوحيد القادر حقًا على تدمير حلم من الأحلام هو تحقّق ذلك الحلم.

الفصل الخامس

الأمل في خراب

في القرن التاسع عشر، خلال صيف لطيف جميل في جبال الألب السويسرية، نزل من قمة جبله (مجازًا) فيلسوف عالم يعتبر نفسه أعجوبة عقلية وروحية، ونشر كتابًا من ماله الخاص. كان ذلك الكتاب هبة منه قدّمها إلى البشرية، هبة وقفت وقفة شجاعة عند عتبة العالم الحديث وأعلنت هذه الكلمات التي جعلت شهرة صاحبها تستمرّ زمنًا طويلًا بعد موته.

كانت كلماته: «لقد مات الإله!»... وكلام كثير بعد هذا.

أعلنت كلمات الفيلسوف أن أصداء موت الإله ستكون نذيرًا بقدوم عصر جديد خطير سوف يتحدّانا جميعًا.

أطلق الفيلسوف هذه الكلمات لتكون تحذيرًا. كان يتكلّم بصفته مراقبًا. يتكلّم من أجلنا جميعًا. إلا أن كتابه لم يبع إلا أقل من أربعين نسخة[1].

---

(1) لقد أعلن نيتشه موت الإله أول مرة في سنة 1882، وذلك في كتابه «العلم المرح»؛ إلا أن الاستشهاد بهذا الأمر غالبًا ما يكون مرتبطًا بكتاب آخر له، وهو كتاب «هكذا تكلّم زرادشت» الذي صدر في أربعة أجزاء بين سنة 1883 وسنة 1885. وبعد صدور الجزء الثالث رفض الناشر متابعة المشروع رفضًا مطلقًا. فكان على نيتشه أن يعمل على جمع المال حتى يصدر الجزء الأخير بنفسه. وهذا الجزء الأخير هو الكتاب الذي باع أقل من أربعين نسخة. انظر سو بريدو: «أنا ديناميت! حياة نيتشه»، (نيويورك: تيم دوغان بوكس، 2018)، ص 256 – 260.

استيقظت ميتا فون ساليس قبل الفجر حتى توقد النار وتغلي الماء من أجل شاي الفيلسوف. جلبت جليدًا لتبريد مفاصله التي تؤلمه. جمعت العظام المتبقية من عشاء الأمس لكي تطبخ له حساء يهدّئ معدته. غسلت ملابسه المتّسخة بيديها. وبعد ذلك، أرادت أن تقصّ له شعره وتشذّب شاربيه، فأدركت أنها نسيت إحضار موسى حلاقة جديد.

كان ذلك الصيف الثالث الذي تمضيه ميتا في العناية بفريدريك نيتشه؛ وقد عرفت أنه قد يكون الصيف الأخير. كانت تحبّه... كأنه أخ لها. (عندما اقترح صديق مشترك لهما أن يتزوجا، ضحكا كثيرًا لسماع اقتراحه... ثم بدا عليهما نفور شديد من تلك الفكرة). لكن إحسان ميتا إلى نيتشه كان يقترب من نهايته.

لقد التقت نيتشه في وليمة عشاء. استمعت إلى عزفه على البيانو. وسمعته يروي قصصًا مثيرة عن سلوكه الغريب مع صديقه القديم المؤلّف الموسيقي ريتشارد فاغنر. وعلى العكس مما يرى المرء في كتاباته، كان نيتشه شخصًا مهذّبًا لطيف المعشر. كان مستمعًا جيدًا. وكان محبًا للشعر قادرًا على إلقاء عشرات الأبيات اعتمادًا على ذاكرته. كان يجلس ويلعب ألعاب الكلمات ساعات طويلة، ويغني الأغاني، ويروي النكات.

كان نيتشه ذكيًا لامعًا إلى حد آسر. وكان صاحب ذهنٍ حادٍّ قادر على شطر غرفة إلى نصفين بكلمات قليلة. وكانت كلماته المأثورة التي ستصير شهيرة في العالم كلّه تنساب من فمه انسيابًا يسيرًا. يقول بطريقته العفوية: «كلامك الكثير عن نفسك يمكن أيضًا أن يكون وسيلة تخفي بها نفسك»، فيصمت سريعًا كل من في الغرفة[1].

(1) إن كل ما يقوله نيتشه في هذا الفصل مأخوذ بالضبط من أعماله. وهذه الجملة مأخوذة من كتاب نيتشه «ما وراء الخير والشر»، من ترجمة وولتر كاوثمان (1887)؛ أعيدت طباعته في نيويورك: فينتيج بوكس، 1963، ص: 92.

كثيرًا ما كانت ميتا تجد نفسها عاجزة عن الكلام في حضوره، لا لأن مشاعرها تطغى عليها، بل لمجرد إحساسها بأن ذهنه قد سبق ذهنها وخلّفه وراءَه بعدة خطوات فصارت في حاجة إلى برهة من الزمن حتى تلحق به.

إلا أن ميتا لم تكن قليلة الشأن من حيث ثقافتها. فالواقع أنها كانت امرأة شديدة القوة بمقاييس زمانها. كانت أول امرأة في سويسرا تحصل على شهادة الدكتوراه، وكانت أيضًا واحدة من أهم الكاتبات والناشطات النسائيات في العالم. كانت تجيد أربع لغات، وتنشر مقالات في أوروبا كلّها تدافع فيها عن حقوق المرأة؛ وهذا ما كان شيئًا راديكاليًا في ذلك الزمان. لقد سافرت كثيرًا، وكانت امرأة ذكية قوية الإرادة[1]. وعندما تعرّفت على أعمال نيتشه، أحسّت بأنها وجدت آخر الأمر شخصًا لديه أفكار يمكن أن تعزز تحرُّر المرأة في العالم كله.

فها هو رجل يدافع عن تمكين الفرد، وعن فهم جذري للمسؤولية الشخصية. إنه رجل مؤمن بأن قدرات الفرد ومواهبه أهم من أي شيء آخر، وبأن كل إنسان يستحق أن يكون قادرًا على بلوغ أقصى إمكاناته، أو إمكاناتها، وبأن من واجبه أن يمارس ذلك الحق وأن يدافع عنه. آمنت ميتا بأن نيتشه يعبّر بكلماته عن الأفكار الجوهرية وعن الأطر المفاهيمية التي ستؤدّي في آخر المطاف إلى تمكين المرأة وإلى إخراجها من عبوديتها الأزلية.

---

(1) إن قصة نيتشه مع ميتا بهذا الفصل مأخوذة بشيء من التصرّف من المعلومات عن فصلي الصيف اللذين أمضاهما مع حفنة من النساء (النساء الأخريات هنّ اثنتان: هيلين زيمرمن، وريزا فون شيرهوفر)، وذلك في سنتي 1886 و1887. انظر جوليا يونغ، «فريدريك نيتشه: سيرة فيلسوف»، (كامبردج، المملكة المتحدة: منشورات جامعة كامبردج، 2010)، ص: 388 - 400.

إلا أن مشكلة واحدة واجهتها: لم يكن نيتشه من أنصار النسوية. والحقيقة أنه كان يرى في فكرة تحرر المرأة كلها أمرًا سخيفًا.

إلا أن هذا لم يردع ميتا. لقد كان نيتشه رجلًا صاحب عقل ومنطق؛ ومن الممكن إقناعه. إنه ليس في حاجة إلى أكثر من إدراك مدى تحيّزه حتى يتحرّر منه. بدأت تزوره زيارات منتظمة، وسرعان ما صارا صديقين حميمين ونشأت بينهما رفقة ثقافية. كانا يمضيان فصول الصيف في سويسرا، ويذهب في الشتاء إلى فرنسا وإيطاليا: زيارات إلى فينيسيا، ورحلات سريعة إلى ألمانيا، ثم عودة إلى سويسرا من جديد.

سنة بعد سنة، اكتشفت ميتا أن من خلف عيني نيتشه الثاقبتين وشاربيه الضخمين كتلة من التناقضات. كان يكتب عن القوة والسلطة بحماسة في حين أنه شخص هَشّ وضعيف. وكان ينادي بالمسؤولية الجذرية وبالاعتماد على النفس على الرغم من اعتماده الكلّي على أصدقائه (أكثرهم من النساء) وعلى عائلته حتى يعتنوا به وينفقوا عليه. كان يشتم الأكاديميين والمُراجِعين متقلّبي الرأي الذين ينتقدون أعماله أو يرفضون قراءتها في حين يتشدّق بأن قلّة شعبية كتاباته تثبت تميّزه... أعلن ذات مرة: «زمني لم يأتِ بعد. إن من الرجال من يولد بعد موته»[1].

في حقيقة الأمر، كان نيتشه تجسيدًا لكل ما يزعم أنه يمقته: كان شخصًا ضعيفًا، اتكاليًا، مفتتنًا افتتانًا تامًا بالنساء القويات المستقلات، معتمدًا عليهن. إلا أن أعماله كانت تنادي بالقوة الفردية وبالاعتماد على الذات، وكان معاديًا للنساء إلى حد يُرثى له. والظاهر أن اعتماده على الرعاية النسائية طوال عمره أدى إلى تشوّش قدرته على رؤيتهنّ بوضوح. ستكون هذه نقطة عمياء فاضحة في رؤية رجل يكاد يكون نبيًا من كل ناحية أخرى.

---

(1) فريدريك نيتشه: «هذا هو الإنسان»، ترجمة ر. ج. هولينغديل (1890)؛ أعيدت طباعته في نيويورك: بنغوين كلاسيكس، 1979، ص: 79.

لو كان هناك نصب تذكاري لـ«أشد ألم تحمّله شخص واحد» لما تردّدت في ترشيح نيتشه لكي يكون صاحب ذلك النصب. كان دائم المرض في طفولته: كان الأطباء يضعون العلق على رقبته وأذنيه ويطلبون منه أن يجلس ساعات من غير أية حركة. وقد ورث اضطرابًا عصبيًا يصيبه بنوبات صداع نصفي قاتلة ظلّت تأتيه طيلة حياته (جعلته يجن في منتصف عمره). وكان حساسًا للضوء إلى حد يصعب تصديقه، وغير قادر على الخروج من غير نظّارة زرقاء ذات زجاج سميك؛ ثم صار شبه أعمى في سن الثلاثين.

انضم إلى الجيش في أول شبابه وشارك فترة قصيرة في الحرب الفرنسية - البروسية. وهناك، أصيب بالدفتيريا، وبالزحار، فكاد يموت. عالجوه في ذلك الوقت بحقن شرجية حامضية مما أدى إلى تلف أمعائه. وقد ظلّ طيلة حياته يعاني ألمًا هضميًا حادًّا جعله عاجزًا عن تناول وجبات طعام مناسبة. وفوق هذا كله، ظل مصابًا بسلس البول لفترات غير قليلة من حياته. أدّت إصابات لحقت به أيام ركوب الخيل إلى جعل أجزاء من جسمه متيبّسة قليلة المرونة؛ بل كان عاجزًا عن تحريك تلك الأجزاء في بعض الأيام. كثيرًا ما كان في حاجة إلى مساعدة حتى ينهض واقفًا. وكان يمضي شهورًا متصلة وحيدًا في الفراش غير قادر على فتح عينيه لشدة ألمه. وفي سنة 1880 (سيدعوها في ما بعد «سنة سيئة»)، ظل طريح الفراش مئتين وستين يومًا من ثلاثمئة وخمسة وستين يومًا. أمضى الشطر الأكبر من حياته متنقّلًا بين الساحل الفرنسي في الشتاء وجبال الألب السويسرية في الصيف لأنه كان في حاجة إلى درجات حرارة معتدلة حتى لا تؤلمه عظامه ومفاصله.

سرعان ما اكتشفت ميتا أنها لم تكن المرأة المثقّفة الوحيدة التي افتتنت بهذا الرجل. كان لديه رهط من النساء اللواتي يأتين لرعايته فترات تمتد الواحدة منها بضعة أسابيع أو بضعة شهور. وعلى غرار ميتا،

كانت تلك النسوة من القويّات القادرات في زمانهنّ: لقد كن آستاذات، ومالكات ثريات، وصاحبات مشاريع. كنّ متعلّمات جيدًا، يتكلمن عدة لغات؛ وقد كنّ شديدات الحرص على استقلالهنّ.

وكنّ أيضًا ناشطات نسويات... بل من أوائل الناشطات النسويات.

رأت تلك النساء الرسالة التحرّرية في أعمال نيتشه. كتب عن البنى الاجتماعية التي تحدّ من قدرات الفرد؛ وكانت الناشطات النسويات يرين أن البنى الاجتماعية في ذلك الزمان سجن لهنّ. وقد اعترض نيتشه على الكنيسة لأنها تكافئ الضعفاء ومن لا طموح لديهم؛ وكانت النسويات أيضًا يشجبن الكنيسة لأنها تجبر النساء على زواج يقوم على خدمة الرجال. كما تجرّأ نيتشه على إعادة تشكيل قصّة التاريخ البشري لتصير قصة تنامي جهل البشر بطبيعتهم الخاصّة بعد أن كانت قصّة إفلاتهم من هيمنة قوى الطبيعة. ذهب نيتشه إلى أن على الفرد أن يقوّي نفسه ويمكّنها، وأن يصل إلى مستويات من الحرية والوعي متزايدة العلو. ورأت تلك النسوة في نشاطهنّ النسوي خطوة في اتجاه ذلك التحرّر.

لقد أفعم نيتشه نفوسهنّ أملًا، فرُحن يتناوبن على رعاية هذا الرجل المتهاوي المحطَّم يحدوهنّ أمل بأن يكون في كتابه التالي، أو مقالته التالية، أو مجادلته التالية، ما يفتح الباب أمام انطلاقهنّ.

إلا أن أعماله ظلّت غير معروفة تقريبًا خلال الشطر الأكبر من حياته.

ثم أعلن نيتشه عن موت الإله فتحوّل من أستاذ جامعي فاشل إلى شخص منبوذ. صار غير قادر على إيجاد عمل؛ وصار شبه مشرَّد. لم يكن أحد يريد أن تكون له أيّ علاقة به: لا جامعة، ولا ناشر، ولا حتى كثير من أصدقائه. كان يحاول تدبّر المال من هنا وهناك حتى ينشر أعماله بنفسه، ويستدين من أمه وأخته حتى يعيش. كان معتمدًا على الأصدقاء لتدبير أمور حياته. وحتى في ذلك الوقت، لم تكن كتبه لتجد مشتريًا لها.

إلا أن تلك النسوة ظللن ملتصقات به على الرغم من هذا كلّه. كنّ

يتولّين تنظيفه وإطعامه وحمله. وكنّ مؤمنات بأن لدى هذا الرجل المتداعي ما يمكن أن يغيّر التاريخ. وهكذا، فقد بقين منتظرات.

تاريخ وجيز للعالم بحسب نيتشه

لنقل إنك وضعت حفنة من الناس في بقعة أرض محدودة الموارد وتركتهم يبدأون الحضارة البشرية من الصفر. إليك ما سيحدث:

هناك من الناس من حبتهم الطبيعة بقدرات أكثر من قدرات الناس الآخرين. بعضهم أذكى من الآخرين. وبعضهم أكثر ضخامة وقوة. وبعضهم أكثر جاذبية. بعضهم ودود لا يجد صعوبة في علاقاته مع الآخرين. بعضهم مجدٌّ في العمل وقادر على اجتراح أفكار أفضل.

سوف يجمع أصحاب تلك المزايا الطبيعية موارد أكثر مما يجمعه غيرهم. وبما أن لديهم موارد أكثر، فسوف يتمكّنون في هذا المجتمع الجديد من ممارسة قدر من السلطة غير متناسب مع عددهم. وسوف يكونون قادرين على ممارسة تلك السلطة لحيازة مزيد من الموارد ومزيد من المزايا. وهكذا دواليك - كما نعرف - نحن نعرف قصة «الغني يزداد غنى». إذا استمر الأمر على هذا النحو عددًا كافيًا من الأجيال، فسرعان ما سوف تظهر تراتبية اجتماعية تضمّ نخبة قليلة العدد في القمة وعددًا كبيرًا من الناس القابعين في أسفل تلك التراتبية. ظهر هذا التباين الطبقي في المجتمعات البشرية كلّها منذ ظهور الزراعة؛ وصار على المجتمعات أن تتعامل مع التوتّرات التي تنشأ بين النخبة ذات المزايا وبقية الجمهور المحروم[1].

---

(1) ذهب بعض علماء الأنثروبولوجيا إلى حد القول بأن الزراعة، نتيجة ميلها المحتوم إلى خلق اللامساواة وتصنيف المجتمع إلى طبقات مختلفة، كانت «أسوأ غلطة في تاريخ العرق البشري». انظر مقالة جارد دايموند الشهيرة: «أسوأ غلطة في تاريخ العرق البشري»، ديسكوفر، أيار 1987، ذهب بعض علماء الأنثروبولوجيا

دعا نيتشه أفراد النخبة «سادة» المجتمع، لأنهم يكادون يملكون سيطرة تامة على الثروة والإنتاج والسلطة السياسية. ودعا الجماهير العاملة «عبيد» المجتمع، لأنه لم ير كبير فرق بين وضع العامل الذي يشتغل طيلة حياته مقابل مال قليل وبين العبودية نفسها[1].

نصل الآن إلى ما يثير الاهتمام في أعمال نيتشه. لقد رأى أن سادة المجتمع سيصلون إلى نقطة يرون فيها أنفسهم مستحقّين ما لديهم من مزايا. أي أنهم سيصنعون «قصص القيمة» التي تبرّر مكانتهم النخبوية. فلماذا لا يتلقّون مكافأة على مزاياهم تلك. أمر حسن أن يكونوا في القمة. وهم يستحقون هذا. إنهم أذكى الناس وأقواهم وأكثرهم موهبة. وبالتالي، فهم أكثرهم صلاحًا.

سمّى نيتشه نظام المعتقدات هذا «أخلاقيات السادة» (حيث يتمكّن من يسبقون غيرهم من فعل ذلك لأنهم يستحقّونه). وأخلاقيات السادة هي الاعتقاد الأخلاقي بأن الناس يحصلون على ما يستحقونه. إنه المعتقد الأخلاقي القائل بأن «القوة تصنع الحق»: إذا كسبت شيئًا نتيجة

= إلى حد القول بأن الزراعة، نتيجة ميلها المحتوم إلى خلق اللامساواة وتصنيف المجتمع إلى طبقات مختلفة، كانت «أسوأ غلطة في تاريخ العرق البشري». انظر مقالة جارد دايموند الشهيرة: «أسوأ غلطة في تاريخ العرق البشري»، ديسكوفر، أيار 1987.

http://discovermagazine.com/1987/may/02 - the - worst - mistake - in - the - history - of - the - human - race

(1) جاء وصف نيتشه الأولي لأخلاقيات السادة وأخلاقيات العبيد في كتابه «ما وراء الخير والشر»، ص: 204 – 237. وقد توسّع في الكلام على كل واحدة منهما في كتاب «جينيالوجيا الأخلاق»، (1887). إن المقالة الثانية في كتاب «جينيالوجيا الأخلاق» (نيويورك: بينغوين كلاسيكس، 2014)، هي ما جعلني أتعرّف أول مرة على مفهوم «الهوة الأخلاقية» الذي أناقشه هنا في الفصل الثالث. يقول نيتشه إن الأخلاقيات الفردية لكل واحد منا قائمة على إحساسه بالدّين.

ذكائك أو جدّك في العمل، فأنت تستحقه. لا يستطيع أحد أخذه منك، ولا ينبغي لأحد أن يأخذه منك. أنت هو الأفضل؛ وبما أنك أظهرت تفوقًا، فإن من الواجب أن تحصل على مكافأة التفوّق.

وبالعكس، رأى نيتشه أن «عبيد» المجتمع ينتجون معيارًا أخلاقيًا خاصًا بهم. ففي حين يرى السادة أنهم فاضلون صالحون بسبب قوّتهم، يعتقد عبيد المجتمع بأنهم هم الفاضلون الصالحون بسبب ضعفهم. تؤمن أخلاقيات العبيد بأن الناس الذين يعانون أكثر من غيرهم، الناس المستغَلين أكثر والمحرومين أكثر، يستحقّون أفضل معاملة نتيجة معاناتهم تلك. تؤمن أخلاقيات العبيد بأن أفقر الناس وأقلهم حظًا يستحقّون أكبر قدر من التعاطف والاحترام.

وفي حين تؤمن أخلاقيات السادة بفضيلة القوة والهيمنة، تؤمن أخلاقيات العبيد بفضيلة التضحية والخضوع. وفي حين تؤمن أخلاقيات السادة بضرورة التراتبية الاجتماعية، تؤمن أخلاقيات العبيد بضرورة المساواة. وفي حين تتمثّل أخلاقيات السادة، بشكل عام، من خلال المعتقدات السياسية اليمينية، فعادة ما تتمثّل أخلاقيات العبيد في الآراء السياسية اليسارية[1].

إن نوعَي الأخلاقيات كليهما موجودان لدى كل شخص منا. تخيّل أنك في صف مدرسي وأنك تبذل جهدًا كبيرًا في الدراسة وتحصل على أعلى الدرجات. وبما أنك تحصل على أعلى الدرجات في الاختبار، فإنك تتلقّى مزايا ومكتسبات بسبب نجاحك. تشعر بأن حيازتك تلك المكتسبات أمر مبرر من الناحية الأخلاقية لأنك بذلت جهدًا كبيرًا في العمل ففزت بها. أنت طالب «جيد»؛ وأنت شخص «جيد» لأنك طالب جيد. هذه هي أخلاقيات السادة.

---

(1) هايدت، «العقل الذي يرى نفسه صالحًا»، ص: 188 - 189.

تخيّل الآن أن لديك زميلًا في الصف. إن لهذا الزميل ثمانية عشر أخًا وأختًا تربيهم جميعًا أم واحدة. يشتغل هذا الزميل زمنًا جزئيًا في عدد من الأعمال. ولا يتمكّن أبدًا من الدراسة لأنه - حرفيًا - يقدم الطعام لأشقائه وشقيقاته. يفشل هذا الزميل في اجتياز الامتحان نفسه الذي أحرزت فيه أعلى الدرجات. فهل هذا إنصاف؟ لا، ليس إنصافًا. ولعلك تشعر بأن ذلك الزميل يستحق نوعًا من معاملة استثنائية بسبب وضعه: ربما فرصة لإعادة الامتحان أو لإجرائه في وقت لاحق عندما يتوفّر له وقت للدراسة وللاستحقاق. إنه يستحقّ هذا، لأنه شخص «جيد» بسبب تضحياته وحرمانه. هذه هي أخلاقيات العبيد.

بحسب «مصطلحات نيوتن»، فإن أخلاقيات السادة هي الرغبة العميقة في إقامة فصل أخلاقي بيننا وبين العالم الذي من حولنا. إنها الرغبة في خلق هوّات أخلاقية نكون بموجبها الطرف صاحب اليد العليا. ومن هنا، تكون أخلاقيات العبيد هي الرغبة العميقة في المساواة والتوازن، وفي ردم الهوة الأخلاقية وإزالة المعاناة. إنهما رغبتان مكوِّنتان أساسيتان لنظام عمل دماغنا الذي يشعر. تولِّدُ كلّ رغبة من الرغبتين مشاعر وانفعالات قوية، وتعمل على استدامتها واستمرار عملها. وكل من الرغبتين تمنحنا الأمل.

يذهب نيتشه إلى القول بأن ثقافات العالم القديم (الإغريق والرومان والمصريون والهنود وغيرهم) كانت ثقافات أخلاقيات السادة. كانت تلك الثقافات مبنية بحيث تحتفي بالقوة والتميّز، حتى على حساب ملايين العبيد والرعايا. كانت تلك ثقافات المحاربين الذين يعلون من شأن الشجاعة والمجد وسفك الدماء. وقد قال نيتشه أيضًا إن أخلاقيات الإحسان والشفقة والتعاطف في اليهودية والمسيحية قد دفعت بأخلاقيات العبيد إلى الواجهة، وظلّت مهيمنة على الحضارة الغربية

حتى زمانه. ففي نظر نيتشه، تكون هاتان التراتبيتان القيَميتان في حالة توتّر وتعارض على الدوام. كان مؤمنًا بأنهما كامنتان في جذر كل نزاع اجتماعي أو سياسي على امتداد التاريخ كله.

وقد حذّر من أن شدة ذلك النزاع موشكة على الازدياد.

كل دِين هو محاولة قائمة على الإيمان من أجل تفسير الواقع بطريقة تمنح الناس تيارًا مستمرًا من الأمل. ففي نوع من الصراع الدارويني، تكون الديانات القادرة على حشد المؤمنين بها وإلهامهم وتنسيق حركتهم أكثر من غيرها هي تلك الديانات التي تفوز وتنتشر في العالم[1].

كانت الديانات الوثنية القائمة على أخلاقيات السادة في العالم القديم تبرر وجود الأباطرة والملوك المحاربين الذين يجتاحون الأرض ويتوسعون ويستولون على البلاد والشعوب. وبعد ذلك، منذ نحو ألفي عام، ظهرت ديانات أخلاقيات العبيد وبدأت تحلّ محلّ الديانات الوثنية. كانت الديانات الجديدة توحيدية (عادة)، ولم تحصر أنفسها بشعب أو عرق أو جماعة إثنية. كانت رسالتها موجهة إلى الجميع لأن تلك الرسالة رسالة مساواة: يولد الناس كلهم أخيارًا، ثم يفسدون، أو أنهم يُخلقون خاطئين، ثم يُنقذون (يُخَلَّصون). إن النتيجة واحدة في الحالتين. على كل إنسان، بصرف النظر عن قومه أو عرقه أو عقيدته، أن يتحوّل إلى الدين الصحيح باسم الإله الحق الواحد[2].

---

(1) ريتشارد داوكينز، «الجين الأناني: طبعة الذكرى الثلاثين»، (أوكسفورد، المملكة المتحدة: منشورات جامعة أوكسفورد، 2006)، ص: 189 - 200.

(2) مما يسترعي الانتباه أن هاجس تحوّل الناس من دين لآخر موجود في القسم الأكبر من الديانات غير التوحيدية مثلما هو موجود في الديانات التوحيدية. وقد كان الإغريق والرومان مهتمين كثيرًا بجعل الثقافات الأصلية تتبع معتقداتهم الدينية. لم تبدأ الحروب الدينية إلا بعد ظهور أخلاقيات العبيد. ولعل هذا لأنّ

ثم جاء القرن السابع عشر، وبدأ ظهور دين جديد في أوروبا، دين سوف يطلق قوى أكبر من أي شيء مما رآه تاريخ البشر.

يقع كل دين في مشكلة عويصة، ألا وهي مشكلة الدليل. يمكنك أن تقول للناس تلك الأشياء العظيمة كلها عن الرب والأرواح والملائكة، وهلم جرًّا... لكن، إذا احترقت البلدة كلّها، أو فقد طفلك ذراعه في حادثة ما فـ... لقد أُسقط في يدك! أين هو الرب؟

على امتداد التاريخ، بذلت السلطات جهودًا كثيرة من أجل إخفاء حقيقة انعدام الدليل الذي يؤيد دياناتها، فضلًا على حرصها على إنزال أشد العقاب بمن يجرؤ على وضع صحة قيَمها القائمة على ذلك الإيمان موضع تساؤل. ولهذا السبب، كان نيتشه يمقت الديانات الروحانية مثلما يمقتها القسم الأكبر من الملحدين.

قرر الفلاسفة الطبيعيون (هكذا كانوا يسمون العلماء في زمان إسحاق نيوتن) أن المعتقدات القائمة على الإيمان التي يمكن اعتبارها موثوقة أكثر من غيرها هي تلك المعتقدات التي يتوفر لها القدر الأكبر من الأدلة. صار الدليل هو القيمة الإلهية؛ وصار على كل إيمان لا تؤيّده الأدلة أن يتغيّر بما يلائم الواقع الجديد. وهذا ما أنتج دينًا جديدًا: إنه العلم.

= ديانات أخلاقيات العبيد غير قادرة على تقبل الثقافات التي تحمل معتقدات مخالفة. تتطلّب أخلاقيات العبيد أن يكون العالم متساويًا كله - وحتى يكون العالم متساويًا، فإنه غير مسموح لك أن تكون مختلفًا! من هنا فإنها توجِب تغيير الثقافات الأخرى وجعلها تعتنق المعتقد الجديد. إنها مفارقة الطغيان نفسها الموجودة لدى كل نظام اعتقاد يساري متطرّف. عندما تصير المساواة القيمة الإلهية لدى الفرد، فإنه يصير عاجزًا عن تحمّل أي معتقد مخالف. والطريقة الوحيدة لإزالة الاختلاف في المعتقد هي الشمولية.

يمكن القول إن العلم هو أكثر الديانات فعالية لأنه أول دين قادر على الارتقاء والتطوّر بنفسه. إنه منفتح على كل شخص، على الجميع، على كل إنسان. وهو ليس مرتبطًا بكتاب واحد أو بعقيدة واحدة. كما أنه غير مرتبط بأرض أو بقيمة أو بشعب من الشعوب. ليس العلم مقيّدًا بروح فوق طبيعية لا سبيل إلى إثبات وجودها أو عدم وجودها. إنه جسم متّصل دائم التغير من المعتقدات القائمة على الدليل، مع احتفاظه لنفسه بحرية النماء والتغيّر والتحوّل وفقًا لما تمليه الأدلة.

لقد غيّرت الثورة العلمية العالم أكثر مما غيّره أي شيء قبلها أو بعدها[1].

وقد أعاد العلم تشكيل كوكبنا، وانتشل آلاف الملايين من الفقر ومن المرض، وحسّن كل جانب من جوانب الحياة[2]. وليس من المبالغة في شيء إن قال المرء إن العلم قد يكون الشيء الوحيد الذي فعلته البشرية بنفسها فكان شيئًا جيدًا على نحو جليّ تمامًا. (شكرًا يا فرانسيس بيكون؛ شكرًا يا إسحاق نيوتن... أيها العملاقان الكبيران). ثم إن العلم هو المسؤول الوحيد عن أعظم ما شهده تاريخ البشر من مخترعات وتطوير، من الطب إلى الزراعة إلى التعليم إلى التجارة.

لكن العلم فعل شيئًا أكثر أهمية مما سبق: لقد أدخل إلى العالم مفهوم النمو. فخلال الشطر الأكبر من تاريخ البشر، لم يكن النمو شيئًا مذكورًا. كان التغير يحدث ببطء شديد فيموت كل إنسان في الظروف الاقتصادية

---

(1) انظر بينكر: «التنوير الآن»، ص: 7 – 28.

(2) مأخذي الأكبر على كتاب بينكر هو أنه يدمج الثورة العلمية بالتنوير الفلسفي. إن الثورة العلمية أسبق زمنيًا من التنوير، وقد كانت مستقلّة عن معتقدات التنوير الإنسانوية. هذا ما يجعلني أشدّد على أن العلم هو أفضل ما جرى في تاريخ البشر، وليس بالضرورة «الإيديولوجيات الغربية».

نفسها (تقريبًا) التي وُلد في ظلّها. وما كان الإنسان العادي قبل ألفي سنة من الآن ليشهد في حياته كلها نموًا اقتصاديًا يعادل ما نشهده الآن في ستة أشهر فقط[1]. كان الناس يعيشون حياتهم كلها فلا يتغير شيء: لا تطورات جديدة، ولا اختراعات، ولا مبتكرات تكنولوجية. كان الإنسان يولد ويموت على الأرض نفسها، بين البشر أنفسهم، ويستخدم الأدوات نفسها، ولا يتحسّن شيء من حوله. والواقع أن أشياء من قبيل الأوبئة والمجاعات والحروب والحكام المجانين الذين يقودون جيوشًا كبيرة، غالبًا ما كانت تجعل كل شيء أسوأ حالًا. كان ذلك وجودًا بائسًا، مرهقًا، بطيئًا.

من غير أي أفق للتغيير أو لعيش حياة أحسن خلال فترة عمر الإنسان، كان الناس يستمدون الأمل من وعود روحانية بحياة أفضل في عمر لاحق. ازدهرت الديانات الروحانية وصارت مهيمنة في حياة الناس اليومية. كان كل شيء يدور من حول الكنيسة (أو غيرها من دور العبادة لدى الديانات المختلفة). وكان رجال الدين من قساوسة وكهنة وغيرهم، يلعبون دور الحكّام في الحياة الاجتماعية لأنهم كانوا «حكّام الأمل». كانوا هم الأشخاص الوحيدين القادرين على إخبارك بما يريده الرب؛ وكان الرب وحده القادر على وعدك بالخلاص أو بالمستقبل الأفضل. من هنا، كان أولئك القائمون على الدين قادرين على إملاء إرادتهم في كل شيء ذي قيمة في حياة المجتمع.

ثم ظهر العلم، فتغير كل شيء. المجهر، وآلة الطباعة، ومحرك الاحتراق الداخلي، ومحلج القطن، ومقياس الحرارة، وأخيرًا، بعض

(1) لقد قام المؤلّف بتقدير الناتج الوطني الإجمالي للفرد استنادًا إلى بيانات مأخوذة من كتاب أنغوس ماديسون: «اقتصاد العالم: منظور الألفية»، منظمة التنمية والتعاون الاقتصادي OECD، 2006، ص: 30.

الأدوية العجيبة التي نجحت فعلًا. تحسنت الحياة تحسنًا مفاجئًا. وأهم من هذا أنك صرت قادرًا على رؤية ذلك التحسن بعينك. صار الناس يستخدمون أدوات أفضل من ذي قبل، وصاروا قادرين على الحصول على الطعام أكثر من ذي قبل، وصاروا أوفر صحة، وصاروا يجنون مالًا أكثر. وأخيرًا، صرنا قادرين على النظر خلفًا إلى ما قبل عشر سنين والقول: «عجبًا! هل يمكنكم تصديق أننا كنا نعيش هكذا؟».

هذه القدرة على النظر إلى الخلف ورؤية التقدّم الحاصل، أي على رؤية النمو يحدث، أدت إلى تغير في نظرة الناس إلى المستقبل. لقد أدّت إلى تغير نظرة الناس إلى أنفسهم. تغير هذا كله إلى الأبد.

لم تعد الآن مضطرًا إلى الانتظار حتى تموت لكي يتغيّر نصيبك. لقد صرت قادرًا على تحسينه هنا، الآن. يتضمّن هذا الواقع الجديد مختلف الأمور الرائعة. الحرّية واحدة منها: كيف تحب أن تختار تطورك اليوم؟... والمسؤولية أيضًا: بما أنك صرت الآن قادرًا على التحكّم بقدرك، فإن عليك أن تتحمّل مسؤوليتك عن ذلك القدر... وبطبيعة الحال، المساواة. إذا لم يكن هناك «إله أبويّ» يملي من يستحق هذا ومن يستحق ذاك، فهذا يعني أن ما من أحدٍ يستحق شيئًا أو أن كل إنسان يستحق كل شيء.

كانت هذه مفاهيم لم يقل بها أحد من قبل. فمن خلال منظور هذا النمو والتغير كله خلال هذه الحياة، لم يعد الناس معتمدين على معتقدات روحانية في ما يتصل بحياة أخرى حتى يستمدوا الأمل منها. لقد راحوا يخترعون ديانات إيديولوجية ويعتمدون عليها.

وهذا ما غيّر كل شيء. تراخت العقائد الكنسية فأصبحت أكثر لينًا. وصار الناس يمضون يوم الأحد في بيوتهم. تنازل الملوك عن السلطة لرعاياهم. وبدأ الفلاسفة يشكّكون علنًا في قدرات الرب، ولم يعودوا

يُحرَقون أحياء لفعلهم هذا. كان ذلك عصرًا ذهبيًا للفكر والتقدم البشريَّيْن. وعلى نحو يصعب تصديقه، لم يكفِ التقدّم الذي بدأ في ذلك العصر عن التسارع، وعن مزيد من التسارع، حتى يومنا هذا.

أدت الثورة العلمية إلى تآكل هيمنة الدِّيانات الروحانية ومهّدت الطريق أمام الدِّيانات الإيديولوجية. كان هذا ما شغل عقل نيتشه؛ فعلى الرغم من كل ما أنتجته الدِّيانات الإيديولوجية من تقدم وثراء ومكتسبات ملموسة، فقد ظلّت مفتقرة إلى شيء كان موجودًا لدى الدِّيانات الروحانية: عصمتها، أو عدم وقوعها في أي خطأ.

بعد الإيمان به، يصير المعبود الذي هو فوق الطبيعة منيعًا إزاء الأمور الدنيوية كلّها. من الممكن أن تحترق مدينتك كلّها، ومن الممكن أن يجني أحد مليون دولار، ومن ثم يخسرها من جديد. ومن الممكن أن ينظر المرء إلى مجيء الحروب والأوبئة، وإلى ذهابها. ما من حادث من هذه الحوادث متعارض تعارضًا مباشرًا مع الإيمان بما هو فوق الطبيعة؛ وذلك لأن ما هو فوق الطبيعة منيع أمام أية براهين. صحيح أن الملحدين يرون في هذا الأمر نقطة ضعف في الديانات الروحانية، إلا أنه يمكن أن يكون نقطة قوّة أيضًا. تعني قوة الديانات الروحانية أن من الممكن أن تسوء الأمور إلى أقصى حدٍّ، لكن استقرارك النفسي يظلّ على حاله. يظلّ الأمل من غير أن يمسّه أي سوء لأن الرب لا يمكن أن يمسّه السوء[1].

إلا أن الأمر ليس هكذا بالنسبة إلى الإيديولوجيات. فإذا أمضيت

---

(1) هناك أدلة تشير إلى أن السكان يصيرون أكثر تدينًا عقب (على الفور) وقوع كوارث طبيعية. انظر جينيت سينينغ بنتزن: «أهذا من فعل الرب؟ التدين والكوارث الطبيعية في مناطق العالم داخل البلدان»، (جامعة كوبنهاغن، قسم الاقتصاد، ورقة نقاش رقم 06 – 15، 2015.

http://web.econ.ku.dk/bentzen/ActsofGodBentzen.pdf

عشر سنين من حياتك في العمل من أجل إصلاح حكومي ما، ثم أدى ذلك الإصلاح إلى موت عشرات الألوف من البشر، فإنك مسؤول عن هذا. في هذه الحالة، يكون ذلك الأمل الذي عشت عليه طيلة تلك السنوات كلها قد تحطم. لقد تحطمت شخصيتك. مرحبًا بالظُّلمة، مرحبًا بصديقتي القديمة!

بما أن الإيديولوجيات معرّضة دائمًا إلى التحدي والتغيير والإثبات والنقض، فإنها لا توفر إلا قدرًا ضئيلًا من الاستقرار النفسي الذي يمكن للمرء أن يبني أمله عليه. وعندما يهتز الأساس الإيديولوجي لأنظمة الاعتقاد لدينا، وتتزعزع تراتبياتها القيمية، فإن هذا يلقي بنا بين شدقي الحقيقة غير المريحة.

أبصر نيتشه هذا الأمر قبل أي شخص آخر. وقد حذر من الصعوبات الوجودية التي سيأتي بها التطور التكنولوجي إلى العالم. والحقيقة أن هذا هو محتوى إعلانه بأن «الإله قد مات».

لم تكن عبارة «الإله قد مات» جعجعة إلحادية بغيضة، كما تفسّر عادة في زماننا هذا. لا. لقد كانت تحذيرًا وتحسّرًا، وصرخة من أجل المساعدة. فمن نكون نحن حتى نقرّر معنى وجودنا وأهميته. من نحن حتى نقرّر ما هو جيد أو صحيح في هذا العالم؟ كيف نستطيع أن نحمل هذا العبء على كاهلنا؟

فهم نيتشه أن الفوضى وعدم قابلية المعرفة أمران أصيلان ملازمان للوجود، وآمن بأننا لسنا مؤهّلين نفسيًا للتعامل مع مهمة شرح المغزى الكوني لوجودنا. وقد شاهد طوفان الدِّيانات الإيديولوجية الذي اكتسح البشر في أعقاب عصر التنوير (الديمقراطية، والقومية، والشيوعية، والاشتراكية، والكولونيالية، إلخ)، فرأى أنه لم يكن أكثر من تأجيل للأزمة الوجودية التي ستعانيها البشرية. كان يكره هذه الإيديولوجيات

كلها. وجد أن الديمقراطية سذاجة، وأن القومية غباء، وأن الشيوعية أمر مفزع، وأن الكولونيالية عُدوان[1].

وهذا لأن نيتشه آمن (بما يشبه طريقة بوذية معكوسة) بأن أي ارتباط دنيوي - بجنس أو عرق أو إثنية أو تاريخ - ليس إلا سرابًا أو بناءً يُراد الاعتقاد به بعد إقامته على نوع من أنواع الإيمان المصمّم لجعلنا معلّقين عاليًا بحبل المعنى الواهي فوق هوّة الحقيقة غير المريحة. وقد كان مقتنعًا بأن هذه الأبنية كلها، محكومة، في آخر المطاف، بالتنازع في ما بينها، ومحكومة بأن تسبب العنف أكثر مما تحلّه[2].

---

(1) لا يوجد سجل مكتوب لأفكار نيتشه في ما يخصّ الشيوعية، لكن من المؤكد أنه كان متنبهًا إليها حذرًا منها. وبالنظر إلى تقززه العام من أخلاقيات العبيد، يكاد يكون مؤكدًا أنه كان يمقتها. لقد أسيء، ولزمن طويل، فهم معتقداته على أنها توطئة تبشر بقدوم النازية، فالواقع أن نيتشه كان يكره النزعة القومية الألمانية الناشئة على زمانه، كما أنه هاجمها في أحاديث له مع عدد من أصدقائه (كان أبرزهم فاغنر). كانت أخت نيتشه وصهره من القوميين المتشدّدين المعادين للسامية. وقد كان نيتشه يجد هذين المعتقدين غبيين ومسيئين؛ وكان هذا ما قاله لأخته وزوجها. الحقيقة أن نظرته المعولمة إلى العالم كانت نظرة نادرة؛ وكانت نظرة جذرية في ذلك الوقت. كان مقتنعًا تمامًا بقيمة أفعال الشخص، ولا شيء آخر - لا نظام، ولا عرق، ولا قومية. عندما قالت له أخته إنها ستنتقل إلى الباراغواي مع زوجها للمشاركة في تأسيس «ألمانيا الجديدة» هناك، حيث يستطيع الناس إنجاب مجتمع ذي دم ألماني نقي، يقال إنه ضحك من كلامها ضحكًا شديدًا جعلها تمتنع عن أي كلام معه عدة سنين بعد ذلك. إذًا، يكون أمرًا مأساويًا و«مفارقة قاسية» أن تتبنّى الإيديولوجيا النازية كتابه وتحرّفه بعد موته. تقدم سو بريدو قصة مؤثّرة عن إفساد فلسفته وعن خمسين سنة بطيئة كان لا بد منها بعد ذلك حتى يعاد استصلاحها وتنال نصيبها العادل من القراءة. انظر بريدو: «أنا ديناميت! حياة نيتشه»، ص: 346 - 381.

(2) تصف الفلسفة البوذية هذه الدورات من خلق الأمل ودماره باسم «سانسارا»، وهو ما ينتج، ويستدام، بسبب تعلقنا بالقيم الأرضية التي لا تدوم. تقول تعاليم بوذا إن الطبيعة الأساسية لتركيبنا النفسي هي «دوكا»، وهو مفهوم يُترجم - على

تنبّأ نيتشه بالنزاعات التي ستنشأ بين الإيديولوجيات القائمة على أخلاقيات السادة والإيديولوجيات القائمة على أخلاقيات العبيد[1]. وكان مقتنعًا بأن هذه النزاعات ستلحق بالعالم دمارًا أكبر من أية نزاعات سبقتها في تاريخ البشر. تنبّأ بأن هذا الدمار لن يكون منحصرًا ضمن حدود قومية أو بين جماعات عرقية مختلفة. قال إنه سيعبر الحدود كلها، وأنه سيتجاوز البلدان والشعوب. وبما أن هذه الحروب لا يمكن أن تكون من أجل «رب» إيديولوجي واحد، فسوف تكون بين «أرباب» مختلفين.

وسنكون نحن أولئك «الأرباب»!

صندوق باندورا

في الميثولوجيا اليونانية، بدأ العالم بالرجال فقط[2]. وكان كل رجل منهم يشرب كثيرًا ولا يقوم بأي عمل. كان ذلك أشبه بحفلة شباب كبيرة لا تنتهي أبدًا. وكان اليونانيون القدامى يدعون هذه الحفلة «الفردوس». (وأما أنا فأرى أنها نوعٌ خاصٌّ من أنواع الجحيم). أدرك الآلهة أن هذه الحال تثير الضجر، فقرّروا أن يضيفوا إليها بعض «التوابل». أرادوا خلق رفيقة لجنس الرجال: رفيقة تجتذب انتباههم وتضفي على حياتهم اليسيرة التي لا يعرفون فيها غير اللعب والشراب شيئًا من التعقيد وعدم اليقين. وهكذا، فقد أوجدت الآلهة المرأة الأولى.

= نحو فضفاض - بكلمة «التوق». حذّر بوذا من أن توق البشر لا يمكن إرضاؤه أبدًا، ومن أننا نخلق المعاناة لأنفسنا من خلال سعينا المستمر إلى تلبية ذلك التوق. إن فكرة التخلي عن الأمل منسجمة كثيرًا مع فكرة بوذا عن الوصول إلى «النيرفانا»، أو الابتعاد والتخلي عن كل توق وارتباط نفسي.

(1) نيتشه، «هذا هو الإنسان»، ص: 96 - 114.

(2) أسطورة صندوق باندورا، كما وردت في هذا القسم، مأخوذة من ديوان هيزيود: «العمل والأيام»، الأبيات 560 - 612.

ساهم كل واحد من الآلهة الكبار في هذا المشروع. منحت أفروديت المرأة جمالها. ومنحتها أثينا حكمتها. وأعطتها هيرا القدرة على تكوين أسرة. ثم وهبها هرمس سحر الكلام. وهكذا راح الآلهة يضعون القدرات والمواهب والمكر في تلك المرأة مثلما يزوّد المرء هاتفه الذكي الجديد بالتطبيقات المختلفة. وكانت النتيجة امرأة اسمها «باندورا».

أرسلت الآلهة باندورا إلى الأرض حتى تصير فيها منافسةٌ ويصير فيها جنس وأطفال ومجادلات في الشؤون المنزلية. لكن الآلهة فعلت شيئًا إضافيًا: أرسلت مع باندورا صندوقًا. كان الصندوق جميلًا مرصّعًا بالذهب ومزينًا بزخارف دقيقة متداخلة. قالت الآلهة لباندورا أن تعطي الرجال هذا الصندوق، لكنها أمرتها بألّا يُفتح أبدًا.

لكن البشر فاشلون! فتح أحدهم صندوق باندورا. مفاجأة - مفاجأة - صار الرجال يلومون المرأة على هذا. خرجت الشرور كلّها من ذلك الصندوق وانتشرت في العالم: الموت، والمرض، والكراهية، والحسد... وتويتر أيضًا! لم يعد ذلك الاحتفال الأبدي الصاخب موجودًا. صار الرجال الآن يعرفون كيف يقتل أحدهم الآخر. ثم إنهم - هذا أكثر أهمية - قد صار لديهم ما يقتل أحدهم الآخر من أجله: النساء، والموارد التي تجتذب النساء. من هنا بدأت تلك المنافسة «الرجولية» الغبيّة المعروفة أيضًا باسم «التاريخ البشري». بدأت الحروب، وبدأت الخصومات بين الممالك. أتت العبودية، وراح الأباطرة يشنّون غزوات تترك في أعقابها مئات آلاف القتلى. بُنيت مدن بأسرها، ثم دُمِّرت. وفي أثناء هذا كلّه، كانت تجري معاملة النساء باعتبارهنّ ملكًا للرجال الذين صاروا يتاجروا بهنّ ويؤجّروهنّ كأنهن من الحيوانات[1].

---

(1) هذه نكتة إلى حد ما، لكنها أيضًا ليست كذلك. للاطلاع على الأصول المخيفة للزواج في العالم القديم، انظر ستيفان كونتس: «تاريخ للزواج: كيف أخضع الحب الزواج»، (نيويورك: بينغوين بوكس، 2006)، ص: 70 - 86.

وأما في الجوهر، فقد بدأ البشر يصيرون بشرًا.

بدا كل شيء خربانَ. لكن شيئًا جميلًا لامعًا ظل قابعًا في قعر صندوق باندورا.

إنه الأمل!

هناك تفسيرات كثيرة لأسطورة صندوق باندورا. وأكثرها شيوعًا هو أن الآلهة أرسلت كل ما في العالم من شرور عقابًا لنا. لكنّها زودتنا أيضًا بترياق لتلك الشرور: إنه الأمل. يمكن النظر إلى هذا باعتباره «ينغ» و«يانغ» في نضال البشر الأبدي: كلّ شيء خربان، دائمًا. لكن، كلما صارت الأمور أكثر سوءًا، كلما ازداد وجوب استدعاء الأمل من أجل استدامة العالم ومن أجل التغلّب على سوئه. هذا ما يجعل أبطالًا مثل ويتولد بيلينسكي ملهمين لنا: إن قدرتهم على حشد ما يكفي من الأمل لمقاومة الشر تذكّرنا دائمًا بأننا جميعًا قادرون على مقاومته.

قد تتفشّى الأمراض، لكن الأدوية الشافية تنتشر أيضًا لأن الأمل مُعدٍ. الأمل هو ما ينقذ العالم.

إلا أن هناك تفسيرًا آخر أقل شعبية لأسطورة صندوق باندورا: ماذا لو كان الأمل ترياقًا مضادًّا للشر من نوعه نفسه؟ ماذا لو كان الأمل ليس أكثر من شكل آخر من أشكال الشر؟ وماذا لو أن الأمل ظلّ في الصندوق ولم يخرج منه؟[1].

لم يلهم الأمل بطولات بيلينسكي وحدها. لقد ألهم الأمل الثورات

---

(1) من الواضح أن الكلمة اليونانية التي يستخدمها هيزيود للتعبير عن «الأمل» قابلة أيضًا للترجمة «التوقع الخدّاع». من هنا، فقد كان هناك دائمًا تفسير أكثر تشاؤمًا وأقل شعبية للأسطورة القائمة على فكرة أن الأمل يمكن أيضًا أن يؤدي إلى الخراب. انظر فرانكو مانتاناري، انطونيوس رينغاكوس، كريستوس تساغاليس: «تيير قراءة هيزيود بطريقة بريل»، (ليندن، هولندا: بريل بيليشرز، 2009)، ص: 77.

الشيوعية؛ وألهم الإبادة الجماعية النازية. كان لدى هتلر أمل بأن يتمكّن من إبادة اليهود حتى يتطوّر عرق بشريّ نقيّ متفوّق. وقد أمل السوفيات في إثارة ثورة عالمية بغية توحيد العالم في ظل مساواة حقيقية تحت الحكم الشيوعي. ولنكن صادقين مع أنفسنا ونقول إن القسم الأكبر من الفظائع التي ارتُكبت في المجتمعات الرأسمالية الغربية خلال مئة سنة مضت قد تم باسم الأمل أيضًا: أمل في حرية اقتصادية عالمية أكبر، وفي ثروة أكبر.

على غرار مبضع الجراح، يمكن للأمل أن ينقذ الحياة، ويمكن للأمل أن يودي بالحياة. إن الأمل قادر على إنهاضنا، وقادر على تحطيمنا. فكما تكون للثقة بالنفس أشكال صحيّة وأشكال مؤذية؛ وكما تكون للحبّ أشكال صحية وأشكال مؤذية؛ فإن الأمل أيضًا يمكن أن يتخذ أشكالًا صحية ويمكن أن يتخذ أشكالًا مؤذية. ثم إن الفارق بين الأمرين لا يكون واضحًا في كلّ الحالات.

ناقشتُ حتى هذه النقطة فكرة أن الأمل أمر أساسي لنفسيتنا، حيث إننا في حاجة إلى: (أ) أن يكون لدينا شيء نتطلع إليه لكي، (ب) نقتنع بأن قدرتنا على التحكّم بمصيرنا كافية للوصول إلى ذلك الشيء، (ج) وحتى نجد جماعة من الناس تنجز هذا الأمر معنا. عندما يغيب واحد من هذه الجوانب الثلاثة، أو كلّها فترة أطول مما ينبغي، فإننا نفقد الأمل ونسقط في هوّة الحقيقة غير المريحة.

إن التجارب والخبرات تولّد المشاعر والانفعالات. وهذه المشاعر والانفعالات تولّد قيمًا. وتولّد القيم قصص المعنى. والناس الذين يتشاطرون قصص المعنى نفسها يتجمّعون معًا وينتجون دِيانات. وكلما كانت الديانة أكثر فعالية (أو تأثيرًا)، كلما كان أتباعها مجتهدين منضبطين. وكلما كان الأتباع مجتهدين منضبطين، كلما ازداد احتمال

انتشار دياناتهم بين بشر آخرين لتمنحهم إحساسًا بأنهم متحكّمون بأنفسهم فيشعرون بالأمل. تنشأ هذه الدِّيانات وتنمو وتنتشر، ثم تحدّد «الجماعات الداخلية» في مواجهة «الجماعات الخارجية». وتنشئ لنفسها طقوسًا ومحرّمات، وتثير النزاع بين الجماعات ذات القيم المتضادة. لا بد من وجود هذه النزاعات لأنها تحافظ على المعنى وعلى الغاية بالنسبة إلى الناس في «الجماعة الداخلية».

وبالتالي، فإن النزاع هو ما يحافظ على الأمل.

إذًا، فقد عدنا حيث كنا: ليس الأمل ضروريًا لأن كل شيء خربان، بل إن وجود الأمل يتطلّب أن يكون كل شيء خربانَ.

إن مصادر الأمل التي تعطي حياتنا إحساسًا بالمعنى هي نفسها مصادر الفرقة والكراهية. والأمل الذي يُدخل إلى حياتنا أكبر قدر من الفرح والبهجة هو نفسه الأمل الذي يأتي بأكبر الأخطار. والأمل الذي يجمع الناس معًا غالبًا ما يكون هو نفسه الأمل الذي يباعد في ما بينهم.

هذا يعني أن الأمل شيء هدّام. يقوم الأمل على رفض ما هو موجود الآن!

هذا لأن الأمل يتطلّب تحطيم شيء ما. الأمل يتطلّب أن ننكر جزءًا من أنفسنا و/ أو جزءًا من العالم. إنه يطالبنا بأن نكون ضد شيء ما.

إن هذا يرسم للشرط البشري صورة قاحلة شديدة البؤس. وهو يعني أن تركيبتنا النفسية تضع أمامنا خيارين في الحياة: إما النزاع الدائم، وإما العدميّة؛ إما النزعة القَبَلية، وإما العزلة؛ إما الحروب الدينية، وإما الحقيقة غير المريحة.

كان نيتشه مؤمنًا بأن ما من إيديولوجية من الإيديولوجيات التي ولّدتها الثورة العلمية ستستمر على المدى البعيد. وقد رأى أن تلك

الإيديولوجيات، واحدة بعد الأخرى، وببطء، سوف تقتل إحداها الأخرى و/ أو تتهاوى من داخلها. وبعدها، بعد قرنين من الزمان، سوف تبدأ الأزمة الوجودية. سوف يكون الفساد قد دب في أخلاقيات السادة. وسوف تكون أخلاقيات العبيد قد انهارت. وسنكون قد خذلنا أنفسنا. فهشاشة البشر تبلغ حدًّا يجعل كل شيء ينتجه الإنسان زائلًا أو غير موثوق به.

إلا أن نيتشه كان مؤمنًا بأن علينا أن ننظر إلى ما وراء الأمل. علينا أن ننظر إلى ما وراء القيم. وعلينا أن نرتقي إلى شيء يكون «وراء الخير ووراء الشر». ففي نظره، ينبغي أن تبدأ أخلاقيات المستقبل هذه بشيء أطلق عليه اسم «آمور فاتي»، أي «أن يحب المرء قدره». لقد كتب نيتشه: «الصيغة التي أقدّمها من أجل العظمة في الكائن البشري هي آمور فاتي: ألّا يرغب المرء في أن يكون أي شيء مختلفًا، لا في اتجاه الأمام ولا في اتجاه الخلف، ولا على مر الزمان كله. لا يكفي أن تحتمل ما هو ضروري، ولا حتى أن تخفيه - المثالية هي كذب في مواجهة ما هو ضروري - بل عليك أن تحبّه»[1].

عند نيتشه، تعني «آمور فاتي» القبول غير المشروط بالحياة كلّها وبالتجارب كلّها: الحسن والسيئ، وما له معنى وما ليس له معنى. إنها تعني أن يحبّ المرء ألمه، وأن يتقبل معاناته. وهي تعني إنهاء الانفصال بين الواقع ورغبات المرء، لا من خلال التماس رغبات أخرى، بل من خلال الرغبة في الواقع القائم.

وهي تعني في جوهرها: الأمل بلا شيء؛ الأمل بما هو موجود... لأن الأمل فارغ في نهاية المطاف. كل ما يستطيع عقلك تصوّره محدود ومَعيب من حيث الأساس، وبالتالي فهو ضار إذا قدّسته تقديسًا غير

---

(1) نيتشه: «هذا هو الإنسان»، ص: 37 - 38.

مشروط. لا تأمل في مزيد من السعادة. ولا تأمل في معاناة أقل. لا تأمل في تحسين شخصيتك. ولا تأمل في إزالة عيوبك.

فلتأمل في هذا فقط. فلتأمل في الفرصة اللانهائية وفي الاضطهاد الماثل في كل لحظة من اللحظات. فلتأمل في المعاناة التي تأتي مع الحرية. فلتأمل في الأمل الذي يأتي من السعادة. فلتأمل في الحكمة التي تأتي من الجهل. فلتأمل في القوة التي تأتي من الاستسلام.

ثم تحرّك... على الرغم من ذلك كله.

هذا هو التحدّي الماثل أمامنا؛ وهذا هو هدفنا: أن نتحرّك ونفعل من غير أمل. لا تأمل في ما هو أفضل، بل كن أنت أفضل. كن أفضل في هذه اللحظة، وفي اللحظة التالية... وفي اللحظة التي تليها... وفي اللحظة التي بعدها.

كل شيء خربان. والأمل هو، في الوقت نفسه، سبب ذلك الخراب ونتيجته.

يصعب ابتلاع هذا لأن إقدامنا على فطام أنفسنا عن هذا الرحيق الحلو الذي هو الأمل يشبه انتزاع زجاجة شراب من يد شخص سكّير. فمن غير الأمل، نظن أننا سنعود إلى السقوط في العدم وأن هوّة سحيقة سوف تبتلعنا. إن الحقيقة غير المريحة تخيفنا، ولهذا فإننا ننسج قصصًا وقيمًا وحكايات وخرافات وأساطير عن أنفسنا وعن العالم حتى نبقي تلك الحقيقة بعيدةً عنا.

لكن الحقيقة هي الشيء الوحيد القادر على تحريرنا: تعرف، وأعرف، ويعرف الجميع، أننا سنموت وأن كل ما نفعله يكاد يكون من غير أي تأثير على المستوى الكوني. وفي حين يخشى بعض الناس أن تُحرّرهم هذه الحقيقة من كل مسؤولية بحيث يندفعون إلى ارتكاب الحماقات

والموبقات كلّها، فإن الواقع هو أن هذه الحقيقة تخيفهم لأنها تحررهم بحيث يصيرون مسؤولين. أعني أنه ما من سبب يمنعنا من محبّة أنفسنا ومن محبّة الآخرين. لا سبب يدعونا إلى عدم التعامل باحترام مع أنفسنا ومع كوكبنا. وما من سبب يدعونا إلى عدم عيش كل لحظة من لحظات حياتنا كما لو أنها لحظة ستبقى تتكرّر إلى الأبد[1].

إن القسم الثاني من هذا الكتاب محاولة لفهم كيف يمكن أن تبدو الحياة من غير أمل. الشيء الأول الذي سأقوله هو أنها ليست سيئة كما تظن. والحقيقة أنني أراها أفضل من الاحتمال الآخر، أفضل من البديل.

ثم إن القسم الثاني من هذا الكتاب نظرة صادقة إلى العالم الحديث وإلى كل ما هو خربان فيه. إنه تقييم أجريه لا بأمل إصلاح العالم، بل لكي نحبّه.

ولأن علينا أن نفلت من حلقة النزاع الدِّيني، فلا بد لنا من الخروج من شرانقنا الإيديولوجية. ينبغي لنا أن نسمح للدماغ الذي يشعر بأن يشعر، إلا أنه ينبغي لنا أن ننكر عليه قصص المعنى والقيمة التي نحبّها كثيرًا. علينا أن نصل إلى ما خلف تصورنا عن الخير والشر. علينا أن نتعلّم حب ما هو كائن.

آمور فاتي

كان ذلك آخر يوم لميتا في قرية سيلسز ماريا في سويسرا. وقد قرّرت أن تمضي أكبر قدر ممكن من ذلك اليوم خارج البيت.

كانت نزهة فريدريك نيتشه المفضّلة أن يسير على الضفة الشرقية من بحيرة سيلفا بلانا الواقعة على مسافة نصف كيلومتر من القرية. كانت البحيرة لامعة متألّقة في ذلك الوقت من السنة تحفّ بها الجبال فترسم

---

(1) فريدريك نيتشه: «العلم المرح»، من ترجمة وولتر كاوفمان (1882؛ أعيدت طباعته في نيويورك، فينتيج بوكس، 1974)، 341: 273 - 274.

أفقًا من قمم بيضاء. لقد كانت هذه النزهات حول البحيرة هي ما جمعه بميتا منذ أربعة أصياف. هكذا أرادت أن تمضي يومها الأخير معه. هكذا أرادت أن تتذكّره.

خرجا بعد الإفطار بفترة وجيزة. كانت الشمس ساطعة، والهواء حريريًا. تقدّمته في سيرها، ومشى من خلفها متكئًا على عصاه. مرا بحظائر، وبحقول ترعى فيها الأبقار، وبمزرعة صغيرة للشمندر السكري. قال فريدريك مازحًا إن الأبقار ستكون رفيقاته الوحيدات بعد رحيل ميتا. ضحك الاثنان وتابعا السير وهما يغنيان ويلتقطان ثمار الجوز عن الأرض.

توقّفا عند الظهر، وتناولا الطعام تحت شجرة صنوبر.

لقد قطعا مسافة بعيدة في سيرهما. كانت مسافة أكبر مما توقّعت ميتا.

أدركت الآن أن فريدريك كان يبذل كل جهده، جسديًّا وعقليًا، حتى لا ينهار.

كان طريق العودة شاقًّا عليه. وصار واضحًا أنه يجرّ قدميه جرًّا. خيّمت حقيقة أنها ستغادر في الصباح التالي على هذين الاثنين كأنها قمر مشؤوم، كأنها كفن تلبّس كلماتهما.

ساء مزاج فريدريك، وازداد ألمه. صارت وقفات الاستراحة أكثر تواترًا، وبدأ يدمدم بشيء لنفسه.

قالت ميتا في ذهنها: «لا، ليس هكذا!». لم تكن راغبة في تركه في هذه الحالة، لكنْ عليها أن تتركه.

لم يقتربا من القرية إلا في آخر فترة ما بعد الظهيرة. بدأت الشمس تميل صوب الغروب، وصار الهواء ثقيلًا. تخلّف فريدريك عنها نحو عشرين مترًا، لكن ميتا كانت تعرف أن عدم التوقف لانتظاره هي الطريقة الوحيدة لجعله يكمل الطريق.

مرا بمزرعة الشمندر السكري نفسها، وبالحظائر نفسها، وكذلك بالأبقار التي ستصير رفيقاته الجديدات.

صاح فريدريك: «ماذا قلت؟ أين قلت إنّ الرب قد ذهب؟».

استدارت ميتا وعرفت ما ستراه، حتى قبل أن تراه: فريدريك واقف يلوّح بعصاه في الهواء ويصيح صياحًا مجنونًا مخاطبًا مجموعة صغيرة من الأبقار التي تجترّ طعامها أمامه.

قال لاهثًا: «سوف أقول لك»... رفع عصاه وأشار إلى الجبال التي من حوله... «لقد قتلناه - أنتم وأنا! نحن قَتَلَتُهُ. لكن، كيف فعلنا هذا؟».

تابعت البقرات اجترارها بهدوء. ولوّحت واحدة منها بذيلها لكي تطرد ذبابة حطّت عليها.

«كيف استطعنا أن نشرب البحار؟ من الذي أعطانا الإسفنجة التي محونا بها الأفق؟ ماذا فعلنا عندما فككنا الوثاق الذي كان يربط الأرض بشمسها؟ ألسنا نسقط سقوطًا دائمًا في كل اتجاه؟ ألسنا نحدّق كما لو أننا ننظر عبر عدم لا نهاية له؟»[1].

قالت ميتا محاولة أن تمسك بكمّه وتشدّه حتى يتابع السير: «فريدريك، هذا أمر سخيف». لكنه انتزع ذراعه منها. كان في عينيه جنون[2].

صاح من جديد: «أين هو الرب؟ لقد مات الرب. صار الرب ميتًا. نحن الذين قتلناه».

---

(1) إن بداية تشدّقه بهذا الكلام عن أن الرب قد مات مأخوذة من «رجل مجنون»، قسم من المرجع السابق، 125: 181 - 182.

(2) لقد جرى بالفعل هذا الكلام «الحماسي المطول» الموجّه إلى أبقار كانت بالقرب من بحيرة سيلفا بلانا، وذلك بحسب ما قالته ميتا فون ساليس. لعل ذلك كان في أول مراحل إصابة نيتشه بالذّهان الذي بدأ يظهر عليه في ذلك الوقت تقريبًا. انظر كتاب يونغ: «فريدريك نيتشه»، ص: 432.

«كف عن هذا الهراء، يا فريدريك، من فضلك. هيا... فلنذهب إلى البيت».

«كيف سنواجه أنفسنا، نحن أكبر القتلة على الإطلاق؟ ما كان أقدس شيء وأقوى شيء قد نزف حتى الموت تحت سكاكيننا. من عساه يمسح الدم عن أيدينا؟».

هزّت ميتا رأسها. كان ذلك عبثًا. هكذا هو الأمر. وهكذا سينتهي. بدأت تسير مبتعدة عنه.

«كم من الماء يلزمنا حتى ننظّف أنفسنا؟ وكم من احتفال حتى نكفّر عما فعلناه؟ وما الألعاب المقدسة التي سيكون علينا أن نخترعها؟ أليست عظمة هذه الفعلة كبيرة علينا؟ ألن يكون علينا أن نصير آلهة لمجرد أن نبدو جديرين بهذا؟».

صمت. لاح القمر بعيدًا في الأفق.

«الإنسان حبل مشدود بين البهيمة والإنسان الخارق - حبل فوق هوّة سحيقة. العظيم في الإنسان هو أنه جسر وليس هدفًا: ما تمكّن محبته في الإنسان هو أنه نافذة [إلى ما هو أكبر منه]»[1].

فاجأتها كلماته. استدارت ونظرت في عينيه. لقد كانت هذه الفكرة عن أن الإنسان نافذة إلى شيء أعظم منه هي ما جذبها إلى نيتشه منذ سنين طويلة. كانت هذه الفكرة هي ما أغوت عقلها لأن الحركة النسوية وتحرّر المرأة (أي دينها الإيديولوجي) كانا بالنسبة إليها ذلك «الشيء

---

(1) إن تتمة السطور المأخوذة من نيتشه والواردة في هذا الفصل، مأخوذة من كتاب نيتشه، «هكذا تكلّم زرادشت»، ترجمة ر. ج. هولينغديل (1883)؛ أعيدت طباعته في نيويورك: بينغوين كلاسيكس، 2003، ص 43. وأما عبارة «نافذة على ما هو أكبر منه» فهي تفسيري الخاص لكلامه. لقد جاء في النص الأصلي «هو أنه عبور وتجاوز».

الأعظم منها»، لكنها أدركت أنهما لم يكونا في نظر نيتشه أكثر من بناء آخر، خدعة أخرى، فشل إنساني آخر، إله ميت آخر.

ستذهب ميتا وتقوم بأشياء عظيمة. ستنظّم في ألمانيا والنمسا مسيرات من أجل حق الاقتراع للنساء. وسوف يتحقّق ذلك. سوف تكون إلهامًا لآلاف النساء في أنحاء العالم حتى تنهض من أجل مشاريعهنّ، من أجل انعتاقهنّ، ومن أجل تحررهنّ. سوف تقوم بتغيير العالم، بهدوء، من غير أن تعلن عن نفسها. سوف تحرّر كائنات بشرية أكثر مما حرّر نيتشه وأكثر الرجال «العظماء»، لكنها ستفعل هذا كلّه انطلاقًا من الظلّ، انطلاقًا من كواليس التاريخ. والواقع أنها لا تكاد تكون اليوم معروفة إلا بأنها صديقة فريدريك نيتشه، وليس بأنها نجمة من نجمات تحرّر المرأة. نعرفها الآن على أنها شخصية ثانوية في مسرحية عن رجل أكّد مصيبًا، قبل مئة سنة، على الانهيار الإيديولوجي الذي سيأتي. ستكون ميتا مثل خيط خبيء، وستحافظ على تماسك العالم على الرغم من أنها لا تكاد تُرى، وعلى الرغم من أنها ستُنسى سريعًا.

لكنها سوف تذهب. كانت تعرف أنها تذهب. يتعيّن عليها أن تذهب وأن تحاول عبور تلك الهوّة السحيقة، مثلما يتعيّن علينا فعله جميعًا. سوف تعيش من أجل الآخرين على الرغم من كونها لا تزال غير عارفة كيف تعيش من أجل نفسها.

قال نيتشه: «ميتا؟».

«ماذا؟».

قال: «أحب أولئك الذين لا يعرفون كيف يعيشون لأنهم هم الذين يعبرون الهوّة».

القسم الثاني

كل شيء خربان



الفصل السادس

المعادلة البشرية

بحسب نظرتك إلى الأمور، يمكن أن يكون الفيلسوف إيمانويل كانط أكثر الناس إثارة للضجر، أو نموذجًا يحلم به من يريد تحقيق الإنتاجية القصوى. لقد ظل أربعين عامًا يستيقظ في الخامسة من صباح كل يوم ويكتب مدة ثلاث ساعات بالضبط. وبعد ذلك، يلقي محاضرات في الجامعة نفسها مدة أربع ساعات بالضبط. ثم يتناول طعام الغداء في المطعم نفسه كل يوم. وبعد الظهر، يخرج في نزهة طويلة على الأقدام عبر الحديقة نفسها، على المسار نفسه، فيخرج من بيته في توقيت واحد لا يتغيّر ويعود إليه في توقيت لا يتغيّر. ظل يفعل هذا طيلة أربعين عامًا. ظل يفعل هذا كل يوم من غير انقطاع[1].

كان كانط تجسيدًا للكفاءة والفعالية. كان شخصًا ميكانيكيًا في عاداته حتى أن جيرانه كانوا يقولون مازحين إنهم يستطيعون ضبط ساعاتهم على مواعيد خروجه من بيته. كان يخرج في نزهته اليومية عند الثالثة وثلاثين دقيقة من بعد ظهر كل يوم، ويتناول طعام العشاء مع صديق واحد لا يتغير في معظم الأمسيات. ثم يعود إلى بيته ويعمل قليلًا قبل أن ينام في تمام الساعة العاشرة من كل ليلة.

صحيح أن هذا يوحي بقدر هائل من الضجر، إلا أن كانط كان واحدًا

---

(1). كاري: «عادات يومية: كيف يعمل الفنانون»، (نيويورك: ألفريد أ. كنوبف، 2013)، ص: 81 - 82.

من أهم المفكّرين وأكبرهم أثرًا في تاريخ العالم. من شقّته المؤلفة من غرفة واحدة في مدينة كونيغزبرغ البروسية، ساهم كانط في قيادة العالم وتوجيهه أكثر مما ساهم في ذلك معظم الملوك والرؤساء ورؤساء الحكومات والجنرالات ممن أتوا قبله وممن أتوا بعده.

إن كنت تعيش في مجتمع ديمقراطي يحمي حرّيات الأفراد، فإن عليك أن تشكر كانط خاصة على هذا الأمر. لقد كان واحدًا من أوائل من قالوا إن لكل إنسان كرامة أصلية ملازمة له ينبغي احترامها ورعايتها[1]. وقد كان أول شخص على الإطلاق يتصوّر هيئة حاكمة عالمية قادرة على ضمان السلام في الشطر الأكبر من العالم (كانت هذه الفكرة هي ما أوحى، آخر الأمر، بتشكيل الأمم المتحدة)[2]. وفي وقت لاحق، ستساهم شروحاته عن كيفية فهمنا كلًا من المكان والزمان في توصّل آينشتاين إلى اكتشاف نظرية النسبية[3]. كان واحدًا من أول من طرح احتمال مراعاة حقوق الحيوان[4]. وقد أعاد اختراع

---

(1) إيمانويل كانط، «ميتافيزيقا الأخلاق»، من تحرير لارا دينيس، ومن ترجمة ميري غريغور (1797)؛ أعيدت طباعته في كامبردج، المملكة المتحدة: منشورات جامعة كامبردج، (2017)، ص: 34.

(2) في مقالته الصادرة سنة 1795 بعنوان «نحو سلم دائم»، اقترح كانط وجود هيئة تحكم العالم. انظر إيمانويل كانط: «نحو سلم دائم ومقالات أخرى»، من ترجمة تد هامفري (1795؛ أعيدت طباعته في إنديانابوليس: شركة هاتشيت للنشر، 1983)، ص: 107 – 144.

(3) س. بالمكيست: «الأساس الكانطي لنظرة آينشتاين إلى العالم (1) التأثير المبكر لنظام المفاهيم لدى كانط»، المجلة البولونية للفلسفة 4، العدد 1 (2010): 45 – 64.

(4) من المؤكد أنه يطرح هذا طرحًا افتراضيًا. لقد قال إن الحيوانات، لو كانت قادرة على امتلاك الإرادة والمحاكمة المنطقية، فينبغي لها أن تحصل على الحقوق نفسها التي يحصل عليها البشر. لم يكن يرى أن للحيوانات إرادة أو قدرة على المناقشة المنطقية – إلا أننا نجد اليوم حججًا قوية تؤيد امتلاكها ذلك. من أجل الاطلاع على مناقشة لهذا الأمر، انظر كريستين م. كوسغارد: «دفاع كانطي عن

فلسفة الجَمال[1]. وفوق هذا كله، فقد قدّم حلاً للنقاش الفلسفي الذي استمر مئتي سنة بين النزعتين العقلانية والتجريبية، وذلك من خلال عمل ضمن أكثر من مئتي صفحة[2]. وكما لو أن هذا كله لم يكن كافيًا، فقد أعاد كانط اختراع الفلسفة الأخلاقية، من أعلاها إلى أدناها، فأطاح بأفكار كانت في أساس الحضارة الغربية منذ عهد أرسطو[3].

كان كانط محرِّكًا فكريًا جبّارًا. إذا كانت للأدمغة المفكّرة «عضلات»، فقد كان دماغ كانط المفكّر «بطل كمال الأجسام» في عالم الفكر.

وأما في ما يخص نمط حياته، فقد كان كانط متصلّبًا غير مهادن في نظرته إلى العالم. كان يرى أن الحق واضح والباطل واضح، وأن هناك نظام قيَم قائمًا خارج مشاعر الإنسان وانفعالاته وأحكام دماغه الذي يشعر[4]. فضلاً عن هذا، فقد كان يعيش كل ما يدعو إليه. حاول الملوك

= حقوق الحيوانات»، ورد في «القوانين الخاصة بالحيوان: تطورات وآراء في القرن الحادي والعشرين»، من تحرير مارغو ميشيل ودانيلا كوهني وجوليا هاني (زيوريخ: دالغ فيرلاغ، 2012)، ص: 3 - 27.

(1) حنة غينسبورغ: «علم الجمال وعلم الغايات عند كانط»، موسوعة ستانفورد للفلسفة، من تحرير إدوارد زالتا، 2014.

https://plato.stanford.edu/archives/fall2014/entries/kant - aesthetics

(2) كان الجدل دائرًا بين «العقلانيين» و«التجريبيين»، وكان هذا الكتاب أشهر كتب كانط، ألا وهو «نقد العقل المحض».

(3) سعى كانط إلى بناء نظام أخلاقي كامل قائم على العقل وحده. وقد حاول اجتياز الهوة الفاصلة بين قيم الدماغ الذي يشعر من ناحية، ومنطق الدماغ المفكّر وحقائقه من ناحية ثانية. لن أدخل هنا في دقائق الطرح الأخلاقي عند كانط لأن في ذلك النظام الكانطي ثغرات كثيرة. وفي ما يخص هذا الفصل، فقد اكتفيت بأخذ ما رأيته المبدأ الأكثر فائدة واشتمالًا في أخلاقيات كانط: «المعادلة البشرية».

(4) إذا كنت قارئًا مدققًا، فلا بد أنك التقطت تناقضًا خفيًا هنا. سعى كانط إلى إقامة نظام قيم موجود خارج الأحكام الذاتية التي يطلقها الدماغ الذي يشعر. لكن

فرض الرقابة عليه، واتهمه القساوسة وأدانوه، وحسده الأكاديميون. لكن شيئًا من هذا لم يفلح في تقييد خطواته.

لم يكن كانط مباليًا بأي شيء. أعني بهذا أصدق وأعمق ما في هذه الجملة من معنى[1]. إنه المفكّر الوحيد، ممن أعرفهم، الذي تحاشى الأمل والقيم البشرية المَعيبة التي يعتمد عليها؛ وكان الوحيد الذي واجه الحقيقة غير المريحة ورفض قبول مستتبعاتها المخيفة. كان أيضًا الوحيد

= رغبته في بناء نظام قيم قائم على العقل وحده هي، في حقيقة أمرها، حكم ذاتي صادر عن الدماغ الذي يشعر. إذا عبّرنا عن الأمر بطريقة أخرى، يمكنك القول إن رغبة كانط في إيجاد نظام أخلاقي يتجاوز الحدود التي يرسمها الدين كانت دينًا في حد ذاتها؟ هكذا كان النقد الذي وجهه نيتشه إلى كانط. كان نيتشه يكره كانط. والواقع أنه كان يراه سخيفًا تمامًا. لقد وجد نظام كانط الأخلاقي نظامًا سخيفًا، ووجد اعتقاده بأنه استطاع تجاوز الذاتية القائمة على الإيمان اعتقادًا ساذجًا في أحسن الأحوال، نرجسيًا تمامًا في أسوأها. من هنا، فسوف يرى القراء من ذوي الخلفية الفلسفية أن اعتمادي على هذين الاثنين اعتمادًا كبيرًا لبناء منطق كتابي أمر غريب من ناحيتي. لكنني لا أرى في الأمر مشكلة حقًا. أظن أن كلًا من الرجلين كان لديه بعض الصواب، وأنه أخطأ بعض الشيء. أصاب نيتشه بقوله إن المعتقدات البشرية كلها محبوسة - بطبيعتها - ضمن منظوراتنا الخاصة، وهي بالتالي قائمة على معتقداتنا. وأصاب كانط من حيث إن هناك أنظمة قيمة تعطي نتائج أفضل وأكثر منطقية مما تعطيه أنظمة أخرى، وهذا بسبب مقبوليتها العامّة المحتملة. لذا، ومن ناحية شكلية، أستطيع الإجابة بنعم: نظام كانط الأخلاقي ليس إلا شكلًا آخر من أشكال الدين القائم على الإيمان. لكنّني أظن أيضًا - وبالطريقة نفسها - أن العلم واعتقاده بوجوب إيمان المرء بما تسانده أدلة أكثر، ينتج أفضل المنظومات الاعتقادية. لقد عثر كانط على أفضل أساس لإقامة منظومات أخلاقية، ألا وهو أن على المرء أن يجد قيمة في الشيء الذي يدرك القيمة أكثر من أي شيء آخر: إنه الوعي.

(1) من حيث زيادة مساوئ الحياة إلى الحد الأقصى، ربما كانت خيارات نمط حياة كانط تستحق أن تجعله بطل العالم في هذا المجال. انظر مارك مانسون: «فن اللامبالاة»، ص: 15 - 19.

الذي حدَّق في الهاوية غير مستعين بشيء غير المنطق والمحاججة العقلية البحت. لم يتسلح إلا بحِدّة عقله وذكائه عندما وقف في مواجهة الآلهة وتحداها.

... وقد فاز، بطريقة ما[1].

لكن علينا أولًا، حتى نفهم كفاح كانط البطولي، أن نقوم بجولة نتعرف فيها على تطوّره النفسي، ومرحلة نضجه، وحياته بعد ذلك[2].

كيف نكبر؟

عندما كنت في الرابعة من عمري، تقريبًا، وضعت إصبعي على الموقد الحار على الرغم من تحذير أمي من فعل ذلك. تعلّمت درسًا مهمًا في ذلك اليوم: الأشياء الحارة مؤلمة حقًا. إنها تحرقك! إنها تحرقك! وسوف تكون حريصًا على تجنّب لمسها من جديد.

---

(1) إن من الممكن تفسير هذا الكلام بعدة طرق. التفسير الأول هو أن كانط نجح في الوقوف خارج المجال الذاتي لأحكام القيمة لدى الدماغ الذي يشعر بغية إيجاد نظام قيم ذي صلاحية تطبيق عامة. ولا يزال الفلاسفة بعد مئة وخمسين سنة من ذلك يناقشون ما إذا كان قد تمكّن من إنجاز هذا الأمر - يقول أكثرهم إنه لم يستطع إنجازه. (للاطلاع على وجهة نظري، انظر الفصل التاسع من هذا الكتاب). وأما التفسير الثاني فهو أن كانط كان موجودًا في زمن سادته وجهات نظر في الأخلاق كانت لا علاقة لها بما وراء الطبيعة: الاعتقاد بأن من الممكن اشتقاق الأخلاق خارج الديانات الروحية. هذا صحيح بالمطلق. لقد مهد كانط المسرح أمام فلسفة أخلاقية يجري السعي إليها عن طريق العلم؛ ولا يزال هذا الأمر مستمرًا في يومنا هذا. التفسير الثالث هو أنني أفرط في تناول هذا الكلام حتى يظل القارئ مهتمًا بهذا الفصل. وهذا أيضًا أمر صحيح بالمطلق!

(2) من المهم الإشارة إلى أنني سوف أطبّق أفكار كانط في هذا الفصل بطرق يستخدمها، هو نفسه، في تطبيقها. إن هذا الفصل زواج ثلاثي غريب بين الأخلاق الكانطية، وعلم النفس التطوري، ونظرية الفضيلة. اربط الأحزمة، واستمتع بالرحلة.

اكتشفت أمرًا مهمًّا آخر، وفي الوقت نفسه تقريبًا: كان الآيس كريم موضوعًا في الثلاجة على رف أستطيع الوصول إليه بسهولة إذا وقفت على أطراف أصابعي. وفي أحد الأيام، بينما كانت أمي في الغرفة الأخرى (مسكينة أمي)، أخرجت الآيس كريم وجلست على الأرض، ورحت أغرفه بيدي وألتهمه التهامًا.

شعرت بنشوة لم أعرفها إلا بعد عشر سنين من ذلك. إن كانت هناك جنّة في عقلي الصغير الذي كان في الرابعة من عمره، فقد وجدت تلك الجنة: فردوسي الصغير في دلو من الروعة المثلّجة. ومع بدء ذوبان الآيس كريم، ازدادت لطخاته على وجهي وبدأ يقطر على قميصي. وبطبيعة الحال، كان ذلك يحدث ببطء. لقد كنت أعوم في تلك اللذة الطيّبة الحلوة. أوه، نعم، قل لي أسرارك أيها الحليب السكّريّ الرائع لأني سأعرف معنى العظمة اليوم.

أتت أمي بعد ذلك، فانفتحت أبواب الجحيم التي كان من بينها ذهابي إلى الحمام على وجه السرعة، فضلًا عن أشياء كثيرة أخرى.

تعلّمت دروسًا كثيرة في ذلك اليوم. كان الدرس الأول هو أن قيامك بسرقة الآيس كريم وبتلطيخ نفسك وتلطيخ الأرض به يجعل أمك غاضبة جدًا. وأما الدرس الثاني، فهو أن الأمهات الغاضبات شيء سيئ لأنهنّ يوبّخنك ويعاقبنك. مثلما حدث عندما وضعت يدي على الموقد، تعلّمت في هذا اليوم «ألّا أفعل».

إلا أن هناك درسًا مجازيًا ثالثًا تعلّمته؛ وهو واحد من تلك الدروس الواضحة جدًا إلى حد أننا لا نلاحظ حدوثها. كان درسًا أهم كثيرًا من الدرسين الآخرين: أكل الآيس كريم أفضل من حرق اليد بالموقد.

كان هذا درسًا مهمًّا لأنه حكمُ قيمة. الآيس كريم أفضل من الموقد الحار. أفضّل تلك الحلاوة السكّرية في فمي أكثر من أن تكون يدي في

النار. إنه اكتشاف التفضيل، أي ترتيب الأولويات. كان دماغي الذي يشعر هو من اتخذ القرار بأن هناك شيئًا في العالم أفضل من شيء آخر. وكان ذلك البداية الأولى لبناء تراتبية القيَم عندي.

ذات يوم، وصف أحد أصدقائي الأبوّة بأنها «ليست أكثر من الجري خلف طفلك عشرين سنة والحرص على ألّا يقتل نفسه مصادفة - مدهشة هي كثرة الطرق التي يمكن أن يقتل بها الطفل نفسه مصادفة».

يبحث الأطفال الصغار دائمًا عن طرق جديدة لقتل أنفسهم. لأن الاستكشاف هو القوة الدافعة الكامنة من خلف تكوينهم النفسي. في فترة مبكرة من الحياة، نكون مدفوعين إلى استكشاف العالم من حولنا. لأن دماغنا الذي يشعر يجمع المعلومات عما يسرّنا وعما يؤذينا، عما نحسّه جيدًا وعما نحسّه سيئًا، وعما يستحق أن نسعى إليه وعما يستحق أن نتجنّبه. إننا نبني تراتبية القيم عندنا فنحدّد أولى قيَمنا الأساسية بحيث نستطيع أن نبدأ معرفة ما نأمل فيه[1].

---

(1) إن الإطار التطوري في هذا الفصل مستمد من أعمال جان بياجيه ولورانس كولبرغ وروبرت كيغان، وإيريك إيركسون، وسورين كيركغارد، وغيرهم (وهو تبسيط لأعمالهم أيضًا). في النموذج الذي وضعه كيغان، يستفيد تعريف «الطفولة» من المرحلتين الأولى والثانية لديه (الاندفاع والاستبداد)، ويأتي تعريف «المراهقة» من المرحلة الثالثة والرابعة لديه (مرحلة العلاقة بين الأشخاص، والمرحلة المؤسساتية)، وأما «النضج» عندي فهو يقابل المرحلة الخامسة عنده (المرحلة المؤسساتية ومرحلة العلاقة بين الأفراد). لمزيد من الاطلاع على نموذج كيغان، انظر ر. كيغان، الذات التي تتطوّر: المشكلة والسيرورة في تطور الإنسان (كامبردج، ماساشوستس: منشورات جامعة هارفارد، 1982). وفي نموذج كولبرغ، تقابل مرحلة «الطفولة» عندي مرحلة التطور الأخلاقي قبل التقليدي عنده (توجّه الطاعة والعقاب، والتوجّه الذرائعي)، وتطابق مرحلة «المراهقة» عندي المرحلة التقليدية في التطور الأخلاقي عنده («ولد طيب/ فتاة لطيفة»، وتوجهات «القانون والنظام»)، وتقابل مرحلة «النضج» عندي المرحلة ما بعد التقليدية في التطوّر الأخلاقي عنده (العقد الاجتماعي وتوجّهات المبادئ

وفي النهاية، تستنفد المرحلة الاستكشافية نفسها. لكن ذلك لا يحدث لأننا فرغنا من استكشاف العالم كله. الواقع أن ما يحدث هو عكس ذلك: تنتهي المرحلة الاستكشافية لأننا نصير أكبر سنًا ونبدأ إدراك أن العالم أكبر كثيرًا من أن نستطيع استكشافه. أنت لا تستطيع أن تلمس كل شيء وأن تتذوّق كل شيء. أنت لا تستطيع أن تعرف الناس جميعًا. وأنت لا تستطيع رؤية كل شيء. إن هناك كمية كبيرة جدًا من التجارب الممكنة. وهذه الكثرة الهائلة المتوفّرة في محيط وجودنا هي ما يربكنا ويخيفنا.

وبالتالي، يبدأ تراجع تركيز دماغنا على محاولة تجريب كل شيء؛ لكن ذلك التركيز ينتقل إلى تطوير بعض القواعد لمساعدتنا في تبيّن طريقنا في خضم التعقيد اللانهائي للعالم الذي أمامنا. إننا نستمد القسم الأكبر من هذه القواعد من أهلنا ومعلّمينا، لكننا نتوصّل بأنفسنا إلى قدر غير قليل منها. فعلى سبيل المثال، وبعد العبث بالنار عددًا كافيًا من المرّات، تنشأ لديك قاعدة ذهنية تقول إن النار خطيرة بكل أشكالها، وليس نار الموقد فقط. وبعد أن تسبّب غضبًا شديدًا لأمك مرات كثيرة، تبدأ إدراك أن الإغارة على الثلاجة وسرقة الآيس كريم وغيره من المأكولات اللذيذة أمر سيئ دائمًا، وليس عندما تسرق الآيس كريم فقط[1].

= الأخلاقية العامة). للاطلاع على المزيد في ما يخص نموذج كولبرغ، انظر ل. كولبرغ، «مراحل التطور الأخلاقي»، التربية الأخلاقية 1، العدد 51 (1971): 23 – 92. وفي نموذج بياجيه، تقابل مرحلة «الطفولة» عندي مرحلتي «الحسّية» و«مرحلة ما قبل الفعل»، وتقابل المراهقة عندي مرحلة «الفعل الملموس» عنده، وتقابل مرحلة «النضج» عندي – مقابلة فضفاضة عامة – مرحلة «الفعل الرسمي» التي هي المرحلة الأخيرة عنده. لمزيد من الاطلاع على نموذج بياجيه في التطور الأخلاقي، انظر ج. بياجيه، «نظرية بياجيه»، بياجيه ومدرسته (برلين وهيدلبرغ: سبيرنغر، 1976)، ص: 11 – 23.

(1) يحدث تطور القواعد والأدوار في مرحلة «الفعل الملموس» لدى بياجيه، ومرحلة «العلاقة بين الأشخاص» عند كيغان. انظر الهامش رقم 13.

نتيجة هذا، يبدأ ظهور بعض المبادئ العامة في عقولنا: «انتبه عندما تكون قريبًا من الأشياء الخطيرة حتى لا يصيبك الأذى». «كن صادقًا مع أبيك وأمك، وسوف تتلقّى منهما معاملة طيبة». «شارك ما لديك مع إخوتك وأخواتك، وسوف يشاركون ما لديهم معك».

هذه القيم الجديدة أكثر تعقيدًا وتطوّرًا لأنها قيم مجرّدة. أنت لا تستطيع الإشارة بإصبعك إلى «الإنصاف»، ولا تستطيع رسم صورة «التعقل». يفكّر الطفل الصغير على النحو التالي: الآيس كريم رائع؛ وأنا أريد آيس كريم. لكن المراهق يفكّر بطريقة مختلفة: الآيس كريم رائع؛ لكن سرقة الأشياء تزعج أبي وأمي كثيرًا وتعرّضني للعقوبة. بالتالي، لن آخذ الآيس كريم من الثلاجة. إن المراهق يطبّق قاعدة «إذا/ عند ذلك» على عملية اتخاذ القرار لديه، ويفكّر من خلال سلاسل «السبب/ الأثر» بطريقة لا يقدر عليها الطفل الصغير.

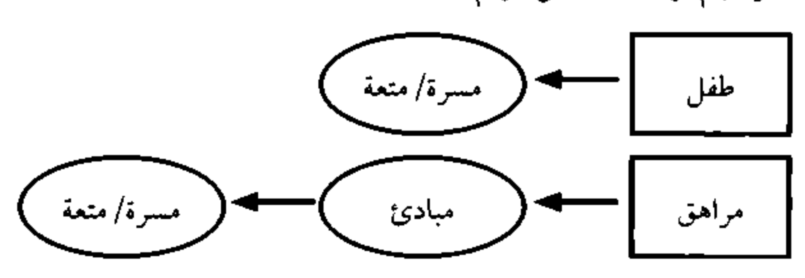
هذا يعني أن المراهق يتعلّم أن الاقتصار على السعي خلف المتعة وتجنب الألم غالبًا ما يسبب له المشكلات. إن للأفعال عواقبها. وعليك أن تُجري نوعًا من المفاوضات بين رغباتك ورغبات الآخرين الذين من حولك. عليك أن تتصرّف وفق قواعد المجتمع والسلطات؛ وسوف تتلقى نتائج طيبة عند ذلك (أكثر الأحيان).

هكذا يحدث النضج: تطوير قيم أكثر تجريدًا وأعلى سوية من أجل تعزيز عملية اتخاذ القرار ضمن نطاق من الحالات المختلفة يتزايد اتساعًا. هكذا تتلاءم مع العالم؛ وهكذا تتعلّم تدبير التعامل مع تلاوين الوجود التي تبدو من غير نهاية. إنها قفزة معرفية كبرى يمر بها الأطفال؛ وهي أساسية من أجل نمو صحّي سعيد.

يشبه الأطفال الصغار طغاة صغارًا[1]. إنهم يجدون صعوبة كبيرة

(1) كيغان، «الذات في تطورها»، ص: 133 - 160.

في فهم أي شيء في الحياة إذا كان يتجاوز مسرّتهم المباشرة أو ألمهم المباشر، وذلك في كلّ لحظة من الزمن. إنهم غير قادرين على الشعور بالتعاطف. وهم لا يستطيعون تخيل كيف هي حياتك. لا يعرفون شيئًا غير أنهم يريدون الآيس كريم الآن[1].



الشكل 6,1: لا يفكّر الطفل إلا في مَسَرَّته/متعته؛ في حين يتعلّم المراهق كيف يسير مستخدمًا القواعد والمبادئ حتى يصل إلى مسرّته/متعته.

من هنا، فإن هوية الطفل الصغير صغيرة جدًا، وهشّة أيضًا. فهي مكوَّنة مما يمنحه متعة أو مسَرّة ومما يجنّبه الألم، ولا شيء أكثر من ذلك. سوزي تحب الشوكولاته، وهي تخاف الكلاب. تستمتع بالتلوين. غالبًا ما تكون بخيلة تجاه شقيقها. هذه هي حدود شخصية سوزي لأن

(1) لا ينشأ لدى الأطفال ما يسمى «نظرية العقل» حتى سن تتراوح بين الثالثة والخامسة من العمر. ويقال إن نظرية العقل تكون موجودة عندما يصير الشخص قادرًا على فهم أن لدى الأشخاص الآخرين أفكارًا واعية وسلوكيات مستقلة عنه. إن نظرية العقل ضرورية من أجل الإحساس بالعطف والتعاطف ومن أجل معظم التفاعلات الاجتماعية - هكذا تفهم نظرة شخص ما وعملية التفكير لديه. وأما الأطفال الذين يجدون صعوبة في تطوير نظرية العقل عندهم، فتشخص حالتهم بأنهم يعانون طيف التوحّد أو الفصام، أو اضطراب نقص الانتباه وفرط النشاط، أو مشكلات أخرى. انظر ب. كوركماز، «نظرية العقل واضطرابات التطور العصبي لدى الأطفال»، دراسات طب الأطفال، 69 (2011): 101ر - 8 ر.

دماغها المفكّر لم يستطع بعد تطوير المعنى الكافي لاستخلاص قصص منسجمة معها. ولن تصل إلى تطوير قصص ذات معنى من أجل نفسها بحيث تؤسّس نفسها إلا عندما تبلغ من العمر نقطة تستطيع عندها أن تسأل عن سبب المتعة وعن سبب الألم.

تظلّ معرفة المتعة والألم موجودة في فترة المراهقة. لكن المتعة والألم يكفّان عن إملاء معظم القرارات المتخذة[1]. إنهما لا يعودان أساس قيَمنا. يوازن الأطفال الأكبر سنًا بين مشاعرهم الشخصية وفهمهم للقواعد وللمقايضات الممكنة وللنظام الاجتماعي الذي من حولهم حتى يخططوا أفعالهم ويتخذوا قراراتهم. هذا ما يعطيهم هويات أكبر وأكثر قوة[2]. يظل المراهق يعاني العثرات نفسها التي يعانيها الطفل الصغير في ما يخص تعلّم ما هو ممتع وما هو مؤلم؛ إلا أن المراهق يتعثّر من خلال تجريب قواعد وأدوار اجتماعية مختلفة. إذا ارتديت

---

(1) إن لدى الفيلسوف كين ويلبر عبارة رائعة لوصف عملية التطوّر النفسي لديه. لقد قال إن مراحل التطور النفسي اللاحقة «تتجاوز» المراحل السابقة و«تشتمل» عليها. هذا يعني أن المراهق يظل محتفظًا بالقيم القائمة على المسرّة والألم التي كانت لديه، إلا أن قيمًا أعلى مستوى قائمة على القواعد والأنظمة تتقدّم على القيم الدنيا، أي القيم الطفولية. نحافظ كلنا على حبنا للآيس كريم، حتى عندما نصير كبارًا ناضجين. لكن الاختلاف كامن في أن الشخص البالغ يكون قادرًا على وضع قيم أكثر علوًا وتجريدًا، كالصدق أو التعقل، في موقع متقدّم على حبه الآيس كريم، بينما لا يستطيع الطفل أن يفعل ذلك. انظر ك. ويلبر، «الجنس والبيئة والروحانية: روح التطور»، (بوسطن، ماساشوستس: شامبالا، 2000)، ص: 59 - 61.

(2) تذكّر من قانوني نيوتن الثاني والثالث أن هويات أكثر قوة ومتانة تمنحنا قدرًا أكبر من الاستقرار الشعوري/ الانفعالي في مواجهة المصاعب. فمن أسباب كون الطفل سريع التقلب من الناحية الشعورية/ الانفعالية هو أن فهمه لنفسه يظل هشًا سطحيًا بحيث إن التجارب المؤلمة أو غير المتوقعة تؤثر فيه ذلك التأثير كله.

هذا، فهل يجعلني أبدو جميلة؟ إذا تكلّمت بهذه الطريقة، فهل يجعلني هذا محبوبة بين الناس؟ إذا تظاهرت بأنني مستمتع بهذه الموسيقى، فهل أصير شخصًا ذا شعبية؟[1].

هذا تطوّر. لكن ضعفًا لا يزال موجودًا في مقاربة المراهق للحياة. يبدو له كل شيء مقايضة. يتعامل المراهق مع الحياة كما لو أنها سلسلة لا نهائية من المساومات والصفقات: سأفعل ما يطلبه مني مديري حتى أحصل على مزيد من المال. سوف أتّصل بأمي حتى لا تصرخ عليَّ عند عودتي. سوف أنجز واجباتي المدرسية حتى لا أخرّب مستقبلي. سأكذب وأتظاهر بأنني لطيف حتى لا أتورَّط في مشكلات. لا يفعل المراهق أي شيء من أجل الشيء في حد ذاته. فكل شيء عملية تبادل محسوبة تحدث عادة نتيجة الخوف من التبعات السلبية. يكون كل شيء وسيلة للوصول إلى نهاية سارّة[2].

المشكلة مع قيم المراهقين هي أن استمرار تمسّك المراهق بها يجعله غير قادر على مواجهة أي شيء خارج نفسه. يظلّ المراهق طفلًا في جوهره، على الرغم من أنه صار طفلًا أكثر تطورًا وذكاء. لا يزال كل شيء يدور حول زيادة المتعة وتقليل الألم. كل ما في الأمر أن المراهق يصير ذكياً إلى حد يستطيع معه التفكير في بضع خطوات حتى يصل إلى الهدف.

---

(1) إن لدى المراهقين تركيزًا هاجسيًا على ما يظنه أقرانهم بهم لأنهم يكوّنون شخصياتهم على أساس القواعد والأدوار الاجتماعية. انظر إيركسون: «الطفولة والمجتمع»، ص: 260 – 266. وانظر أيضًا كيغان، «الذات في تطورها»، ص: 184 – 220.

(2) هنا بدأت، للمرة الأولى، أمزج بين نظام كانط الأخلاقي والنظرية التطورية. إن معاملة الناس على أنهم وسائل لا غايات يمثّل المراحل الثانية والثالثة والرابعة في نظرية كيغان للتطوّر الأخلاقي.

إن قيَم المراهقة تهزم نفسها بنفسها في آخر المطاف. فأنت لا تستطيع أن تعيش حياتك كلها بهذه الطريقة، وإلا فإنك لن تعيش حياتك في واقع الأمر. ستكون كمن يعيش حالة تجميع لرغبات الناس الذين من حوله.

وحتى تصير فردًا معافى من الناحية العاطفية/ الانفعالية، لا بد لك من الخروج من تلك المقايضات والصفقات المستمرة ومن حالة التعامل مع كل شخص على أنه وسيلة للوصول إلى نتيجة سارّة ما؛ وذلك بحيث تصل إلى فهم مبادئ توجيهية أكثر علوًّا وتجريدًا.

كيف تصير ناضجًا؟

إذا بحثت في الانترنت عن «كيف تصير ناضجًا؟»، فستجد أن تركيز أكثر النتائج التي تظهر لك منصبٌّ على مقابلات العمل التي تتقدّم إليها، وإدارة شؤونك المالية، والاهتمام بنظافتك ونظافة المكان الذي تكون موجودًا فيه... أي إن التركيز كله منصبّ على ألّا تكون شخصًا غبيًا وفاشلًا. هذه أشياء عظيمة، في واقع الأمر؛ وهي كلها أشياء يُنتظر من الشخص الناضج أن يفعلها. لكني أقول إن هذه الأشياء، في حد ذاتها، لا تجعلك شخصًا ناضجًا. إنها تمنعك من أن تكون طفلًا؛ وهذا ليس هو الأمر نفسه.

إن أكثر الناس الذين يفعلون هذه الأشياء يفعلونها لأنهم ينطلقون من «الصفقات» ومن القواعد. إنها مجرّد وسائل من أجل الوصل إلى النتيجة الظاهرية نفسها. أنت تستعد جيّدًا لمقابلة العمل لأنك تريد الحصول على وظيفة جيدة. وأنت تتعلّم كيف تنظف بيتك لأن لمستوى نظافته أثرًا مباشرًا على نظرة الناس إليك. وأنت تهتم بإدارة حساباتك المالية، لأنك تعرف أنك ستجد نفسك في الشارع ذات يوم إذا أهملت إدارتها. إن إجراء المقايضات مع القواعد ومع النظام الاجتماعي يسمح لنا بأن نكون بشرًا يحسنون التصرف في هذا العالم.

على الرغم من هذا، فإننا ندرك في آخر المطاف أن القسم الأكبر من الأشياء المهمّة في الحياة لا يمكن اكتسابه من خلال المساومة والمقايضة. أنت لا تريد إجراء مقايضة مع والدك حتى تحصل على حبّه؛ ولا تريد إجراء مقايضة مع أصدقائك من أجل رفقتهم؛ ولا تريد المقايضة مع مديرك في العمل لكي تحصل على احترامه. إن المقايضة مع الناس من أجل الحبّ أو الاحترام أمر غير جدير بالاحترام ولا قيمة له. إنه يؤدّي إلى خراب مشروعك كله. إذا أردت إقناع شخص بأن يحبّك، فهذا يعني أنه لا يحبّك. وإذا كنت في حاجة إلى استرضاء شخص حتى يحترمك، فهذا يعني أنه لن يحترمك أبدًا. وإذا كنت مضطرًا إلى إقناع شخص ما بأن يثق بك، فهذا يعني أنه لا يثق بك في حقيقة الأمر.

إن الأشياء الأكثر قيمة وأهمية في الحياة، بالتعريف، غيرُ خاضعة لصفقات التبادل. وإذا حاولت المقايضة عليها فإنك تدمّرها على الفور. لا يمكنك أن تنسج مؤامرة من أجل السعادة: هذا أمر مستحيل! لكن هذا ما يحاول الناس فعله في أحيان كثيرة، وخاصة عندما يستنجدون بأساليب المساعدة الذاتية وغيرها من وسائل تطوير الذات - فمن حيث الجوهر، يكون هؤلاء كمن يقول: «أروني قواعد اللعبة التي عليَّ أن ألعبها، وسوف ألعبها»، من غير إدراك منهم لحقيقة أن اعتقادهم بأن هناك قواعد للسعادة هو ما يحول بينهم وبين أن يكونوا سعداء[1].

على الرغم من أن الناس الذين يمضون في الحياة باستخدام المقايضات والقواعد يمكن أن يحقّقوا نتائج جيدة في العالم المادي، فإنهم يظلّون وحيدين عاجزين في عالمهم العاطفي/ الانفعالي. وهذا لأن القيم القائمة على الصفقات والتبادلات تخلق علاقات قائمة على المناورة والتلاعب.

---

(1) عبّر ألبير كامو عن هذا الأمر تعبيرًا حسنًا عندما قال: «لن تكون سعيدًا في يوم من الأيام إذا واصلت بحثك عما تتكون منه السعادة».

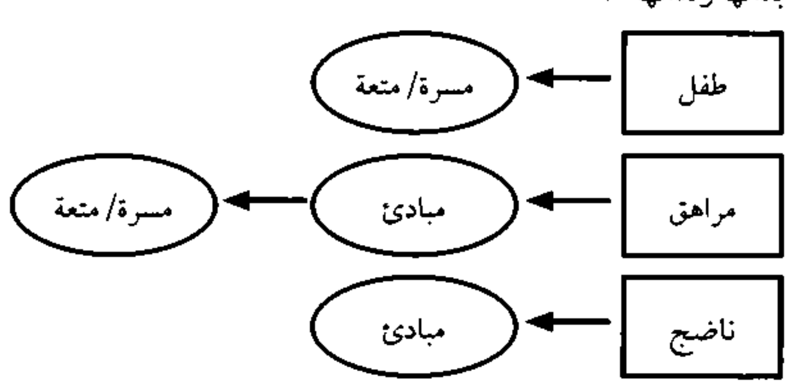
النضج هو إدراك أن من الممكن أحيانًا أن يكون هناك مبدأ صحيح أو جيّد في حد ذاته بصرف النظر عن نتائجه. فحتى إذا سبب لك الصدق ألمًا اليوم، وحتى إذا سبب ألمًا للآخرين، فإن كون المرء صادقًا يظل هو الأمر الصحيح. فكما يدرك المراهق أن في العالم ما هو أبعد من ألم الطفل أو مَسَرّته، فإن الشخص الناضج يدرك أن في العالم ما هو أبعد من تلك المقايضات المستمرّة التي يجريها المراهق حتى يتلقى الثناء أو الاستحسان أو الرضا. من هنا، فأن يكون المرء ناضجًا يعني أن تتطوّر لديه فكرة على فعل ما هو صحيح لمجرد أنه صحيح.

عندما تقول مراهِقة إنها تجد قيمة كبيرة في الصدق، فهي تقول هذا لكونها تعلّمت أن قوله يثمر نتائج طيبة. لكنها لا تلبث أن تجد نفسها في حديث صعب محرج فتكذب بضع كذبات بيضاء... تبالغ في الحقائق، وتصير سلبية/ عدوانية. وأما عندما تصير امرأة ناضجة، فإنها تقول كلامًا صادقًا لمجرد أن الصدق أكثر أهمية من مسرَّتها أو ألمها. الصدق أكثر أهمية من حصولك على شيء ما أو من تحقيقك هدفًا من الأهداف. فالصدق أمر جيد كبير القيمة، بذاته ولذاته. هكذا يكون الصدق غاية، وليس مجرّد وسيلة من أجل الوصول إلى غايةٍ غيره.

يقول لك مراهق إنه يحبّك، لكن فكرته عن الحب هي أن يحصل على شيء مقابله؛ فكرته هي أن الحب ليس أكثر من تبادل للمشاعر حيث يأتي كل من الطرفين بكل ما لديه ويعرضه فيتساوم الاثنان حتى الوصول إلى صفقة جيدة. وأما الشخص الناضج، فهو يحبّ حبًّا حرًّا من غير قبول أي شيء من غير ذلك الحبّ لأنه يفهم أن ذلك هو الشيء الوحيد الذي يجعل الحب حقيقيًا. الناضج يعطي من غير انتظار شيء في المقابل لأن انتظار إعطاء شيء بالمقابل يُضيّع معنى العطاء أصلًا.

إن القيم المبدئية في مرحلة النضج قيم غير مشروطة - أي أنه لا

يمكن الوصول إليها من خلال أية وسائل أخرى غيرها. إنها غايات بذاتها ولذاتها[1].



الشكل 6,2: يكون الشخص الناضج قادرًا على التغاضي عن مسرَّته الخاصة من أجل مبادئه

إن في العالم كمية ضخمة من الأطفال الكبار. وفيه أيضًا كثير من المراهقين الكبار. بل إن فيه أيضًا بعض الأشخاص الناضجين الذين لا يزالون في مقتبل العمر. وهذا لأن النضج، بعد نقطة بعينها، يصير أمرًا لا علاقة له بالسنّ[2]. مقاصد الشخص وغاياته هي ما له أهمية. والاختلاف بين الطفل أو المراهق، من ناحية، وبين الشخص الناضج، من ناحية أخرى، ليس كامنًا في سن كل واحد منهم ولا في ما يفعله، بل في السّبب الذي يجعله يفعل هذا الشيء أو ذاك. يسرق الطفل الآيس كريم، لأن

---

(1) من جديد، أدمج بين المرحلتين الخامسة والسادسة عند كولبرغ وبين متطلب «الشيء في ذاته» لكانط اللازم من أجل العمومية الأخلاقية.

(2) بحسب نموذج كولبرغ للتطور الأخلاقي، يكون 89 بالمئة من الناس في سن السادسة والثلاثين قد أنجزوا مرحلة المناقشة العقلية للأخلاق، التي هي مرحلة المراهقة. ولا ينجز مرحلة النضج إلا 13 بالمئة. انظر ل. كولبرغ، *«قياس الحكم الأخلاقي»*، (كامبردج، ماساشوستس: منشورات جامعة كامبردج، 1987).

هذا يعجبه. لكنه يكون جاهلًا بالعواقب أو غير مبالٍ بها. إلا أن المراهق يمتنع عن سرقة الآيس كريم لأنه يعرف أن تلك السرقة ستكون لها عواقب سيئة في المستقبل، فيكون قراره - في النهاية - صفقة مع نفسه تتحقّق في المستقبل: سوف أفوّت بعض المسرة الآن حتى أتلافى ألمًا أكبر منه في المستقبل[1].

لكن الشخص الناضج وحده هو من لا يسرق لأن لديه مبدأ بسيطًا يقول إن السرقة أمر خاطئ. ثم إن السرقة (حتى إذا لم يكتشف أمرها) ستترك لديه شعورًا سيئًا تجاه نفسه[2].

لماذا لا نكبر؟

عندما نكون أطفالًا صغارًا، نتعلّم كيف نتجاوز قيمتي المسرّة والألم («الآيس كريم جيد؛ الموقد الحار سيئ») من خلال السعي خلف هاتين القيمتين ورؤية كيف تعطينا كل منهما نتيجة سلبية. ونحن لا نتعلّم تجاوزهما إلا من خلال عيش الألم الناتج عن فشلهما[3]. نسرق الآيس

---

(1) مثلما تفاوض المراهِقة مع أشخاص آخرين وتبرم صفقات معهم، فإنها تفعل الشيء نفسه مع ذاتها في المستقبل (أو في الماضي). إن فكرة كون ذواتنا الماضية والمستقبلية هي أفراد مستقلين عن مفاهيمنا في الزمن الحاضر موضحة توضيحًا أكبر لدى ديريك بارفيت في كتابه *«عقول وأشخاص»*، ص: 199 - 244.

(2) فلنتذكّر أننا نشتق تقديرنا لذاتنا من مدى حسن وفائنا لقيمنا (أو مدى حسن تعزيزنا قصص شخصيتنا). يطور الشخص الناضج القيم بالاستناد إلى مبادئ مجردة (فضائل) وهو يستمد تقديره لذاته من مدى حسن التزامه بتلك المبادئ.

(3) إننا جميعًا في حاجة إلى مقادير كبيرة من الألم حتى نتطوّر وننضج. إن الألم الزائد كثيرًا يصيبنا بالصدمات - يصير دماغنا الذي يشعر خائفًا من العالم إلى حد غير واقعي فيحول دون أي نمو مستقبلي، أو أية تجارب. أما إذا كان الألم أقل مما يلزم لكي ننضج، فإننا نصير أشخاصًا نرجسيين نشعر بأننا نستحق كل شيء ونؤمن بأن العالم يمكن أن يدور من حول رغباتنا (بل يتعين عليه فعل

كريم، فتغضب أمنا وتعاقبنا. فجأة، لا تعود فكرة «الآيس كريم جيّد» أمرًا واضحًا مباشرًا مثلما كانت من قبل: هناك عوامل كثيرة ينبغي أخذها بعين الاعتبار. أحبّ الآيس كريم، وأحبّ ماما. لكن أخذ الآيس كريم يغضب ماما. فماذا أفعل؟

في آخر المطاف، يكون الطفل مرغمًا على الاقتناع (والاعتقاد) بحقيقة أن هناك مقايضات ومساومات لا بد من الإقدام عليها.

هذه هي خلاصة ما يمكن اعتباره إشرافًا جيدًا من جانب الأهل في الفترة المبكرة من عمر الطفل: جعله يرى العواقب الصحيحة لسلوكه المدفوع بالمسرّة/ الألم. معاقبة الطفل عندما يسرق الآيس كريم؛ ومكافأته عندما يجلس بهدوء في المطعم. أنت بهذا تساعده في فهم أن الحياة أكثر تعقيدًا من دوافعه ورغباته الخاصة. إن الأهل الذين لا يفعلون هذا يخذلون أطفالهم خذلانًا جوهريًا لأن الطفل، بعد مضي وقت غير طويل، سيدرك مصدومًا أن العالم لا يستجيب لنزواته. إن تعلّم هذا الدرس بعد أن يصير المرء كبيرًا أمر مؤلم جدًا: إن ألمه يفوق كثيرًا ذلك الألم الذي يحسّه الطفل عندما يتعلّم الدرس في سن صغيرة. يتلقّى الكبير عقوبات اجتماعية من جانب زملائه ومجتمعه لأنه لم يفهم الدرس بعد. لا يحبّ أحد أن يكون صديقًا لطفل أناني. ولا يحب أحد أن يعمل مع شخص لا يعير مشاعر الآخرين اهتمامًا ولا يحترم القواعد.

= ذلك!). وأما إذا تلقينا القدر المناسب من الألم، فإننا نتعلم أن: (أ) قيمنا الحالية تخذلنا، (ب) إننا نمتلك الطاقة والقدرة على تجاوز تلك القيم وخلق قيم جديدة أعلى سوية وأكثر شمولًا. نتعلم أن من الأفضل أن يكون لدينا تفهم وعطف تجاه الجميع من أن يكون عطفنا وتفهمنا مقتصرين على أصدقائنا، وأن من الأفضل أن نكون صادقين في الحالات كلها بدلًا من أن نكتفي بالصدق في الحالات التي ينفعنا فيها الصدق، وأن من الأفضل أن نحافظ على تواضعنا، حتى عندما نكون واثقين من صواب سلوكنا ثقة تامة.

ولا يقبل أي مجتمع شخصًا يسرق (مجازًا، أو حرفيًا) الآيس كريم من الثلاجة. سوف يتعرّض الطفل الذي لا يتعلّم هذا الدرس إلى السخرية منه عندما يكبر، كما سيتجنّبه الآخرون ويعاقبونه نتيجة سلوكه في عالم الأشخاص الناضجين؛ وهذا ما يؤدّي به إلى مزيد من الألم والمعاناة.

وقد يخذل الأهل أطفالهم بطريقة أخرى: من الممكن أن يسيئوا معاملتهم[1]. إن الطفل الذي تُساء معاملته لا يتطوّر بحيث يتجاوز القيم المدفوعة بالمسرة/ الألم، وذلك لأن العقوبات التي يتلقّاها لا تسير وفق نمط منطقي ولا تعزز لديه قيَمًا أكثر عمقًا وأكثر تجريدًا. فبدلًا من أن يصير قادرًا على توقّع العثرات، تكون تجاربه عشوائية قاسية فحسب. ففي بعض الأحيان، تؤدّي سرقة الآيس كريم إلى عقوبة مبالَغ في قسوتها. وفي أوقات أخرى، لا تؤدّي السرقة نفسها إلى أية عواقب على الإطلاق. وبالتالي، فإن الطفل لا يتعلّم شيئًا، ولا يجري إنتاج قيم أعلى في عقله. لا يحدث أي تطور. ولا يتعلّم الطفل أبدًا أن يتحكّم بسلوكه وأن يطوّر آليات التلاؤم اللازمة للتعامل مع ذلك الألم المستمر. هذا هو السبب الذي يجعل (في أكثر الأحيان) الأطفال الذين تساء معاملتهم والأطفال المدللون ينتهون إلى معاناة المشكلات نفسها عندما يصيرون كبارًا: يظلّون عالقين ضمن نظام القيَم الطفولي[2].

---

(1) رأينا في الفصل الثالث من هذا الكتاب أن الصدمات وإساءة المعاملة تؤديان إلى النرجسية وقلّة تقدير الذات، وكذلك إلى هوية قوامها كره الذات. وهذا ما يحدّ من قدرتنا على تطوير قيم مجرّدة أعلى مستوى لأن ألم الفشل يظلّ مستمرًا ويكون أشد من أن يسمح لنا بفعل ذلك - سوف يستهلك الطفل طاقته ووقته بالكامل في محاولة الفرار من الألم. إن النمو يستلزم تقبّل الألم. وسوف نرى ذلك في الفصل السابع.

(2) انظر ج. هيدت، ج. لوكيانوف: *«الرفق الزائد بالعقل الأميركي: كيف تعمل النوايا الطيبة والأفكار السيئة على إعداد جيل ينتهي به الأمر إلى الفشل»*، (نيويورك: بنغوين برس، 2018)، ص: 150 - 165.

ثم إن الخروج إلى عالم المراهقة يتطلّب قدرًا من الثقة. يجب أن يثق الطفل بأن سلوكه ستكون له عواقب يمكن توقّعها. السرقة تأتي بعواقب سيئة دائمًا. ولمس الموقد الحار يأتي بعواقب سيئة دائمًا. إن الثقة في حدوث هذه النتائج هي ما يسمح للطفل بتطوير القواعد والمبادئ المتعلّقة بها. يصح الأمر نفسه بعد أن يكبر الطفل ويدخل المجتمع. إن مجتمعًا من غير مؤسّسات موثوقة وقادة موثوقين غير قادر على إنتاج وتطوير قواعد وأدوار واضحة. من غير توفّر الثقة، لا وجود لمبادئ يمكن الاعتماد عليها لكي تملي على المرء قراراته. وبالتالي، فإن تطور كل شيء يعود إلى الخلف، إلى مرحلة الأنانية الطفولية[1].

يظلّ الناس عالقين ضمن قيم مرحلة المراهقة لأسباب شبيهة بالأسباب التي تجعلهم يظلون عالقين ضمن قيم الطفولة: الصدمات و/ أو الإهمال. إن ضحايا التنمّر من الأمثلة الواضحة وضوحًا خاصًا. فالشخص الذي يتعرّض للتنمّر في سنوات مراهقته الأولى يدخل العالم حاملًا فهمًا مفترَضًا مفاده أن ما من أحد يمكن أن يحترمه أو يحبه من غير شروط، وأنه لا بد من كسب كل عاطفة من خلال سلسلة من الأفعال التي خطّط لها جيدًا، ومن خلال الكلام الذي تمرّن عليه مسبقًا. يجب أن ترتدي ملابسك بطريقة معينة. ويجب أن تتحدّث بطريقة معينة. ويجب أن تتصرّف بطريقة معينة... وإلا![2]

---

(1) انظر ف. فوكوياما: *«الثقة: الفضائل الاجتماعية وخلق الرخاء»*، (نيويورك: فري برس بوكس، 1995)، ص: 43 – 48.

(2) من الأمثلة الكبيرة على هذه الظاهرة جماعة (PUA) في أواسط العقد الأول من القرن الحادي والعشرين؛ وقد كانت جماعة من الذكور غير المتكيّفين، المنعزلين اجتماعيًا شكّلوا كتلة واحدة لدراسة السلوكيات الاجتماعية بهدف أن يصيروا محبوبين لدى النساء. لم تستمر هذه الحركة أكثر من بضع سنين لأن

تصير لدى بعض الأشخاص مهارة كبيرة إلى حدٍّ لا يصدَّق في لعبة المساومة والمقايضة وعقد الصفقات. وهم مَيّالون عادة إلى أن يكونوا جذّابين، ساحرين. كما تكون لديهم قدرة طبيعية على الإحساس بما يريده الأشخاص الآخرون، وعلى القيام بذلك الدور. نادرًا ما تخذلهم هذه القدرة المتميّزة على التلاعب بالناس فيصيرون مؤمنين بأن العالم كله يسير هكذا. ففي نظرهم، تكون الحياة أشبه بصالة رياضية كبيرة في إحدى المدارس؛ ويكون عليك أن تركل الناس قبل أن يركلوك.

ينبغي جعل المراهقين يرون أن تلك «الصفقات» أمر لا طائل منه أبدًا لأن الأشياء التي لها قيمة حقيقية ومعنًى حقيقي في الحياة تتحقّق من غير شروط، ومن غير أية صفقة. إن على الآباء والأمهات والمعلمين الجيّدين ألّا يقبلوا بمَيل المراهق إلى التفاوض وإلى عقد الصفقات. والطريقة المثلى لفعل ذلك هي أن يكونوا مثالًا لهم، وذلك بأن يجعلوهم يدركون أن الأمور المهمة ليست في حاجة إلى شروط مسبقة، وذلك من خلال كونهم يتصرّفون معهم من غير شروط مسبقة. الطريقة المثلى لتعليم المراهق الثقة هي أن نثق به. والطريقة المثلى لتعليم المراهق الاحترام، هي أن نحترمه. والطريقة المثلى لتعليم المراهق أن يحبّ هي أن نحبّه. لكنك لا ترغم نفسك على حبه أو احترامه أو الثقة به (لأن هذه سيجعلها أشياء مشروطة في آخر المطاف). بل تعطيه إياها، مدركًا أن مقايضات ذلك المراهق وصفقاته ستفشل في وقت لاحق فيدرك في

= أفرادها - في نهاية الأمر - كانوا رجالًا طفوليين و/ أو مراهقين راغبين في أن تكون لهم العلاقات الموجودة بين الراشدين. لا يمكن لأي مقدار من الدراسة أو التمرين في ما يخص السلوك الاجتماعي أن ينتج علاقة مع شريكة بحيث لا تكون تلك العلاقة مشروطة ولا قائمة على الصفقات.

ذلك الوقت قيمة عدم وجود شروط عندما يصير مستعدًا لإدراك قيمة ذلك[1].

وعندما يفشل الأهل والمعلمون، فإن ذلك يكون لأنهم لا يزالون عالقين عند مستوى القيَم الخاص بالمراهقين: فهم أيضًا يرون العالم من منظور الصفقات والمقايضات. هم أيضًا يقايضون الجنس بالحبّ، والولاء بالعاطفة، والطاعة بالاحترام[2]. والواقع هو أنهم يُجرون أيضًا مع أطفالهم مقايضات من أجل الحبّ أو العاطفة أو الاحترام. يظنّون أن هذا شيء طبيعي، فيكبر الطفل وهو يراه طبيعيًا. ثم تتكرّر تلك العلاقة الفاشلة (علاقة المقايضة بين الأهل والطفل) عندما يترك الطفل البيت ويشكّل علاقاته بالعالم لأنه سيصير بدوره معلّمًا أو أبًا أو أمًّا وينقل قيَمه إلى أطفاله فتستمر تلك الحال جيلًا بعد جيل.

عندما يكبر الشّخص ذو العقل المراهق، فسوف يتحرّك في العالم مفترضًا أن العلاقات البشرية كلّها مكوَّنة من اتفاقيات تجارية لا تنتهي، وأن العلاقات الحميمة ليست إلا إحساسًا مختلقًا بمعرفة الشخص الآخر من أجل المنفعة المتبادلة بين الشخصين، وأن كل إنسان ليس أكثر من وسيلة من أجل تحقيق غاية أنانية. وبدلًا من إدراك أن جذر المشكلة كامن في التعامل مع العالم من منطلق المقايضة والصفقات، يفترض المرء أن المشكلة الوحيدة هي أن إجراء تلك الصفقات بشكل صحيح

---

(1) هناك طريقة أخرى للتفكير في هذا الأمر، ألا وهي الفكرة الشائعة عن «الحب القاسي». أنت تسمح للطفل بأن يختبر الألم بنفسه لأن إدراكه وجود أشياء تظل مهمة على الرغم من ضرورة مواجهة الألم من أجلها هو ما يجعله ينمو ويحقق قيمًا أعلى سوية.

(2) في اللغة العربية، الباء تدخل على المتروك. (ملاحظة المترجم)

يستغرق معه وقتًا أطول مما ينبغي (مما يعني أنه في حاجة إلى مزيد من تطوير مهاراته في المقايضة).

إن التصرّف والفعل من غير شروط أمر صعب. فأنت تحبّ شخصًا وتعرف أن من الممكن ألا يحبّك بالمقابل؛ إلا أنك تحبّه على أية حال. وأنت تثق بشخص ما على الرغم من إدراكك أن من الممكن أن تصيبك خسارة أو أن يلحق بك ضرر نتيجة تلك الثقة. هذا لأن التصرّف والفعل من غير شروط يتطلّب قدرًا من الإيمان: الإيمان بأن هذا هو الشيء الصحيح الذي ينبغي فعله حتى إذا نتج عنه مزيد من الألم، وحتى إذا لم يحقّق نتيجة حسنة لك أو للشخص الآخر.

إن القيام بتلك القفزة إلى عالم النضج القائم على القيَم والفضائل الحقيقية في حاجة إلى ما يتجاوز القدرة على تحمل الألم؛ أي أنه في حاجة إلى شجاعة حتى يتمكّن المرء من التخلي عن الأمل والتخلي عن الرغبة في أن تكون الأمور أفضل أو أكثر بهجة أو متعة. سوف يقول لك دماغك المفكّر إن هذا غير منطقي وإن افتراضاتك يجب، بالتأكيد، أن تكون خاطئة على نحو ما. لكنّك تفعل ما تفعله، على الرغم من ذلك. سوف يحاول دماغك الذي يشعر باللجوء إلى المماطلة لأنه يخشى ألم الصدق العاري، ولأنه يخشى حالة الضعف والهشاشة التي ترافق حبّك لشخصٍ ما، ولأنه يخشى الخوف الذي يأتي من التواضع. لكنك تفعل ما تفعله، على الرغم من هذا كله.

يُنظر إلى سلوكيات الشخص الناضج باعتبارها تستحق الملاحظة والإعجاب. فالمدير هو من يتحمّل نتائج أخطاء الموظفين، والأم هي التي تتخلى عن سعادتها من أجل أطفالها، والصديق هو من يقول لك ما يجب قوله حتى إن كان مزعجًا لك.

	الطفولة	المراهقة	النضج
القيم	المسرة/ الألم	القواعد والأدوار	الفضائل
النظر إلى العلاقات باعتبارها:	صراع قوة	تمثيل وتظاهر	إمكانية الإصابة بضرر
القيمة الذاتية:	نرجسية؛ تأرجحات واسعة بين «أنا الأفضل» و«أنا الأسوأ»	اعتماد على الآخرين: تقييم من الخارج	استقلال: تقييم داخلي إلى حد بعيد
التحفيز:	تعظيم الذات	قبول الذات	آمور فاتي
السياسات:	متطرّف/ عدمي	نفعي وإيديولوجي	نفعي وغير إيديولوجي
حتى ينمو، لا بد له من...	مؤسسات موثوقة وأشخاص يمكن الاعتماد عليهم	جرأة للتغاضي عن النتائج وإيمان بالأفعال غير المشروطة	إدراك متسق للذات

هؤلاء الناس هم الذين يحافظون على تماسك العالم. ومن المرجَّح أن نكون في أسوأ حال لولا وجودهم.

إذًا، ليس من المصادفة في شيء أن تعمد ديانات العالم الكبرى كلّها إلى دفع الناس في اتجاه هذه القيم غير المشروطة، سواء أكان ذلك «المغفرة غير المشروطة من جانب يسوع المسيح»، أم «الممر السامي المثمّن لدى بوذا»، أم «العدالة التامّة لدى النبي محمد». ففي أنقى

صورها، تعتمد ديانات العالم الكبرى على ميلنا الفطري إلى الأمل حتى تحاول الارتقاء بنا ورفعنا إلى فضائل النضج[1].

أو يمكن القول، على الأقل، إن هذا هو التوجه الأصلي للديانات.

ومما يدعو للأسف أن الديانات، مع نموها، تقع (لا محال) تحت تأثير المراهقين الذين يجنحون إلى المقايضات، وتقع أيضًا تحت تأثير الأطفال النرجسيين؛ أي تحت تأثير من يُحَرّفون المبادئ الدينية من أجل مكاسبهم الخاصّة. يقع كل دين بشري تحت طائلة هذا الفشل الناتج عن الهشاشة الأخلاقية. ومهما تكن عقائد الدين المعني جميلة نقية، فإنه يصير مؤسّسة بشرية في آخر المطاف. والمؤسّسات البشرية كلها عرضة للفساد.

دبّت الحماسة في فلاسفة التنوير بفعل الفرص التي أتاحها النمو للعالم فقرروا إزالة الروحانية من الدين والاعتماد على الدين الإيديولوجي. لقد هجروا فكرة الفضيلة وركّزوا بدلًا منها على الأهداف الملموسة القابلة للقياس: خلق سعادة أكبر ومعاناة أقل؛ ومنح الناس حريات شخصية أكبر؛ والحَضّ على التعاطف والشفقة والمساواة.

إلا أن هذه الديانات الإيديولوجية تراجعت أمام الطبيعة المَعيبة للمؤسسات البشرية كلّها، تمامًا مثلما حدث للديانات الروحانية. عندما تحاول إجراء مقايضة من أجل الحصول على السعادة، فإنك تدمّر تلك السعادة. وعندما تحاول فرض الحرية فرضًا، فإنك تناقض الحرية. وعندما تحاول خلق المساواة، فإنك تقوِّض المساواة.

لم تواجه أية ديانة من هذه الديانات الإيديولوجية المشكلة الأساسية الماثلة: مشكلة الشَّرْطية. هناك حقيقة لم تقر بها الديانات الإيديولوجية،

---

(1) حتى هذه النقطة، كنت أتعمّد الغموض في شأن ما أعنيه بكلمة «فضائل». وهذا عائد في جزء منه إلى أن الفلاسفة المختلفين، وكذلك الديانات المختلفة، يعتنقون فضائل مختلفة.

أو لم تتعامل معها، ألا وهي أنها لم تقر بحقيقة (أو لم تتعامل مع) أنه مهما تكن القيمة الإلهية لديك، فإنك ستكون مستعدًا، في لحظة ما، للمقايضة بالحياة البشرية نفسها حتى تصير أكثر قربًا من تلك القيمة. عندما يعبد المرء إلهًا فوق الطبيعة، أو واحدًا من المبادئ المجردة، أو رغبة لا قرار لها، ثم يستمر الأمر فترة كافية، فإن هذا يؤدّي دائمًا إلى تخليه عن إنسانيته، أو عن إنسانية الآخرين، بغية تحقيق أهداف ذلك المعبود. وهذا ما يرمي بالمرء عائدًا إلى المعاناة نفسها التي كان مفترضًا أن ينقذه منها. ثم تبدأ دورة الأمل/ الخراب من جديد.

وهنا يتدخّل كانط...

القاعدة الوحيدة في الحياة

فهم كانط منذ فترة مبكرة في حياته سر لعبة المحافظة على الأمل في مواجهة الحقيقة غير المريحة. وقد أصابه القنوط مثلما يصيب كل شخص يصير مدركًا هذه اللعبة الكونية القاسية. لكنه رفض قبول اللعبة. رفض الإيمان بأن ما من قيمة أصيلة ملازمة للوجود نفسه. لقد رفض الإيمان بأنه محكوم علينا، إلى الأبد، بأن نختلق لأنفسنا قصصًا ثم نستحضرها حتى نعطي لحياتنا إحساسًا اعتباطيًا بالمعنى. وهكذا فقد قرر استخدام «العضلة الكبيرة» في دماغه المفكّر لكي يتبيّن كيف يمكن أن تبدو القيم إذا كانت من غير أمل.

بدأ كانط بملاحظة بسيطة. بحسب معرفتنا، لا يوجد في الكون كلّه إلا شيء واحد تامّ الندرة، ألا وهو الوعي. وفي نظر كانط، فإن قدرتنا على المناقشة المنطقية هي الشيء الوحيد الذي يميزنا عن بقية ما في الكون من مادة: نحن قادرون على تطوير العالم الذي من حولنا باستخدام التفكير والإرادة. كان هذا في نظره شيئًا خاصًّا، بل خاصًّا إلى أقصى حدٍّ (شيئًا يكاد يكون معجزة)؛ وذلك لأن مساحة الوجود

اللانهائية كلها ليس فيها شيء غيرنا (على حد معرفتنا) قادر على «توجيه الوجود». نحن المصدر الوحيد للذكاء والإبداع في الكون المعروف كله. نحن الوحيدون القادرون على توجيه قدَرِنا. نحن الوحيدون الذين لدينا إدراك لذاتنا. وبحسب كل ما نعرفه، فإننا الوحيدون الذين يملكون قدرة واعية على التوجه الذاتي.

ومن هنا، استنتج كانط بذكاء أن القيمة العليا في الكون هي (منطقيًا) الشيء الذي يلد القيمة. والمعنى الحقيقي في الوجود هو القدرة على تشكيل المعنى. والأهمية الوحيدة هي أهمية الشيء الذي يقرّر الأهمية[1].

إن هذه القدرة على اختيار المعنى، وتخيل الأهمية، وابتداع الغاية، هي القوة الوحيدة في الكون التي تستطيع التوالد، ونشر ذكائها، وتوليد مستويات أعلى فأعلى من التنظيم عبر هذا الكون. وذهب كانط أيضًا إلى أن الكون، من غير العقلانية، يصير هباء، ويصير عبثًا من غير غاية. فمن غير الذكاء، ومن غير الحرّية اللازمة لممارسة ذلك الذكاء، ينعدم الفارق بيننا وبين مجموعة من الحجارة. الحجارة لا تغيّر شيئًا. وهي لا تلد قيَمًا، ولا منظومات، ولا مؤسسات. إنها لا تحوّل شيئًا، ولا تطوره، ولا تبدعه. هي موجودة، فحسب.

وأما الوعي، فهو قادر على إعادة تنظيم الكون؛ وإعادة التنظيم تلك قادرةٌ على التضاعف والزيادة من غير نهاية. إن الوعي قادر على تناول مشكلة، أو على تناول نظام ذي سوية ما من التعقيد، ثم على أن يلد ويخلق مزيدًا من التعقيد. فخلال ألف سنة، انتقلنا من الانشغال بالعصيّ في كهف صغير إلى تصميم عوالم رقمية بأسرها تحقّق التواصل بين عقول آلاف الملايين من الناس. ومن الممكن تمامًا، بعد ألف سنة أخرى، أن نصير بين النجوم وأن نعيد تشكيل الكواكب والمكان/ الزمان

---

(1) كانط: «*تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق*»، ص: 9 – 20.

نفسه. قد لا يكون لفعل كل فرد أهمية ضمن المجرى العام للأمور، لكن المحافظة على الوعي العقلاني وتطويره أهم من أي شيء آخر.

لقد ذهب كانط إلى أن الواجب الأخلاقي الأكبر أهمية هو المحافظة على الوعي وتنميته، سواء في أنفسنا أو لدى الآخرين. لقد دعا هذا المبدأ، مبدأ إعطاء الأولوية دائمًا للوعي، «المعادلة البشرية»؛ وهو مبدأ يشرح... كل شيء! إنه يشرح الحدس الأخلاقي الأساسي الموجود لدينا. وهو يشرح مفهوم الفضيلة الكلاسيكي[1]. وهو يشرح كيف نتصرّف في حياتنا اليومية من دون الاعتماد على صورة متخَيلة للأمل. إنه يشرح كيف لا يكون المرء شخصًا سيئًا.

ثم إنه أيضًا يشرح تلك الأشياء كلها بجملة واحدة. تنص المعادلة البشرية على التالي: «تصرَّفْ على نحو تستخدم معه البشريةَ باعتبارها غاية، لا وسيلة، سواء أكانت متمثلة في شخصك أم في شخص إنسان آخر»[2].

هكذا هو الأمر. هذه المعادلة هي المبدأ الوحيد الذي ينتشل الناس من مقايضات المراهقة إلى فضيلة النضج[3].

هل رأيت الآن؟ مشكلة الأمل هي أنه أشبه بصفقة، من حيث الأساس... فهو مقايضة يقدم فيها المرء أفعاله الحالية مقابل مستقبل سارٍّ يتخيّله. لا تأكل هذا الشيء حتى تذهب إلى الجنة. لا تقتل هذا الشخص، وإلا فستلقى المتاعب. اعمل بجد وادخر المال لأن ذلك سوف يجعلك سعيدًا!

---

(1) من الأهمية بمكان ملاحظة أن استنباط كانط المعادلة البشرية لم يكن قائمًا على حدس أخلاقي، ولا على المفهوم القديم للفضيلة - أنا من يقيم هاتين الصلتين هنا.

(2) كانط: «*تأسيس في ميتافيزيقا الأخلاق*»، ص: 40 - 42.

(3) إن المعادلة البشرية هي المبدأ الكامن خلف فضائل الصدق والتواضع والشجاعة، وهكذا دواليك. تحدد هذه الفضائل أعلى مراحل التطوّر الأخلاقي (المرحلة السادسة عند كولبرغ؛ والمرحلة الخامسة عند كيغان).

من أجل تجاوز دائرة التبادلية الخاصة بالأمل، يكون على المرء أن يفعل ويتصرّف على نحو غير مشروط. ينبغي أن تحبَّ شخصًا ما من غير توفّر أي شيء بالمقابل، وإلا فإن هذا لا يكون حبًا حقيقيًا؛ ينبغي أن تحترم شخصًا ما من غير توفّر أي شيء بالمقابل، وإلا فإنك لا تحترمه احترامًا حقيقيًا. عليك أن تقول الصدق من غير توقّع مكافأة أو شكر أو جائزة، وإلا فإنك لست شخصًا صادقًا في حقيقة الأمر.

لقد لخص كانط هذه الأفعال غير المشروطة بمبدأ بسيط واحد: عليك ألا تتعامل مع الإنسانية على أنها وسيلة فحسب، بل على أنها غاية في حد ذاتها[1].

لكن، كيف يبدو هذا في الحياة اليومية؟ إليك مثالًا بسيطًا:

فلنتظاهر بأنني جائع وبأنني أريد سندويتشًا. أجلس في سيارتي وأقودها إلى حيث يبيعون السندويتشات، فأطلب لنفسي السندويتش المزدوج المعتاد الذي يجعلني في غاية السعادة. في هذه الحالة، يكون أكل السندويتش هدفي «النهائي». إنه السبب الذي جعلني أقوم بكل فعل آخر: الجلوس في السيارة، وقيادتها، وشراء البنزين، وهكذا دواليك. ليست هذه الأشياء كلها التي أفعلها من أجل الحصول على السندويتش إلا «وسائل»، أي أنها الأشياء التي لا بد لي من فعلها حتى أصل إلى «الهدف».

---

(1) الكلمة المفتاح هنا هي «فحسب». يعترف كانط أن عدم استخدام أي شخص على الإطلاق بمثابة وسيلة أمر مستحيل. إذا عاملتَ كل إنسان معاملة غير مشروطة، فسوف تكون مضطرًا إلى معاملة نفسك معاملة مشروطة، والعكس بالعكس. لكن أفعالنا تجاه أنفسنا وتجاه الآخرين مؤلّفة من طبقات، أو من مستويات كثيرة. يمكنني أن أعاملك بمثابة وسيلة وبمثابة غاية في الوقت نفسه. من الممكن أن نعمل سويًا على أحد المشاريع، فأشجعك على العمل ساعات أطول لسببين اثنين: الأول هو ظنّي أن هذا سوف يساعدك، والثاني ظنّي أنه سوف يساعدني. هذا أمر لا بأس به في كتاب كانط. وأما عندما أتلاعب بك لغايات أنانية عندي، فإنني أصير صاحب سلوك غير أخلاقي.

والوسائل هي الأشياء التي نفعلها على نحو مشروط. إنها ما نقايض به. لست راغبًا في الجلوس في سيارتي، ولا في قيادتها، ولا في دفع المال حتى أشتري البنزين؛ لكني أريد السندويتش. من هنا، فإن عليَّ أن أفعل هذه الأشياء حتى أحصل على السندويتش.

والهدف هو الشيء المرغوب في حدّ ذاته. إنه العامل المحدّد لقراراتنا وسلوكنا. إذا كنت أريد أن أذهب لشراء السندويتش لأن زوجتي تريد أن تأكل سندويتشًا، ولأنني أريد أن أسعدها، فإن السندويتش لا يعود هدفًا لي. إنه الآن وسيلة من أجل هدف أكبر منه: جعل زوجتي سعيدة. وإذا كنت أريد أن أجعل زوجتي سعيدة حتى أضاجعها الليلة، فإن سعادة زوجتي تكون وسيلة من أجل هدف آخر، ألا وهو ممارسة الجنس في هذه الحالة.

من الممكن أن يكون هذا المثال الأخير قد جعلك تكشّر بعض الشيء وتراني شخصًا كريهًا مزعجًا[1]. هذا بالضبط ما يتحدّث عنه كانط. تنصّ المعادلة البشرية على أن معاملة أي كائن بشري (أو أي وعي) باعتباره وسيلة من أجل غاية أخرى هي أساس كل سلوك سيئ. وهكذا يكون شرائي السندويتش لزوجتي باعتباره وسيلة لإسعادها، أمرًا حسنًا. أمر جيد أن يجعل المرء زوجته سعيدة، بعض الأحيان! وأما إذا اشتريت لها السندويتش ليكون وسيلة من أجل الهدف الآخر، ألا وهو الجنس، فإنني أكون قد تعاملت معها باعتبارها وسيلة لا أكثر. ولو كان كانط يرى هذا لقال إن فيه ظلًا من الخطأ.

على نحو مماثل، يكون الكذب أمرًا خاطئًا لأنك تضلّل السلوك الواعي لشخص آخر بغية تحقيق هدفٍ خاصٍّ بك. أنت تعامل ذلك

(1) إن المعادلة البشرية لدى كانط تقدّم وصفًا ممتازًا لمبدأ القبول في الجنس وللعلاقات بين الجنسين. إن عدم التماس القبول الواضح، سواء من الطرف الآخر أو منك أنت، يعني معاملة أحد الطرفين - أو كليهما - باعتباره وسيلة للحصول على المتعة. إن القبول الواضح يعني تعامل الشخص الآخر على أنه غاية، والتعامل مع الجنس على أنه وسيلة.

الشخص باعتباره وسيلة للوصول إلى هدفك أنت. والغش غير أخلاقي للأسباب عينها. إنك تنتهك آمال وتوقعات كائنات عاقلة حسّاسة أخرى من أجل أهدافك الشخصية. وأنت تتعامل مع كل شخص آخر يؤدي الامتحان نفسه، أو يخضع للقواعد نفسها، باعتباره وسيلة تصل بها إلى غايتك الشخصية. ينطبق الأمر نفسه على العنف. إنك تعامل شخصًا آخر باعتباره وسيلة للوصول إلى غاية سياسية أو شخصية أكبر. هذا سيئ، أيها القارئ. هذا سيئ!

لا تقف المعادلة البشرية لكانط عند حدود وصف حدسنا الأخلاقي بشأن ما هو خاطئ؛ فهي تشرح الفضائل الناضجة أيضًا، أي تلك الأفعال والسلوكات التي هي جيّدة بحد ذاتها. فالصدق جيد بنفسه وفي نفسه لأنه الشكل الوحيد من التواصل الذي لا يعامل الناس على أنهم مجرّد وسائل. والجرأة جيدة في نفسها وبنفسها لأن فشلك في الإقدام على الفعل يعني معاملة نفسك، أو معاملة الآخرين، باعتبارك وسيلة من أجل الهدف الذي هو تهدئة خوفك. التواضع جيد في ذاته وبذاته لأن السقوط في حالة من الثقة العمياء بالنفس يعني معاملة الآخرين باعتبارهم أدوات من أجل الوصول إلى أهدافك الخاصة بك.

إن كان هناك أية قاعدة واحدة لوصف السلوك الإنساني المحدّد كله، فلعلّها المعادلة البشرية. لكنْ، هناك شيء أكثر جمالًا: إن المعادلة البشرية غير معتمدة على الأمل، خلافًا لبقية الأنظمة وقواعد الأمل. ما من نظام أكبر يُفرض على العالم، وما من معتقدات فوق طبيعية قائمة على الإيمان من أجل الوقاية من الشك أو من انعدام الدليل!

إن المعادلة البشرية مبدأ فحسب. وهي لا تقدم يوتوبيا مستقبلية. ولا تأسف على ماضٍ بشري بائس. ما من شخص أحسن، أو أسوأ، أو أكثر صلاحًا من أي شخص آخر. ولا أهمية إلا لاحترام الإرادة الواعية وحمايتها. انتهت الحكاية!

لقد فهم كانط أنك عندما تشرع في تقرير المستقبل وإملائه، فإنك

تطلق احتمالات الأمل الهدّامة. ينصبّ اهتمامك على تحويل قناعات الناس وإيمانهم بدلًا من تكريمهم، وعلى تدمير الشر في الآخرين بدلًا من اقتلاعه من نفسك.

بدلًا من ذلك، توصّل كانط إلى أن السبيل المنطقي الوحيد لتحسين العالم يكون من خلال تحسين أنفسنا - بأن نكبر وننمو ونصير أكثر صلاحًا؛ وهذا من خلال القرار البسيط - وفي كل لحظة، بأن نعامل الآخرين باعتبارهم غايات، لا وسائل. كن صادقًا. لا تشوّش نفسك، ولا تؤذِ نفسك. لا تتنصّل من المسؤولية، ولا تستسلم للخوف. أحبب حبًّا مفتوحًا من غير خوف. لا تضعف أمام الدوافع القبلية ولا أمام الآمال الخدّاعة. لا تفعل هذا كله لأن ما من جنة أو جحيم في المستقبل. لا وجود إلا للخيارات التي تتخذها في كل لحظة من اللحظات.

فهل ستتصرّف وتفعل على نحو مشروط أم غير مشروط؟ هل ستعامل الآخرين باعتبارهم وسائل أم غايات؟ وهل ستسير خلف الفضيلة الناضجة أم خلف النرجسية الطفولية؟

لا حاجة حتى إلى إدخال الأمل في هذه المعادلة. لا تأمل في حياة أفضل. ببساطة، كن أنت حياةً أفضل.

فهم كانط أن هناك رابطة أساسية بين احترامنا أنفسنا وبين احترامنا عالمنا. فطريقة تعاملنا مع ما في داخل أنفسنا هي النموذج الذي نطبقه على تعاملاتنا مع الآخرين، فمن غير الممكن تحقيق تقدم مع الآخرين قبل أن نحقّق تقدمًا مع أنفسنا[1]. وعندما نسعى خلف حياة ملؤها المسرة والرضا البسيط، نكون قد تعاملنا مع أنفسنا باعتبارنا وسائل من أجل الغايات السارّة التي نسعى إليها. من هنا، فإن تطوير الذات ليس هو

(1) بكلمات أخرى، فإن الأشخاص الذين يعاملون أنفسهم باعتبارهم وسائل، سيعاملون الآخرين باعتبارهم وسائل أيضًا. إن من لا يحترم الآخرين لا يحترم نفسه. ومن يُسئْ معاملة نفسه ويدمّر نفسه، يسيء معاملة الآخرين ويدمّر الآخرين أيضًا.

العمل من أجل سعادة أكبر، بل العمل من أجل مزيد من احترام الذات. كما أن قولنا لأنفسنا إننا سيئون لا قيمة لنا أمر خاطئ مثله مثل أن نقول للآخرين إنهم سيئون لا قيمة لهم. كذبنا على أنفسنا غير أخلاقي مثل كذبنا على الآخرين. إيذاؤنا أنفسنا أمر بغيض مثل إيذائنا الآخرين. وبالتالي، فإن حب الذات، ورعاية الذات، ليسا من الأشياء التي تتعلّمها أو تتمرّن عليها، بل إنهما من الأشياء التي أنت مدعوٌّ أخلاقيًا إلى رعايتها في نفسك، حتى إذا لم يبق لك أي شيء غيرها.

إن للمعادلة البشرية مفعولًا يشبه مفعول الحجر الذي نلقيه في الماء فينتج موجات تتوسّع باستمرار: يؤدّي تحسن قدرتك على أن تكون صادقًا مع نفسك إلى تحسّن قدرتك على الصدق مع الآخرين. ويؤدّي تحسن قدرتك على الصدق مع الآخرين إلى التأثير فيهم على نحو يجعلهم أكثر صدقًا مع أنفسهم. وهذا بدوره ما يساعدهم على النمو والنضج. قدرتك على عدم معاملة نفسك باعتبارك وسيلة من أجل غاية أخرى، تؤدّي بدورها إلى تمكينك من معاملة الآخرين باعتبارهم غايات أيضًا. بالتالي، فإن لقيامك بـ«تنظيف» علاقتك بنفسك له نتاج جانبي إيجابي، ألا وهو «تنظيف» علاقتك بالآخرين، مما يساعدهم أيضًا في «تنظيف» علاقاتهم بأنفسهم، وهكذا دواليك.

هكذا تقوم بتغيير العالم - لا من خلال إيديولوجية تشتمل على كل شيء، ولا من خلال تحوّل جماهيري إلى دِينٍ ما، ولا من خلال أحلامٍ واهمةٍ عن المستقبل... بل من خلال إحراز النضج والكرامة لكل فرد، في الزمان الحاضر، هنا، الآن. ستكون هناك دائمًا ديانات مختلفة وأنظمة قيم مختلفة قائمة على الثقافة وعلى التجارب؛ وستكون هناك دائمًا أفكار مختلفة بشأن «من أين أتينا وإلى أين نذهب». لكن، وكما كان كانط مؤمنًا، ينبغي أن تكون القضية البسيطة، قضية الكرامة والاحترام في كل لحظة، قضية عامة شاملة.

أزمة النضج الحديثة

لقد اختُرعت الديمقراطية الحديثة في ظل افتراض مفاده أن الإنسان العادي ليس أكثر من شخص أناني تحرّكه الأوهام بحيث تكون الطريقة الوحيدة لحمايتنا من أنفسنا هي إقامة نظام متداخل ذي اعتماد متبادل إلى حدٍّ بعيدٍ بحيث يصير التحكّم الكامل ببقية السكان أمرًا متعذرًا على أي شخص وعلى أية مجموعة.

السياسة لعبة أنانية قائمة على الصفقات. والديمقراطية هي النظام الأفضل للحكومة حتى الآن، وذلك لسبب وحيد ألا وهو أنها النظام الوحيد الذي يقرّ بذلك. تقرّ الديمقراطية بأن السلطة تجتذب الأشخاص الفاسدين والطفوليين. فالسلطة، بطبيعتها نفسها، ترغم القادة على أن يكونوا ممن يعتمدون على الصفقات والمقايضات. من هنا، فإن الطريقة الوحيدة لإدارة ذلك هي ترسيخ وتقديس الفضائل الناضجة ضمن تصميم النظام نفسه.

حرية الكلام، وحرية الصحافة، وضمانات الخصوصية، والحق في محاكمة عادلة... هذه كلها تطبيقات للمعادلة البشرية في الأوضاع الاجتماعية، وهي مطبَّقة بطريقة تجعل من الصعب كثيرًا أن تتعرّض لخطر أو تغيير.

في الحقيقة، هناك طريقة واحدة لتهديد النظام الديمقراطي بالخطر: عندما تقرر جماعة واحدة أن قيمها أكثر أهمية من النظام نفسه فتقلب النظام الديمقراطي وتُحلّ محله دِينًا آخر من المرجَّح أن يكون أقل فضيلة... فيتنامى التطرّف السياسي.

وبما أن المتطرفين السياسيين عنيدون يستحيل إجراء المقايضات معهم، فهم، بالتعريف، طفوليون. إنهم زمرة من الأطفال الصغار الذين لا يفقهون شيئًا. يريد المتطرفون جعل العالم كلّه على النحو الذي يفضلونه. وهم يرفضون الإقرار بأية مصالح أو قيَم خارج مصالحهم أو قيمهم. إنهم يرفضون التفاوض. وهم يرفضون الاحتكام إلى مبدأ

أو فضيلة أعلى من رغباتهم الأنانية الخاصّة بهم. كما أن استجابتهم لتطلعات الآخرين وتوقّعاتهم ليست مما يستطيع أحد أن يثق فيه. وهم أيضًا متسلطون من غير خجل لأنهم - باعتبارهم أطفالًا - توّاقون إلى مجيء أبٍ كلّي القدرة يستطيع أن يجعل كل شيء «صحيحًا»[1].

إن المتطرفين الأكثر خطرًا يعرفون كيف يُلبسون قيمهم الطفولية لبوس لغة المقايضة والصفقات، أو لبوس المبادئ العامّة الكلّية. قد تزعم متطرفة يمينية أنها راغبة في «الحرية» أكثر من أي شيء آخر، وأنها مستعدة لتقديم التضحيات من أجل الحرية. لكن ما تعنيه حقًّا هو أنها تريد التحرّر من ضرورة التعامل مع أية قيم لا تطابق قيمها. إنها تريد التحرّر من اضطرارها إلى التعامل مع التغيير، أو التحرّر من إيجاد حلول للناس المهمّشين. من هنا، فإنها مستعدة للحد من حرية الآخرين، ولتدمير حريتهم، باسم «حريتها الخاصّة بها»[2].

وأما المتطرفون اليساريون فهم يلعبون اللعبة نفسها مع اختلاف في اللغة. من الممكن أن يقول متطرّف يساري إنه يريد «المساواة» للجميع. لكن ما يعنيه حقًّا هو أنه لا يريد أن يشعر أحد بألم أو بأنه متضرّر أو بأنه أقل من غيره. إنه لا يريد أن يكون أحد مضطرًا إلى مواجهة الهوّات الأخلاقية. وهو مستعد لأن يسبب للآخرين آلامًا ومصائب باسم إزالة تلك الهوّات الأخلاقية.

---

(1) عادة ما يكون المتطرّفون الإيديولوجيون في حاجة إلى زعيم كبير. ويميل المتطرّفون الروحيون إلى التفكير في أن نهاية العالم، أو القيامة، قادمة. وهم يظنّون بأن مخلّصهم سوف ينزل من سمائه ويصب لهم القهوة، أو يفعل شيئًا من هذا القبيل!

(2) من الممكن أن تنتهي كل قيمة إلهية لا تلتزم بالصيغة البشرية إلى مفارقة. إذا كنت راغبًا في التعامل مع البشرية على أنها وسيلة من أجل تحقيق قدر أكبر من الحرية أو المساواة، فإن هذا يؤدي - لا محالة - إلى تخريب كل من الحرية والمساواة معًا. يرد المزيد من الحديث عن هذا الأمر في الفصلين السابع والثامن.

لقد ازداد بروز التطرّف، من اليمين ومن اليسار، خلال العقود الماضية[1]. وقد اقترح كثير من الأشخاص الأذكياء تفسيرات معقّدة لهذا الواقع. ومن المحتمل كثيرًا أن تكون هناك أسباب كثيرة معقّدة ومتداخلة[2].

لكن، اسمحوا لي بأن أقدم تفسيرًا آخر: إن نضج حضارتنا يشهد تدهورًا.

إننا لا نمر بأزمة في الثروة أو في الخيرات المادّية في العالم الغني المتقدّم، بل بأزمة شخصية، وبأزمة فضيلة، وبأزمة «الوسائل والغايات». لم يعد الانقسام السياسي الجوهري في القرن الحادي والعشرين انقسامًا بين يسار ويمين، بل هو انقسام بين قيَم طفولية متهوّرة لليسار ولليمين وبين قيم المراهقة/ النضج المَيّالة إلى التسويات لدى كل من اليسار واليمين. لم يعد الأمر مناظرة بين الشيوعية والرأسمالية، أو بين الحرّية والمساواة، بل صار مناظرة بين النضج وعدم النضج، بين الوسائل والغايات.

---

(1) أعني بتعبير «التطرّف السياسي» أيّ حزب أو حركة يكون معاديًا للديمقراطية بطبيعته ومستعدًا لتقويض الديمقراطية من أجل أي جدول أعمال إيديولوجي (أو ثيولوجي). للاطلاع على مناقشة لهذه التطوّرات في أنحاء العالم، انظر ف. فوكوياما، *«الهوية: سياسات السخط، والمطالبة بالكرامة»*، (نيويورك: فرار وشتراوس وبيرو، 2018).

(2) العولمة والأتمتة واللامساواة في الدخل هي التفسيرات الشائعة التي تحظى بقبول واسع.

الفصل السابع

الألم هو الثابت الكوني العام

أدخل الباحثون الأشخاصَ المشاركين في التجربة، واحدًا بعد واحد، فساروا بهم عبر الممرّ حتى بلغوا غرفة صغيرة. كان في تلك الغرفة كمبيوتر وحيد له شاشة فارغة من أي شيء، ومفتاحان اثنان، ولا شيء آخر[1]. كانت التعليمات بسيطة: اجلس، وانظر إلى الشاشة. إذا رأيت نقطة زرقاء تومض فيها، فاضغط على المفتاح المكتوب عليه أزرق. وإذا رأيت نقطة بنفسجية تومض على الشاشة، فاضغط على المفتاح المكتوب عليه ليس أزرق. يبدو هذا سهلًا، أليس كذلك؟

حسنًا، كان على كل مشارك في التجربة أن ينظر إلى ألف نقطة وامضة على الشاشة. نعم، إنها ألف نقطة.

وعندما ينتهي كل واحد من التجربة، يقوم الباحثون بإدخال شخص آخر لتكرار العملية نفسها: الكمبيوتر نفسه، والشاشة نفسها، وألف نقطة. ثم التالي، استمر هذا الأمر حتى شمل مئات المشاركين في عدد من الجامعات.

هل كان علماء النفس هؤلاء يجرون بحثًا عن أسلوب جديد من أساليب التعذيب النفسي؟ وهل كانت هذه تجربة لاختبار حدود الضجر البشري؟

---

(1) الدراسة التي يتحدّث عنها هذا الفصل هي دراسة لديفيد نيفاري وآخرين بعنوان «تغيّر المفاهيم في الأحكام البشرية بفعل الآراء السائدة»، *العلم*، 29 حزيران 2018، ص: 1465 - 1467.

لا، الواقع أن نطاق هذه التجربة لم يكن يعادله شيء إلا تفاهتها الظاهرية. لقد كانت دراسة ذات آثار زلزالية لأنها شرحت أكثر من أية دراسة أكاديمية أخرى جرت في عهد قريب الكثير مما يحدث في العالم اليوم.

كان علماء النفس يدرسون شيئًا يسمّونه «تغير المفاهيم الناتج عن كثرة التكرار». لكن هذا الاسم شديد الصعوبة، وسوف أشير إلى ما اكتشفته هذه التجربة باسم «أثر النقطة الزرقاء»[1].

ها هي قصة النقاط: كان أكثرها نقاطًا زرقاء. وكان بعضها بنفسجي اللون. كما كان لبعضها الآخر لون مختلف... بين الأزرق والبنفسجي.

ما اكتشفه الباحثون هو أن جميع المشاركين أظهروا دقة جيّدة في تحديد النقاط الزرقاء والنقاط غير الزرقاء عندما كان القسم الأكبر من النقاط التي تظهر لهم زرقاء اللون. وعندما بدأ الباحثون يقلّلون النقاط الزرقاء ويعرضون مزيدًا من تنويعات اللون البنفسجي، فقد بدأ المشاركون في التجربة يخطئون ويعتبرون قسمًا من النقاط البنفسجية زرقاء اللون. بدا أن عيونهم كانت تشوّه الألوان وتواصل البحث عن عدد بعينه من النقاط الزرقاء بصرف النظر عن عدد ما كان يظهر منها بالفعل.

لا بأس، هذا ليس شيئًا كبيرًا! يخطئ الناس رؤية الألوان معظم الوقت. ثم إن عينيك قد تصيران مشوَّشتين بعد أن تجلس ساعات طويلة وأنت تنظر إلى نقاط على الشاشة مما يجعلك ترى أشياء غريبة.

لكن النقاط الزرقاء لم تكن هي الأمر المهم في تلك التجربة لأنها كانت مجرّد طريقة لقياس كيف يقدِم الناس على تعديل مُدرَكاتهم بما يتلاءم مع توقعاتهم. وبعد أن انتهى الباحثون من جمع البيانات عن

---

(1) إن تغير المفاهيم بفعل الآراء السائدة يقيس كيف تتغير مفاهيمنا بفعل طغيان تجربة متوقّعة. سوف أستخدم «أثر النقطة الزرقاء» في هذا الفصل بطريقة أكثر اتساعًا بعض الشيء لوصف كل انحراف أو تغير في المدركات بفعل التوقّع المسبق، أي أنني لا أقصر ذلك على تغيّرها بفعل التوقّعات الناجمة عن الآراء السائدة.

النقاط الزرقاء وتركوا مساعديهم يرتاحون، انتقلوا إلى دراسة مدركات أكثر أهمية.

على سبيل المثال: راح الباحثون يعرضون على المشاركين في التجربة صورًا لوجوه يحمل كل منها تعبيرًا عدائيًا، أو وديًا، أو محايدًا. جعلوهم في البداية يرون عددًا كبيرًا من الوجوه العدوانية. ومع مضي الوقت، حدث ما حدث للنقاط الزرقاء، إذ راح عدد تلك الوجوه العدوانية يتناقص شيئًا بعد شيء. لقد ظهر الأثر نفسه: كلما تناقص عدد الوجوه العدوانية التي يراها المشارك في التجربة، كلما صار أكثر ميلًا إلى أن يخطئ تفسير الوجوه الودية والمحايدة فيعتبرها عدوانية. وبالطريقة نفسها التي بدا بها أن العقل البشري يضع لنفسه عددًا «محدّدًا مسبقًا» من النقاط الزرقاء التي يتوقّع رؤيتها. فقد وضع لنفسه الآن عددًا من الوجوه العدوانية التي يتوقّع رؤيتها.

ثم مضى الباحثون إلى ما هو أبعد من ذلك... فلماذا لا يمضون؟ أن يرى المرء وجهًا عدوانيًا حيث لا وجود لوجه عدواني أمر مختلف تمام الاختلاف عن الأحكام الأخلاقية! فماذا لو بدأ الإنسان يظن أن في العالم شرًا أكثر مما هو موجود فيه بالفعل؟

في هذه المرة، طلب الباحثون من المشاركين في التجربة قراءة عروض عمل. كان قسم من عروض العمل هذه غير أخلاقي، فقد اشتمل على أمور سيئة مشبوهة. وكان بعض عروض العمل بريئًا ولا شائبة فيه. وكان بعضها الآخر في منزلة بين المنزلتين.

من جديد، بدأ المشاركون في التجربة يرون مزيجًا من عروض العمل الأخلاقية وغير الأخلاقية؛ وكان عليهم أن ينتبهوا إلى العروض غير الأخلاقية. وبعد ذلك، بدأ عدد العروض غير الأخلاقية التي يقدّمها الباحثون إلى المشاركين يتناقص شيئًا بعد شيء. مع هذا التناقص، ظهر «أثر النقطة الزرقاء». بدأ الناس يفسّرون عروض عمل أخلاقية تمامًا بأنها عروض عمل غير أخلاقية. بدلًا من أن تلاحظ عقول الناس أن عدد

العروض الواقعة إلى الناحية الأخلاقية من الحد الفاصل قد بدأ يتزايد، فقد أزاحت تلك العقول الحد الفاصل حتى تحافظ على الفكرة التي تقول إنه لا بد من وجود عدد بعينه من العروض غير الأخلاقية. من حيث الجوهر، أعاد المشاركون في التجربة تعريف ما هو غير أخلاقي من غير أن ينتبهوا إلى أنهم فعلوا ذلك. وكما لاحظ الباحثون، كان لهذا الانحياز إلى الأفكار المسبقة نتائج محزنة جدًا في ما يخص... في ما يخص كل شيء تقريبًا. عندما تكون هناك لجان حكومية مكوَّنة من أجل الإشراف على الأنظمة، وتكون كمية ما يردها من حالات خرق تلك الأنظمة قليلةً جدًا، فمن الممكن أن تبدأ اللجنة رؤية تلك الخروقات حيث لا وجود لأي منها. وسوف تبدأ اللجان المقامة من أجل مراقبة الممارسات اللاأخلاقية في الشركات تخيّل وجود أشخاص سيئين حيث لا وجود لهم عندما يتناقص كثيرًا عدد الأشخاص السيئين الذين يمكن اتهامهم بالإقدام على أفعال سيئة.

من حيث الجوهر، يوحي «أثر النقطة الزرقاء» بأننا سنرى مزيدًا من الأخطار كلّما ازداد بحثنا عنها، وذلك بصرف النظر عن مدى ما تتمتّع به البيئة التي من حولنا من راحة وأمان. ونحن نرى هذا الأمر يحدث اليوم في العالم.

لقد كان معنى أن يكون الشخص ضحية عنف هو أن أحدًا قد ألحق به أذًى جسديًا. وأما اليوم، فقد بدأ كثيرون من الناس استخدام كلمة «عنف» لوصف الكلمات التي تجعلهم يشعرون بشيء من عدم الراحة، أو حتى لوصف حضور شخص لا يحبّونه[1]. وكانت كلمة «صدمة» تستخدم بحيث تعني تحديدًا معاناة تجربة بالغة الشدة تجعل الضحية

---

(1) كلما رأيت قصة إخبارية عن طلاب جامعيين يثورون غاضبين على محاضر لا يعجبهم ويساوون بين الكلام المسيء والصدمة النفسية، أتساءل عما قد يكونه رأي ويتولد بيلينسكي في هذا الأمر.

غير قادر على متابعة أدائه المعتاد. وأما اليوم، فإن أية مواجهة مزعجة، أو بضع كلمات مسيئة، صارت تعتبر «صدمة» وتستوجب وضع الضحية في «مكان آمن»[1]. وكان تعبير «إبادة جماعية» مستخدَمًا للإشارة إلى القتل الجماعي لبعض المجموعات الإثنية أو الدينية. وأما اليوم، فقد صار البعض يستخدم تعبير «الإبادة الجماعية للبيض» للدلالة على انزعاجه من حقيقة أن المطاعم المحلّية صارت الآن تكتب بعض البنود في قوائم الطعام لديها باللغة الإسبانية![2].

هذا هو أثر النقطة الزرقاء. كلما تحسنت الأمور، كلما صرنا نرى أخطارًا حيث لا وجود للأخطار، وكلما ازددنا حزنًا وانزعاجًا. وهذا أمر واقع في قلب مفارقة التقدم.

كان إميل دوركهايم، مؤسّس السوسيولوجيا ومن أول رواد العلوم الاجتماعية في القرن التاسع عشر، قد أجرى تجربة ذهنية في واحد من كتبه: ماذا لو أن الجريمة غير موجودة؟ وماذا لو ظهر مجتمع يكون فيه الناس جميعًا محترمين مسالمين متساوين. وماذا لو أن أحدًا لم يكذب ولم يؤذِ غيره؟ وماذا لو أن الفساد غير موجود؟ فما الذي يحدث؟ هل ستتوقّف النزاعات؟ وهل سيتبخّر التوتّر؟ وهل سيسير الجميع سعداء في الحقول يقطفون أزهار الأقحوان ويغنّون الأغاني؟[3].

قال دوركهايم إن هذا لن يحدث، بل عكسه هو ما سيحدث. وأشار إلى أن صغائر الأمور تصير عظيمة الأهمية في أذهاننا كلما صار المجتمع

---

(1) هيدت ولوكيانوف: «*الرفق الزائد بالعقل الأميركي: كيف تعمل النوايا الطيبة والأفكار السيئة على إعداد جيل سوف يفشل؟*»، ص: 23 - 24.

(2) أندرو فيرغوس ويلسون: «إبادة الجنس الأبيض، نظرية المؤامرة لدى اليمين المتطرّف: كيف ساهم الشك والسرية في تشكل تيار واسع من الكراهية»، *السرية والمجتمع*، 16 شباط 2018.

(3) إيميل دوركهايم: «*قواعد الطريقة السوسيولوجية ونصوص مختارة في السوسيولوجيا وطرائقها*»، (نيويورك، فري برس، 1982)، ص: 100.

أكثر راحة وأوفر أخلاقًا. إذا توقّف الناس عن قتل أحدهم الآخر، فإن هذا لا يعني بالضرورة أننا سنشعر بالارتياح. سوف تزعجنا، بالقدر نفسه، أمور أصغر شأنًا.

لطالما قال علم النفس التطوّري بشيء يشبه هذا: إن حماية الناس من المشكلات أو من الخصومة لا تجعلهم أكثر سعادة أو أكثر أمانًا؛ بل إنها تجعلهم يحسون قلة الأمان بسهولة أكبر. ولو أخذنا شخصًا صغير السن وحميناه من التعامل مع أية تحديات أو من التعرض لأي ظلم، خلال نموه، فسوف يجد أصغر مساوئ حياة الناضجين أمرًا غير محتمل، وسوف ينهار أمام الآخرين انهيارًا طفوليًا حتى يثبت لهم ذلك[1].

إذًا، ما نجده هو أن ردود أفعالنا العاطفية/ الانفعالية إزاء مشكلاتنا لا تتحدّد بحجم المشكلة. بل إن عقولنا سوف تتولّى تكبير المشكلات (أو تصغيرها) بما يتناسب مع مستوى التوتر الذي نتوقعه من تلك الحالة التي نمر بها. إن الأمان والتقدّم المادي لا يجعلاننا بالضرورة أكثر استرخاء ولا يجعلان من الأسهل علينا أن يكون لدينا أمل بمستقبلنا. على العكس من ذلك، فالظاهر أن إلغاء التحدّيات والمواجهات الصحّية يمكن أن يجعل الناس يبذلون جهدًا أقل. إنهم يصيرون أكثر أنانية وأكثر طفولية. وهم يفشلون في النمو وفي الخروج من المراهقة إلى النضج. إنهم يصيرون أكثر بعدًا عن أية فضيلة. إنهم يرون أكوام التراب الصغيرة جبالًا، ويزعق أحدهم على الآخر كما لو أن العالم قد حلّت به مصيبة كبيرة.

الارتحال بسرعة الألم

قرأت في الإنترنت منذ فترة وجيزة عبارة جميلة لألبرت آينشتاين: «على الإنسان أن ينظر إلى ما هو كائن، لا إلى ما يظن أنه سيكون». هذه

(1) هارا إستروف مارانو، «أمة من الضعفاء»، *علم النفس اليوم*، 1 تشرين الثاني 2004.
https://www.psychologytoday.com/us/articles/200411/nationwimps

عبارة عظيمة. وقد كانت إلى جانبها صورة صغيرة له يبدو فيها عالمًا حقيقيًا. تبدو هذه المقولة ذكية، مؤثّرة؛ وقد شدّتني ثانتين كاملتين قبل أن أنتقل إلى شيء آخر على الإنترنت.

إلا أن هنالك مشكلة واحدة: لم يقل آينشتاين هذا الكلام!

وهذه واحدة أخرى من مقولات آينشتاين ذات الانتشار الواسع، قول يتناقله الناس كثيرًا: «كل إنسان عبقري. لكنك إذا حكمت على السمكة انطلاقًا من قدرتها على تسلق الأشجار، فسوف تمضي عمرها كله ظانّة نفسها غبية».

مرة أخرى، هذا الكلام ليس لآينشتاين!

حسنًا، ما رأيكم في «أخشى قدوم ذلك اليوم الذي تسيطر فيه التكنولوجيا على إنسانيتنا. عند ذلك، لن يكون في العالم إلا جيل من الأغبياء»؟[1].

لا... هذا الكلام ليس لآينشتاين.

قد يكون آينشتاين أكثر شخصية تاريخية يُساء استخدامها في الإنترنت. إنه أشبه بـ«الصديق الذكي» لثقافتنا، الصديق الذي يقول ما نفكّر فيه حتى يجعلنا نبدو أكثر ذكاء مما نحن عليه في واقع الأمر. ونحن نجد صورة بائسة له ملصقة إلى جانب كل عبارة عن أي شيء من الأشياء، من الرب إلى الأمراض العقلية إلى الاستشفاء بالطاقة. لا علاقة لأي شيء من هذا كله بالعلم. ولا بد أن ذلك الرجل المسكين يتقلّب الآن في قبره.

لقد ألصق الناس بآينشتاين كمية كبيرة من الهراء إلى حد جعل

---

(1) هذه الأقوال الزائفة الثلاثة المنسوبة لآينشتاين مأخوذة من م. نوفاك، «تسعة مقتطفات زائفة تمامًا منسوبة إلى آلبرت آينشتاين»، كيزمودو، 14 آذار 2014.
https://paleofuture.gizmodo.com/9 - albert - einstein - quotes - that - are - totally - fake - 1543806477

منه شخصية أسطورية. وعلى سبيل المثال، فإن ما كان يُقال من أن آينشتاين كان طالبًا ضعيفًا في المدرسة ليس إلا كذبًا. لقد كان متفوقًا في الرياضيات والعلوم منذ سن مبكرة. وقد علّم نفسه الجبر والهندسة الإقليدية خلال صيف واحد عندما كان عمره اثني عشر عامًا. وقرأ كتاب «نقد العقل المحض» لإيمانويل كانط (كتاب يجد خريجو الجامعة اليوم صعوبة في قراءته) عندما كان عمره ثلاثة عشر عامًا. ثم إن ذلك الرجل قد حصل على شهادة الدكتوراه في الفيزياء التجريبية في سن أبكر من السن التي يحصل فيها بعض الناس على أول وظيفة في حياتهم. من الواضح أنه كان شخصًا مهتمًا بالدراسة، ناجحًا فيها.

لم تكن لدى ألبرت آينشتاين طموحات كبيرة في أول الأمر، فقد كان يريد أن يمارس التعليم. لكن، وبما أنه كان مهاجرًا ألمانيًا شابًا في سويسرا، فإنه لم يتمكّن من الحصول على وظيفة في الجامعة المحلية. وبمساعدة من أحد أصدقاء أبيه، حصل على عمل في مكتب لبراءات الاختراع، وهو عمل بليد مخدِّر للعقل سمح له بأن يجلس طيلة النهار ويفكّر في نظريات عجيبة في الفيزياء - نظريات سرعان ما ستجعل العالم ينقلب رأسًا على عقب. نشر نظريته في النسبية في سنة 1905 فأكسبته تلك النظرية شهرة عالمية. ترك مكتب براءات الاختراع. ومن غير سابق انتظار، صار رؤساء الدول والحكومات راغبين في لقائه وقضاء الوقت معه. كان كل شيء رائعًا.

وعلى امتداد حياته الطويلة، تابع آينشتاين تثوير الفيزياء، مرات كثيرة، وتمكن من الفرار من النازية، وحذر الولايات المتحدة من ضرورة (وخطورة) الأسلحة النووية في مستقبل قريب جدًا... وكانت له صورة شهيرة جدًا يظهر فيها مادًّا لسانه.

وأما اليوم، فإننا نعرفه أيضًا من خلال أقوال كثيرة رائعة على الإنترنت لم يقلها أبدًا!

منذ أيام نيوتن (نيوتن الحقيقي)، كانت الفيزياء قائمة على فكرة أن كل شيء قابل للقياس من حيث الزمان والمكان. فعلى سبيل المثال، سلة المهملات الموجودة الآن بالقرب مني، لها موقعٌ بعينه في الفراغ. إذا رفعتها وقذفت بها عبر الغرفة في ثورة غضب، فإننا قادرون نظريًا على قياس موقعها في الفراغ في كل لحظة من الزمن. إضافة إلى تحديد معلومات مفيدة كثيرة من قبيل سرعتها وشكل مسارها وطاقتها الحركية ومقدار الأثر الذي ستتركه على الجدار عندما تصطدم به. إن تلك المتغيّرات كلها تتحدّد من خلال قياس حركة سلّة المهملات في الزمان والمكان.

الزمان والمكان هما ما ندعوهما «الثابتان العامّان». إنهما غير قابلين للتغيير. وهما أداتا القياس اللتان يقاس بهما كل شيء آخر. إن كان هذا الكلام يبدو منطقيًا، فلأنه منطقي بالفعل.

ثم أتى آينشتاين وقال: «إلى الجحيم بكلامكم المنطقي؛ فأنتم لا تعرفون شيئًا، أيها الحمقى»؛ ثم غيّر العالم. وهذا لأن آينشتاين برهن على أن الزمان والمكان ليسا الثابتين العامّين. لقد اتضح، في الواقع، أن إدراكنا للزمان والمكان يمكن أن يتغير بحسب سياق ملاحظاتنا. فعلى سبيل المثال، ما أتصوّره على أنه عشر ثوانٍ، يمكن أن تتصوّره أنت على أنه خمس ثوانٍ؛ وما أحسّه ميلًا، يمكن (نظريًا) أن تحسّه بضع أقدام.

وبالنسبة لأي شخص أمضى زمنًا طويلًا في تعاطي عقار الهلوسة LSD يمكن لهذا أن يبدو معقولًا. وأما بالنسبة إلى عالَم الفيزياء في ذلك الوقت، فقد بدا جنونًا محضًا.

لقد بيّن آينشتاين أن المكان والزمان يتغيران بحسب المراقِب - يعني هذا أنهما نسبيان. وأما الثابت الكوني العام فهو سرعة الضوء التي يتعين قياس كل ما عداها بها. نحن جميعًا نتحرّك، طيلة الوقت؛ وكلما اقتربنا من سرعة الضوء، كلما «تباطأ» الزمان وتقلّص المكان.

على سبيل المثال، لنقل إن لديك أخًا توأمًا. بما أنكما توأمان، فمن الواضح أنكما من عمر واحد. أنتما تقرران الذهاب في مغامرة بين المجرّات يستخدم كل منكما فيها مركبة فضائية مستقلة. ترتحل مركبتك الفضائية بسرعة متواضعة لا تتجاوز خمسين كيلومترًا في الثانية؛ لكن شقيقك التوأم يرتحل بسرعة تقارب سرعة الضوء - سرعة جنونية تبلغ 299000 كيلومترٍ في الثانية الواحدة. تتفقان على السفر في الفضاء بعض الوقت لرؤية عدد من الأشياء الجميلة ثم تعودان إلى الأرض بعد أن تكون عشرون سنة أرضية قد انقضت.

لكن شيئًا مفاجئًا جدًا يحدث عندما تعودان إلى الأرض. لقد كبرت عشرين سنة، لكن توأمك لم يكد يكبر على الإطلاق. لقد مرت على «غيابه» عشرون سنة أرضية، لكنه لم يعش إلا سنة واحدة في مركبته الفضائية.

نعم، كيف يحدث هذا؟... هذا ما قلته أنا أيضًا. وكما قال آينشتاين ذات مرة: «يا صاحبي، هذا ليس له أي معنى». إلا أن لهذا معنًى حقيقيًا. (مرة أخرى آينشتاين لم يقل هذا أبدًا).

إن هذا المثال الذي يقدمه آينشتاين مهم لأنه بيّن لنا كيف يمكن أن يكون فهمنا لما هو ثابت مستقر في الكون فهمًا خاطئًا، وكيف يمكن أن يكون لهذه المفاهيم الخاطئة آثار كبيرة جدًا في ما يتعلّق بنظرتنا إلى العالم. نحن نفترض أن الزمان والمكان ثابتان عامّان كونيان لأن ذلك يفسّر الكيفية التي ندرك بها العالم. ثم يتضح لنا أن هذين الثابتين ليسا ثابتين عامّين ولا شاملين ولا كونيين، بل إنهما متغيّران، أحدهما بالنسبة إلى الآخر. وهذا ما غيّر كل شيء.

إنني أستفيض في هذا المثال على النسبية، على الرغم من أنه يسبب الصداع، لأنني أرى أن شيئًا مماثلًا يحدث داخل تركيبتنا النفسية: ما نظنه ثابتًا عامًا شاملًا لخبراتنا وتجاربنا، هو، في الحقيقة، ليس ثابتًا على

الإطلاق. بل إن القسم الأكبر مما نفترض أنه صحيح وأنه حقيقي لا يكون كذلك إلا بالنسبة إلى فهمنا نحن.

فيما مضى، لم يكن علماء النفس مهتمين بدراسة السعادة. والواقع أن القسم الأكبر من تاريخ ميدان علم النفس لم يشهد تركيزًا على ما هو إيجابي، بل على ما يضر الناس، أي على ما يسبّب الأمراض العقلية والانهيارات العاطفية والانفعالية، وكذلك على الطرق التي تسمح للناس بالعيش والتلاؤم مع آلامهم الكبرى.

استمرّ الأمر هكذا حتى ثمانينات القرن العشرين عندما بدأ عدد من الأكاديميين الرواد الجريئين في طرح السؤال التالي: «انتظروا لحظة! عملي يسبّب لي الإحباط، إلى حد ما! فماذا لو اهتممت بكيفية جعل الناس سعداء؟ فلندرس هذا الأمر!». نتج عن هذا قدر كبير من الازدهار لأن عشرات من كتب «السعادة» صارت موجودة على رفوف الكتب، وصار أفراد الطبقة الوسطى الضجرين، القلقين، الذين يعانون أزمات وجودية، يشترون ملايين النسخ منها.

كان تنظيم استبيان بسيط من أول الأشياء التي فعلها علماء النفس عندما بدأوا يدرسون السعادة[1]. لقد أعطوا مجموعات كبيرة من الناس أجهزة «بيجر» - فلنتذكر أن هذا كان في عقدَي الثمانينات والتسعينات - وكلما رن البيجر، يكون على الشخص أن يتوقف ويدوّن إجابته عن السؤالين التاليين:

1 - على مقياس من واحد إلى عشرة، ما مقدار سعادتك في هذه اللحظة؟

---

(1) ب. د. بريكمان، ب. د. كامبل، «النسبية الممتعة والتخطيط لمجتمع جيد»، ورد في كتاب من تحرير م. ه - . آبلي بعنوان «*نظرية مستوى التكيف: ندوة دراسية*»، (نيويورك: أكاديميك برس، 1971).

2 - ما الذي يجري في حياتك الآن؟

جمع الباحثون آلاف الإجابات من مئات الأشخاص في ميادين مختلفة من الحياة فكان ما اكتشفوه مفاجئًا، وكان شيئًا مملًا إلى حد يصعب تصديقه: كان قسم كبير من أصحاب الإجابات يكتب «7» طيلة الوقت. أنا في متجر البقالة أشتري الحليب. سبعة! إنني أحضر مباراة لفريق ابني في البيسبول. سبعة! أتحدّث مع رئيسي عن إنجاز صفقة كبيرة مع أحد العملاء. سبعة!

وحتى عندما تحدث أشياء كارثية - أصيبت أمي بالسرطان؛ وتخلّفت عن دفع قسط البيت؛ وفقد ابني ذراعه في حادثة فظيعة - كانت مستويات السعادة تنحدر فترة قصيرة إلى ما بين اثنين وخمسة، ثم لا تلبث أن تعود إلى الرقم سبعة[1]. كان هذا ما يحدث أيضًا حتى في الحالات الإيجابية إلى أقصى حد. الحصول على زيادة كبيرة في الراتب، والذهاب في عطلة الأحلام، والزواج... تقفز الأرقام فترة قصيرة، ثم تعود فتستقر حول الرقم سبعة!

سبّب هذا دهشة كبيرة لدى الباحثين. لا أحد سعيدًا تمامًا طيلة الوقت، وبالمثل، فإن ما من أحد يشعر بالتعاسة طيلة الوقت. كان الظاهر أن البشر، بغض النظر عن الظروف الخارجية، يعيشون ضمن حالة ثابتة من السعادة «المقبولة، لكن غير المرضية تمامًا». يمكن التعبير عن

---

(1) لقد تحدّت هذا الأمر دراسة أجريت في الآونة الأخيرة وتوصلت إلى أن الحوادث التي تنتج عنها صدمات كبيرة (موت طفل، على سبيل المثال) يمكن أن تؤدّي إلى تغيّر دائم في «المستوى المعتاد» من السعادة. إلا أن سعادة «خط الأساس» تظلّ على حالها خلال القسم الأكبر من تجاربنا. انظر ب. هيدي: «تعاني نظرية النقطة المحدّدة في حسن العيش عيوبًا جدّية: هل حدث هذا عشيّة الثورة العلمية؟»، *دراسات المؤشرات الاجتماعية* 97، العدد 1 (2010): 7 - 21.

الأمر بطريقة أخرى: الأمور جيدة دائمًا، جيدة إلى حد معقول، لكن من الممكن دائمًا أن تكون أفضل من ذلك[1].

من الواضح أن الحياة ليست إلا قفزات صغيرة إلى الأعلى وإلى الأسفل من حول سعادتنا المستقرّة على الرقم سبعة. كما أن هذه «السبعة» الثابتة التي نعود إليها دائمًا تحتال علينا حيلًا صغيرة ننخدع بها مرة بعد مرة.

الحيلة هي أن دماغنا يقول لنا: «إذا تمكّنت من الحصول على المزيد، على مقدار صغير أكثر، فسوف أصل إلى المستوى عشرة آخر الأمر، وسوف أظلّ عنده».

يعيش أكثرنا القسم الأكبر من حياته على هذا النحو ويطارد دائمًا تلك «العشرة» التي يتخيّلها. إنك تفكّر على النحو التالي: حتى أكون أكثر سعادة، فلا بد لي من الحصول على عمل جديد. وهكذا فإنك تحصل على عمل جديد. تمر بضعة شهور بعد ذلك فتشعر بأنك ستكون أكثر سعادة إذا حصلت على بيت جديد، وهكذا فإنك تحصل على بيت جديد. وبعد ذلك، تمر بضعة شهور أخرى فتجد أنك ستكون أكثر سعادة إذا أمضيت عطلة على شاطئ البحر. وهكذا فإنك تذهب وتمضي عطلة على شاطئ البحر. عندما تكون في عطلتك الرائعة على شاطئ البحر تقول لنفسك: هل تعرفون ماذا أريد حقًا؟ أريد كأس كوكتيل عصير مع الأناناس! أليس هنا من يستطيع أن يأتيني بكوكتيل العصير مع الأناناس؟ وهكذا فإنك تبدأ الإحساس بالتوتر من أجل العصير. تتراجع سعادتك!

---

(1) يشير عالم النفس من جامعة هارفارد دانييل غيلبرت إلى هذا باعتباره «نظام المناعة النفسي» عندنا: بصرف النظر عما يحدث لنا، فإن مشاعرنا وانفعالاتنا وذكرياتنا ومعتقداتنا تتأقلم وتعدل أنفسها بحيث تحافظ على مستوى مرتفع لسعادتنا، وإن لم يكن كاملًا. انظر د. غيلبرت: *«التعثّر على طريق السعادة»*، (نيويورك: ألفريد أ. كنوبث، 2006)، ص: 174 - 177.

وتعتقد بأن كأسًا من ذلك الكوكتيل سوف تجعلك تصل إلى الرقم عشرة. ثم تجد نفسك راغبًا في «كأس عصير» أخرى، وبعدها «كأس أخرى»، ثم... حسنًا، أنت تعرف كيف ينتهي هذا الأمر: تستيقظ على صداع شديد فيهبط الرقم إلى ثلاثة.

هذا يشبه النصيحة التي قدمها «آينشتاين» ذات مرة، «لا تسرف أبدًا في تناول كوكتيلات العصير التي فيها سكّر - إذا أردت أن تشرب شيئًا، فإنني أنصحك بالمياه المعدنية. أما إذا كنت ثريًا، فقد تكون الشامبانيا الفاخرة اقتراحًا مناسبًا».

يفترض كل واحد منا، ضمنيًا، أنه هو الثابت العام الشامل في وجوده، وأنه هو ما لا يتغيّر، وأن التجارب التي تمرّ به تأتي وتذهب مثلما تتغيّر أحوال الطقس[1]. تأتي أيام طقسها لطيف مشمس، وتأتي أيام أخرى طقسها غائم مزعج. السماوات تتغيّر، أما نحن فنظل على حالنا.

لكن هذا ليس صحيحًا - بل إنه تفكير متخلّف في حقيقة الأمر! الألم هو الثابت الوحيد في الحياة. وأما تصورات الإنسان ومفاهيمه وتوقّعاته فهي تتدبّر أمرها بحيث تتلاءم مع مقدار من الألم محدّد مسبقًا. بكلمات أخرى، مهما تكن سماؤنا مشمسة، فإن عقلنا سيتخيّل دائمًا وجود القدر الكافي من الغيوم حتى يجعله خائب الأمل قليلًا. إن هذا الثبات للألم يؤدّي إلى ما يسمى «الحلقة المفرغة للمسرّة»، تلك الحلقة التي تدور فيها وتدور وتدور مطارِدًا الرقم «عشرة» الذي تتخيّله. لكن، مهما فعلت، فإنك تنتهي دائمًا إلى الرقم «سبعة». الألم موجود دائمًا. ما يتغيّر هو إدراكك ذلك الألم. وما إن «تتحسّن» حياتك، حتى تتحرّك توقعاتك وتطلعاتك إلى الأعلى فتعود إلى الجري من جديد خلف حالة الرضا التام.

---

(1) عندما أستخدم هنا الضمير «نحن» فإنني أشير إلى تجاربنا المدرَكة. فمن حيث الجوهر، نحن لا نضع مدرَكاتنا موضع التساؤل؛ وفي واقع الأمر، نحن نضع العالم موضع التساؤل عندما تُغَيِّر مدركاتنا شيئًا في أنفسنا (يحدث هذا كثيرًا) حتى إذا لم يكن العالم قد تغيّر.

إلا أن الألم يعمل في الاتجاه الآخر أيضًا. أتذكر كيف كانت الدقائق الأولى مؤلمة جدًا عندما نقشت أول وشم كبير على جسدي. لم أكن قادرًا على تصديق أنني حُجزت ثماني ساعات من أجل هذا الشيء الفظيع. لكن ما حدث هو أنني غفوت قليلًا مع حلول الساعة الثالثة، في حين كان «فنان الوشم» يتابع عمله على جسدي.

لم يكن قد تغير أي شيء: الإبرة نفسها، والجسد نفسه، والفنان نفسه. لكن إدراكي للألم قد تغيّر: صار الألم عاديًا، وعدت إلى «سبعتي» الداخلية.

هذا شكل آخر من أشكال «أثر النقطة الزرقاء»[1]. هذه هي نسبية آينشتاين منقولة إلى ميدان علم النفس. وهي أيضًا الذعر «الإدراكي» لدى شخص لم ير عنفًا جسديًا في حياته ففقد عقله عندما قرأ بضع جمل مزعجة في كتاب فاعتبرها عنفًا. إنه الإحساس المبالغ فيه بأن «ثقافة» الشخص تتعرّض للغزو والدمار لأن فيها الآن أفلامًا تتحدّث عن المثليين.

إن «أثر النقطة الزرقاء» موجود في كل مكان. وهو يمارس تأثيره على كل إدراك وعلى كل حكم. يتكيف كل شيء ويعيد تشكيل نفسه بحسب ما نصادفه من إزعاجات.

هذه هي مشكلة الجري خلف السعادة.

إن الجري خلف السعادة قيمة من قيم العالم الحديث. فهل تظن أن

---

(1) في حقيقة الأمر، ليس هو نفسه أثر النقطة الزرقاء - أي «اعتياد الألم» الذي يحدث في تلك الحالة - لكن لكل من الظاهرتين أثر مشابه: تجاربنا لا تتغير، لكن مدرَكاتنا عن هذه التجارب تتغير بحسب توقعاتنا. وعلى امتداد هذا الفصل، لا أستخدم تعبير «أثر النقطة الزرقاء» بالأسلوب العلمي الدقيق الذي اتبعه الباحثون عند دراسة تغير المفاهيم بفعل الآراء السائدة. إنني أستخدمه كنوع من المحاكاة لظاهرة نفسية أوسع نطاقًا تحدث دائمًا (وأيضًا كنوع من المثال عليها): تتكيّف مدرَكاتنا بحسب توقعاتنا وميولنا العاطفية/ الانفعالية الموجودة مسبقًا، وليس العكس.

زيوس كان مباليًا بأن يعيش الناس سعداء؟ وهل تظن أنّ الربّ في العهد القديم كان مهتمًا بجعل الناس يشعرون بالارتياح؟ لا... بل كانا منشغلين تمامًا في التخطيط لإرسال أسراب الجراد حتى تأكل لحم أولئك الناس.

كانت الحياة قاسية في قديم الزمان. وكانت المجاعات والأوبئة والفيضانات ثابتًا من ثوابت تلك الحياة. وكانت أكثرية الناس من الأرقّاء أو من الجنود في حروب لا تنتهي، في حين كانت البقية منشغلة بأن يحز أحدهم رقبة الآخر في الليل من أجل هذا الطاغية أو ذاك. وكان الموت موجودًا في كل مكان. وأما أكثر الناس لم يكونوا يعيشون حتى تجاوز سن الثلاثين. هكذا كانت الأمور خلال الشطر الأكبر من تاريخ البشرية: بؤس وألم وجوع.

لم تكن المعاناة في عالم ما قبل العلم حقيقة مقبولة فحسب، بل كثيرًا ما كانت موضع احتفاء وتقدير. ولم يكن فلاسفة العصور القديمة يرون في السعادة فضيلة، بل كانوا يعتبرون أن قدرة الإنسان على إنكار نفسه هي الفضيلة، وذلك لأن إحساس المرء بأنه في حال جيّدة كان أمرًا خطيرًا بقدر ما هو أمر مرغوب. وقد كان خطيرًا حقًا... يكفي أن يحل هذا الإحساس في شخص واحد حتى يصيبه الجنون فلا تلبث القرية أن تحترق كلّها. وكما قال آينشتاين (لم يقل هذا أبدًا!) في حكمته الشهيرة، «لا تقفز هنا وهناك حاملًا المشاعل وأنت تشرب، وإلا فإنها كفيلة بإفساد يومك كلّه».

اقتضى الأمر انتظار قدوم عصر العلم والتكنولوجيا حتى صارت السعادة «شيئًا». فبعد أن اخترعت الإنسانية الوسائل اللازمة لتحسين حياتها، صار السؤال المنطقي بعد ذلك «فما الذي ينبغي تحسينه الآن؟». قرر فلاسفة كثيرون في ذلك الوقت أن زيادة السعادة هي ما ينبغي أن يكون هدفًا نهائيًا للبشرية... أي إنقاص الألم[1].

---

(1) انظر ج. س. ميل: *«الذرائعية»*، (1863).

بدا هذا شيئًا لطيفًا نبيلًا، في ظاهره. أعني... من عساه يرفض أن يتخلّص من شيء من الألم؟ وأي تافه يستطيع الزعم بأن تلك فكرة كانت سيئة؟

حسنًا... أنا هو ذلك التافه، لأن تلك الفكرة سيئة بالفعل.

هذا لأنك لا تستطيع التخلّص من الألم: الألم هو الثابت العام في الشرط البشري. من هنا، فإن محاولة الابتعاد عن الألم وحماية النفس من كل أذى لا يمكن إلا أن يكون لها أثر عكسي. لا تؤدّي محاولة إزالة الألم إلا إلى زيادة حساسيتك للألم والمعاناة بدلًا من تخليصك من معاناتك. وهي تجعلك ترى أشباحًا خطيرة في كل زاوية، وترى ظلمًا وطغيانًا في كل سلطة، وترى كراهية وخداعًا من خلف كل عناق.

مهما يكن التقدّم الذي يجري إحرازه، ومهما تصير حياتنا سعيدة مريحة مسالمة، فإن أثر النقطة الزرقاء سوف يجعلنا نحسّ قدرًا ما من الألم وعدم الرضا. فعلى المدى البعيد، لا يشعر أكثر الناس الذين يربحون الملايين في اليانصيب بأنهم صاروا أكثر سعادة، بل عادة ما ينتهي بهم الأمر إلى شعورهم نفسه الذي كان لديهم قبل الفوز. كما أن الناس الذين يصابون بالشلل في الحوادث لا يصيرون أقل سعادة على المدى البعيد. فعلى وجه الإجمال، ينتهي بهم الأمر إلى العودة إلى إحساسهم السابق قبل الحادثة[1].

هذا لأن الألم هو تجربة الحياة نفسها. فالمشاعر والانفعالات الإيجابية هي الغياب المؤقت للألم، والمشاعر السلبية هي الازدياد المؤقت للألم. وأما تخدير ألم المرء فهو تخدير إحساسه كله، تخدير مشاعره وانفعالاته. إنه إبعاد المرء نفسه، بهدوء، عن الحياة.

---

(1) ب. بريكمان، د. كوتيز، ر. جانوف - بولمان: «الفائزون باليانصيب والضحايا العرضيون: هل السعادة أمر نسبي؟»، *مجلة الشخصية وعلم النفس الاجتماعي* 36، العدد 8 (1978): 917 - 927.

أو، كما عبر آينشتاين بذكائه عن الأمر:

مثلما يجري الجدول جريانًا هينًا إذا لم تعترضه أية عقبات، كذلك تكون طبيعة الإنسان والحيوان بحيث لا ننتبه أبدًا، ولا نكون واعين أبدًا، لما هو محبَّذ لدينا. وإذا لاحظنا شيئًا، فهذا يعني أن إرادتنا قد حُرّفت أو تعرّضت لصدمة من نوع ما. ومن ناحية أخرى، فإن كل ما يعترض رغبتنا أو يحبطها أو يقاومها، أي كل ما هو مزعج أو مؤلم، يلقي بنفسه علينا دائمًا بشكل مباشر وبوضوح تام. إننا نكون على وعي تام لا بصحّة جسمنا كلّه وعافيته، بل بالمكان المحدود الذي يؤلمنا. وهذا ما يجعل تفكيرنا منصبًّا لا على نشاطنا الإجمالي الناجح، بل على هذا الأمر الصغير التافه أو ذاك مما يواصل تنكيدنا وإزعاجنا[1].

حسنًا... ذلك لم يكن كلامًا لآينشتاين. إنه كلام شوبنهاور الذي كان ألمانيًا أيضًا، وكان له شعر غريب المظهر. لكن الفكرة هنا هي أن تجربة الألم ليست شيئًا يمكن تجنّبه، بل هي تجربة الحياة في حد ذاتها.

هذا ما يجعل من طبيعة الأمل أن يهزم نفسه؛ وهذا ما يجعله يدين نفسه: مهما يكن ما ننجح في تحقيقه، ومهما يكن مقدار ما نتوصّل إليه من ازدهار وسلم، فإن عقلنا سوف يعدّل توقعاته سريعًا حتى يحافظ على سوية ثابتة من إحساسنا بوجود ما يناوئنا بحيث يرغمنا على صياغة أمل جديد، أو دين جديد، أو نزاع جديد حتى نظل قادرين على المتابعة. نرى وجوهًا عدوانية حيث لا وجود لوجوه عدوانية. ونرى عروض عمل غير أخلاقية حيث لا وجود لعروض عمل غير أخلاقية. ومهما يكن يومنا مشمسًا جميلًا، فإننا سنتمكّن دائمًا من العثور على غيمة في السماء.

---

(1) أ. شوبنهاور: *«مقالات وأقوال مأثورة»*، من ترجمة ر. ج. هولينغديل، (نيويورك: بنغوين كلاسيكس، 1970)، ص: 41.

يترتّب على هذا أن الجري خلف السعادة ليس قادرًا على إحباط نفسه بنفسه فحسب، بل هو أيضًا محاولة أمر مستحيل. إنه يشبه محاولتك أن تمسك بجزرة متدلّية من خيط معلّق من عصا مربوطة إلى ظهرك. كلما سرت إلى الأمام، كلما كان عليك أن تسير أكثر إلى الأمام. عندما تجعل الجزرة هدفك النهائي، فإنك تحوّل نفسك - لا محالة - إلى وسيلة للوصول إليها. وعندما تجري خلف السعادة، فإنك تجعلها أقل قابلية للتحقّق... يا للمفارقة!

إن الجري خلف السعادة قيمة سامّة ظلت تحدّد ثقافتنا زمنًا طويلًا. إنها قيمة غير قابلة للتحقّق، ثم إنها قيمة مضلّلة أيضًا. وذلك أن العيش الجيد لا يعني تجنّب المعاناة، بل هو يعني المعاناة لأسباب وجيهة. وإذا كنا مضطرين إلى المعاناة من خلال وجودنا في حد ذاته، فحريٌّ بنا أن نتعلّم كيف نعاني بطريقة جيدة.

الخيار الوحيد في الحياة

في سنة 1954، وبعد نحو خمسة وسبعين عامًا من الاحتلال وعشرين عامًا من الحرب، تمكّن الفيتناميون أخيرًا من طرد الفرنسيين من بلادهم. ينبغي أن يكون هذا أمرًا حسنًا على نحو لا ريب فيه. لكن المشكلة كانت أن الحرب الباردة قد بدأت: حرب دينية عالمية بين القوى الغربية الليبرالية الرأسمالية والكتلة الشرقية الشيوعية. وعندما تبين أن الزعيم الفيتنامي هو تشي منه، الرجل الذي هزم الفرنسيين، كان شيوعيًا... أصيب الجميع بالذعر وظنّوا أن هذا يمكن أن يسبب اندلاع حرب عالمية ثالثة.

ولخوفهم من اندلاع حرب كبرى، جلست مجموعة من قادة الدول في قاعة اجتماعات فخمة في مكان ما من سويسرا واتفقوا على تجنب حرب نووية من خلال تقسيم فيتنام إلى نصفين. لا تسألوني عن السبب

الذي جعل بلدًا لم يسبّب ضررًا لأحد يستحق التقسيم على هذا النحو[1]. لكن من الواضح أن الجميع كانوا متفقين على أن يكون الشطر الشمالي من فيتنام شيوعيًا وأن يكون الشطر الجنوبي من فيتنام رأسماليًا. هكذا تقرّر الأمر. وسوف يعيش الجميع في سعادة بعد ذلك!

«حسنًا... قد لا يكون الأمر هكذا».

كانت هناك مشكلة. وضعت القوى الغربية رجلًا اسمه نغو دينه دييم في سدة الحكم في جنوب فيتنام ريثما تتسنّى فرصة لإقامة انتخابات. في بداية الأمر، بدا أن هذا الرئيس - دييم - يعجب الجميع. كان كاثوليكيًا مخلصًا، فرنسي الثقافة، أمضى بضع سنين من حياته في إيطاليا. وكان يتكلم عدة لغات. لقد دعاه نائب الرئيس الأميركي ليندون جونسون عندما اجتمع معه «ونستون تشرشل آسيا». لقد كان الرجل واحدًا منا!

كان دييم أيضًا شخصية جذابة؛ وكان صاحب طموح. وقد تمكّن من إحداث أثر طيّب لدى القادة الغربيين ولدى الإمبراطور الفيتنامي السابق أيضًا. وقد أعلن دييم بثقة أنه سيكون الشخص الذي يأتي بالديمقراطية إلى جنوب شرق آسيا، فصدّق الجميع كلامه.

لكن ما حدث كان غير هذا. فبعد سنة واحدة من تولّيه الحكم، حظر دييم نشاط كل حزب سياسي في جنوب فيتنام، باستثناء حزبه. وعندما حان وقت إجراء استفتاء في البلاد، عيّن شقيقه مسؤولًا عن إدارة المراكز الانتخابية. لن تصدّقوا ما حدث بعد ذلك. لقد فاز دييم في الاستفتاء. فاز بنسبة مذهلة بلغت 98,2 بالمئة من مجموع الأصوات. لقد اتضح أن هذا الرجل شخصية سيّئة جدًا. كان هو تشي منه، زعيم شمال فيتنام، شخصية سيّئة أيضًا... بالطبع!

---

(1) إذا كنت تريد أن تسألني عن هذا، فقد قسّموا فيتنام إلى قسمين لأنهم أرادوا تجنّب نشوب حرب مثلما حدث في كوريا في العقد الذي سبق ذلك. رأوا أن من الأكثر احتمالًا أن تؤدّي قسمة البلد إلى اثنين، مثلما فعلوا في كوريا، إلى المحافظة على السلم. لكن ذلك لم يحدث.

وإذا كنت قد تعلّمت شيئًا من دراستي في الجامعة فهو أن النظرية الأولى في السياسة الإقليمية تقضي بأنه عندما يكون لديك زعيمان سيّئان في بلدين متجاورين، فإن ملايين الناس سوف يموتون[1].

هذا ما حدث. لقد اندلعت حرب أهلية في فيتنام.

أود الآن إخباركم شيئًا مفاجئًا عن الرئيس دييم: لقد صار واحدًا من أكبر الطغاة. ملأ المناصب الحكومية بأفراد عائلته وأزلامه الفاسدين. وعاش، هو وأفراد عائلته كلّهم، في بذخ ونعيم، في حين كانت المجاعة تجتاح البلاد وتقتل مئات الألوف وتصيبهم بالعجز. لقد كان شخصًا شديد الإعجاب بنفسه على الرغم من سوء إدارته، فرأت الولايات المتّحدة نفسها في حاجة متزايدة إلى التدخل للحيلولة دون انهيار فيتنام الجنوبية. وهكذا بدأت تلك الحرب التي يعرفها الأميركيون الآن باسم حرب فيتنام.

وبصرف النظر عن مدى سوء دييم، فقد التزمت القوى الغربية بالوقوف إلى جانب رجلها. فبعد كل حساب، كان من المفترض أنه واحد منهم، وأنه نبي من أنبياء الدين الرأسمالي الليبرالي يقف بقوة في مواجهة الهجوم الشيوعي. ثم اقتضى الأمر سنوات كثيرة وما لا يُحصى من الأرواح قبل أن يتوصّلوا إلى إدراك أن دييم لم يكن مهتمًا بدينهم ذاك بقدر ما كان مهتمًا بنفسه.

وكما نرى عند طغاة كثيرين، كانت تسلية دييم المفضلة اضطهاد من يخالفونه وقتلهم. وبما أن دييم كان كاثوليكيًا مخلصًا، فقد كان يكره البوذيين. لكن المشكلة هي أن نسبة البوذيين في فيتنام كانت تقارب ثمانين بالمئة من السكان. وكان معنى هذا أن نقمة الناس عليه قد بدأت تتزايد. حظّر دييم الشعارات والرايات البوذية. وحظّر الأعياد البوذية.

---

(1) ينبغي التوجّه إلى قسم العلاقات الدولية في جامعة بوسطن. هذا منوط بكم.

ورفض تقديم الخدمات الحكومية إلى جماعات السكان البوذية. راح يشن الهجمات ويدمر معابد البوذيين في أنحاء البلاد ملقيًا بمئات الرهبان البوذيين في حالة من الفقر الشديد.

نظّم الرهبان البوذيون صفوفهم وشنّوا حملة تظاهرات سلمية. وبالطبع، فقد جرى قمع تلك التظاهرات. ثم خرجت تظاهرات أكبر حجمًا، فحظر دييم التظاهر. رفض المتظاهرون البوذيون التفرّق عندما أمرتهم قوات الشرطة بذلك، فما كان من الشرطة إلا أن بدأت إطلاق النار عليهم. وفي إحدى التظاهرات السلمية أطلقت القنابل اليدوية على المتظاهرين العزل.

كان المراسلون الصحافيون الغربيون عارفين بما يجري من قمع واضطهاد دينيّيْن، لكن اهتمامهم كان منصبًّا في المقام الأول على الحرب الدائرة مع شمال فيتنام، فلم يكن ذلك الأمر أولوية لديهم. لم تعرف إلا قلة منهم بحجم المشكلة، وكان من اهتموا بتغطية أخبار قمع التظاهرات أقل عددًا.

وفي العاشر من حزيران من سنة 1963، تلقّى المراسلون الصحافيون رسالة مشفّرة تزعم أن «شيئًا مهمًّا» سيحدث في العاصمة سايغون في اليوم التالي، وذلك عند تقاطع مزدحم واقع على مسافة قريبة من القصر الرئاسي. لم يولِ المراسلون تلك الرسالة اهتمامًا كبيرًا. وقرّر أكثرهم عدم الذهاب إلى ذلك المكان. وفي اليوم التالي، لم يذهب إلا بضعة مراسلين كان من بينهم اثنان من المصورين. وقد نسي أحد المصورين إحضار آلة التصوير!

وأما المصور الثاني فقد فاز بجائزة بوليتزر.

في ذلك اليوم تقدمت سيارة صغيرة تركوازية اللون مزينة باللافتات المطالبة بالحرية الدينية موكبًا ضم بضع مئات من الراهبات والرهبان البوذيين. كان أولئك الرهبان ينشدون تراتيلهم الدينية. توقّف الناس

وراحوا ينظرون إلى الموكب، ثم استأنف كل منهم طريقه. كان الشارع مزدحمًا في ذلك اليوم. حتى تلك النقطة، لم يكن في تظاهر الرهبان البوذيين أي شيء جديد.

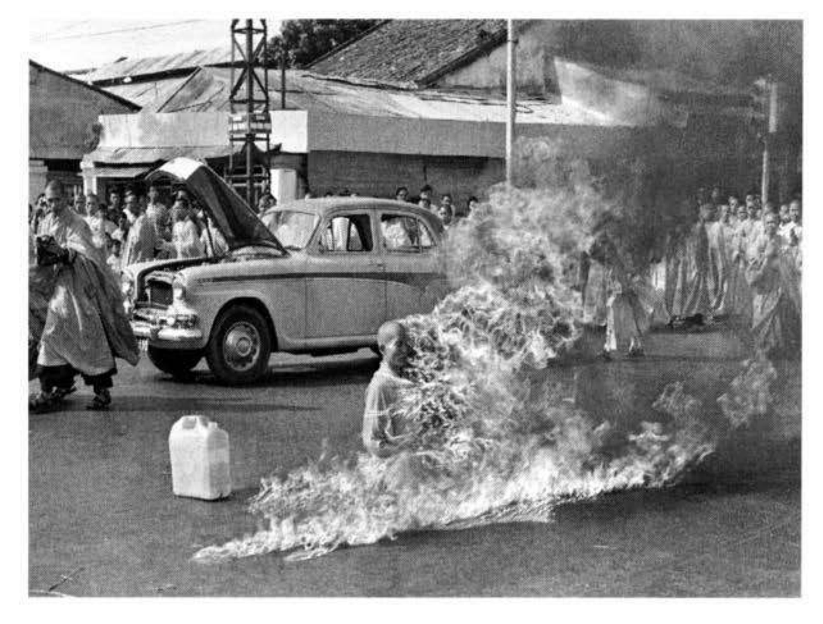
بلغ الموكب نقطة التقاطع أمام السفارة الكمبودية حيث توقّف فسدّ الشوارع أمام حركة السير. شكّل الرهبان نصف دائرة من حول السيارة الصغيرة، ثم وقفوا ينظرون إليها صامتين.

ترجل من السيارة ثلاثة رهبان. وضع أحدهم وسادة على الأرض، عند مركز التقاطع على الأرض. سار الراهب الثاني وكان رجلًا متقدّمًا في السن اسمه ثيش كوان دوك إلى الوسادة وجلس عليها متخذًا وضعية زهرة اللوتس، ثم أغمض عينيه وبدأ التأمل.

فتح الراهب الثالث صندوق السيارة وأخرج منه مستوعَبًا فيه خمسة غالونات من البنزين ووضعه إلى جانب كوان دوك، ثم رفعه وسكب البنزين على رأسه حتى بلله كلّه. فغر الناس أفواههم. غطى بعضهم وجوههم بأيديهم وبدأت عيونهم تدمع. خيم على التقاطع المزدحم سكون مشؤوم. توقف المارّة عن سيرهم. ونسي رجال الشرطة ما كانوا يفعلونه. صار الهواء ثقيلًا. كان أمر مروّع موشكًا على الحدوث. انتظر الجميع.

بثوبه المبتل بالبنزين، ووجهه الذي ظل ساكنًا من غير أي تعبير، تلا كوان دوك صلاة قصيرة، ثم تناول ببطء علبة كبريت. ومن غير أن يغيّر من جلسته أو يفتح عينيه، أشعل عود كبريت وأضرم النار في نفسه. وعلى الفور، ارتفع جدار من اللهب أحاط به. ابتلعت النار جسده كله. احترق ثوبه. صار جلده أسود اللون. ملأت الهواء رائحة فظيعة كانت مزيجًا من رائحة اللحم المحترق والبنزين والدخان. بدأت الصرخات تنطلق من جموع الناس الذين توقّفوا. خرّ كثير منهم على ركبهم، أو فقدوا صوابهم تمامًا. وأما أكثر الناس، فقد ظلوا مصعوقين وقد جعلتهم الصدمة عاجزين عن الحركة.

كان كوان دوك يحترق، لكنه ظل ساكنًا سكونًا تامًا.



(حقوق نشر الصورة لمالكولم براون. تم الترخيص باستخدامها هنا)

في ما بعد، قدّم مراسل صحيفة نيويورك تايمز، ديفيد هالبرستام الوصف التالي لذلك المشهد: «كانت صدمتي شديدة إلى حد جعلني غير قادر على البكاء. وكنت مشوشًا مضطربًا فلم أستطع تدوين الملاحظات أو طرح الأسئلة. وكنت حائرًا فلم أستطع التفكير... لم يحرك ذلك الرجل أية عضلة في جسمه أثناء احتراقه، ولم يصدر عنه أي صوت. كان هدوؤه وتمالكه نفسه في تضادٍّ حادٍّ مع مشهد الناس الذين راحوا يصرخون ويبكون من حوله»[1].

سرت أنباء إقدام كوان دوك على إحراق نفسه سريان النار في الهشيم،

---

(1) ديفيد هالبرستام: *«صناعة ورطة»*، (نيويورك: راندوم هاوس، 1965)، ص: 211.

فأثارت غضب الملايين في العالم كله. في تلك الأمسية، وجه دييم عبر الإذاعة كلمة إلى الأمة، وكان واضحًا من صوته أن الحادثة قد هزّته. وعد بأن يعود إلى طاولة المفاوضات مع القيادة البوذية في البلاد وبأن يتم العثور على حلٍّ سلمي.

لكن ذلك كان متأخرًا جدًا. لم يستطع دييم الخروج من ذلك المأزق. من المستحيل أن يحدد المرء بالضبط ما تغير آنذاك، أو كيف تغيرت الأمور؛ لكن الجو صار مختلفًا على نحو ما، وصارت الشوارع أكثر حياة. نتيجة عود كبريت وصورة كاميرا، تزعزعت قبضة دييم غير المرئية على البلاد وصارت أضعف من ذي قبل. كان الناس جميعًا قادرين على الإحساس بهذا، ومن بينهم دييم نفسه.

سرعان ما راح آلاف الناس يتدفّقون إلى الشوارع في احتجاج مفتوح ضد حكمه. بدأ قادته العسكريون يعصون أوامره. وبدأ مستشاروه يخذلونه. وفي نهاية المطاف، لم تعد الولايات المتحدة نفسها قادرة على تبرير استمرار مساندتها له. وسرعان ما أوحى الرئيس كينيدي بموافقته على خطة وضعها كبار جنرالات دييم للإطاحة به.

لقد حطّمت صورة الرجل المحترق الحاجز، ثم تبعها الطوفان.

وبعد شهور معدودة، اغتيل دييم مع أفراد أسرته.

لقد انتشرت صور موت كوان دوك انتشارًا سريعًا جدًا قبل أن يصير «الانتشار السريع» شيئًا معروفًا. صارت تلك الصورة نوعًا من «اختبار رورشارك»[1] بشريًا رأى فيه كل إنسان قيَمه وصراعاته تنعكس عائدة

---

(1) اختبار رورشارك: اختبار نفسي يقوم فيه الشخص الخاضع للاختبار بتسجيل ما يعتقد أنه يراه في بقعة من الحبر منتشرة على ورقة بيضاء، ثم يجري تحليل ذلك باستخدام طرائق التفسير النفسية وبعض الخوارزميات المعقدة. يلجأ بعض الأطباء النفسيين إلى هذا الاختبار من أجل التعرف على الخصائص النفسية لشخصية المريض وعلى آليات عمل مشاعره وانفعالاته. (ملاحظة المترجم).

إليه. نشر الشيوعيون في روسيا والصين تلك الصورة لحشد أنصارهم وتأييدهم ضد الإمبرياليات الرأسمالية في الغرب. وبيعت في أوروبا بطاقات بريدية تحمل تلك الصورة احتجاجًا على الفظائع المرتكبة في الشرق الأقصى. وفي الولايات المتحدة، طبع مناوئو الحرب الصورة احتجاجًا على التدخل الأميركي في الحرب. واستخدم المحافظون الصورة دليلًا على الحاجة إلى تدخل الولايات المتحدة. بل إن الرئيس كيندي نفسه اعترف بأن «ما من صورة إخبارية في التاريخ تمكّنت من إثارة هذا القدر كلّه من المشاعر في أنحاء العالم كله»[1].

أطلقت صورة إحراق الراهب البوذي كوان دوك نفسه شيئًا عامًّا أوليًا عند الناس. وقد كان شيئًا يتجاوز السياسة أو الدين. لقد لمست تلك الصورة واحدًا من المكوّنات الأكثر عمقًا في تجاربنا اليومية: إنها القدرة على تحمّل مقدار استثنائي من الألم[2]. لا أستطيع الجلوس إلى طاولة العشاء منتصب الظهر أكثر من عشر دقائق. إلا أن ذلك الشخص كان يحترق حيًّا ولم يتحرّك أبدًا. لم يرتعش. لم يصرخ. لم يبتسم، ولم يكشِّر، بل إنه لم يفتح عينيه حتى يلقي نظرة أخيرة على العالم الذي اختار أن يرحل عنه ويتركه خلفه.

كان في ذلك الفعل نقاء، إن لم نقل شيئًا عن أنه كان عرضًا مذهلًا لقوة التصميم. إنه المثال الأقصى على تحكّم العقل بالمادة، على تحكّم الإرادة بالغريزة[3]. وعلى الرغم من كل ما في تلك الفعلة من رعب، فقد

---

(1) ذي جون تونغ: «أطاحت به الصحافة: دور وسائل الإعلام الأميركية في سقوط ديم»، *المجلة الأسترالية للدراسات الأميركية*، 27 (تموز 2008)، 56 - 72.

(2) في وقت لاحق، قال مالكولم براون، المصوّر الذي التقط تلك الصورة: «واصلت التقاط صورة بعد صورة بعد صورة... لقد حماني التقاط الصور من رعب ذلك الشيء».

(3) تحدّثنا في الفصل الثاني عن الافتراض الكلاسيكي وكيف يفشل لأنه يحاول كبت الدماغ الذي يشعر بدلًا من محاولة الانسجام معه. إلا أن هناك طريقةً

بقيت حيةً على نحو ما، بقيت تثير الإلهام.

ففي سنة 2011، كتب نسيم طالب[1] عن مفهوم أطلق عليه «ضد الهشاشة». وقد كتب طالب أنه، مثلما تصير بعض الآليات أكثر ضعفًا تحت ضغط القوى الخارجية، فإن هناك آليات أخرى تكتسب مزيدًا من القوة تحت ضغط تلك القوى[2].

المزهرية شيء هشّ. إنها تتحطّم وتتشظّى بكل سهولة. والنظام المصرفي التقليدي نظام هشّ أيضًا، وذلك لأن تغيرات غير متوقّعة في السياسة أو الاقتصاد يمكن أن تجعله ينهار. ولعل علاقتك بحماتك أمر هشّ أيضًا لأن أي شيء تقوله لها قد يجعلها تنفجر غاضبة في موجة من الشتائم والدراما. الآليات والأنظمة الهشة تشبه الأزهار الجميلة الصغيرة، أو تشبه مشاعر المراهقين: لا بد من مراعاتها وحمايتها طيلة الوقت.

ثم لدينا الآليات والأنظمة القوية. إنها تقاوم التغيير مقاومة جيّدة. ففي حين تكون المزهرية هشّة فتتكسّر عندما يصيبها أدنى شيء، يظل

= أخرى يمكن بموجبها التفكير بمقاومة الهشاشة باعتبار أنها ممارسة المرء عملية الانسجام مع الدماغ الذي يشعر، وذلك من خلال تقبل الألم بطريقة يكون المرء معها قادرًا - من خلال الإرادة والوعي - على ضبط اندفاعات الدماغ الذي يشعر وجعلها تنتقل إلى نوع من السلوك أو الفعل المنتج. وليس من المفاجئ في شيء أن تكون الدراسات العلمية قد أثبتت قدرة التأمل على زيادة مساحة الانتباه ووعي الذات وتقليل مستويات الإدمان والقلق والشدّة النفسية. فالتأمّل، من حيث الجوهر، هو تمرين على تدبير آلام الحياة. انظر ماثيو ثوربي: «اثنتا عشرة فائدة للتأمل تم إثباتها علميًا»، هِلثلاين، 15 تموز 2017.

https://www.healthline.com/nutrition/12 - benefits - of - meditation

(1) نسيم طالب: كاتب صحافي أميركي من أصل لبناني. تركز كتاباته على مشكلات العشوائية والاحتمالية واللايقين. (ملاحظة المترجم).

(2) ن. ن. طالب، *«مضاد للهشاشة: أشياء تستفيد من الفوضى»*، (نيويورك: راندوم هاوس، 2011).

البرميل المعدني جسمًا قويًا صلبًا. يمكنك أن ترميه هنا وهناك، طيلة أسابيع، فيظلّ على حاله ولا يمسّه سوء. إنه يظل البرميل المعدني نفسه.

وفي المجتمع، ننفق قسمًا كبيرًا من وقتنا ومالنا على الاهتمام بالأنظمة الهشّة وعلى محاولة جعلها أكثر صلابة. إنك تستعين بمحامٍ جيّدٍ حتى تجعل شركتك أكثر صلابة. وتضع الحكومة أنظمة لجعل النظام المالي أكثر صلابة. كما أننا نضع الأنظمة والقواعد، كإشارات السير وأنظمة حقوق الملكية، حتى نجعل مجتمعنا أكثر قوة وصلابة.

لكن نسيم طالب يقول إن هناك نوعًا ثالثًا من الأنظمة والأولويات: إنها الأنظمة «المضادة للهشاشة». ففي حين يتحطّم النظام الهش وينجح النظام الصلب في مقاومة التغيير، فإن الأنظمة المقاومة للهشاشة تكتسب قوة من القوى والضغوط الخارجية.

إن الشركات الناشئة حديثًا، شركات مضادة للهشاشة. تبحث تلك الشركات عن سبل للفشل السريع فتكتسب قوة من فشلها. إن بائعي المخدرات مضادون للهشاشة أيضًا. كلما ساءت الأمور، كلما ازداد الناس اندفاعًا لإغراق أنفسهم في المخدرات. علاقة الحبّ الصحيّة السليمة مضادة للهشاشة: يجعل الألم وسوء الطالع العلاقة أكثر قوة بدلًا من إضعافها[1]. وكثيرًا ما يحدّثنا المحاربون القدامى كيف تؤدّي حالة الفوضى في ميدان المعركة إلى بناء الروابط بين الجنود وتعزيزها (تلك الروابط التي تغير حياتهم)، بدلًا من إضعاف تلك الروابط وتحطيمها.

من الممكن أن يمضي الجسم البشري في هذا الاتجاه أو ذاك، وهذا معتمد على كيفية استخدامك إياه. إذا نهضت والتمست الألم التماسًا فعالًا، فإن جسمك يصير مضادًّا للهشاشة؛ بمعنى أنه يصير أشدّ

(1) إن هذا اختبار كاشف ممتاز، في حقيقة الأمر، من أجل معرفة إن كان ينبغي لك أن تكون مع شخص ما: هل تؤدّي الضواغط الخارجية إلى تقريبكما، أم لا؟

قوة وأكثر قدرة على مقاومة ما تجعله يتعرّض له من مشقّات وأعباء. إن «انهيار» جسمك تحت وطأة التمرينات الرياضية والعمل الجسدي الشاق يؤدّي إلى بناء عضلاتك وازدياد كثافة عظامك وتحسّن دورتك الدموية، كما أنه يزيد رشاقتك أيضًا. وأما إذا كنت تتفادى الألم والمشقة (أي أنك تظل جالسًا على أريكتك طيلة النهار وتتابع التلفزيون)، فإن عضلاتك تتراخى، وتصير عظامك أكثر هشاشة، ويتراجع جسمك كله فيصير ضعيفًا.

يعمل الدماغ البشري وفق المبدأ نفسه. فمن الممكن أن يكون هشًّا أو مضادًا للهشاشة بحسب كيفية استخدامنا له. عندما يأتي الاضطراب وتحل الفوضى، ينكبّ العقل على العمل محاولًا فهم ما يجري فيستنتج المبادئ ويبني نماذج عقلية ويحاول التنبؤ بما سيحدث في المستقبل ويقيّم ما جرى في الماضي. هذا ما ندعوه تعلّمًا؛ وهو يجعلنا أفضل من ذي قبل لأنه يتيح لنا أن نحقّق كسبًا من الفشل ومن حالة الاضطراب والفوضى.

وأما إذا تجنّبنا الألم، وتفادينا المشقة والفوضى، فإننا نصير أكثر هشاشة. تتضاءل قدرتنا على تحمّل النكسات التي تصيبنا في كل يوم وتنكمش، وبالتالي فإن حياتنا تنكمش بما يتناسب مع ذلك بحيث لا تكون لنا علاقة إلا بذلك الجزء البسيط المحدود من العالم الذي نستطيع التعامل معه في ذلك الوقت.

هذا لأن الألم هو «الثابت العام الشامل». ومهما تصبح حياتك «جيدة» أو «سيئة»، فإن الألم يظل موجودًا. وسوف تجد، في آخر المطاف، أنك قادر على تدبّره. ويكون السؤال عند ذلك - بل هو السؤال الوحيد - هل ستقبل ألمك؟ هل ستقبل ألمك أم إنك ستحاول تفاديه؟ هل ستختار الهشاشة أم «ضد الهشاشة»؟

يكون كل ما تفعله، وكل ما أنت عليه، وكل ما تهتم به، انعكاسًا

لهذا الخيار: علاقاتك، وصحتك، ونتائجك في العمل، واستقرارك الانفعالي، واستقامتك، ومشاركتك ضمن مجتمعك، واتساع تجاربك في الحياة، وعمق جرأتك وثقتك بنفسك، وقدرتك على الاحترام والثقة والصفح والتقدير والتعلّم والتعاطف.

إن كان أي شيء من هذه الأشياء هشًا في حياتك، فهذا لأنك اخترت أن تتفادى الألم. لقد اخترت القيم الطفولية، قيم السعي خلف المسرّات والرغبات البسيطة، وخلف إرضاء الذات.

إن تحمُّل الألم يشهد تضاؤلًا سريعًا في ثقافتنا. لا تقتصر مشكلة هذا التضاؤل على أنه يفشل في تحقيق مزيد من السعادة لنا، بل إنه يولد قدرًا أكبر من الهشاشة الانفعالية. وهذا ما يجعل كل شيء يبدو سيئًا في نظرنا.

هذا ما يعيدني إلى الراهب البوذي كوان دوك الذي أضرم النار في نفسه وظل جالسًا في قلبها من غير أن يهزّه شيء. في زماننا هذا، يعرف معظم الغربيين أن التأمل أسلوب من أساليب الاسترخاء. ترتدي سروال اليوغا وتجلس مدة عشر دقائق في غرفة دافئة وثيرة، وتغمض عينيك وتصغي إلى صوت هادئ منبعث من هاتفك يقول لك إنك بخير، وإن كل شيء بخير، وإن كل شيء سيكون عظيمًا، ما عليك إلا أن تتبع قلبك، وكذا كذا، كذا[1].

لكنّ تأمّل البوذي الحقيقي أمر أشد كثيرًا من اكتفاء المرء بالجلوس وإزالة التوتر عن نفسه مستخدمًا بعض التطبيقات الجميلة في هاتفه. يشتمل التأمّل الصارم على أن تجلس هادئًا وتراقب نفسك من غير أيّ رحمة. يجب أن تلتقط كل حكم، وكل هوى، وكل ارتجافة أو التواءة صغيرة في مشاعرك، وكل أثر لأي افتراض يمر في ذهنك، وأن تُقِرّ بذلك

(1) صحيح أنني أكثر الحديث هنا عن تطبيقات التأمل، لكني أود القول إنها مقدّمات إلى ممارسته. إنها ليست أكثر من... مقدمات.

كلّه، ثم تلقي به في العدم. والأسوأ من هذا أن الأمر لا يصل إلى نهايته أبدًا. يأسف الناس دائمًا لأنهم ليسوا «جيدين» في التأمّل. لا وجود لشيء اسمه أن «تصير جيدًا». هذه هي الفكرة كلّها. من المفترض أن تفشل في الأمر. وما عليك إلا أن تقبل فشلك. ما عليك إلّا أن تعانق فشلك. ما عليك إلا أن تحب فشلك.

عندما يتأمّل الفرد فترة من الزمن، فإن مختلف أنواع الأشياء الغبيّة يأتي إلى ذهنه: خيالات غريبة، وأحزان عمرها عشرات السنين، ودوافع جنسية غريبة، وضجر لا يحتمل؛ وغالبًا ما يأتي أيضًا إحساس ساحق بالعزلة والوحدة. وهذه الأشياء أيضًا تنبغي مراقبتها، وينبغي الإقرار بها، ثم تركها تمضي في حال سبيلها. سوف تذهب، هي أيضًا!

فالتأمّل في جوهره تمرين على أن يصير المرء مضادًا للهشاشة: تدريب العقل على الملاحظة وعلى استقبال فيض متدفّق لا ينتهي من الألم من غير أن يترك المرء «نفسه» تغرق في ذلك التيار الجارف. هذا ما يجعل كل امرئ سيئًا إلى هذا الحد في أمر يبدو بسيطًا هذه البساطة كلّها. ففي نهاية المطاف، أنت لا تفعل شيئًا سوى الجلوس على حشيّة وإغماض عينيك، فكم يمكن أن يكون هذا الأمر صعبًا؟ لماذا يجد المرء صعوبة كبيرة في استجماع شجاعته للجلوس وفعل ذلك، ثم البقاء جالسًا؟ ينبغي أن يكون هذا سهلًا؛ لكن الظاهر أن الجميع يجدون صعوبة في جعل أنفسهم يقومون به[1].

---

(1) إنني من أشد مؤيدي التأمّل على الرغم من كوني غير قادر جعل نفسي أجلس وأمارس التأمل فعلًا. لقد أعطاني واحد من أصدقائي يعمل معلمًا للتأمل أسلوبًا جيدًا: عندما تجد صعوبة في جعل نفسك تتأمّل، ليس عليك إلا أن تعثر على عدد الدقائق التي لا تكون مخيفة لك. يحاول أكثر الناس التأمّل مدة تتراوح من عشر دقائق إلى خمس عشرة دقيقة. إذا بدا لك ذلك أمرًا مرهقًا، فاقبل أن تجعلها خمس دقائق فقط. وإذا بدا ذلك مرهقًا، فاجعلها ثلاث دقائق، إذا بدا ذلك مرهقًا أيضًا فاجعلها دقيقة واحدة فقط. يستطيع أي شخص أن ينجز دقيقة تأمل واحدة!

يتجنّب أكثر الناس التأمّل مثلما يتجنّب الطفل أداء واجباته المدرسية. هذا لأنهم يعرفون ما ينطوي عليه التأمل في حقيقة الأمر. إنه مواجهة مع ألمك؛ وهو مراقبة دواخل عقلك وقلبك بكل ما فيها من ذعر ومجد.

أقوم عادة بالتخلّص من كل ما في نفسي بعد التأمل، وذلك لمدة تناهز ساعة واحدة. لقد كانت أطول حالة مررت بها يومين كاملين أمضيتهما في عزلة صامتة. في تلك الفترة، كان عقلي يصرخ متوسّلًا أن أتركه يخرج ويلعب. إن هذه الفترة الطويلة من التأمّل المستمر تجربة غريبة حقًا: مزيج من الضجر المرهق واللمحات الصغيرة من إدراك مخيف لحقيقة أن ما كنت تظنّ أنك تمتلكه من تحكمّ بأفكارك وبعقلك ليس إلا وهمًا نافعًا. يكفي أن تلقي في تلك البركة قطعة من مشاعر أو ذكريات مؤلمة (قد تكون صدمة مرّت بك في طفولتك) حتى تسوء حالك تمامًا.

تخيّل الآن أنك تقوم بذلك طيلة اليوم، وفي كل يوم، وعلى امتداد ستين عامًا. تخيّل التركيز الفولاذي والتصميم الشديد الذي يتمتّع بهما مصباحك الداخلي الكاشف. تخيل كم تكون عتبة الألم لديك مرتفعة. وتخيل كم تكون مضادًا للهشاشة.

ليس الأمر المميز في الراهب البوذي كوان دوك هو أنه اختار أن يضرم النار في نفسه كنوع من الاحتجاج السياسي (على الرغم أنه هذا أمر متميز جدًا في حد ذاته)، بل هو أسلوب قيامه بذلك: سكون تام. تحكّم تام بالنفس. وسلام تام.

= أي أن عليك أن تواصل خفض عدد الدقائق للتوصّل إلى «اتفاق» مع دماغك الذي يشعر، وذلك إلى أن يصير الأمر غير مخيف له. ومن جديد، ينبغي القول إن هذا ليس إلا تفاوضًا بين دماغك الذي يشعر ودماغك المفكّر لكي تتمكّن من جعلهما منسجمين ومن إنجاز شيء منتج. وبالمناسبة، فإن هذا الأسلوب ناجح جدًا مع نشاطات أخرى أيضًا. ممارسة التمرينات الرياضية، وقراءة الكتب، وتنظيف البيت، وتأليف كتاب (مثلًا) - ففي كل حالة، ليس عليك إلا أن تخفّض سقف توقّعاتك إلى أن يصير الأمر غير مفزع لك.

يقول بوذا إن المعاناة تشبه أن يصاب المرء بسهمين اثنين. السهم الأول هو الألم الجسدي - هو الاختراق الماديّ للجلد، والقوة التي تقتحم الجسم. وأما السهم الثاني فهو الألم الذهني؛ هو المعنى والمشاعر التي ترتبط لدينا بالإصابة، والقصص التي ننسجها في أذهاننا عما إذا كنا نستحق ما حدث أم لا نستحقه. وفي حالات كثيرة، يكون الألم الذهني لدينا أكبر كثيرًا من أي ألم جسدي. وهو يدوم زمنًا أطول، في معظم الأحيان.

ويقول بوذا إننا قادرون، من خلال ممارسة التأمل، على تدريب أنفسنا، بحيث لا يصيبنا إلا السهم الأول، وبحيث نجعل أنفسنا غير مرئيين على الإطلاق من قبل أي ألم ذهني أو انفعالي.

ففي ظل القدر الكافي من التمرين على التركيز، والقدر الكافي من مقاومة الهشاشة، يكون الإحساس العابر بإهانة أو بجسم يخترق الجلد، أو بلهب البنزين المحيط بجسدنا، شيئًا يخلق لدينا الإحساس نفسه الذي تخلقه ذبابة تطنّ أمام وجهنا.

الألم شيء لا مفر منه، لكن المعاناة اختيار... على الدوام!

فهناك دائمًا فارق بين ما نعيشه وكيفية تفسيرنا ما نعيشه.

وهناك دائمًا هوّة بين ما يحسه دماغنا الذي يشعر ودماغنا الذي يفكّر. وفي تلك الهوّة القائمة بينهما يمكنك العثور على القوّة اللازمة لاحتمال أي شيء.

إن لدى الأطفال احتمالًا قليلًا للألم لأن سلوك الطفل كلّه يدور من حول تجنب الألم. فبالنسبة إلى الطفل، يكون الإخفاق في تفادي الألم إخفاقًا في الوصول إلى الهدف، أو إلى الغاية.

من هنا، فإن قدرًا متواضعًا من الألم قادر على جعل الطفل يسقط في نوبة من العدمية.

ثم تكون لدى المراهق عتبة ألم أعلى لأنه يفهم أن الألم غالبًا ما يكون جزءًا من مقايضة لا بد منها لتحقيق أهدافه. إن فكرة تحمُّل الألم من أجل منفعة ما في المستقبل تمكّن المراهق من تحمل بعض المشقات والنكسات في ما يتعلق بنظرته إلى الأمل: سوف أعاني حتى أجتاز المدرسة لكي أحصل على عمل جيّد. وسوف أتحمّل إزعاجات عمّتي حتى أستطيع الاستمتاع بعطلتي مع أسرتي. وسوف أتحمل الاستيقاظ مع الفجر، لأن هذا يجعل الآخرين معجبين بي.

لكن المشكلة تنشأ عندما يشعر المراهق بأنه قد أبرم صفقة سيئة، عندما يتجاوز الألم توقّعاته، أو عندما يكون المكسب أقل مما كان يأمل فيه. هذا ما يجعل المراهق يقع - مثلما يقع الطفل في أزمة أمل: لقد ضحّيت كثيرًا، ولم أحصل بالمقابل إلا على شيء قليل، فما الفائدة من هذا كلّه؟ إن هذه الحالة تلقي بالمراهق في أعماق العدميّة وتجعله يتلقّى زيارة غير لطيفة من جانب «الحقيقة غير المريحة».

وأما الشخص الناضج، فإن لديه عتبة ألم عالية جدًّا لأنه يفهم أن الحياة تستلزم ألمًا حتى يصير لها معنى، وأن لا شيء يمكن (أو يجب) التحكّم فيه أو المقايضة عليه. هو يفهم أنك تستطيع أن تفعل أحسن ما يمكنك فعله بصرف النظر عن النتائج التي يحقّقها لك ذلك.

إن النمو النفسي فرار من العدميّة. وهو عملية بناء مزيد ومزيد من تراتبيات القيم المجرّدة المعقّدة بغية إحراز القدرة على هضم كل ما تلقي به الحياة في وجه الإنسان.

وأما القيم الطفوليّة فهي هشّة. تنشب أزمة وجودية لحظة حرمان الطفل من الآيس كريم. وتعقب ذلك نوبة زعيق وبكاء. ثم تصير قِيَم المراهق أكثر متانة لأنها تشتمل على ضرورة الألم. إلا أنها تظلّ معرضة لتحولات وانعطافات غير متوقّعة، أو لحوادث مأساوية. ولا مفر من انهيار قيم المراهقة في ظل ظروف شديدة الصعوبة أو عند معاناة ألم يستمر فترة طويلة.

وأما قيم الشخص الناضج حقًا فهي قيم مضادّة للهشاشة: إنها تستفيد مما هو غير متوقّع. كلما ساءت علاقات المرء، كلما صار الصدق أكثر فائدة له. وكلما صار العالم مخيفًا أكثر، كلما استجمع الناضج شجاعة أكبر حتى يواجهه. وكلما صارت الحياة مضطربة أكثر، كلما صار التواضع أكثر قيمة لدى الشخص الناضج.

هذه هي مزايا الوجود بعد مرحلة الأمل. وهذه هي قيم النضج الحق. إنها النجم الهادي لعقولنا وقلوبنا. فمهما تبلغ شدّة الاضطراب والفوضى على الأرض، تظل هذه القيم فوق ذلك كلّه، تظل سليمة لامعة دائمًا، وتستمر في إرشادنا في الظلمة.

الألم قيمة

يعتقد كثيرون من العلماء والمتحمسين للتكنولوجيا بأننا سنصل إلى يوم نتمكّن فيه من امتلاك القدرة على «الشفاء» من الموت. سوف يجري تعديل خصائصنا الوراثية وجعلها في حالة مثلى. وسوف نصنع روبوتات متناهية الصغر تراقب كل ما يمكن أن يشكّل علينا خطرًا من الناحية الصحّية فتجتثّه اجتثاثًا. وسوف تسمح لنا التكنولوجيا البيولوجية باستبدال واستصلاح أجسادنا بشكل دائم فتمكّننا من العيش إلى الأبد.

يبدو هذا أشبه بقصص الخيال العلمي. لكن بعض الناس يرون أيضًا أن من الممكن أن نتوصّل إلى هذه التكنولوجيا خلال حياة الجيل الحالي من البشر[1].

إن فكرة إزالة احتمال الموت، والتغلّب على هشاشتنا البيولوجية، والتخلّص من أشكال الألم كلّها، فكرة مثيرة إلى حدٍّ يصعب تصديقها؛

---

(1) انظر راي كورزويل: *«الوحدانية قريبة: عندما يتعالى البشر فوق البيولوجيا»*، (نيويورك: بينغوين بوكس، 2006).

لكنها مثيرة في الظاهر فحسب. وأظن أنها قد تكون كارثة نفسية قيد التشكل.

فمن ناحية أولى، إذا تمكّنا من إلغاء الموت، فإننا نلغي النُدرة من الحياة. وإذا ألغينا الندرة، فإننا نلغي القدرة على تحديد القيمة. سوف يبدو كل شيء جيّدًا أو سيئًا على نحوٍ متساوٍ، وسوف يصير كل شيء يستحقّ وقتنا وانتباهنا أو لا يستحقه على حدٍّ سواء. هذا لأننا سنكون قد امتلكنا ما لا نهاية له من الزمن والقدرة على الاهتمام والانتباه. سيصير المرء قادرًا على أن يمضي مئة سنة في متابعة برنامج تلفزيوني؛ ولن تكون لذلك أية أهمية. وسيصير قادرًا على ترك علاقاته تتدهور وتختفي لأن أولئك الناس سيكونون موجودين دائمًا... فلماذا يشغل المرء باله بهم؟ يصير المرء قادرًا على تبرير كل تساهل، وكل انحراف، فيقول: «حسنًا، لن يقتلني هذا الأمر»، ثم يواصل فعله.

إن الموت ضرورة من الناحية النفسية لأنه يخلق رهانات في الحياة. هناك شيء يمكن أن تخسره. وأنت لا تعرف قيمة شيء من الأشياء حتى تعيش احتمال فقدانه. إذا كنت خالدًا، فأنت لا تعرف ما أنت مستعد للصراع من أجله وما أنت مستعد للتخلي عنه أو للتضحية به.

الألم هو العملة التي تقاس بها قيَمنا. فمن غير ألم الخسارة (أو احتمال الخسارة)، يصير من المستحيل أن يتمكّن المرء من تحديد قيمة أي شيء على الإطلاق. الألم هو جوهر المشاعر كلّها. تنتج المشاعر السلبية من خلال عيش الألم. وتنتج المشاعر الإيجابية من خلال تجنّب الألم. وعندما نتمكّن من تجنب الألم، فإننا نجعل من أنفسنا أكثر هشاشة، فتكون النتيجة أن تصبح ردود أفعالنا الشعورية تجاه حدث من الأحداث غير متناسبة على الإطلاق مع أهمية ذلك الحدث. وسوف نشعر كما لو أن كارثة قد حلّت بنا إذا أتى سندويتش الهامبرغر واكتشفنا أن فيه مقدارًا زائدًا من أوراق الخس. وسوف يطير صوابنا فرحًا وإعجابًا بأنفسنا بعد

أن نشاهد مقطع فيديو تافهًا على يوتيوب يقول لنا إننا أشخاص ممتازون. سوف تصير الحياة أشبه بأرجوحة هائلة تقذف بقلوبنا إلى الأعلى وإلى الأسفل ونحن لا نفعل شيئًا أكثر من تقليب الصفحات على الإنترنت.

كلما صرنا مضادِّين للهشاشة أكثر من ذي قبل، كلما صارت مشاعرنا واستجاباتنا أكثر قيمة وجمالًا، وكلما تمكّنا من ممارسة قدر أكبر من التحكم بأنفسنا، وكلما صارت قيَمنا أكثر مبدئية. من هنا، فإن مقاومة الهشاشة مرادف للنمو وللنضج. فالحياة تيار من الألم لا ينتهي أبدًا؛ والنمو هو الامتناع عن التماس سبيلٍ إلى تجنّب ذلك التيار، بل هو غوصنا فيه وتمكّننا من استكشاف طريقنا في أعماقه.

وبالتالي، فإن الجري خلف السعادة ليس إلا تجنبًا للنمو، وتجنبًا للنضج، وتجنبًا للفضيلة. إنه معاملتنا أنفسنا وعقولنا على أنها وسائل من أجل الوصول إلى غاية زائفة من الناحية الشعورية. وهذا ما يعادل التضحية بوعينا حتى نشعر شعورًا طيبًا. إنه تخلٍّ عن كرامتنا مقابل مزيد من الراحة.

لقد عرف الفلاسفة القدامى هذا الأمر. لم يتحدّث أفلاطون وأرسطو والفلاسفة الرواقيون عن حياة من السعادة، بل عن حياة ذات معنى وعن تطوير القدرة على تحمّل الألم والإقدام على التضحيات الصحيحة... هكذا كانت الحياة في زمانهم: تضحية طويلة مستمرة. ولم تكن الفضائل القديمة نفسها، فضائل الشجاعة والصدق والتواضع، إلا أشكالًا مختلفة من ممارسة اللاهشاشة: إنها مبادئ تستفيد من النزاع والفوضى.

استمر الأمر هكذا حتى عصر الأنوار، عصر العلم والتكنولوجيا والوعد بنمو اقتصادي متواصل، فحمل المفكّرون والفلاسفة تلك الفكرة التي يلخصها توماس جيفرسون بأنها «السعي إلى السعادة». فعندما رأى مفكّرو الأنوار أن العلم والثروة يخففان الفقر والجوع والمرض بين الناس، فهموا ذلك التحسّن في ما يخصّ الألم على أنه

إلغاء للألم. ولا يزال مثقّفون وعلماء كثر يقعون في الخطأ نفسه: يرون أن النمو يحرّرنا من المعاناة بدلًا من أن يدركوا أنه يحوّل تلك المعاناة من شكل ماديّ إلى شكلٍ نفسي[1].

وأما ما فهمه عصر الأنوار فهمًا صحيحًا فهو أن هناك - بشكل عام - آلامًا أفضل من آلام أخرى. ففي حال تساوي بقية العوامل نفسها، يكون موت المرء في التسعين أفضل من موته في العشرين. ومن الأفضل أن يكون المرء معافى من أن يكون مريضًا. وكونك حرًا في السعي خلف أهدافك أفضل من أن تكون مجبرًا على خدمة الآخرين. والحقيقة هي أنك تستطيع تعريف «الثروة» بأنها قدرتك على اختيار الآلام التي تريدها أنت[2]. لكن الظاهر أننا نسينا ما كان يعرفه القدامى: مهما تولّد في العالم من ثروات، فإن نوعية حياتنا تقررها نوعية طبائعنا؛ ونوعيّة طبائعنا تتقرّر بفعل علاقتنا بألمنا.

إن الجري خلف السعادة يجعلنا نسقط سقوطًا مباشرًا في العدمية والعبث. إنه يقودنا في اتجاه الطفولية، ويأخذنا إلى رغبة عنيفة جامحة في المزيد والمزيد، إلى تلك الحفرة التي لا يمكن أن تمتلئ أبدًا، إلى ذلك الظمأ الذي لا يمكن أن يرتوي أبدًا. هذا هو جذر الفساد والإدمان، جذر الدمار الذاتي ورثاء النفس.

---

(1) يذهب بينكر إلى القول بأن الكسب المتحقّق في السلامة وفي الصحة الجسدية أكبر من أية زيادة في القلق والشدة النفسية. كما يدافع عن الفكرة القائلة بأن مرحلة النضج تتطلّب قدرًا أكبر من القلق والشدة النفسية نتيجة تزايد المسؤوليات. قد يكون هذا صحيحًا - فمثلًا، لا يعود أحد منا إلى الطفولة إن أتيح له هذا الخيار. لكن هذا لا يعني أن ما يكون لدينا من قلق وشدّة نفسية ليس مشكلة خطيرة. انظر بينكر: *«التنوير الآن»*، ص: 288 - 289.

(2) هكذا أعرّف الحياة «الجيدة» في كتابي السابق. المشكلات أمر لا يمكن تجنّبه. والحياة الجيدة هي الحياة مع المشكلات الجيّدة. انظر مارك مانسون، *«فن اللامبالاة»*، ص: 26 - 36.

وأما عندما نطالب بالألم، ونسعى إليه، فإننا نكون قادرين على اختيار الألم الذي نأتي به إلى حياتنا. هذا الاختيار هو ما يجعل للألم معنى، وبالتالي هو ما يجعلنا نحس بأن لحياتنا معنى.

وبما أن الألم هو الثابت العام الشامل في الحياة، فإن فرص النمو انطلاقًا من الألم هي ثابت من ثوابت الحياة أيضًا. لا يلزمنا أكثر من الامتناع عن تخدير ذلك الألم وعن الإشاحة بوجوهنا بعيدًا عنه. لا يلزم إلا أن ننغمس فيه ونعثر على ما فيه من قيمة ومن معنى.

الألم هو المصدر لكل قيمة. وإذا خدّرنا أنفسنا تجاه ألمنا، فإننا نخدر أنفسنا تجاه أي شيء له قيمة وأهمية في العالم[1]. الألم هو ما يفتح الهوّات الأخلاقية التي تصير في آخر الأمر قيمًا ومعتقدات نتمسّك بها أشدّ تمسّك. وعندما ننكر على أنفسنا القدرة على الإحساس بالألم من أجل غاية من الغايات، فإننا ننكر على أنفسنا القدرة على الإحساس بأيّ غاية لحياتنا.

(1) هذا هو السبب الذي يجعل الإدمان يضع المرء في مسار لولبي منحدر: إن تخدير أنفسنا لحجب الألم يحجب عنا أيضًا المعنى والقدرة على العثور على قيمة في أي شيء، وبالتالي فهو يولّد ألمًا أكبر فيحرّض على قدر أكبر من التخدير للتغلب عليه. يتواصل هذا الأمر إلى أن يبلغ المرء «القاع»، أي إلى أن يبلغ مكانًا يشتد فيه الألم إلى حد يصير فيه تخديره غير ممكن. السبيل الوحيد للتخفف من هذا الألم هو تقبله والنمو.

الفصل الثامن

اقتصاد المشاعر

لم تكن النساء يدخنّ في عشرينات القرن الماضي - وإذا فعلن ذلك، فإنهن يصرن موضع انتقاد شديد. كان ذلك أشبه بشيء محرّم. ففي ذلك الوقت كان الناس يرون أن التدخين يجب أن يكون مقتصرًا على الرجال مثله مثل الدراسة الجامعية أو الترشّح إلى انتخابات الكونغرس. «من الممكن أن تؤذي نفسك، يا حبيبتي. والأسوأ أن من الممكن أن تحرقي شعرك الجميل».

لكن هذا الأمر كان مشكلة بالنسبة إلى شركات صنع السجائر: إن نصف السكان لا يدخنون السجائر التي تصنعها، لا لسبب إلا لأن ذلك غير مألوف، أو لأنه يعتبر قلّة تهذيب. لا يصح أن يستمر الأمر هكذا! لقد قال رئيس الشركة الأميركية للتبغ في ذلك الوقت، جورج واشنطن هيل: «إنه منجم ذهب موجود في فناء بيتنا». حاولت تلك الشركات الترويج للتدخين بين النساء، إلا أن ذلك المسعى بدا غير ناجح. لقد كان الموقف الثقافي المسبق المضاد لتدخين النساء شديد التجذّر، شديد العمق.

قرّرت «الشركة الأميركية للتبغ» في سنة 1928 أن تستعين بإدوارد برنايز الذي كان خبير تسويق وشابًا لامعًا لديه أفكار جامحة وحملات تسويقية أكثر جموحًا[1]. كانت أساليب برنايز التسويقية في ذلك الوقت

---

(1) قصة إدوارد برنايز في هذا الفصل مستمدة من البرنامج الوثائقي الرائع لآدم كورتيز بعنوان *«قرن الذات»*، بي بي سي4، المملكة المتحدة، 2002.

مختلفة تمام الاختلاف عن أساليب غيره من العاملين في قطاع التسويق. فخلال القرن التاسع عشر، كان الناس يعتبرون التسويق مجرد وسيلة للإعلان عن الفوائد الحقيقية الملموسة للمنتج من خلال أبسط الطرق الممكنة وأكثرها اختصارًا. كانوا يرون في ذلك الوقت أن المستهلكين يشترون المنتجات استنادًا إلى الحقائق والمعلومات. فإذا أراد شخص أن يشتري جبنًا، فإن عليك أن تقدّم إليه الحقائق التي تبيّن ما يجعل الجبن الذي تبيعه متميّزًا («مصنوع من حليب الماعز الفرنسي الطازج، مخمّر اثني عشر يومًا، منقول في حاويات مبرَّدة!»). وكان الناس معتبَرين فاعلين عقلانيين، يتّخذون قرارات شراء عقلانية. كان ذلك هو الافتراض «الكلاسيكي»: الدماغ المفكّر هو الذي يتولى القيادة.

لكن برنايز كان شخصًا غير تقليدي. لم يكن مقتنعًا بأن الناس يتخذون قرارات عقلانية معظم الوقت. بل كان مقتنعًا بعكس ذلك تمامًا. رأى برنايز أن الناس عاطفيون وانفعاليون، لكنهم يموّهون هذا الأمر تمويهًا جيّدًا. وكان يرى أن الدماغ الذي يشعر هو الذي يتولّى القيادة من غير أن ينتبه أحد إلى ذلك.

ففي حين كانت صناعة التبغ تركّز على إقناع النساء بشراء السجائر وتدخينها من خلال حجج منطقية، رأى برنايز أن المسألة عاطفية/ انفعالية وثقافية. إذا أراد أن تدخن النساء، فعليه أن يجتذبهن من خلال قيَمهن لا أفكارهنّ. كان عليه أن يخاطب هويات النساء.

وحتى يتمكّنّ من فعل هذا، استعان برنايز بمجموعة من النساء وجعلهنّ يشاركن في «استعراض أحد الفصح» في مدينة نيويورك. في يومنا هذا، صارت الاستعراضات الكبيرة في العطلات أمرًا مبتذلًا يمكنك أن تغفو قليلًا وأنت جالس على الأريكة في بيتك تتابعه على شاشة التلفزيون. وأما في تلك الأيام، فقد كانت الاستعراضات حوادث اجتماعية كبرى تستقطب اهتمام الناس جميعًا.

تمثّلت خطة برنايز بأن تتوقّف أولئك النسوة جميعهنّ، في اللحظة المناسبة، ويُشعلن سجائرهنّ في وقت واحد. استأجر مصوّرين لكي يلتقطوا صورًا جميلة للنساء المدخّنات، ثم نَشَرَ تلك الصور في الصحف الكبرى كلّها. لقد قال للمراسلين الصحافيين إن أولئك النسوة لم يكنّ يُشعلن السجائر فحسب، بل يُشعلن «مشاعل الحرية» معلنات عن قدرتهنّ على تأكيد استقلاليتهنّ وقدرتهنّ على امتلاك أنفسهنّ.

كان ذلك كلّه كلامًا زائفًا، بالطبع؛ لكن برنايز جعله يظهر كما لو أنه نوع من الاحتجاج السياسي. كان يعرف أن من شأن هذا أن يطلق شرارة المشاعر المطلوبة في قلوب النساء في مختلف أنحاء البلاد. كانت الناشطات النسويات قد تمكنّ من اكتساب حق المرأة في التصويت قبل تسع سنين فقط. صارت المرأة تعمل خارج البيت، وصارت أكثر مساهمة في حياة البلاد الاقتصادية. وصارت المرأة تحاول التأكيد على شخصيتها من خلال قص شعرها قصيرًا وارتداء ملابس أكثر بهجة. نظرت نساء ذلك الجيل إلى أنفسهنّ باعتبارهنّ الجيل الأول الذي صار قادرًا على التصرف باستقلالية عن الرجل. وكانت مشاعر كثيرين منهنّ تجاه هذا الأمر شديدة القوة. إذا تمكّن برنايز من إيصال رسالته القائلة «التدخين يعادل الحرية» إلى حركة تحرير المرأة، فسوف... حسنًا، سوف تتضاعف مبيعات التبغ؛ وأما هو فسوف يصير رجلًا ثريًا.

لقد نجح الأمر. بدأت النساء التدخين. ومنذ ذلك الحين، تحقّقت المساواة بين النساء والرجال من حيث فرص الإصابة بسرطان الرئة!

واصل برنايز استخدام هذه «الضربات» الثقافية استخدامًا منتظمًا خلال عقود العشرينات والثلاثينات والأربعينات. لقد أحدث ثورة شاملة في مجال التسويق، واخترع ميدان العلاقات العامة ضمن سياق هذه العملية. هل تدفع مالًا لشخصيات شهيرة جذّابة لكي تستخدم

منتجاتك؟ كانت هذه فكرة برنايز. ابتكار مقالات كاذبة تقوم بدعاية خفيّة لشركتك؟ وهذه أيضًا فكرته. إقامة مناسبات عامّة تثير نقاشًا وخلافًا فتكون وسيلة لاجتذاب انتباه الناس إلى أحد عملائك؟ إنها فكرة برنايز. لقد بدأ قسمًا كبيرًا جدًا من الدعاية والتسويق اللذين نتعرّض له اليوم مع برنايز هذا.

لكنْ لدى برنايز أمر مهم آخر: لقد كان ابن أخ سيغموند فرويد!

اكتسب فرويد سمعة سيئة لأنه كان أول مفكّر حديث يذهب إلى أن الدماغ الذي يشعر هو الذي يقود «سيارة الوعي» في حقيقة الأمر. كان فرويد مؤمنًا بأن مشاعر الخجل وقلة الأمان لدى الناس تدفعهم إلى اتخاذ قرارات سيئة، وكذلك إلى الانغماس الزائد في بعض الأشياء كنوع من التعويض عما يشعرون بأنهم مفتقرون إليه. كان فرويد هو من أدرك أن لدينا، في عقولنا، هويات متماسكة وقصصًا نرويها عن أنفسنا، وأننا مرتبطون عاطفيًا بتلك القصص ومستعدون للقتال من أجل الإبقاء عليها[1]. قال فرويد إننا حيوانات، في آخر المطاف: نحن تلقائيون، أنانيون، عاطفيون.

أمضى فرويد معظم حياته مفلسًا. لقد كان نموذجًا للمثقف الأوروبي: شخص منعزل، واسع المعرفة، لديه مَيْل عميق إلى الفلسفة. إلا أن برنايز كان أميركيًا! كان شخصًا عمليًا؛ وكان لديه الدافع. إلى الجحيم بالفلسفة كلّها! لقد أراد الرجل أن يصير ثريًا. وقد أدرك أن أفكار فرويد (مترجمة

---

(1) في واقع الأمر، هذا هو معنى الذات (إيغو)، بحسب فرويد: قصصنا الواعية عن أنفسنا والمعركة التي لا تنتهي من أجل المحافظة على تلك القصص وحمايتها. إن امتلاك المرء ذاتًا قوية أمر صحي من الناحية النفسانية. وهو يجعله مرنًا واثقًا من ذاته. لكن مصطلح «إيغو» تعرّض إلى تشويه شديد في أدبيات المساعدة الذاتية بحيث صار يعني «النرجسية» من حيث الأساس.

عبر منظور التسويق) قادرة على أن تدرّ عليه مالًا كثيرًا[1]. أدرك برنايز، من خلال فرويد، شيئًا لم يسبقه إلى إدراكه أحد غيره في ميدان الأعمال: إذا استطعت الاستعانة بمخاوف الناس وإحساسهم بقلّة الأمان، فسوف يشترون أي شيء تقول لهم أن يشتروه!

يجري تسويق السيارات القوية بين الرجال باعتبارها وسيلة للتأكيد على القوة والموثوقية. ويجري تسويق موادّ التجميل لدى النساء باعتبارها سبيلًا إلى أن تصير المرأة محبوبة أكثر وتجتذب قدرًا أكبر من الانتباه. يجري تسويق البيرة على أنها شيء ممتع يستقطب الاهتمام في الحفلات.

وبالطبع، فإن هذه كلّها حيَل تسويقية. ونحن نحتفي بها اليوم - كعادتنا - باعتبارها قطاعًا من قطاعات الأعمال. يكون البحث عن «النقاط المؤلمة» لدى المستهلك من أول الأشياء التي تتعلّمها عندما تدرس التسويق... ثم تتعلّم كيف تستطيع، خفية، أن تجعلها مؤلمة أكثر. الفكرة هي أن تحرّك إحساس الناس بالخجل وقلة الأمان، ثم تستدير إليهم وتقول لهم إن منتجك سيزيل عنهم ذلك الخجل وسيخلّصهم من إحساسهم بقلّة الأمان. لكن من الممكن أيضًا أن ننظر للأمر من زاوية أخرى لنرى أن التسويق يعمل على تحديد الهوّات الأخلاقية لدى المستهلك، أو على إبرازها، ثم يعرض عليه طريقة لردمها.

---

(1) في ثلاثينات القرن العشرين، أظن أن شعور برنايز تجاه الأمر قد صار سيئًا في العقد الرابع من القرن العشرين، وذلك لأنه هو من جعل من فرويد ظاهرة عالمية. كان فرويد مفلسًا يعيش في سويسرا خائفًا من النازية، فلم يكتف برنايز بنشر أفكاره في الولايات المتحدة، بل أوصلها إلى الشهرة من خلال قيامه بجعل بعض المجلات الكبرى تكتب مقالات عنها. وأما سبب استمرار شهرته بين الناس حتى يومنا هذا فهو في أكثره عائد إلى أساليب برنايز التسويقية التي كانت - مصادفة - قائمة على نظرياته.

فمن ناحية أولى، ساهم هذا كلّه في إنتاج كل ما نراه الآن من تنوّع وثراء اقتصاديين. وأما من ناحية ثانية، عندما تتزايد الرسائل التسويقية المصمَّمة من أجل زيادة الإحساس بالنقص وقلّة الأمان ونرى آلاف الرسائل الإعلانية التي تستهدف كل شخص، في كل يوم، فلا بد أن تكون هناك عواقب نفسية لهذا الأمر. ولا يمكن أن تكون تلك العواقب أمرًا حسنًا.

المشاعر هي ما يجعل العالم يدور ويستمر

يدور العالم من حول شيء واحد: إنه المشاعر.

هذا لأن الناس ينفقون المال على الأشياء التي تجعلهم يشعرون شعورًا طيبًا. وعندما يتدفّق المال تتدفّق القوة أيضًا. إذًا، عندما تكون قادرًا على التأثير على مشاعر الناس في العالم، فإنك تكون قادرًا على جمع مزيد من المال ومزيد من النفوذ.

والمال في حدّ ذاته شكل من أشكال التبادل مستخدم لمعادلة الهوّات الأخلاقية بين الناس. يقوم المال بدور «دِين عالمي مصغّر خاص» نعتنقه جميعًا لأنه يجعل حياتنا أكثر سهولة، بعض الشيء. وهو مستخدم دائمًا لتحويل قيَمنا إلى شيء عام عندما يتعامل أحدنا مع الآخر. أنت تحب القواقع والأصداف البحرية. وأنا أحب تسميد التربة بدماء أعدائي. أنت تقاتل في جيشي؛ وعندما نعود إلى الديار، سأجعلك غنيًا بالقواقع والأصداف البحرية. هل اتفقنا؟

هكذا ظهر الاقتصاد البشري[1]. نعم، لقد بدأ بسبب وجود عدد من الملوك والأباطرة الغاضبين الذين يريدون ذبح أعدائهم. لكنهم كانوا

(1) انظر الفصل الرابع، الهامش 26.

مضطرين إلى تقديم شيء ما إلى جنودهم مقابل ذلك. وهكذا فقد سكّوا النقود لتكون دَينًا عليهم (أو هوة أخلاقية) لجنودهم يستطيعون «إنفاقه» (موازنته) عندما يعودون إلى الديار (إذا عادوا).

وبطبيعة الحال، لم يتغيّر الأمر كثيرًا بعد ذلك. كان العالم يدور من حول المشاعر آنذاك؛ وهو يدور من حول المشاعر الآن. كل ما تغيّر هو الأدوات التي نستخدمها من أجل ذلك. وليس التقدّم التكنولوجي إلا مظهرًا من مظاهر اقتصاد المشاعر. فعلى سبيل المثال، لم يحاول أحد أبدًا اختراع قطعة حلوى قادرة على الكلام. فلماذا؟ لأنها ستكون أمرًا غريبًا مخيفًا... فضلًا عن أنها لن تكون جيدة من الناحية الصحيّة. بدلًا من ذلك، يجري البحث في الأساليب التكنولوجية واختراعها من أجل... نعم، صرنا نعرف هذا الآن... من أجل جعل الناس يشعرون شعورًا أفضل (أو منعهم من أن يشعروا شعورًا أسوأ). قلم الحبر الجافّ، ومقعد مدفأ أكثر راحة، وأطواق أفضل من أجل مواسير المياه في بيتك... تُجنى ثروات، وتُفقد ثروات، في أمور تعين الناس على تحسين حياتهم أو على تفادي الألم. هذه الأشياء تخلق شعورًا طيبًا. يشعر الناس بالإثارة. ينفق الناس المال. وعندها، تأتي الثروة.

هناك طريقتان لخلق القيمة في السوق:

1 - **الابتكار والتجديد (تطوير الألم).** الطريقة الأولى لخلق القيمة هي أن نستبدل بالألم ألمًا آخر يكون محتمَلًا أكثر أو مقبولًا أكثر. إن الابتكارات الطبية والصيدلانية لمنَ الأمثلة الأشد وضوحًا وقسوة. تمكّن لقاح شلل الأطفال من استبدال ألم وخزة الإبرة الذي يستمر بضع ثوانٍ بألم وعجز يستمران طيلة الحياة. وأتت الجراحة القلبية فأحلّت ألم الاضطرار إلى الانتظار أسبوعًا أو أسبوعين حتى التعافي محل الموت نتيجة فشل القلب.

2 - **التسلية الألُهيات (تفادي الألم)**. الطريقة الثانية لخلق القيمة في السوق هي مساعدة الناس في تخدير ألمهم. ففي حين يؤدّي تطوير الألم إلى إعطاء الناس ألمًا «أفضل»، لا يفعل تخدير الألم أكثر من تأجيله؛ وغالبًا ما يجعله أكثر شدّة. تشبه التسلية رحلة إلى شاطئ البحر في عطلة نهاية الأسبوع، أو ليلة يمضيها المرء في الخارج مع الأصدقاء، أو فيلمًا فيه ممثل متميّز، أو شم الكوكايين! ليست التسلية شيئًا خاطئًا بالضرورة، فكلّنا في حاجة إليها من وقت لآخر. لكن المشكلة تحدث عندما تبدأ التسلية والألهيات الهيمنة على حياتنا والتحكّم بإرادتنا رغمًا عنا. هناك تسليات وألهيات كثيرة تحرّك دارات في دماغنا فتجعل تلك الدارات مصابة بالإدمان. كلما أكثرت من تخدير ألمك، كلّما صارت عودة هذا الألم أكثر شدة. وهذا ما يدفعك إلى تخديره أكثر من ذي قبل. وعند نقطة ما، تصبح «كرة الألم» المتدحرجة كبيرة الحجم إلى حدٍّ يجعلك غير قادر على مقاومة حاجتك إلى تخديرها. إنك تفقد التحكّم بنفسك: يكون دماغك الذي يشعر قد حبس دماغك الذي يفكّر «في صندوق السيارة»، بحيث لا يسمح له بالخروج قبل أن يحصل على «التخدير» الذي يطالب به. وهكذا، يتواصل التدهور.

عند بداية الثورة العلمية، كان القسم الأكبر من التقدم الاقتصادي ناتجًا عن التجديد والابتكار. كانت أكثرية الناس العظمى تعيش في الفقر آنذاك. كان الجميع يعانون المرض والجوع والبرد والتعب، معظم الوقت. وكانت قلّة من بينهم قادرة على القراءة. كانت أسنان أكثرهم في حالة بالغة السوء. لم تكن عيشتهم لطيفة على الإطلاق! وخلال مئتي سنة أعقبتا ذلك، ومع ابتكار الآلات، والمدن العصرية، وتقسيم العمل،

والطب الحديث، وأساليب الوقاية الصحية، والحكومة التمثيلية، زال من حياة الناس القسم الأكبر من الفقر ومن المشقّة. أنقذت اللقاحات والأدوية أرواح الملايين. وخفّضت الآلات أعباء العمل الفادحة، وأدّت إلى تراجع الجوع في العالم كلّه. لا شك أبدًا في أن الابتكارات التكنولوجية التي قلّلت معاناة البشر شيء جيّد فعلًا.

لكن، ماذا يحدث عندما يبلغ عدد كبير من الناس مستوى مرتفعًا نسبيًا من الصحة والثروة؟ عند تلك النقطة، يتحوّل القسم الأكبر من النشاط الاقتصادي من الابتكار والتجديد إلى التسلية، ومن تقليل الألم («تطوير الألم») إلى تجنّب الألم. إن من أسباب حدوث هذا الأمر هو أن الابتكار والتجديد أمران صعبان محفوفان بالمخاطر. وكثيرًا ما يكونان غير مجزيَيْن. هناك كثير من الاختراعات المهمّة في التاريخ التي تركت أصحابها مفلسين معوزين[1]. إذا أراد شخص أن يؤسس شركة وأن يتحمّل المخاطر، فإن التوجّه إلى العمل في قطاع التسلية والترفيه أكثر أمانًا بالنسبة إليه. نتيجة هذا، فقد بنينا حضارة صار أكثر ما فيها من «التحديث والابتكار» التكنولوجي متركزًا على كيفية تقديم التسلية بطرق جديدة بحيث تكون أكثر فعالية (وأصعب مقاومة). لقد قال الرأسمالي المغامر بيتر ثيل ذات يوم: «كنا نريد سيارات قادرة على الطيران، لكننا حصلنا على تويتر».

عندما تتحوّل وجهة الاقتصاد الأولى إلى التسلية، فإن الثقافة تبدأ التحوّل أيضًا. وعندما يتقدّم بلد فقير ويصير قادرًا على توفير الأدوية والهواتف وغيرها من التطبيقات التكنولوجية المبتكرة، فإن مقياس مدى رخاء عيش الناس يتّخذ اتجاهًا صاعدًا لأن ألم كل شخص

(1) من أمثلة هذا يوهان غوتنبرغ، وآلان تورين، ونيكولا تسلا.

«يتطوّر» ليصير ألمًا أفضل. وبعد أن يصل ذلك البلد إلى مستوى بلدان العالم الأول، فإن مقياس رخاء العيش يكفّ عن الارتفاع، بل يهبط بعض الأحيان[1]. وفي أثناء ذلك، من الممكن أن تكثر الأمراض العقلية وحالات الاكتئاب والقلق[2].

يحدث هذا لأن انفتاح مجتمع من المجتمعات وحصوله على التكنولوجيا الحديثة، يجعل الناس أكثر قوة وأقل هشاشة. يصيرون قادرين على تحمّل قدر أكبر من المشقّة، وعلى العمل بمزيد من الكفاءة، وعلى التواصل والحركة بشكل أفضل ضمن مجتمعاتهم.

وبعد أن تصير هذه الابتكارات التكنولوجية مترسّخة في المجتمع، ويصير كلّ شخص قادرًا على الحصول على هاتف خليوي وعلى وجبة ماكدونالدز ممتازة، فإن أشكال التسليات الحديثة الكبرى تدخل السوق. ومع ظهورها، تظهر الهشاشة النفسية أيضًا، ويبدو كما لو أن كل شيء قد ساء[3].

---

(1) أ. ت. جيب وآخرون: «السعادة والدخل المرتفع ونقاط الانعطاف في أنحاء العالم»، *سلوك الإنسان في الطبيعة* 2، العدد 1 (2018): 33.

(2) م. ماكميلن: «البلدان الأكثر غنى لديها مستويات أعلى من الاكتئاب»، WebMD، 26 تموز 2011.

https://www.webmd.com/depression/news/20110726/richer - countries - have - higher - depression - rates

(3) ها هي نظرية ممتعة توصّلت إليها في موضوع الحرب والسلم: الفرضية الشائعة عن الحرب هي أنها تبدأ لأن جماعة من الناس تكون في وضع مؤلم ولا يعود لديها خيار غير القتال من أجل بقائها. فلنسم هذا نظرية «لا شيء نخسره» في الحرب. غالبًا ما توضع نظرية لا شيء نخسره ضمن إطار ديني: الإنسان الصغير الذي يحارب قوى الفساد من أجل الحصول على نصيبه العادل، أو العالم الحر القوي يتّحد من أجل إنهاء الطغيان الشيوعي. هذه قصص صالحة لأفلام إثارة عظيمة. وهذا لأنها سهلة الابتلاع، ولأنها قصص محمّلة بقيم تساعد في توحيد

لقد افتُتِح العصر التجاري في أوائل القرن العشرين مع اكتشاف برنايز

= الأدمغة التي تشعر لدى جماهير الناس. لكن الواقع ليس على هذه الدرجة من البساطة، بطبيعة الحال.

لا يبدأ الناس الثورات لمجرد أنهم مضطهدون مقموعون. حتى الطغاة يعرفون هذا! إن الناس الذين يظلّون زمنًا طويلًا في حالة ألم دائم يتوصّلون إلى تقبل هذا الألم وإلى رؤيته أمرًا طبيعيًا. فمثلما يحدث للكلب الذي نسيء معاملته، يصير أولئك الناس طيعين، منفصلين عن واقعهم الصعب. هذا ما يجعل كوريا الشمالية تستمر هذا الزمن كله على الرغم من وضعها الحالي. وهذا ما جعل انتفاضات العبيد العنيفة في الولايات المتحدة الأميركية أمرًا نادرًا.

اسمحوا لي بطرح فكرة مفادها أن الثورات تبدأ بسبب المتعة أو المسرّة. عندما تصير الحياة مريحة، ينخفض مستوى تحمل الناس للعناء والألم إلى نقطة يصيرون عندها مستعدين لرؤية أصغر الصغائر تجاوزًا فاضحًا لا يجوز السكوت عنه. ونتيجة هذا، فإنهم يفقدون صوابهم.

إن الثورة السياسية امتياز. فأنت تركّز على البقاء عندما تكون فقيرًا جائعًا. أنت لا تملك من الطاقة، ولا من الإرادة، ما يكفي لأن ينشغل بالك بشؤون الحكومة. إنك تحاول تدبّر أمرك من أجل الأسبوع القادم!

إن كان هذا يبدو كلامًا فارغًا، فعلي التأكيد أنني لم آت به من عندي. إن المنظّرين السياسيين يسمّون هذه الحالات «ثورات التطلعات الصاعدة». والواقع أن المؤرخ الشهير ألكسيس دو توكفيل هو من أشار إلى أن القسم الأكبر من الناس الذين أطلقوا شرارة الثورة الفرنسية لم يكونوا من جماهير الفقراء التي «اقتحمت الباستيل»، بل كانوا أشخاصًا من مقاطعات وأحياء غنية. وعلى النحو نفسه، لم تنطلق الثورة الأميركية من عند المستوطنين الذين يعانون مشقة العيش، بل من عند النخب الثرية من مالكي الأراضي الذين اعتقدوا أن زيادة الضرائب انتهاك لكرامتهم وحريتهم. (هناك بعض الأشياء التي لا تتغير أبدًا!).

وأما الحرب العالمية الأولى، تلك الحرب التي شارك فيها اثنان وثلاثون بلدًا، وقتل فيها سبعة عشر مليون إنسان، فقد بدأت لأن الرصاص أطلق في صربيا على شخص نمساوي ثري. في ذلك الوقت، كان العالم أكثر ازدهارًا من الناحية الاقتصادية، وأكثر عولمة من أي زمن سبقه في التاريخ. ظنّ قادة العالم أن اندلاع نزاع كوني كبير أمر مستحيل. وما كان أحد منهم مستعدًا لخوض هذه المغامرة المجنونة التي تعني خسارة الكثير. =

أن من الممكن استخدام رغبات الناس ومشاعرهم اللاواعية في خدمة

= لكن ذلك بالضبط كان ما غامروا به جميعًا.
وعلى امتداد القرن العشرين، اندلعت حروب ثورية كثيرة في أرجاء العالم... من شرق آسيا إلى الشرق الأوسط إلى أفريقيا إلى أميركا اللاتينية. لم يحدث ذلك نتيجة ما كان الناس خاضعين له من قمع أو جوع فالحقيقة أن اقتصاداتهم كانت في نمو. ومع دخولهم حقبة النمو الاقتصادي، صار الناس يكتشفون أن رغباتهم تفوق قدرات المؤسسات القائمة على تلبيتها.
ها هي طريقة أخرى للنظر إلى الأمر: عند وجود قدر كبير من الألم في المجتمع (الناس الجائعون، يمرضون ويموتون، إلخ)، يصاب الناس باليأس ولا يكون لديهم شيء يخسرونه، فيقولون: «اللعنة على كل شيء»، ويشرعون برمي زجاجات المولوتوف في اتجاه أشخاص كبار السن يرتدون بدلات جيدة. وأما عندما لا يكون في المجتمع ذلك القدر من الألم، فإن الناس يصابون بانزعاج أكبر جراء نواقص أقل شأنًا، وذلك وصولًا إلى نقطة يصيرون عندها مستعدين للقيام بأعمال عنيفة من أجل أشياء غبية جدًا (أشياء من قبيل زي الهالوين الذي يرون فيه شيئًا من الإساءة).
ومثلما يكون الفرد في حاجة إلى قدر غير قليل من الألم (ليس كثيرًا جدًا، لكنه ليس قليلًا جدًا) حتى ينمو وينضج ويصير شخصًا كبيرًا بالغًا ذا شخصية قوية، فإن المجتمعات في حاجة أيضًا إلى قدر غير قليل من الألم (إذا كان كبيرًا جدًا، فإنك تحصل على ما تراه الآن في الصومال؛ وإذا كان أقل مما يلزم، فإنك تصير ذلك المعتوه الذي يملأ عدة سيارات شاحنة بالأسلحة الأوتوماتيكية ويذهب لاحتلال أحد المنتزهات الوطنية من أجل... الحرية).
علينا ألا ننسى السبب الذي تقوم النزاعات المميتة من أجله أصلًا: إنها تمنحنا الأمل. إن وجود عدو عقد العزم على محاولة قتلك هو الطريقة الأكثر سرعة لكي تعثر على غاية لك، ولكي تصير حاضرًا في حياتك. ما من شيء أقوى من هذا من أجل دفعنا إلى الاجتماع معًا في مجتمعات بشرية. إنه يمنح دياناتنا إحساسًا كونيًا بالمعنى لا يمكن الحصول عليه بأية طريقة أخرى.
البحبوحة والازدهار هما ما يسبب أزمات الأمل. إنه امتلاك ستمئة قناة تلفزيونية من غير أن تشاهد شيئًا منها. إنه عثورك على خمس عشرة شريكة محتملة على موقع للمواعدة على الإنترنت. لكنك لا ترى أيًا منهن خيارًا جيدًا لك. إنه وجود ألفي مطعم يمكنك الاختيار بينها، لكنك تشعر بالضجر من ذلك الطعام المتماثل كلّه. إن

= البحبوحة والازدهار يجعلان العثور على المعنى أكثر صعوبة، وهما ما يجعل الألم أكثر حدة. وفي آخر المطاف، تصير حاجتنا إلى المعنى أكبر كثيرًا من حاجتنا إلى الرخاء، وذلك حتى لا نضطر إلى مواجهة الحقيقة غير المريحة من جديد.
تمضي الأسواق المالية الشطر الأعظم من وقتها في توسعة القيمة الاقتصادية التي تنتجها. ولكن، في آخر المطاف، عندما تفوق الاستثمارات والتقييمات مقدار الناتج الفعلي، وعندما يصير قدر كبير من المال عالقًا في خطط هرمية رامية إلى التنوع بدلًا من الابتكار والتجديد، فإن سوق المال يتقلّص فيلفظ كل ما فيه من «مال ضعيف» ويطرد شركات كثيرة بولِغ في تقدير قيمتها لكنها لم تكن تضيف قيمة حقيقية إلى المجتمع. وبعد أن ينتهي هذا «التنظيف»، يصير من الممكن استئناف التحديد والتجديد والنمو بعد عملية تصحيح المسار هذه.
وكذلك في «اقتصاد المشاعر/ الانفعالات»، تحدث عملية مماثلة من التوسع - التقلّص. يكون الميل العام سائرًا في اتجاه تقليل الألم من خلال الابتكار والتطوير. لكن الناس ينغمسون أكثر فأكثر، في أوقات الرخاء والازدهار، في الألهيات والتسليات المختلفة وفي المطالبة بحريات زائفة، فيصيرون أكثر هشاشة. وفي آخر الأمر، يصير أولئك الناس قابلين لأن يكونوا غاضبين غضبًا شديدًا تجاه أشياء كانت تبدو تافهة قليلة الشأن قبل جيل أو جيلين فقط. تبدأ الاحتجاجات والإضرابات. ويبدأ الناس خياطة الشعارات على أكمامهم ووضع قبعات غريبة واعتناق «الدين الإيديولوجي» الدارج من أجل إطفاء غضبهم. يصير العثور على الأمل أكثر صعوبة في خضم ذلك التنوع الواسع البرّاق من الألهيات. وفي النهاية، تتصاعد الأمور فتصل نقطة يفعل عندها أحدهم شيئًا غبيًا متطرفًا، من قبيل إطلاق النار على أرشيدوق ما أو قيادة طائرة جامبو 747 واقتحام بناية بها، فتندلع الحرب ويقتل آلاف الناس أو ملايين الناس.
ومع اضطرام الحرب، يبدأ الألم الحقيقي والحرمان الحقيقي. تتهاوى الاقتصادات. ويجوع الناس. ثم تأتي الفوضى. وكلما ازدادت الأمور سوءًا، كلما صار الناس أكثر مقاومة للهشاشة. فقبل ذلك، عندما كانوا يحظون بقنوات تلفزيونية كثيرة وبوظائف مستقرة، لم يكونوا يعرفون بأي شيء يأملون. وأما الآن، فإنهم يعرفون بالضبط ما تنصب عليه آمالهم كلها. السلم، والصلح، والراحة. ويؤدي أملهم هذا إلى توحيد الناس الذين كانوا ممزقين، يائسين، تحت راية دين واحد. =

= وبعد أن تنتهي الحرب، وتظلّ ذكريات الخراب الشامل في أذهان الناس، يبدأ أولئك الناس الأمل في أشياء أكثر بساطة: أسرة مستقرة، ووظيفة ثابتة، وطفل آمن... طفل آمن حقًا... وليس آمنًا على طريقة «لا تتركوه يلعب في الخارج وحيدًا».

يعاد بدء دورة الأمل في المجتمع كله. ثم تلي ذلك حقبة من السلم والازدهار (نوعًا ما).

هناك مكون أخير لهذه النظرية البلهاء لم أقله بعد: عدم المساواة. فخلال فترات الرخاء والازدهار، يصير الاقتصاد مدفوعًا بالألهيات، أكثر فأكثر. وبما أن الألهيات تتوالد بسهولة - فمن ذلك الذي لا يريد مشاهدة فيلم «آفنجرز» الجديد؟ - فإن الثروة تصير مفرطة التركيز في أيدٍ أقل عددًا. ويعمل هذا التفارق الكبير في الثروة على تغذية «ثورة التوقّعات المرتفعة». يشعر كل إنسان بأن من المفترض أن تكون حياته أحسن، وأنها ليست مثلما كان متوقعًا. ليست الحياة خالية من الألم مثلما كانوا يأملون. وبالتالي، فإن الناس يصطفون وفق الخطوط الإيديولوجية - أخلاقيات السادة هنا، وأخلاقيات العبيد هناك، ثم يبدأ القتال.

وفي خضم القتال والدمار، لا يكون لدى أحد وقت من أجل الألهيات. فالحقيقة أن الألهيات في ذلك الزمن يمكن أن تؤدي إلى مقتلك.

لا... في زمن الحرب، يكون كل شيء متجهًا إلى تحقيق التفوق على العدو. وحتى تحقّق تفوقًا، فإن عليك أن تستثمر في الابتكار، وفي التجديد. لقد كانت الأبحاث العسكرية المحرك الأكبر خلف أعظم الابتكارات في تاريخ البشر. لا يقتصر فعل الحرب على استعادة التوازن بين آمال البشر وهشاشتهم، بل إنها أيضًا (للأسف) الشيء الوحيد الذي يعيد ضبط عدم المساواة في الثروة. إنها شكل آخر من أشكال دورة الازدهار/ الركود. لكن، هذه المرة، وبدلًا من أن يكون الأمر مقتصرًا على الأسواق المالية أو على هشاشة الناس، فإنه يصير سباقًا من أجل الغلبة السياسية.

الحقيقة المحزنة هي أن الحرب ليست جزءًا أصيلًا من الوجود البشري فحسب، بل من المحتمل كثيرًا أن تكون أيضًا ناتجًا ثانويًا ضروريًا لوجودنا نفسه. إنها ليست شائبة في مسار التطور، بل هي سمة من سماته. فعلى امتداد ثلاثة آلاف وأربعمئة سنة مضت، لم يتجاوز عدد سنوات السلم التي عاشها الناس مئتين وستة وثمانين سنة. هذا لا يكاد يبلغ ثمانية بالمئة من امتداد التاريخ المكتوب كله. =

التسويق[1]. لم يكن برنايز مهتمًا بالبنسلين، ولا بالجراحة القلبية. لقد كان يروّج للسجائر وللمجلات الشعبية التافهة ومنتجات التجميل - أي لأشياء لا يحتاجها الناس. حتى ذلك الوقت، لم يكن أحد قد توصل إلى اكتشاف كيفية جعل الناس ينفقون أموالًا طائلة على أشياء ليست ضرورية من أجل حياتهم.

جلب ابتكار التسويق «فورة ذهب» حديثة لإشباع سعي الناس خلف السعادة. ظهرت ثقافة البوب، وصار المشاهير والرياضيون فاحشي الثراء. وللمرة الأولى، بدأت منتجات الرفاهية تُنتج بكميات كبيرة وتُسوّق ويعلن عنها لأبناء الطبقات الوسطى. حدث نمو انفجاري في التقنيات المريحة: الوجبات الجاهزة التي يسخّنها المرء في المايكروويف، والمأكولات السريعة، والمفروشات الوثيرة، والمقالي والقدور التي

= الحرب ناتج طبيعي من نواتج آمالنا المغلوطة. وهي الموضع الذي يجري فيه اختبار أدياننا من حيث فائدتها وقدرتها على خلق التضامن. إنها ما يشجع الابتكار، وهي ما يحفزنا إلى العمل والتطور.

وهي أيضًا الشيء الوحيد الذي يكون قادرًا دائمًا على جعل الناس يتجاوزون سعادتهم الخاصة فتنشأ لديهم فضيلة الشخصية الحقيقية التي تجعلهم يطورون قدرتهم على تحمل الألم وعلى القتال والعيش من أجل شيء يتجاوز أنفسهم.

من الممكن جدًا أن يكون هذا هو السبب الذي جعل الرومان والإغريق القدامى يعتقدون بأن الفضيلة تستلزم الحرب. فلا بد من تواضع وشجاعة أصيلين، ليس من أجل الحرب وحدها، بل حتى يكون المرء شخصًا جيدًا. إن العناء يجعلنا نُظهر أحسن ما فينا من خصال. وبمعنى من المعاني، فإن الفضيلة والموت يسيران يدًا بيد، على الدوام.

(1) ليس تعبير «العصر التجاري» إلا شيئًا من عندي... إن أردنا الصدق! فما يشير إليه هذا التعبير، كما أظن، هو حقبة ما بعد التصنيع، أي ذلك الزمن الذي بدأ فيه توسّع التجارة وصولًا إلى إنتاج سلع لا ضرورة لها. إنني أعتبره شيئًا أشبه بما سماه رون دافيسون «الاقتصاد الثالث». انظر ر. دافيسون، *«الاقتصاد الرابع: اختراع الحضارة الغربية»*، كتاب أصدره صاحبه بنفسه في سنة 2011.

لا يلتصق بها الطعام، وهكذا دواليك. صارت الحياة شديدة السهولة، وصارت سريعة فعّالة لا تتطلّب جهدًا بحيث أصبح الناس، خلال فترة قصيرة لا تتجاوز مئة عام، قادرين على حمل الهاتف وإنجاز ما كان يتطلّب إنجازه شهرين من العمل خلال دقيقتين فقط.

على الرغم من أن الحياة في العصر التجاري كانت أكثر تعقيدًا مما كانت في أزمان سابقة عليه، فقد بقيت حياةً بسيطة نسبيًا مقارنة بالحياة التي نعيشها في أيامنا هذه. كانت هناك طبقة وسطى ضخمة نشطة ضمن ثقافة متجانسة. وكانوا يتابعون القنوات التلفزيونية نفسها ويستمعون إلى الموسيقى نفسها ويأكلون الطعام نفسه ويسترخون على أنواع متشابهة من الأرائك ويقرأون المجلات والصحف نفسها. كان هناك تواصل وانسجام في تلك الحقبة؛ وهذا ما أنتج إحساسًا بالأمان يرافق ذلك التواصل والانسجام. ولفترة من الزمن، كنا جميعًا أحرارًا على الرغم من كوننا جزءًا من «الدين» نفسه. كان هذا أمرًا مريحًا. ونحن ميّالون - في الغرب على الأقل - إلى إضفاء صبغة مثالية على تلك الحقبة على الرغم مما كان فيها من خطر الفناء النووي. وأظن أن نسبة كبيرة من الناس الذين يبدون الآن حنينًا إلى تلك المرحلة لا يفعلون ذلك إلا بسبب ما كان فيها من إحساس بالانسجام والتماسك الاجتماعيين.

ثم جاء الإنترنت.

إن الإنترنت ابتكار أصيل بكل معنى الكلمة. فعند تساوي الشروط الأخرى كلّها، نجد أن الإنترنت قد حَسَّن حياتنا تحسينًا جوهريًا.

لكن المشكلة... أين المشكلة؟... حسنًا، إن المشكلة فينا نحن.

لقد كانت «نوايا» الإنترنت حسنة: كان لدى المخترعين والمشتغلين بالتكنولوجيا في وادي السيليكون، وفي أماكن أخرى، آمال عريضة

في كوكب رقمي. ظلّوا عشرات السنين يعملون من أجل عالم تترابط المعلومات والبشر فيه ترابطًا شبكيًا لا شائبة فيه. كانوا يعتقدون بأن الإنترنت سوف يحرّر الناس ويرفع عنهم قيود الرقابة وتراتبية السلطة، وأنه سيمنح كل شخص قدرة وصول متساوية إلى المعلومات نفسها والفرص نفسها حتى يتمكّن من التعبير عن نفسه. لقد آمنوا بأن العالم سيكون مكانًا أفضل وأكثر حرية إذا كانت لكل شخص قدرة التعبير عن رأيه ووسيلة فعّالة بسيطة لجعل ذلك الرأي متاحًا ومعروفًا للآخرين.

نشأ خلال العقد الأخير من القرن العشرين والعقد الأول من القرن الحادي والعشرين تفاؤل كاد يبلغ مستوى طوباويًا. تصوَّرَ المشتغلون بالتكنولوجيا كوكبًا يصير سكانه من ذوي التعليم العالي ويستفيدون من المعرفة والحكمة التي باتت متاحة لهم بنقرات من أصابعهم. لقد رأوا فرصة لنمو تعاطف وتفاهم أكبر بين الأمم والإثنيات وأنماط الحياة الأخرى. حلموا بحركة عالمية متّصلة موحّدة لها مصلحة مشتركة في السلم والرخاء.

لكنهم نسوا شيئًا!

كانوا غارقين كثيرًا في أحلامهم «الدينية» وآمالهم الشخصية فنسوا ذلك الشيء.

لقد نسوا أن العالم لا يسير بالمعلومات.

لا يتّخذ الناس قراراتهم استنادًا إلى الحقائق أو المعلومات؛ وهم لا ينفقون مالهم استنادًا إلى البيانات؛ وهم لا يتّصلون في ما بينهم من أجل حقيقة فلسفية عليا ما.

إن العالم يسير بالمشاعر، بالعواطف والانفعالات!

عندما تقدِّم للإنسان العادي خزانًا لا نهائيًا من الحكمة والمعرفة البشرية، فلن يبحث في غوغل عن المعلومات التي تناقض ما يتمسّك به من معتقدات. لن يبحث في غوغل عما هو صحيح، لكنه مزعج.

يبحث أكثرنا في غوغل عما يجده سارًّا، وإن يكن غير صحيح. هل أحمل أفكارًا عنصرية منحرفة؟ حسنًا، ها هو منتدى كامل للعنصريين من أمثالي. ولست في حاجة إلى أكثر من نقرتين على لوحة المفاتيح حتى أصل إليه وأجد فيه الكثير من الحجج التي تبدو مقنعة في معرض البرهنة على أنه ما من شيء مخجل في أن تكون لديَّ هذه الميول العنصرية. تهجرك زوجتك فتبدأ التفكير في أن النساء أنانيات شريرات بطبعهن! لا يتطلّب الأمر بحثًا كثيرًا على غوغل حتى تجد تبريرات لهذه المشاعر المعادية للنساء[1]. تظنّ أن المسلمين سيهاجمون مدرسة تلو أخرى ويقتلون أطفالًا! أنا واثق من أنك قادر على العثور في مكان ما على نظرية مؤامرة من هذا النوع، أي على نظرية «تثبت» ذلك!

بدلًا من درء تعبيرنا عن أسوأ مشاعرنا وعن أكثر ميولنا ظلمة، لا تفعل الشركات والمشاريع التكنولوجية الناشئة شيئًا غير الإسراع والاستفادة من هذا كله. وهكذا، فقد صار أعظم ابتكار في زماننا يتحوّل ببطء إلى أكبر أُلهِية يعرفها البشر.

ففي نهاية المطاف، لم يكن الإنترنت شيئًا مصمَّمًا لكي يعطينا ما نحتاج إليه. لقد كان مصمّمًا بحيث يعطينا ما نريده!... أو ما نحن راغبين فيه! وإذا كنا قد تعلمنا في هذا الكتاب شيئًا عن نفسية البشر، فسوف ندرك أن هذه النتيجة خطيرة أكثر مما قد تبدو عليه للوهلة الأولى.

---

(1) هذه مسألة موثّقة جيدًا. انظر كارول كادوالادر، «غوغل، والديمقراطية، وحقيقة البحث في الإنترنت»، *الغارديان*، 4 كانون الأول 2016.
https://www.theguardian.com/technology/2016/dec/04/google - democracy - truth - internet - search - facebook

حرّية زائفة

لا بد أنه زمن غير ملائم لأن تصير رجل أعمال (أو سيدة أعمال) فائق النجاح! فمن ناحية أولى، صارت الأعمال أفضل من أي وقت مضى. الثروة في العالم أكبر من أي وقت مضى. والأرباح تسجّل باستمرار أرقامًا قياسية جديدة. كما أن الإنتاجية والنمو يسيران سيرًا ممتازًا، يدًا بيد. ولكن... يزداد تفاوت الدخل زيادة صاروخية؛ ويُفسد الاستقطاب السياسي كل اجتماع عائلي؛ ويبدو أن الفساد ينتشر انتشارًا وبائيًا في العالم كله.

إذًا... لدينا ازدهار كبير في عالم الأعمال؛ ولدينا أيضًا نوع من النزعة الدفاعية يبدو أحيانًا كما لو أنها مجهولة المصدر تمامًا. وقد لاحظت أن هذه النزعة الدفاعية تتخذ الشكل نفسه دائمًا بصرف النظر عمن يعبر عنها. نسمعها تقول: «إننا نعطي الناس ما يريدونه، فحسب». وسواء نظرنا إلى شركات النفط، أو إلى أصحاب الإعلانات المشبوهين، أو إلى فيسبوك الذي يسرق بياناتك الشخصية، أو إلى أية شركة تفعل أي شيء، مهما يكن ذلك الشيء، فإننا نجد إصرارًا لدى الجميع على تذكير الجميع بأنهم يحاولون إعطاء الناس ما يريدونه: سرعات تحميل أكبر، وأجهزة تكييف هواء أكثر راحة، ومحركات ذات أداء أفضل، وآلات أرخص لنزع الشعر من الأنف... فهل يمكن أن يكون هذا كله غير صحيح؟

الحقيقة أنه صحيح. تعطي التكنولوجيا الناس ما يريدونه بسرعة وفعالية أكبر من أي وقت مضى. وفي حين نعشق جميعًا مهاجمة مالكي الشركات الكبرى بسبب سقطاتهم الأخلاقية، فإننا ننسى حقيقة كونهم لا يفعلون شيئًا غير تلبية رغبات السوق. إنهم يوفّرون لنا ما نطلبه. إذا تخلّصنا من فايسبوك، أو بريتيش بتروليوم، أو أية شركة عملاقة نعتبرها شركة شريرة فسوف تقفز شركة أخرى وتحلّ محلها.

قد يعني هذا أن المشكلة ليست كامنة في حفنة من مديري الشركات التنفيذيين الذين يدخّنون السيجار ويقتنون قططًا شريرة ويضحكون ضحكًا هستيريًا عندما يتحدّثون عن كميات المال الخيالية التي يجنونها. ربما تكون المشكلة كامنة في أن ما نريده سيئ!

فعلى سبيل المثال، لديَّ رغبة في وجود كيس شديد الضخامة من المارشميلو في غرفة نومي. وأريد أن أشتري عزبة بثمانية ملايين دولار من خلال اقتراض مال لن أستطيع تسديده أبدًا. وأريد أن أطير إلى شاطئ جديد في كل أسبوع، على امتداد السنة القادمة كلّها، وألّا أتناول شيئًا من الطعام غيرِ شرائح اللحم التي أحبها على الطريقة اليابانية. ما أريده شيء مخيف حقًا. وهذا لأن دماغي الذي يشعر مسيطر على كل ما أريده، ولأن دماغي الذي يشعر أشبه بشامبانزي لعين مجنون يتناول جرعة من زجاجة تيكيلا ثم يتبوّل فيها!

من هنا، يمكنني القول إن «إعطاء الناس ما يريدونه» حجّة يسهل التذرّع بها، إن أردنا الكلام من الناحية الأخلاقية. لا يصح «إعطاء الناس ما يريدونه» إلا عندما تعطيهم مبتكرات ومخترعات، كأن تقدم إليهم كلية صناعية، أو شيئًا يقي سياراتهم من الاحتراق التلقائي. أعط أولئك الناس ما يريدونه! وأما إعطاء الناس تلك الكمية الفائضة من الأُلهيات والتسالي التي يريدونها فهو لعبة خطيرة جدًا. فمن ناحية أولى، يرغب كثير من الناس في أشياء سيئة فعلًا. ومن ناحية ثانية، إن هناك بشر كثيرون يسهل التلاعب بهم بحيث يصيرون راغبين في أشياء تافهة ليسوا في حاجة حقيقية إليها (فلنتذكّر مثال برنايز وإعلاناته). ومن ناحية ثالثة، فإن تشجيع الناس على تفادي الألم من خلال مزيد ومزيد من التسلية والأُلهيات يجعلنا كلنا أكثر هشاشة وأكثر ضعفًا. ومن ناحية رابعة، لا أريد أن تلاحقني إعلاناتك الملعونة في كل مكان أذهب إليه، ولا أريد

أن ينقّب أحد في حياتي بحثًا عن البيانات التي يستفيد منها المعلنون!... انظر، لقد تحدّثت مع زوجتي في تلك المرّة عن رحلة إلى بلاد اسمها بيرو؛ لكن هذا لا يعني أنني أريد منك أن تملأ هاتفي بصور لـ«ماتشو بيتشو»[1] على امتداد ستة أسابيع. وأيضًا، جديًا، كفّ عن التنصّت على مكالماتي وبيع بياناتي إلى كل من يدفع لك ثمنها[2].

على أية حال... ماذا كنا نقول قبل هذا؟

الغريب أن برنايز قد رأى هذا كلّه مسبقًا. الإعلانات التجارية المزعجة، واقتحام الخصوصية، وهدهدة كميات كبيرة من البشر بحيث يصيرون أقنانًا طيّعين من خلال تلك النزعة الاستهلاكية المجنونة... لقد كان الفتى عبقريًا. لكنه كان شديد الولع بذلك الأمر...! إذًا، فقد صار عبقريًا شريرًا!

كانت معتقدات برنايز السياسية مخيفة. لقد كان مؤمنًا بما أظن أننا

---

(1) ماتشو بيتشو: قلعة تاريخية في جبال الأنديز في بيرو. بنيت في القرن الخامس عشر. وهي الآن وجهة سياحية شهيرة جدًا. (ملاحظة المترجم).

(2) ليس هذا النوع من المراقبة مخيفًا فحسب، بل هو أيضًا توضيح تام لإقدام شركة تكنولوجية على معاملة زبائنها باعتبارهم أدوات، لا غايات. والحقيقة أنني أستطيع القول هنا إن الإحساس بالخوف هو نفسه إحساس المرء بأنه يعامَل على أنه وسيلة فحسب. فعلى الرغم من أننا «نختار بأنفسنا» استخدام هذه الخدمات التي تقوم بجمع بياناتنا، فإننا لسنا مطلعين تمامًا على هذا الأمر و/ أو لسنا مدركين له تمامًا. من هنا ينشأ لدينا إحساس بأن أحدًا لم يستشرنا طلبًا لقبولنا. هذا الإحساس بعدم القبول هو ما يجعلنا نشعر بقلة احترامهم لنا وبأنهم يعاملوننا على أننا مجرد وسائل، وبالتالي هو ما يجعلنا غاضبين. انظر ك. تيفاني: «توضيح الجدل الدائم حول ما إذا كان هاتفك يتنصّت عليك سرًا»، فوكس، 28 كانون الأول 2018.

https://www.vox.com/the - goods/2018/12/28/18158968/facebook - microphone - tapping - recording - instagram - ads

نستطيع تسميته «الفاشية المقنّنة»: أي الحكومة التسلطية الشريرة نفسها، لكن من غير ذلك القدر غير الضروري من قتل الناس بالجملة! كان برنايز يرى أن الناس خطيرين وأن من الواجب ضبطهم والسيطرة عليهم من خلال دولة مركزية قويّة. لكنه أقر أيضًا بأن الأنظمة الشمولية الدموية ليست مثالية لهذه الغاية. ففي رأيه، يتيح علم التسويق الحديث سبلًا ممتازة لتأثير الحكومات على مواطنيها وتهدئتهم من غير حاجة إلى تحمّل أعباء تعذيبهم وتشويههم، سواء كانوا من اليمين أو اليسار أو الوسط[1].

(لو كان ذلك الرجل في حزب سياسي لحقق نجاحًا هائلًا!).

كان برنايز يرى أن الحرية، بالنسبة إلى أكثر الناس، مستحيلة وخطيرة أيضًا. وكان يدرك تمامًا - من خلال قراءة كتابات عمه فرويد - أن آخر ما يجوز أن يتسامح المجتمع تجاهه هو أن يتولّى الدماغ الذي يشعر القيادة في رؤوس الجميع. إن المجتمعات في حاجة إلى نظام، وإلى سلطة، وإلى تراتبية ضمن تلك السلطة؛ إلا أن الحرية نقيض لهذه الأشياء. وقد وجد الرجل في التسويق أداة جديدة ممتازة قادرة على إعطاء الناس «إحساسًا بأنهم أحرار»، في حين أنك لا تعطيهم شيئًا أكثر من بضع نكهات مختلفة من معجون الأسنان يستطيعون أن يختاروا من بينها ما يعجبهم.

ولحسن الحظ، لم تصل الحكومات في الغرب (في معظم الأحوال) إلى هذا الدَّرَك أبدًا بحيث تمارس تلاعبًا مباشرًا بالسكان من خلال الحملات الانتخابية. إلا أن العكس حدث. صار عالم الشركات ماهرًا جدًا في إعطاء الناس ما يريدونه بحيث توصّل إلى إحراز قدر متزايد من النفوذ السياسي بما يواتي مصالحه. لقد خُرِقت الأنظمة. وجرى وضع حد للرقابة والإشراف البيروقراطيين. تآكلت الخصوصية. وصار كثير من

---

(1) لأن التعذيب لا يفي بالمطلوب جيدًا، كما تعرفون!

الناس عالقين في شباك السياسة أكثر من ذي قبل. فلماذا حدث هذا كلّه؟ ينبغي أن نكون قد عرفنا الإجابة: لقد كانوا يعطون الناس «ما يريدونه»!

لكن، دعونا من هذا كله، ولنكن واقعيين: إن «أعط الناس ما يريدونه» ليس إلا حرية زائفة لأن أكثرنا لا يريد شيئًا غير التسلية والألهيات. وعندما يغمرنا طوفان منها، فإن بضعة أشياء سيئة سوف تحدث.

الشيء الأول هو أننا نصير متزايدي الهشاشة. ينكمش عالمنا بما يتناسب مع حجم قيَمنا المتضائلة باستمرار. ويستحوذ علينا السعي إلى الراحة والمسرة. ثم يصير أي تناقص محتمل، أو أية خسارة محتملة، في تلك المسرّة كارثة في نظرنا كما لو أنه هزة أرضية، وكما لو أنه ظلم فادح يصيبنا. أستطيع القول إن تقلُّص مفهوم العالم لدينا ليس حرية؛ إنه نقيض الحرية.

والشيء الثاني الذي يحدث هو أننا نصير أميل إلى تبنّي سلسلة من السلوكات الإدمانية الوضيعة: هاجس التفقّد المستمر للهاتف، والبريد الإلكتروني، وحساب إنستغرام؛ وكذلك الإصرار المَرَضي على متابعة مسلسلات لا نحبها على شبكة نتفلكس، ومشاركة منشورات سيئة لا نقرأها، وقبول دعوات إلى مناسبات وحفلات لا نستمتع بها؛ فضلًا عن السفر إلى أماكن كثيرة، لا لأننا نريد السفر إليها، بل لأننا راغبون في أن نصير قادرين على القول إننا ذهبنا إليها. إن السلوك «القهري» الهادف إلى عيش وتجربة مزيد من الأشياء ليس حرية... من جديد أقول إنه يكاد يكون نقيض الحرية.

الشيء الثالث: إن انعدام القدرة على تحديد وتقبّل والتماس المشاعر السلبية ليس إلا نوعًا من الاحتجاز لتلك المشاعر. إذا كنت لا تشعر بأنك على ما يرام إلا عندما تكون الحياة سعيدة سهلة حلوة... فاحزر ماذا يكون هذا؟ أنت لست حرًا. أنت نقيض الإنسان الحر. أنت سجين

تدليلك نفسك وانغماسك في الأشياء التي تحبّها فقط؛ وأنت عبدٌ لعدم تقبّلك وتسامحك؛ وأنت مُقعد بفعل ضعفك العاطفي/ الانفعالي. سوف تشعر دائمًا بالحاجة إلى مزيد من أسباب الراحة الخارجية، أو من الاعتراف الخارجي الذي قد يأتي... وقد لا يأتي.

إضافة إلى هذا... عجبًا! إنني أحقّق نجاحًا مستمرًا... لدينا ما أسميه مفارقة الاختيار. كلما زادت الخيارات المقدّمة إلينا (أي كلما ازدادت «الحرّية» التي لدينا)، كلما تناقص رضانا إزاء ما نختاره[1]. إذا أتيح لجين أن تختار بين نوعين من حبوب الإفطار، وأتيح لمايك أن يختار من بين عشرين نوعًا، فإن مايك لا يتمتّع بحرّية تفوق ما تتمتّع به جين. إنه يتمتّع بمزيد من التنوّع. هناك اختلاف بين الأمرين! فالتنوّع ليس هو الحرّية. التنوع هو نسخ مختلفة من ذلك الشيء التافه عديم المعنى نفسه. لو كان أمام جين، بدلًا من ذلك، شخص في زيّ الوحدات الخاصّة النازية يحمل مسدسًا مصوبًا إلى رأسها ويصيح بها «كلي حبوب الإفطار هذه!»، فسوف تكون الحرّية المتاحة لجين أقل مما هو متاح لمايك. إن كنتم ترون أن الأمر هكذا، فأرجو أن تخبروني!

هذه هي مشكلة الاحتفاء الزائد بالحرّية على حساب الوعي البشري. لا يجعلنا مزيد من المواد المتوفّرة بشرًا أكثر حرية بل يجعلنا حبيسي قلقنا وتفكيرنا فيما إذا كنا قد اخترنا الشيء الأفضل، أو فعلنا الشيء الأفضل. يجعلنا توفّر مزيد من المواد أكثر ميلًا إلى معاملة أنفسنا ومعاملة الآخرين على أننا وسائل، لا غايات. إنه يجعلنا أكثر اعتمادًا على دورات الأمل التي لا نهاية لها.

---

(1) باري شوارتز، *«مفارقة الاختيار: ما يجعل الأكثر أقل»*، (نيويورك: هاربر كولينز إيكو، 2004).

إذا كانت مطاردة السعادة تشدّنا عائدين إلى المرحلة الطفولية، فإن الحرية الزائفة تدفعنا إلى البقاء هناك. وهذا لأن الحرية ليست هي امتلاك مزيد من أصناف حبوب الإفطار حتى نختار منها، ولا هي مزيد من رحلات الشواطئ التي نلتقط فيها صور «سيلفي» لأنفسنا، ولا مزيد من القنوات الفضائية حتى ننام ونحن ننظر إليها.

هذا ليس حرّية. إنه تنوّع.

وفي الفراغ، يصير التنوع أمرًا لا معنى له. إذا وجدت نفسك عالقًا في الإحساس بعدم الأمان مقعدًا عاجزًا بفعل الشك، مقيدًا بعدم قدرتك على تحمّل أي شيء، فمن الممكن أن يكون أمامك كل ما في العالم من تنوّع وخيارات؛ لكنك لا تكون حرًّا.

الحرّيّة الحقيقيّة

إن الشكل الحقيقي الوحيد من أشكال الحرية، الشكل الأخلاقي الوحيد من أشكال الحرية، هو ما يأتي عبر «وضع حدود للنفس». إنها ليست مزية اختيار كل ما تريده في الحياة، بل هي مزية اختيار ما أنت مستعد للتخلّي عنه في الحياة.

هذه ليست حرية حقيقية فحسب، بل هي الحرية الوحيدة. التنوّع يأتي ويذهب. والمسرّة لا تدوم أبدًا. وكثرة الخيارات تُفقِدها معناها. لكنك تظلّ على الدوام قادرًا على اختيار ما أنت مستعد للتضحية به، وما أنت مستعد للتخلّي عنه.

والمفارقة كامنةٌ في أن هذا النوع من «إنكار الذات» هو الشيء الوحيد الذي يوسّع آفاق الحرية الحقيقية في الحياة. يؤدّي الألم الذي تكابده خلال ممارسة التمرينات الرياضية المنتظمة إلى تعزيز وزيادة حريتك الجسدية في آخر المطاف: قوتك، وحركيتك، وقدرتك على التحمّل،

ونشاطك. إن التضحية التي تستلزمها الأخلاقيات القوية في العمل تعطيك حرية السعي إلى مزيد من فرص العمل، وحرّية التحكّم بمسارك المهني، وكذلك حرية كسب مزيد من المال، مع المزايا التي تأتي نتيجة ذلك كلّه. كما أن استعدادك للدخول في نزاع مع الآخرين يحرّرك بحيث تصير قادرًا على الحديث مع أي شخص، وعلى استكشاف ما إذا كان يشاطرك قيَمك ومعتقداتك، ومعرفة ما يمكن أن يضيفه إلى حياتك وما يمكن أن تضيفه إلى حياته.

يمكنك أن تصير أكثر حرية الآن، في هذه اللحظة، بمجرد اختيار الحدود التي تريد فرضها على نفسك. يمكنك اختيار أن تستيقظ باكرًا في كل صباح، وأن تمتنع في كل يوم عن تفقّد بريدك الإلكتروني حتى فترة ما بعد الظهر، وأن تلغي تطبيقات وسائط التواصل الاجتماعي من هاتفك. سوف تحرّرك هذه القيود لأنها ستحرّر جزءًا من وقتك وانتباهك، وكذلك من قدرتك على الاختيار. إنها حدود تتعامل مع وعيك على أنه غاية في حد ذاته.

ما رأيك في أن تغلب نفسك حتى تذهب إلى الصالة الرياضية، ثم تستأجر فيها خزانة صغيرة تترك بداخلها ملابس العمل لكي يكون عليك أن تذهب وتمارس التمرينات الرياضية في كل صباح. اجعل ذهابك إلى المناسبات الاجتماعية مقتصرًا على مناسبتين في الأسبوع، وذلك حتى تصير مرغمًا على قضاء الوقت مع الناس الذين يهمك أمرهم أكثر من غيرهم. حرّر شيكًا بثلاثة آلاف دولار باسم أحد أصدقائك المقرّبين، أو أحد أفراد عائلتك، وقل لذلك الشخص إن في وسعه أن يصرف الشيك وأن يفعل بالمال أي شيء يريده إذا رآك تدخن سيجارة بعد الآن[1].

---

(1) هناك كمية كبيرة من البيانات التي توضح أن هذا الأمر فعال إلى حد يصعب تصديقه. وهذا مثال آخر على العمل مع دماغك الذي يشعر (في هذه الحالة

وفي آخر المطاف، فإن الحرية ذات المعنى الأكبر في حياتك تأتي من التزاماتك، ومن تلك الأشياء في حياتك التي اخترت التضحية بها. هناك حرّية عاطفية في علاقتي بزوجتي لا أستطيع تعويضها أبدًا حتى إن خرجت مع ألف امرأة أخرى. وهناك حرّية في كوني أعزف على الغيتار منذ عشرين عامًا - هذا تعبير فني عميق - ولست بقادر على الحصول على ما يعادلها إذا اكتفيت بحفظ عشرين أغنية. وهناك حرية في كوني قد عشت في مكان واحد مدة خمسين عامًا - ألفة وعلاقة طيبة بالمجتمع وبالثقافة - لا يمكنني تكرارها مهما ارتحلت في العالم بعد ذلك.

إن قدرًا أكبر من الالتزام يتيح قدرًا أكبر من العمق. وأما قلة الالتزام فهي تقتضي السطحية.

كانت هناك نزعة إلى «حياة الوسائل السهلة» خلال السنوات العشر الماضية. يريد الناس أن يتعلّموا لغة جديدة في شهر واحد، وأن يزوروا خمسة عشر بلدًا في شهر واحد، وأن يصيروا أبطالًا في الفنون القتالية في أسبوع واحد، وهم يبتكرون أنواعًا مختلفة من «الوسائل السهلة» لفعل ذلك. في هذه الأيام، صرت ترى هذا طيلة الوقت على يوتيوب وفي وسائط التواصل الاجتماعي: أشخاص يدخلون تحدّيات سخيفة لمجرد تبيان أن من الممكن فعل تلك الأشياء. إن هذا «السهولة» في الحياة ترقى إلى مرتبة محاولة جني ثمار الالتزام من غير أي التزام فعلي على الإطلاق. إنه شكل حزين آخر من أشكال الحرية الزائفة. إنه «حريرات فارغة» لتغذية الروح.

= إخافة الدماغ الذي يشعر بغية جعله يفعل الشيء الصحيح بدلًا من العمل في مواجهته). إن هذا أمر فعال جدًا إلى حد أن الباحثين الذين درسوه في الأصل أقاموا موقعًا على الإنترنت اسمه (stickk.com) يسمح للناس بعقد اتفاقات من هذا النوع مع أصدقائهم. وفي الحقيقة، فقد استخدمته لكي أتمكن من الالتزام بالموعد النهائي للفراغ من كتابي السابق (وقد نجح الأمر!).

قرأت في الآونة الأخيرة عن شخص حفظ عن ظهر قلب نقلات الشطرنج التي يؤدّيها برنامج حاسوبي حتى يثبت أنه قادر على إتقان الشطرنج في شهر واحد. لم يتعلّم أي شيء عن الشطرنج، ولم يطبق أية استراتيجية، ولم يطبق أي أسلوب، ولم يتعلّم أي تكتيك. أبدًا. لقد تعامل مع الأمر كما لو أنه واجب مدرسي ضخم عليه أن يؤدّيه في البيت. احفظ النقلات، وفز مرة على لاعب متقدّم، ثم اعلن أنك أتقنت اللعبة![1]. هذا ليس فوزًا بأي معنى من المعاني. إنه مجرّد تظاهر بالفوز في شيء ما. إنه تظاهر بالالتزام وبالتضحية، لكن من غير التزام ومن غير تضحية. إنه التظاهر بالمعنى حيث لا وجود لأي معنى.

إن الحرية الزائفة تلقي بنا ضمن دوامة الجري من أجل المزيد؛ وأما الحرّية الحقيقية فهي القرار الواعي بأن يعيش المرء بما هو أقل.

الحرّية الزائفة إدمان: مهما صار لديك، فإنك تشعر دائمًا كما لو أن هذا كله غير كافٍ. الحرية الحقيقية تكرارية، لا مفاجآت كثيرة فيها. بل هي مضجرة بعض الأحيان.

الحرّية الزائفة تَدُرّ عائدات متناقصة: إنها تتطلّب مقدارًا أكبر فأكبر من الطاقة من أجل تحقيق القدر نفسه من المسرّة، ومن المعنى. أما الحرية الحقيقية فتدرّ عائدات متزايدة: إنها تتطلّب طاقة أقل فأقل من أجل تحقيق القدر نفسه من المسرة ومن المعنى.

الحرّية الزائفة هي رؤية العالم كما لو أنه سلسلة لا نهاية لها من الصفقات والتبادلات التي تشعر كما لو أنك تربح فيها. والحرية الحقيقية

(1) انتهى الأمر بأن خسر أمام بطل الشطرنج. وذلك لأن في الشطرنج - كما تبين - مئات ملايين النقلات المحتملة. ومن المستحيل رسم خطة المباراة كلها من البداية حتى النهاية. لا أعتمد هنا على أي مصدر لأن هذا الأمر لا يستحق مزيدًا من الانتباه.

هي النظر إلى العالم نظرة غير مشروطة بحيث يكون النصر الوحيد هو نصرك على رغباتك أنت.

تتطلّب الحرية الزائفة انصياع العالم لإرادتك. ولا تتطلّب الحرية الحقيقية أي شيء من العالم. إنها إرادتك أنت فقط.

وأخيرًا، فإن الوفرة الزائدة في التسلية والأُلهيات، والحرّية الزائفة الناجمة عنها، تحدُّ من قدرتك على عيش حرّيتك الحقيقية. فكلما زادت الخيارات المتاحة لنا، وكلما كثر التنوع المطروح أمامنا، كلما صار الاختيار والتضحية والتركيز أكثر صعوبة. إننا نرى هذا اللغز حيًّا أمامنا في ثقافتنا المعاصرة.

في سنة 2000، نشر روبرت بوتنام، وهو أستاذ العلوم السياسية في جامعة هارفارد، كتابه المَعلمِيّ عميق الأثر «أن تلعب البولينغ وحيدًا: انهيار الجماعة الأميركية وإحياؤها»[1]. يوثّق بوتنام في هذا الكتاب تدهور المشاركة المدنية في أنحاء الولايات المتحدة الأميركية، ويقول إن الناس صاروا أقلّ انضمامًا إلى الجماعات، وأقلّ مشاركة فيها، فهم يفضّلون أداء نشاطاتهم وحدهم. وقد استمدّ عنوان كتابه من هذه الفكرة: صار الناس يلعبون البولينغ أكثر من قبل؛ لكن فرق البولينغ موشكة على الانقراض. إن الناس يلعبون البولينغ وحيدين! لقد كتب بوتنام عن الولايات المتحدة؛ لكن هذه الظاهرة ليست ظاهرة أميركية فقط[2].

على امتداد الكتاب، يبيّن بوتنام أن هذا الأمر غير مقتصر على

---

(1) روبرت بوتنام، «*أن تلعب البولينغ وحيدًا*»، (نيويورك: سايمور وتشوستر، 2001).

(2) ف. ساراسينو: «رأس المال الاجتماعي والميول الموضوعية للرخاء: المقارنة بين أحد عشر بلدًا في أوروبا الغربية»، *مجلة العلوم الاقتصادية الاجتماعية* 39، (2010): 482 - 517.

المجموعات الرياضية ومجموعات الهوايات، بل إن أكثره ممتد إلى كل شيء، من النقابات العمالية إلى «جمعيات الأهالي/ المعلمين»، إلى نوادي الروتاري، إلى الكنائس، إلى نوادي البريدج. وهو يقول إن لهذا التذرّر الاجتماعي تأثيرات بالغة الأهمية: إن الثقة الاجتماعية في تراجع؛ ويصير الناس أكثر عزلة، وأقل ميلًا إلى المشاركة السياسيّة، وأكثر ارتيابًا وحذرًا تجاه جيرانهم[1].

إن الوحدة مشكلة متنامية الأبعاد أيضًا. ففي السنة الماضية، وللمرة الأولى، قالت أكثرية من الأميركيين إنهم يشعرون بالوحدة؛ كما تشير دراسات جديدة إلى أننا نستبدل ببضع علاقات عالية الجودة والقيمة في حياتنا عددًا كبيرًا من العلاقات السطحية المؤقّتة التي تحلّ محلّها[2].

وكما يقول بوتنام، فإن النسيج الاجتماعي الرابط بين الناس في البلاد يتخرّب الآن بفعل فيض الألهيات والتسليات الذي صار كبيرًا جدًا. يذهب بوتنام إلى القول إن الناس صاروا يختارون البقاء في البيت ومتابعة التلفزيون، أو تصفح الانترنت، أو الانشغال بألعاب الفيديو، بدلًا من تخصيص جزء من أوقاتهم لجماعات أو منظمات محلية. وهو يتوقع أن تسير الأمور في اتجاه مزيد من التراجع[3].

من الوجهة التاريخية، وعندما ينظر الغربيون إلى الشعوب المضطهدة في أنحاء العالم، فإنهم لا يأسفون إلا على افتقار تلك الشعوب إلى الحرّية الزائفة، وإلى افتقارها إلى ما في الغرب من تسليات وأُلهيات. لا يستطيع الناس في كوريا الشمالية قراءة الصحف، ولا شراء ملابس يحبّونها، ولا الاستماع إلى موسيقى غير خاضعة لرقابة الحكومة.

---

(1) بوتنام: *«أن تلعب البولينغ وحيدًا»*، ص: 134 - 143.

(2) المصدر السابق، ص: 189 - 246.

(3) المصدر السابق، ص: 402 - 414.

لكن هذا ليس هو السبب الوحيد الذي يجعل أهل كوريا الشمالية غير أحرار. إنهم محرومون من الحرية لا بسبب انعدام قدرتهم على اختيار مسرّاتهم، بل لأنهم محرومون من اختيار ألمهم. ليس مسموحًا لهم أن يختاروا التزاماتهم اختيارًا حرًّا، وهم مرغمون على تضحيات لا يستحقّونها، أو لم يكونوا ليختاروها لولا أنهم مجبرون على ذلك. المسرّة خارج الموضوع هنا: افتقارهم إلى المسرات ليس إلا أثرًا جانبيًا من آثار الاضطهاد الحقيقي الواقع عليهم، ألا وهو الألم المفروض فرضًا من غير أن يختاروه بأنفسهم[1].

أقول هذا لأن الناس قد صاروا اليوم، في معظم أنحاء العالم، قادرين على اختيار مسرّاتهم. إنهم قادرون على اختيار ما يقرأون، وعلى اختيار الألعاب التي يحبّون لعبها، واختيار الملابس التي يحبّون ارتداءها، إن الألهيات موجودة في كل مكان. لكن الطغيان في الزمن الجديد لا يتحقّق من خلال حرمان الناس من اختيار ألهياتهم ومسرّاتهم والتزاماتهم.

---

(1) هذه طريقة في النظر إلى الحرية أكثر أخلاقية، وأكثر فعالية أيضًا. فلنأخذ، على سبيل المثال، ذلك الجدل الدائر في أوروبا بشأن ما إذا كان ينبغي السماح للنساء المسلمات بلبس الحجاب. إن من شأن النظرة المنطلقة من الحرية الزائفة القول بأن من الواجب تحرير النساء بحيث لا يضعن الحجاب - أي أن من الواجب منحهن مزيدًا من الفرص من أجل المسرة. ليس هذا إلا معاملة للنساء باعتبارهن غاية إيديولوجية ما. وهذا يعادل القول بأنهن لا يملكن الحق في اختيار تضحياتهن والتزاماتهن، وإن عليهنّ التخلّي عن معتقداتهنّ وقراراتهنّ من أجل دين إيديولوجي أكثر اتساعًا، دين عن الحرية. هذا مثال ممتاز على أن معاملة الناس باعتبارهم غاية للحرية يؤدّي إلى تقويض الحرّية نفسها. فالحرية الحقيقية تعني أن يسمح للنساء باختيار ما هن راغبات في التضحية به في حياتهن، وذلك بحيث يكن قادرات على وضع الحجاب إن أردن ذلك. للاطلاع على ملخص عن هذا الجدل، انظر: *«الحجاب الإسلامي في أوروبا»*، بي بي سي نيوز، 31 أيار 2018.
https://www.bbc.com/news/world - europe - 13038095

يتحقّق الطغيان اليوم عن طريق إغراق الناس بهذا القدر الكبير جدًا من الألهيات، وبهذا القدر الكبير جدًّا من المعلومات التافهة والمشاغل الزائفة، بحيث يصيرون غير قادرين على الإقدام على التزامات صائبة. هذه هي نبوءة برنايز وقد تحقّقت؛ لكن تحقّقها جاء متأخّرًا بضعة أجيال عما كان متوقّعًا. كان لا بد من قوة واتساع وشمول الإنترنت حتى تتحقّق رؤية برنايز عن الحملات الدعائية، وعن قيام الحكومات والشركات بتوجيه رغبات الناس وأمانيهم من خلف ستار[1].

إلّا أن عليّ ألّا أبالغ كثيرًا في الإعلاء من شأن برنايز هذا؛ فقد جعلته يبدو أكبر من حجمه.

لقد كان هناك رجل رأى هذا كله قادمًا قبل زمن طويل من أيام برنايز. رأى ذلك الرجل مخاطر الحرية الزائفة، ورأى تكاثر الألهيات وأثرها الذي سوف يُعمّي على قيم الناس. لقد رأى أيضًا كيف يمكن لكثرة المسرّة أن تجعل كل شخص طفوليًا أنانيًا، وتحوّله إلى نرجسي يشعر بأنه يستحقّ كل شيء. كان هذا الرجل أكثر حكمة وأبعد أثرًا من أي شخص يمكن أن نشاهده على القنوات الإخبارية أو في حلقة من حلقات «تِد توك» أو واحدة من حلقات أي برنامج سياسي. لقد كان هذا الرجل مؤسس الفلسفة السياسية. انسوا «عرّاب الروح» لأن هذا الرجل كان هو من اخترع فكرة الروح. بل حتى إنه (هكذا يقال) رأى قدوم هذه العاصفة من التفاهة قبل آلاف السنين من تفكير أي شخص آخر فيها.

---

(1) في ظل الحرب الإلكترونية، وللأسف، صارت الأخبار الزائفة، وصارت إمكانية التلاعب بالانتخابات عن طريق منصّات وسائل التواصل الاجتماعي العالمية من الأمور الممكنة. يصح هذا القول الآن أكثر من أي وقت مضى. إن «القوة الناعمة» للإنترنت تسمح للحكومات «الذكية» (روسيا والصين) بممارسة تأثير فعال على السكان في البلدان المنافسة بدلًا من الحاجة إلى اختراق تلك البلدان ماديًا. وهذا ما يعني أن التنازع العالمي الأكبر في عصر المعلومات سوف يدور حول المعلومات.

نبوءة أفلاطون

لقد اشتهرت عبارة الفيلسوف الرياضي ألفريد نورث وايتهِد القائلة إن الفلسفة الغربية كلها ليست أكثر من «سلسلة هوامش على فلسفة أفلاطون»[1]. فمن المحتمل كثيرًا أن يكون أفلاطون أول مفكّر كبير تناول بالشرح أي شيء قد تفكّر فيه، من طبيعة الحب الرومانسي إلى ما إذا كان هناك شيء اسمه «الحقيقة»، إلى معنى الفضيلة. لقد كان أفلاطون أول من أشار إلى وجود افتراق أصيل بين الدماغ المفكّر والدماغ الذي يشعر[2]. وكان أول من قال إن على المرء أن يبني شخصيته على أشكال مختلفة من إنكار الذات، وليس من خلال ترك النفس تفرط في الانغماس في أي شيء[3]. لقد كان أفلاطون مفكّرًا كبيرًا إلى حدّ أن كلمة «فكرة» في حد ذاتها قد أتتنا منه... إذًا، يمكن القول إنه من اخترع فكرة «الفكرة»[4].

وعلى الرغم من كون أفلاطون الأب الروحي للحضارة الغربية، فإن مما يلفت النظر أنه ذهب إلى القول إن الديمقراطية ليست بالشكل المستحسن للحكومة[5]. لقد آمن بأن الديمقراطية نظام سياسي غير مستقر

---

(1) ألفريد و. وايتهيد: *«الدِّين: أول خمسة آلاف سنة، طبعة محدثة ومزيدة»*، من تحرير ديفيد راي غريفين ودونالد و. شيربورن (نيويورك: ذا فري برس، 1978)، ص: 39.

(2) أفلاطون: *«فايدروس»*، محاورة رقم 253.

(3) أفلاطون: *«الجمهورية»*، محاورة رقم 427 ومحاورة رقم 435.

(4) تتضح نظرية «الأشكال» لأفلاطون من خلال عدد من الحوارات. لكن المثال الأشهر هو استعارة الكهف، وهي واردة في *«الجمهورية»*، 514 - 520.

(5) تجدر الإشارة إلى أن التعريف القديم للديمقراطية مختلف عن التعريف الحديث. ففي الأزمنة القديمة، كانت الديمقراطية تعني أن يقترع السكان عند اتخاذ أي قرار؛ ولم يكن هناك ممثلون عنهم إلا في حالات قليلة. وأما ما نشير إليه اليوم باعتباره ديمقراطية، فهو «جمهورية» من الناحية الشكلية. وذلك لأننا ننتخب ممثلين عنا يتّخذون القرارات ويحدّدون السياسات. بعد قول هذا،

في جوهره، وبأن الديمقراطية تطلق - لا محالة - أسوأ ما في طبيعتنا من أوجه فتقود المجتمع إلى الطغيان. لقد كتب: «لا يمكن توقّع أن تقود الحرية المتطرفة إلى أي شيء غير التحوّل إلى الحرية القصوى»[1].

إن الديمقراطيات مصمَّمة بحيث تعكس إرادة الشعب. لقد صرنا نعرف أن ذلك الشعب، أو الناس، عندما يُترك على هواه، يميل غريزيًا إلى الابتعاد عن الألم وإلى السعي خلف المسرة. وبعد ذلك، تظهر المشكلة عندما يحقق الناس المسرة: لا تكون كافية أبدًا! فنتيجة «أثر النقطة الزرقاء» لا يُشعِر الناس بأمانٍ تامٍّ، ولا برضًا تامٍّ. تتنامى رغباتهم تناميًا سريعًا مع تحسّن شروط حياتهم.

وفي آخر المطاف، تصير المؤسسات غير قادرة على مواكبة رغبات الناس. وعندما تفشل المؤسسات في مواكبة مسرّات الناس... فاحزر ماذا يحدث؟

يبدأ الناس بإلقاء اللوم على تلك المؤسسات نفسها.

قال أفلاطون إن الديمقراطيات تقود إلى التدهور الأخلاقي لأنها تُغرق في الحرية الزائفة، ولأن قيم الناس تتدهور وتصير أكثر طفولية وأكثر تمركزًا حول الذات مما يؤدّي إلى انقلاب المواطنين على النظام الديمقراطي نفسه. وعندما تصير الغلبة للقيم الطفولية، تنعدم رغبة الناس

= لا أظن أن هذا التمييز بين التعريفين يغير شيئًا في صلاحية وصدقية الحجج الواردة في هذا القسم. سوف ينعكس تراجع النضج في أوساط السكان من خلال انتخاب ممثلين أسوأ من ذي قبل، أي أولئك السياسيين الذين أسماهم أفلاطون «ديماغوجيون» بمعنى أنهم يعدون بكل شيء ثم لا يفعلون شيئًا. وبعد ذلك، يقوم الديماغوجيون بتفكيك النظام الديمقراطي في حين يهلّل الناس لهذا التفكيك لأنهم صاروا يرون المشكلة في النظام الديمقراطي نفسه لا في القيادة التي أساؤوا انتخابها.

(1) أفلاطون، *«الجمهورية»*، 564 - 566.

في التفاوض من أجل السلطة، وتنعدم رغبتهم في إجراء الصفقات مع الجماعات الأخرى، ومع الديانات الأخرى، وذلك لأنهم يصيرون غير مستعدين لتحمّل الألم من أجل مزيد من الحرية أو في سبيل مزيد من الازدهار والرخاء. يصيرون راغبين في ظهور زعيم قوي حتى يحقّق لهم كل شيء في لحظة سحرية. إنهم يريدون طاغية![1].

هناك قول شائع في الولايات المتحدة الأميركية: «الحرية ليست حرّة». وعادة ما تستخدم هذه العبارة للإشارة إلى الجيش وإلى الحروب التي خاضها وانتصر فيها من أجل حماية قيَم البلاد. إنه أسلوب في تذكير الناس بأن ما هو لديهم الآن لم يتحقّق بفعل السحر: قُتل آلاف الناس، أو ماتوا، حتى نصير قادرين على الجلوس كما نجلس الآن وعلى ارتشاف قهوتنا التي ندفع فيها سعرًا زائدًا، وحتى نقول كل ما نجد أنفسنا راغبين في قوله. إنها تذكير بأن حقوق الإنسان الأساسية التي نتمتّع بها (حرية الكلام، وحرية الدين والمعتقد، وحرية الصحافة والتعبير) قد اكتسبت من خلال بذل تضحية في مواجهة قوة خارجية.

لكن الناس ينسون أن هذه الحقوق قد اكتُسبت من خلال بذل التضحيات في مواجهة قوة داخلية أيضًا. لا توجد الديمقراطية إلا عندما تكون مستعدًا لتحمل وجود الآراء التي تخالف رأيك، وعندما تكون مستعدًّا للتخلّي عن بعض الأشياء التي قد ترغب فيها من أجل مجتمع صحّي آمن، وعندما تكون مستعدًا للتنازل أحيانًا وقبول أشياء ليست كما تحبّ وتهوى.

يمكن التعبير عن هذا بطريقة أخرى: تتطلّب الديمقراطية مواطنين أقوياء، ناضجين، لهم شخصياتهم المستقلة.

---

(1) المصدر السابق، 566 – 596.

الظاهر أن الناس قد صاروا، خلال العقدين الماضيين، يخلطون بين حقوقهم الإنسانية الأساسية من ناحية، وبين عدم التعرّض لأي نوع من أنواع الانزعاج من ناحية ثانية. يريد الناس الحرية ليعبّروا عن أنفسهم، لكنهم لا يريدون أن يكونوا مضطرّين إلى التعامل مع آراء قد تزعجهم أو تسيء إليهم بطريقة من الطرق. إنهم يريدون حرّية الشركات والأعمال، لكنهم لا يريدون دفع الضرائب لتمويل الآلية القانونية التي تجعل من تلك الحرّية أمرًا ممكنًا. إنهم يريدون المساواة، لكنهم غير راغبين في قبول أن المساواة تقتضي أن يعيش الجميع القدر نفسه من الألم، لا أن يعيش الجميع القدر نفسه من المسرّة.

إن الحرّية نفسها تتطلّب العناء. إنها تتطلّب عدم الرضا. هذا لأنه كلما صار المجتمع أكثر حرية، كلما صار كل شخص فيه مرغمًا على أن يأخذ في حسابه آراء الآخرين وأنماط حياتهم وأفكارهم المتعارضة مع آرائه ونمط حياته وأفكاره، وأن يجد تسوية معها.

كلما تراجعت قدرتنا على تحمل الألم، وكلما انغمسنا في حريات زائفة، كلما صرنا أكثر قدرة على التحلّي بالفضائل التي لا بد منها حتى يكون المجتمع الديمقراطي الحرّ عاملًا.

وهذا أمر مخيف!

إنه مخيف لأننا نخسر جميعًا إذا انتفت الديمقراطية. هذا مؤكد من الناحية التجريبية؛ فالحياة تصير أسوأ كثيرًا من غير تمثيل ديمقراطي... تصير أسوأ من جميع النواحي تقريبًا[1]. ليس هذا لأن الديمقراطية أمر

---

(1) تذهب الديمقراطيات إلى الحرب أقل من ذهاب الأوتوقراطيات، وهذا ما يؤكد فرضية كانط في «السلم الدائم». انظر ج. أونيل، ب. روسيت: «السلم الكانطي: المنافع السلمية الكامنة في الديمقراطية والاعتماد المتبادل والمنظمات الدولية، 1885 - 1992»، *السياسات العالمية* 52، العدد 1 (1999)، ص: 1 -37. إن

عظيم جدًّا، بل كل ما في الأمر هو أن الديمقراطية العاملة جيدًا غالبًا ما تخرّب حياة البشر أقل مما تخرّبها أشكال الحكم الأخرى. لقد قال تشرشل ذات مرة عبارة صارت شهيرة: «الديمقراطية أسوأ صيغة للحكومة، باستثناء بقية الصيغ كلها».

السبب الوحيد الذي جعل العالم متمدنًا وتوقف فيه الناس عن ذبح بعضهم لأسباب تافهة هو أن المؤسسات الاجتماعية الحديثة فعّالة في تلطيف قوى الأمل الهدّامة. والديمقراطية واحدة من الديانات القليلة التي نجحت في السماح لبقية الديانات بالعيش معها - وضمنها - في انسجام. وأما عندما تفسد تلك المؤسسات الاجتماعية نتيجة الحاجة المستمرة إلى إرضاء الأدمغة التي تشعر لدى الناس، وعندما يفقد الناس ثقتهم وإيمانهم بقدرة النظام الديمقراطي على تصحيح نفسه، فإننا نعود إلى ذلك المشهد البائس الذي عرفناه سابقًا، مشهد الحروب الدينية[1]. ومع التقدّم المتواصل للاختراعات والتحديثات التكنولوجية، فإن من الممكن أن تسبّب كل دورة جديدة من دورات الحروب الدينية قدرًا أكبر من الدمار، وأن تودي بقدر أكبر من أرواح البشر[2].

= الديمقراطيات تعزز النمو الاقتصادي. انظر خوسيه تافارس، رومين وازيرغ: «أثر الديمقراطية على النمو الاقتصادي»، *المجلة الاقتصادية الأوروبية* 45، العدد 8 (2000)، ص: 1431 - 1478. ويعيش الناس في البلدان الديمقراطية أعمارًا أطول. انظر ديموثي بيزلي وكوداماتوس ماسايوكي: «الصحة والديمقراطية»، *المجلة الاقتصادية الأميركية* 96، العدد 2 (2006)، ص: 313 - 318.

(1) مما يلفت النظر أن المجتمعات ذات السوية المنخفضة من الثقة يزداد اعتمادها على قيم «الأسرة» مقارنة بالثقافات الأخرى. وقد يمكن النظر إلى ذلك من خلال فكرة أن تناقص الأمل الذي يستمده الناس من دياناتهم الوطنية يؤدّي إلى تزايد بحثهم عن الأمل في دياناتهم العائلية، والعكس بالعكس. انظر فوكوياما، *«الثقة»*، ص: 61 - 68.

(2) هذا شرح لمفارقة التقدم التي لم أتعمّق فيها تعمّقًا حقيقيًا: الفكرة هي أنه=مع

كان أفلاطون يعتقد بأن المجتمعات تتحرّك حركة دورية فتتقدّم وترتدّ بين الحرّية والطغيان، وبين المساواة النسبية والابتعاد الكبير عن المساواة. وقد اتضح تمامًا خلال ألفين وخمسمئة سنة بعد أفلاطون أن هذا ليس صحيحًا بالضبط. إلا أن هناك أنماطًا من النزاعات السياسية تكررت على امتداد التاريخ، ويرى المرء الطروحات الدينية نفسها تظهر مرة بعد مرة: التراتبية الجذرية المتشدّدة التي تميّز أخلاق السادة مقابل المساواة الجذرية المتشددة التي تميز أخلاق العبيد. وظهور القادة الطغاة مقابل السلطة الموزّعة في المؤسسات الديمقراطية، وصراع فضائل النضج في مواجهة التطرّف الطفولي. صحيح أن «المذاهب» تغيّرت عبر القرون، إلا أن الدوافع البشرية نفسها التي يسوقها الأمل كانت خلف كل حركة من تلك الحركات. وفي حين يرى كل دين جديد أنه الدين الصحيح، النهائي، «المحقّ»، القادر على توحيد البشرية في ظل راية منسجمة واحدة، فقد أثبت كلّ دين من الأديان التي ظهرت - حتى الآن - أنه جزئي، وأنه ناقص.

= كل تحسّن في الحياة، يصير لدينا قدر أكبر مما يمكن أن نخسره وقدر أقل مما يمكن أن نكسبه، وذلك مقارنة بالماضي. وبما أن الأمل معتمد على تصورٍ لقيمةٍ في المستقبل، فكلما صارت الأمور في الزمن الحاضر أفضل، كلما صار تصوّر المستقبل أكثر صعوبة، وكلما صار من الممكن تصوّر خسائر أكبر في ذلك المستقبل. بكلمات أخرى، يمكن القول إن الإنترنت شيء عظيم، لكنه يوفّر أيضًا طرقًا جديدة كثيرة لانهيار المجتمع وخراب كل شيء. إن كل تقدّم تكنولوجي، ويا للمفارقة، يأتي أيضًا بطرق جديدة لأن يقتل كل منا الآخر، ولأن نقتل أنفسنا أيضًا.

الفصل التاسع

الدِّين النهائي

في سنة 1997، تمكّن الكمبيوتر فائق القدرة «ديب بلو»، الذي طوّرته شركة IBM، من هزيمة بطل العالم في الشطرنج غاري كاسباروف. كانت تلك لحظة حاسمة في تاريخ علوم الكمبيوتر، وحدثًا زلزاليًا هز فهم التكنولوجيا والذكاء لدى كثيرين من الناس، وهز كذلك فهمهم معنى كلمة «بشري». لكن ذلك الحدث الكبير صار الآن ذكرى طريفة: من الطبيعي أن يتمكّن الكمبيوتر من هزيمة بطل العالم في الشطرنج. لماذا لا يتمكّن من ذلك؟

منذ بداية عهد الكمبيوتر، كان الشطرنج وسيلة مفضلة لاختبار الذكاء الاصطناعي[1]. والسبب في هذا أن للشطرنج عددًا من الاحتمالات يكاد يكون لا نهائيًا: يفوق عدد أدوار الشطرنج المختلفة المحتملة عدد الذرات في الكون المعروف كله. إذا نظر المرء في أربع نقلات فقط إلى الأمام، فإن في أي وضع لرقعة الشطرنج مئات ملايين الاحتمالات.

وإذا أردنا أن يصير الكمبيوتر مكافئًا للاعب بشري، فإن من الضروري أن يكون قادرًا على حساب عدد يصعب تصديقه من النتائج المحتملة، بالإضافة إلى وجوب امتلاكه خوارزميات متينة لمساعدته في تقرير

(1) في سنة 1950، ابتكر أبو علوم الكمبيوتر، آلان تورينغ، الخوارزمية الحاسوبية الأولى للشطرنج.

الاحتمالات التي يجدر حسابها. يمكننا أن نعبّر عن الأمر بطريقة أخرى: من أجل هزيمة لاعب بشري، يتعيّن على الدماغ المفكّر في الكمبيوتر (على الرغم من كونه متفوقًا كثيرًا على الدماغ المفكّر لدى الإنسان) أن يكون مبرمجًا بحيث يستطيع تقييم الوضعيات الأكثر قيمة والأقل قيمة... أي أن على الكمبيوتر أن يمتلك «دماغًا يشعر» إزاء قدرة معقولة بحيث يكون جزءًا من برامجه[1].

منذ ذلك اليوم في سنة 1997، واصلت الكمبيوترات تطورها في لعبة الشطرنج بخطوات مذهلة. فعلى امتداد خمسة عشر عامًا بعد ذلك، صار أمرًا معتادًا أن يهزم الكمبيوتر كبار لاعبي الشطرنج في العالم؛ وهو يهزمهم أحيانًا بفارق مخجل[2]. وأما في يومنا هذا، فما عادت المقارنة ممكنة على الإطلاق. ويقول كاسباروف نفسه مازحًا إن تطبيق الشطرنج الذي صار الآن يأتي مع معظم الهواتف الذكية «أقوى كثيرًا

---

(1) يتّضح أن من الصعب كثيرًا جدًا إجراء برمجة عمل الدماغ الذي يشعر، في حين أن برمجة عمل الدماغ الذي يفكّر قد جرت بحيث صار الكمبيوتر متفوقًا على قدرة الدماغ البشري. وهذا لأن دماغنا الذي يشعر يعمل باستخدام شبكاتنا العصبية كلها بينما يقتصر عمل الدماغ المفكّر على الحوسبة البسيطة. لعلي أجتزئ هذا الشرح كثيرًا، لكنه انعطافة لافتة للنظر في تطور الذكاء الاصطناعي - مثلما نبذل على الدوام جهدًا كبيرًا لفهم أدمغتنا المفكّرة، فإننا نبذل جهدًا كبيرًا لمحاكاة عملها عن طريق الآلات.

(2) في السنوات التي أعقبت هزيمة كاسباروف الأولى، تمكّن مع البطل فلاديمير كرامنيك من تحقيق التعادل مع عدد من أقوى برامج الشطرنج. إلا أن برامج الكمبيوتر المسماة فريتز وهيدرا وجونيور تمكّنت في سنة 2005 من هزيمة كبار اللاعبين، بل إنها فازت - بعض الأحيان - في كل مباراة معهم. وفي سنة 2007، أتيحت لكبار اللاعبين البشريين مزايا إضافية من حيث بدء اللعب، والتحكّم باختيار الافتتاحية، فضلًا عن حركة البيادق... لكنهم ظلّوا يخسرون. ثم توقّف الجميع عن المحاولة في سنة 2009: لا معنى للمحاولة!

مما كان «ديب بلو»[1]. لقد صار مطورو البرمجيات يقيمون مباريات بين البرمجيات لرؤية البرمجية الأقوى التي تتمكّن من الفوز. لم يعد البشر مستبعَدين من هذه المباريات فحسب، بل من المحتمل كثيرًا أنهم غير قادرين على بلوغ المستوى الذي يؤهّلهم لدخولها.

كان البطل الذي لا يُنازَع من بين برمجيات الشطرنج العالمية خلال السنوات القليلة الماضية واحدًا من برامج المصادر المفتوحة اسمه «Stock Fish». لقد تمكّن هذا البرنامج من الفوز، أو من احتلال المركز الثاني، في كل مسابقة مهمة لبرمجيات الشطرنج منذ سنة 2014. واليوم، يحتل هذا البرنامج الذي كان ثمرة تعاون حفنة صغيرة من مطوّري برمجيات الشطرنج موقع القمة في منطق اللعبة. وذلك أنه ليس لاعب شطرنج عظيمًا فحسب، بل هو قادر أيضًا على تحليل أي دور شطرنج، وأي وضع خلال اللعبة، وذلك بحيث يقدّم - خلال ثوانٍ معدودة - ملاحظاته بالغة الأهمية على كل نقلة يقوم بها اللاعب البشري.

لقد ظل برنامج «Stock Fish» سعيدًا بأن يكون الملك المتربع على قمة الشطرنج المحوسب، وبأن يكون المعيار الذهبي لتحليل أية لعبة شطرنج في العالم كله، إلى أن أتت سنة 2018 حين نزلت شركة غوغل إلى الساحة.

إن لدى غوغل برنامجًا اسمه «AlphaZero». وهو ليس برمجية من برمجيات الشطرنج، بل برمجية ذكاء اصطناعي. فبدلًا من برمجته بحيث يلعب الشطرنج أو أي لعبة أخرى، تمت برمجته لكي يتعلم - ليس الشطرنج فقط، بل أية لعبة.

---

(1) هذا صحيح، وإن لم يكن صحيحًا بالمعنى الحرفي. ففي سنة 2009، تمكّنت برمجية الشطرنج المسماة «بوكيت فريتز» من هزيمة «ديب بلو» في مباراة مؤلّفة من عشر جولات. فازت «بوكيت فريتز» على الرغم من تمتّعها بقدرات حاسوبية أقل من غريمها - هذا يعني أن هذه البرمجية كانت متفوّقة من غير أن تكون أكثر قوة.

في أوائل سنة 2018، جرت المواجهة بين «Stock Fish» وبرنامج غوغل الجديد «AlphaZero». على الورق، لم يكن ذلك نزالًا متكافئًا على الإطلاق لأن «AlphaZero» كان قادرًا على حساب ثمانين ألف وضعية (فقط!) في الثانية الواحدة. فماذا عن «Stock Fish»؟... سبعون مليون احتمال! من ناحية القدرة الحسابية، يشبه هذا أن أدخُل سباقًا للجري أنافس فيه سيارة سباق من الطراز الأول.

لكن الأمر صار أكثر غرابة: في يوم المباراة، لم يكن «AlphaZero» يعرف حتى كيف يلعب الشطرنج! نعم، هذا صحيح... فقبل مباراته مع أفضل برمجية شطرنج في العالم، لم يكن لدى «AlphaZero» إلا أقل من يوم واحد حتى يتعلّم الشطرنج ابتداء من الصفر. أمضى البرنامج الشطر الأكبر من اليوم في محاكاة مباريات شطرنج يخوضها ضد نفسه فيتعلّم منها. لقد تمكن من تطوير استراتيجيات ومبادئ اللعب بالطريقة نفسها التي يستخدمها الإنسان: من خلال التجربة والخطأ.

فلنتخيّل السيناريو: لقد تعلّمت لتوك قواعد لعبة الشطرنج التي هي واحدة من أكثر الألعاب تعقيدًا في العالم. أتيح لك أقل من يوم واحد لكي تجرّب لوحة الشطرنج وتضع لنفسك بعض الاستراتيجيات. وبعد ذلك، ستكون مباراتك الأولى مع بطل العالم في الشطرنج!

نتمنّى لك حظًا طيبًا!

إلا أن «AlphaZero» فاز على منافسه. الحقيقة أنه لم يفز عليه فحسب، بل حطمه تحطيمًا. فمن أصل مئة مباراة خاضاها، فاز «AlphaZero»، أو تعادل، في كل مباراة من تلك المباريات بغير استثناء.

اقرأ ذلك مرة أخرى: تسع ساعات فقط بعد تعلم قواعد اللعبة، لعب «AlphaZero» مئة مباراة في مواجهة أفضل برنامج للشطرنج في العالم ولم يخسر أية مباراة منها. كانت تلك نتيجة غير متوقّعة على الإطلاق؛

ولا يزال الناس غير عارفين ما يمكن استنتاجه منها. ذُهل كبار لاعبي الشطرنج في العالم أمام إبداع «AlphaZero» وذكائه. كان أحدهم بيتر هين نيسلن الذي قال مازحًا: «كنت أتساءل دائمًا كيف سيكون الأمر إذا حط على كوكبنا جنسٌ متفوقٌ علينا وجعلنا نرى كيف يلعبون الشطرنج في دياره. أشعر الآن بأنني أعرف الإجابة»[1].

لم يتوقّف «AlphaZero» لكي يستريح بعد أن انتهى من «Stock Fish». ماذا؟ إن الاستراحات للبشر الضعفاء فقط. لقد فرغ من أمر «AlphaZero»، وبدأ يعلّم نفسه لعبة استراتيجية أخرى هي لعبة «Shogi».

عادة ما يقال إن «Shogi» هي الشطرنج الياباني؛ لكنها في رأي كثيرين من الناس أكثر تعقيدًا من لعبة الشطرنج[2]. ففي حين خسر كاسباروف أمام الكمبيوتر في سنة 1997، لم يخسر كبار لاعبي «Shogi» أمام الكمبيوترات حتى سنة 2013. إلا أن «AlphaZero» هزم برمجية «Shogi» الأولى واسمها «Elmo»؛ لقد هزمها بفارق مدهش أيضًا: لعبا مئة جولة، فاز «AlphaZero» في تسعين منها، وتعادل في اثنتين، وخسر ثمانية. وفي هذه المرة أيضًا، كانت قدرات «AlphaZero» الحسابية أقل كثيرًا من قدرات «Elmo». (كان قادرًا على حساب أربعين ألف نقلة في الثانية مقارنة بخمسة وثلاثين مليون نقلة لدى «Elmo»). وكما في لعبة الشطرنج، لم يكن «AlphaZero» يعرف أي شيء عن هذه اللعبة في اليوم السابق.

---

(1) مايكل كلين: «AlphaZero من غوغل ينزل هزيمة ساحقة ببرنامج Stockfish في مباراة من مئة جولة»، Chess.com، 7 كانون الأول 2017.

https://www.chess.com/news/view/google - s - alphazero - destroys - stockfish - in - 100 - game - match

(2) تعتبر لعبة Shogi أكثر تعقيدًا لأن اللاعب قادر على التحكّم بقطع الخصم. وهذا ما يؤدّي إلى احتمالات متنوّعة أكثر مما نجده في الشطرنج.

لقد علّم نفسه في الصباح لعبتين معقّدتين إلى أقصى حدود التعقيد، وعند غياب الشمس، تمكّن من إنزال هزيمة ساحقة بأقوى منافسَين في العالم.

إن الذكاء الاصطناعي قادم! بدأ الأمر بالشطرنج وبلعبة «Shogi»، لكننا سنرى الذكاء الاصطناعي وهو ينطلق مع عالم الألعاب لكي يجد تطبيقه في غرف الاجتماعات... حسنًا، من المحتمل كثيرًا أن تجد نفسك، وأن أجد نفسي، وأن يجد كل شخص آخر نفسه، من غير عمل[1].

لقد اخترعت برامج الذكاء الاصطناعي لنفسها لغة خاصة بها لا يستطيع البشر فك رموزها. وصارت أكثر كفاءة من الأطباء في تشخيص التهاب الرئة، بل حتى في كتابة فصول متلاحقة من كتاب هاري بوتر الخيالي[2]. والآن، بينما أكتب هذه الكلمات، صرنا على أعتاب امتلاك سيارات تقود نفسها بنفسها، واستشارات قانونية مؤتمتة، بل حتى فنون وموسيقى يصنعها الكمبيوتر[3].

بخطى بطيئة، لكنها واثقة، سوف يصير الذكاء الاصطناعي أفضل

---

(1) لمناقشة البطالة الجماهيرية التي من المحتمل أن تنتج بسبب الذكاء الاصطناعي والأتمتة الآلية، يمكن الرجوع إلى العمل الرائع لكل من إ. براينيولفسون، أ. ماكافي، «*سباق ضد الآلات: كيف تؤدّي الثورة الرقمية إلى تسارع الابتكارات وزيادة الإنتاجية وإلى تغيير غير عكوس في مستويات التشغيل*»، (ليكسنغتون، ماساشوستس: ديجيتال فرونتير برس، 2011).

(2) ك. بك: «قام روبوت بكتابة الفصل الجديد من رواية هاري بوتر فجاء مضحكًا جدًا»، *ماشابل*، 17 كانون الأول 2017.

https://mashable.com/2017/12/12/harry - potter - predictive - chapter

(3) ج. مايلي: «الذكاء الاصطناعي يهزم البشر إحدى عشرة مرة في الألعاب والفنون والقانون، وفي كل مجال آخر»، *الهندسة المدهشة*، 12 آذار 2018.

https://interestingengineering.com/11 - times - ai - beat - humans - at - games - art - law - and - everything - in - between

منا في كل شيء تقريبًا: في الطب، وفي الهندسة، وفي الإنشاءات، وفي الفن، وفي الابتكار التكنولوجي أيضًا. سوف نتابع أفلامًا أخرجها الذكاء الاصطناعي، ثم نناقشها على مواقع إنترنت ومنتديات يقيمها الذكاء الاصطناعي ويواصل تطويرها. ومن الممكن أيضًا أن يتضح لك أن «الشخص» الذي تناقشه هو الذكاء الاصطناعي أيضًا.

مهما يبدو هذا خيالًا مجنونًا، هو ليس إلا بداية. وإليك ما سيحدث في آخر الأمر: سيأتي يوم يتمكّن فيه الذكاء الاصطناعي من كتابة برمجيات الذكاء الاصطناعي بأفضل مما يستطيعه البشر.

عندما يأتي ذلك اليوم، وعندما يصير الذكاء الاصطناعي قادرًا على ابتكار نسخ مطوّرة من نفسه، وعلى هواه، فإن عليك أن تربط الأحزمة، يا صديقي، لأن الرحلة ستكون مجنونة، ولأننا لن نعود مسيطرين على وجهة سيرنا.

سوف يصل الذكاء الاصطناعي نقطة يتجاوز عندها ذكاء البشر أشواطًا بعيدة بحيث نصير عاجزين عن استيعاب ما يفعله. سوف تأتي السيارات لأخذنا من بيوتنا لأسباب لا نفهمها، وتنقلنا إلى أماكن لم نكن نعرف أنها موجودة. وسوف تصلنا، من غير توقّع، أدوية لمعالجة مشكلات لم نكن نعرف أننا نعانيها. ومن المحتمل أيضًا تغيير مدارس أولادنا، وتغيير أعمالنا، إضافة إلى تغيرات مفاجئة في السياسات الاقتصادية وإلى قيام الحكومات بإعادة كتابة دساتيرها... ولن يكون أحد منا مدركًا الأسباب الكاملة لهذا كله. لكنه سيحدث. سوف تكون أدمغتنا المفكّرة أبطأ كثيرًا من أن تستطيع متابعة هذا كله؛ وستصير أدمغتنا التي تشعر في حالة شديدة الغرابة والخطورة. وكما فعل برنامج «AlphaZero» عندما ابتكر في ساعات معدودة استراتيجيات شطرنج لم يكن أعظم اللاعبين قادرًا على توقّعها، سوف يقوم الذكاء الاصطناعي المتقدّم بإعادة تنظيم المجتمع، وبإعادة تحديد أماكننا في المجتمع، بطرق لا نستطيع تخيّلها.

عندها، سينتهي بنا الأمر إلى حيث بدأنا: عبادة القوى المجهولة العجيبة التي تبدو مسيطرة على أقدارنا. تمامًا مثلما عبد البشر البدائيون آلهة المطر وآلهة النار؛ ومثلما كانوا يقدّمون الأضحيات إلى تلك الآلهة، ويبذلون لها العطايا، ويخترعون طقوسًا لتكريمها، ويعدّلون سلوكهم ومظهرهم لكي يفوزوا برضا آلهة الطبيعة تلك، فإننا سوف نفعل مثلهم. بدلًا من آلهة الطبيعة البدائية، ستتضرّع إلى آلهة الذكاء الاصطناعي!

وسوف تنشأ لدينا خرافات عن تلك الخوارزميات. إذا ارتديت هذا، فإن الخوارزميات ستصير راضية عنك؛ وإذا استيقظت في ساعة بعينها وقلت كلامًا بعينه وذهبت إلى مكان بعينه، فإن الآلات ستنعم عليك بثروة طائلة. إذا كنت صادقًا ولم تؤذ الآخرين، واهتممت بنفسك وبأسرتك، فسوف تحميك آلهة الذكاء الاصطناعي.

ستحلّ محلّ الآلهة القديمة آلهة جديدة: الخوارزميات. وبمفارقة تطوّرية غريبة، سيؤدّي العلم نفسه الذي قتل آلهة الماضي إلى إنشاء آلهة جديدة. سوف يشهد بنو البشر عودة كبيرة إلى التمسّك بالدين. ولن تكون دياناتنا الجديدة شديدة الاختلاف بالضرورة عن ديانات العالم القديم - ففي آخر المطاف، تطورت تركيبتنا النفسية (من حيث الجوهر) بحيث ترفض ما لا تفهمه، وبحيث تُعظّم القوى التي تساعدنا، أو تؤذينا، وبحيث تبني أنظمة قيم من حول تجاربنا التي نعيشها، وكذلك بحيث تسعى إلى المواجهات القادرة على توليد الأمل.

فلماذا تكون قصتنا مع الذكاء الاصطناعي مختلفة عما مضى؟

وبطبيعة الحال، سوف يدرك آلهة الذكاء الاصطناعي هذه الأمور كلّها. فإما أن يجدوا طريقة من أجل «تطوير» أدمغتنا بحيث تتجاوز حاجتها النفسية البدائية إلى العناء المستمر، أو أنها ستكتفي بإنتاج عناء صناعي من أجلنا. سوف نصير كأننا حيواناتهم الأليفة. وسنكون مقتنعين

بأننا نقاتل من أجل أرضنا ونحميها مهما اقتضى الأمر، لكن ما نفعله لن يكون في حقيقته أكثر مما تفعله الكلاب عندما تبوّل على قواعد أعمدة الإنارة المتتابعة في الشارع.

قد يخيفك هذا. وقد يثيرك. لكن من المرجح أنه أمر لا مفر منه، سواء كان مخيفًا أو مثيرًا. تنبع السلطة من القدرة على التحكم بالمعلومات ومعالجتها؛ وينتهي بنا الأمر دائمًا إلى عبادة كل ما له سلطة كبيرة علينا.

إذًا، اسمحوا لي بالقول إنني أرحّب بسادتنا الجدد، سادة الذكاء الاصطناعي.

أعرف أن هذا ليس بالدِّين النهائي الذي كنت **تأمل** أن يكون. لكن... هذا ما أخطأت فيه: **الأمل!** لا تحزن كثيرًا على استقلالك. إذا كان الخضوع لخوارزميات الذكاء الاصطناعي يبدو لك شيئًا فظيعًا، فعليك أن تدرك أمرًا: أنت خاضع لها بالفعل. وأنت تحب هذا!

إن الخوارزميات تدير بالفعل قدرًا غير قليل من حياتنا. فالطريق الذي تسلكه للذهاب إلى عملك قائم على خوارزمية. وكثير من الأصدقاء الذين تحدّثت معهم هذا الأسبوع... ماذا؟ لقد كانت تلك الأحاديث قائمة على خوارزمية أيضًا. والهدية التي اشتريتها لطفلك، وكمية المناديل الورقية التي تأتي في رزمة أنيقة؛ وخمسون سنتًا وفرتها لأنك تشتري من السوبرماركت نفسه دائمًا... كل هذا ناتج عن خوارزميات!

إننا في حاجة إلى خوارزميات لأنها تجعل حياتنا أكثر سهولة. وهكذا سيفعل آلهة الخوارزميات في المستقبل القريب. سوف نستمتع بالأمر ونقدم الشكر إلى الآلهة الجديدة مثلما كنا نقدّم الشكر إلى آلهة العالم القديم. والحقيقة أن تخيل الحياة من غيرها سيكون أمرًا مستحيلًا[1]. إن

---

(1) تمامًا مثلما يكاد يستحيل علينا اليوم أن نتخيّل الحياة من غير غوغل، أو من غير الهواتف الخلوية والبريد الإلكتروني.

هذه الخوارزميات تجعل حياتنا أفضل. وهي تجعل حياتنا أكثر فعالية. هي تجعلنا أيضًا أكثر فعالية.

ولهذا السبب، فما من طريق للعودة بعد عبورنا إلى ذلك المستقبل.

نحن خوارزميات سيّئة

هذه طريقة أخرى للنظر إلى تاريخ العالم:

الفارق بين الأحياء والأشياء هو أن الأحياء أشياء تعيد إنتاج أنفسها. فالحياة مكوّنة من خلايا ومن DNA يسمح لها بأن تنتج نسخًا متتالية من أنفسها.

على امتداد مئات ملايين السنين، نشأت لدى بعض أشكال الحياة البدائية آليات تجعلها قادرة على تحسين تكاثرها. فقد تظهر على الغشاء المُغلّف لكائن بدائي وحيد الخلية مجسّات تسمح له بقدر أكبر من تحسّس الأحماض الأمينية التي يستخدمها لإنتاج مزيد من النسخ عن نفسه. وهذا ما يمنحه مزية على غيره من العضويات وحيدة الخلية. لكن من الممكن بعد ذلك أن تتطور لدى عضوية أخرى وحيدة الخلية طريقة من أجل «خداع» تلك المجسّات الصغيرة بحيث تستطيع التدخل في قدرتها على العثور على غذائها فيكتسب هذا الكائن مزية تجعله متفوقًا على الكائن الأول.

من حيث الجوهر، كان هناك «سباق تسلح» بيولوجيًا جاريًا منذ الأزل: تطوّر لدى ذلك الشيء الصغير وحيد الخلية استراتيجية ناجحة للحصول على مزيد من المواد بحيث ينسخ نفسه بشكل أفضل من بقية العضويات وحيدة الخلية. وبالتالي، فإنه يفوز بمزيد من الموارد ويتكاثر بمعدل يفوق معدلات تكاثر الكائنات الأخرى. ثم تنشأ لدى وحيد خلية آخر استراتيجية أفضل من أجل الحصول على الغذاء، فتتكاثر أعداده.

يستمر هذا ويتواصل ملايين السنين، وتظهر سحالي قادرة على تمويه أنفسها وقرود قادرة على تقليد أصناف الحيوانات الأخرى، ورجال مُطلّقون في أواسط العمر ينفقون مالًا على شراء سيارات حمراء لامعة لا يستطيعون دفع ثمنها في حقيقة الأمر... كل هذا من أجل زيادة قدرتهم على البقاء وعلى التكاثر!

هذه هي قصة الارتقاء - بقاء الأصلح، ومعه كل ما يرافق ذلك.

لكنك قادر على النظر إلى الأمر بطريقة مختلفة أيضًا. فأنت قادر على تسميته «بقاء الأكثر قدرة على معالجة المعلومات».

لا بأس... قد لا يكون الأمر هكذا بالضبط؛ لكنه قد يكون أكثر دقة في واقع الأمر.

أرأيت ذلك الكائن وحيد الخلية الذي ظهرت على الغشاء المغلّف له مجسّات تسمح له بتحسس الأحماض الأمينية بطريقة أفضل؟... إن هذا، في جوهره، شكل من أشكال معالجة المعلومات. يصير هذا الكائن أقدر من الكائنات الأخرى على تحسس الحقائق والمعلومات في البيئة المحيطة به. وبما أن أسلوب معالجة المعلومات لديه صار أفضل مما لدى غيره من الكائنات وحيدات الخلية، فإنه يفوز في لعبة التطوّر وتزداد جيناته انتشارًا.

الأمر نفسه في حالة السحلية القادرة على تمويه نفسها بتغيير لون جلدها. لقد طوّرت أيضًا طريقة للتلاعب بالمعلومات البصرية لكي تخدع الحيوانات المفترسة حتى لا تراها. والقصة نفسها مع القرود التي تقلّد أصوات غيرها من الحيوانات. وهي نفسها أيضًا مع الرجل متوسّط العمر وسيارته اللامعة (لعلّها ليست كذلك!).

إن التطوّر يكافئ الكائنات الأكثر قوة. وأما القوة فتتحدّد بالقدرة

على الوصول إلى المعلومات، والسيطرة عليها، والتلاعب بها على نحو فعال. يسمع الأسد صوت فريسته على مسافة ميل. ويرى الصقر فأرًا على الأرض من ارتفاع مئة قدم. وقد تطوّرت لدى الحيتان طريقة خاصة في «الغناء» تسمح لها بالتواصل على مسافة مئة ميل تحت الماء بين حوت وآخر. هذه كلّها أمثلة على قدرات استثنائية لمعالجة المعلومات. وتلك القدرات على تلقي المعلومات ومعالجتها متّصلة اتصالًا وثيقًا بقدرة هذه الكائنات على البقاء والتكاثر.

إن البشر على سوية متواضعة جدًا من الناحية الجسدية. فنحن ضعفاء، بطيئون، هشّون، نستنفد قوانا سريعًا[1]. لكننا أقدر من في الطبيعة على معالجة المعلومات. إننا الجنس الوحيد القادر على التفكير في الماضي وفي المستقبل. والقادر على استنتاج سلاسل طويلة من الأسباب والنتائج، والقادر على التخطيط وعلى وضع الاستراتيجيات المجردة. إننا قادرون أيضًا على بناء المسائل، وإنتاجها، وحلّها بشكل دائم[2]. فمن أصل ملايين السنين من التطوّر والارتقاء، كان الدماغ المفكّر (الدماغ الواعي المقدس لدى كانط) هو ما هيمن على الكوكب كله خلال بضعة آلاف السنين الأخيرة، وخلق شبكة واسعة متداخلة من الإنتاج والتكنولوجيا.

---

(1) إذا تحدّثنا من الناحية التطورية، فقد ضحى البشر بالكثير لكي يجعلوا أدمغتهم الكبيرة أمرًا ممكنًا. فمقارنة بالثدييات، وخاصّة مع القرود الكبيرة الأخرى، نجد أنا بطيئون، ضعيفون، سريعو العطب... إضافة إلى ضعف قدراتنا الإدراكية الحسّية. لكن القسم الأكبر مما خسرناه من حيث القدرات الجسدية، قد تم تجييره لصالح استخدام مزيد من الطاقة في الدماغ ولصالح فترة حمل أكبر امتدادًا. وقد نجح الأمر في آخر المطاف!

(2) انظر د. دويتش: «*بداية اللانهاية: تفسيرات قادرة على تغيير العالم*»، (نيويورك: بنغوين بوكس، 2011).

هذا لأننا خوارزميات! إن الوعي في حد ذاته شبكة ضخمة من الخوارزميات و«شجرات القرار»... خوارزميات قائمة على القيم والمعارف والآمال.

لقد أبلت خوارزمياتنا بلاء حسنًا خلال أول بضع مئات الألوف من السنين. أبلت بلاء حسنًا عندما كانت في سهوب السافانا، وعندما كانت تصطاد ثيران البيزون وتعيش في جماعات بدوية صغيرة... عندما لم يكن الإنسان يلتقي أكثر من ثلاثين إنسانًا غيره على امتداد حياته كلها.

وأما في اقتصاد عالمي متشابك مكوّن من مليارات البشر وممتلئ بآلاف الرؤوس النووية وانتهاكات الخصوصية في فايسبوك والحفلات الموسيقية ثلاثية الأبعاد، فالظاهر أن خوارزمياتنا قد بدأت تفشل نوعًا ما. إنها تنهار وتُدخلنا في دورات من النزاع لا تفتأ تزداد تصاعدًا. وبفعل طبيعة خوارزمياتنا، فإنها غير قادرة على إنتاج رضا دائم، ولا على إحلال سلم نهائي.

يشبه هذا تلك النصيحة القاسية التي تسمعها أحيانًا: أنت هو العامل المشترك بين علاقتك العاطفية الفاشلة كلّها! حسنًا... نحن العامل المشترك بين كل ما في العالم من مشكلات كبرى. لم تصبح القنابل الذرية مشكلة لولا وجود شخص غبي أحمق وقع في إغراء استخدامها. الأسلحة البيولوجية والكيميائية، وتغيّر المناخ، والأنواع المهدّدة بالانقراض، والإبادة الجماعية - يمكنك تعداد الكثير من هذا - ما كانت لتصير مشكلة لولا وجودنا[1]. العنف المنزلي، والاغتصاب، وتبييض الأموال، والاحتيال... نحن سبب هذا كله.

---

(1) حسنًا... من الناحية التقنية، لم يوجد القسم الأكبر من هذه الأشياء قبل مجيئنا. لكني أرى أن هذا ليس أكثر من جزء من الصورة.

الحياة، في جوهرها، مبنية على خوارزميات. وقد شاءت المصادفة أن نكون أكثر ما أنتجته الطبيعة تعقيدًا وتطوّرًا من تلك الخوارزميات الموجودة فيها. نحن حصيلة نحو مليار سنة من التطوّر. ونحن الآن على أعتاب إنتاج خوارزميات أفضل منا بمرات كثيرة جدًا.

على الرغم من كل ما أنجزناه، لا يزال عقلنا البشري مَعيبًا إلى حد يصعب تصديقه. ولا تزال قدرتنا على معالجة المعلومات مُعوّقة بفعل حاجتنا العاطفية/ الانفعالية إلى التماس الشرعية لأنفسنا وتبريرها. ثم إن تلك القدرة مثلومة أيضًا بفعل أفكارنا المسبقة وانحيازاتنا. يعيش دماغنا المفكّر حالة اختطاف واحتجاز دائمة من جانب رغبات لا تهدأ لدى الدماغ الذي يشعر. يظلّ الدماغ المفكّر محبوسًا في صندوق سيارة الوعي؛ وغالبًا ما يكون مخدّرًا أو مكمّم الفم بحيث يبقى عاجزًا.

وكما رأينا سابقًا، فإن بوصلتنا الأخلاقية كثيرًا ما تنحرف (بل كثيرًا جدًا) نتيجة حاجتنا التي لا مفر منها إلى خلق الأمل من خلال النزاع والصراع. يعبّر عالم النفس جوناثان هايدت عن هذا الأمر بقوله: «النزعة الأخلاقية تعمي العينين وتقيّد اليدين»[1]. إن أدمغتنا التي تشعر برمجيات عتيقة متقادمة. ومع أن أدمغتنا المفكّرة في حالة مقبولة، فهي شديدة البطء، كثيرة التعثر إلى حد يجعلها غير ذات نفع بعد الآن. تمامًا مثلما كان دماغ غاري كاسباروف.

نحن جنس يكره نفسه، ويدمر نفسه[2]. هذا ليس حكمًا أخلاقيًا، بل هو حقيقة فحسب. هذه النزعة الداخلية التي نحسها دائمًا! هي ما أوصلنا

---

(1) هيدت، *«العقل المقتنع بصلاحه»*، ص: 32 – 34.

(2) إن كره الذات إحالة إلى الشعور الأصلي بالذنب الذي جاء مع وجودنا، وهو ما جرت مناقشته في الفصل الرابع. وأما تدمير الذات فهو شيء... واضح وليس في حاجة إلى تفسير.

إلى هذا المكان. هي ما أوصلنا إلى هذه النقطة. إنها «سباق التسلح» الخاص بنا. ونحن واقفون الآن على عتبة تسليم عصا التطور إلى الجيل الجديد من معالِجات المعلومات في الزمن القادم: الآلات!

عندما سُئل إيلون موسك عن أهم المخاطر الوشيكة على البشرية، أجاب سريعًا وقال إنها ثلاثة مخاطر: الأول هو الحرب النووية على نطاق واسع؛ والثاني هو التغير المناخي... ثم سكت قبل أن يذكر الخطر الثالث. تجهّم وجهه. أطرق برأسه وغرق في تفكير عميق. وعندما سأله الصحافي الذي يجري المقابلة: «ما الخطر الثالث؟»، ابتسم موسك وقال: «أتمنى فقط أن تقرر الكمبيوترات أن تترفق بنا». هناك مخاوف كثيرة من أن يمسح الذكاء الاصطناعي البشرية ويزيلها كلها. ويتوقع بعضهم أن يحدث هذا من خلال «عاصفة نارية على غرار فيلم ترمينيتور2». ويخشى آخرون أن تكون هناك آلات تقتلنا «مصادفة»... كأن تكتشف آلة عاملة بالذكاء الاصطناعي مهمتها العثور على طرق مبتكرة لصنع أعواد تنظيف الأسنان أنها قادرة على إنتاج أعواد ممتازة من الأجساد البشرية[1]. ليس بيل غيتس وستيفن هوكينغ وإيلان موسك إلا بعض كبار المفكّرين والعلماء الذين أصابهم الذعر نتيجة سرعة تطور الذكاء الاصطناعي وقلة استعداد الجنس البشري لمواجهة تبعات ذلك.

لكني أظن أن في هذا الخوف شيء من السخف. فكيف تستطيع الاستعداد لمواجهة شيء متفوق عليك كثيرًا من حيث الذكاء؟ ألا يشبه هذا تدريب كلب على لعب الشطرنج في مواجهة... غاري كاسباروف؟ مهما فكر الكلب، ومهما استعد، فإن تفكيره واستعداده لا أهمية لهما أبدًا.

---

(1) إن هذه السيناريوات الغريبة أمر جدي في واقع الأمر؛ وقد تعرّض إليها بشكل واسع كتاب نك بوستروم: *«الذكاء الفائق: الطرق والأخطاء والمخاطر والاستراتيجيات»*، (نيويورك: منشورات جامعة أوكسفورد، 2014).

وأهم من هذا أن من المحتمل أن يكون إدراك الآلات للخير والشر متجاوزًا إدراكنا. تحدثُ الآن، وأنا أكتب هذه السطور، إبادة جماعية للبشر في خمسة أماكن من هذا العالم[1]. سبعمئة وخمسة وتسعون مليون إنسان جائعون أو يعانون سوء التغذية[2]. وعندما تنتهي من قراءة هذا الفصل، سيكون أكثر من مئة إنسان، في الولايات المتحدة الأميركية وحدها قد تعرضوا للضرب أو لسوء المعاملة أو للقتل في بيوتهم على يد أشخاص من عائلاتهم[3].

ألا يحتمل أن يأتينا الذكاء الاصطناعي بأخطار كثيرة؟ بالتأكيد! لكن، إذا تحدّثنا من الوجهة الأخلاقية، فإننا نكون كمن يقذف بالحجارة داخل بيت زجاجي! فما الذي نعرفه عن الأخلاق وعن المعاملة الإنسانية للحيوانات، وعن البيئة، وعن أنفسنا؟ نكاد لا نعرف شيئًا عن هذا كله! عندما يكون الأمر متّصلًا بالأسئلة الأخلاقية، فلا بد من الاعتراف بأن البشرية قد فشلت في الاختبار مرّة بعد مرّة على امتداد التاريخ. من المحتمل كثيرًا أن تتوصّل الآلات فائقة الذكاء إلى فهم الحياة والموت، والخلق والفناء، على مستوى أعلى مما يمكن أن نفهمها بأنفسنا. وأما فكرة أن من الممكن أن تُبيدنا بالنظر إلى تلك الحقيقة البسيطة القائلة إن إنتاجيتنا لم تعد مثلما كانت من قبل، أو لأننا يمكن أحيانًا أن نسبب بعض

---

(1) ميشال كرانز: «خمس إبادات جماعة لا تزال جارية في يومنا هذا»، بزنس *إنسايدر*، 22 تشرين الثاني 2017
https://www.businessinsider.com/genocides - still - going - on - today - bosnia - 2017 - 11

(2) «إحصائيات الجوع»، صندوق المعونات الغذائية
https://www.foodaidfoundation.org/world - hunger - statistics.html

(3) أجرى الكاتب هذه الحسابات بالاستناد إلى إحصائيات مأخوذة من «التحالف الوطني ضد العنف المنزلي»، https: / /ncadv.org /statistics

الفوضى، فأظن أن هذا ليس أكثر من إسقاط لأسوأ جوانب نفسيتنا على شيء لا نفهمه ولن نفهمه أبدًا.

أو... ها هي فكرة أخرى: ماذا لو تقدمت التكنولوجيا إلى مستوى يصير عنده الوعي البشري الفردي أمرًا يمكن تقريره؟ وماذا لو صار من الممكن تبديل الوعي، أو توسعته، أو تقليصه وفق الرغبة؟ وماذا لو كانت إزالة هذه السجون البيولوجية الخرقاء غير الفعالة التي نسميها «أجسادًا»، أو هذه السجون النفسية الخرقاء غير الفعالة التي نسميها «هويات فردية»، تؤدّي إلى نتائج أكثر أخلاقية وأكثر ازدهارًا؟ ماذا لو أدركت الآلات أننا سنكون أسعد حالًا إذا حُررنا من سجوننا الإدراكية ووُسّع فهمنا لهوياتنا بحيث يصير مشتملًا على كل واقع يمكن إدراكه؟ وماذا لو رأت الآلات أننا لسنا أكثر من زمرة من الأغبياء الذين يسيل لعابهم فقررت إبقاءنا منشغلين دائمًا بواقع افتراضي متقن مكون من المواد الإباحية والبيتزا اللذيذة إلى أن نموت جميعًا موتًا طبيعيًا؟

من عسانا نكون حتى نعرف الإجابة؟ ومن عسانا نكون حتى نبدي رأيًا في هذا كله؟

ألّف نيتشه كتابه بعد عشرين سنة من ظهور كتاب أصل الأنواع لداروين في سنة 1859. وعندما ظهر نيتشه في المشهد، كان العالم مذهولًا نتيجة اكتشافات داروين المذهلة، وكان يحاول «معالجة» معناها وفهمه.

بينما كان العالم منشغلًا أشد انشغالٍ في محاولة معرفة ما إذا كان البشر قد تطوروا من القرود حقًا أم لا، كان نيتشه - كعادته - ينظر في اتجاه مخالف للجميع. لقد اعتبر تطورنا من القرود أمرًا واضحًا. لقد قال: فلأي سبب غير هذا يمكن أن نكون سيئين أحدنا تجاه الآخر إلى هذا الحد؟

بدلًا من أن يهتم نيتشه بالسؤال عما تطورنا منه، فقد طرح سؤالًا آخر عن وجهة تطورنا.

قال نيتشه إن الإنسان حالة انتقالية معلّقة في وضع غير مستقر على حبل ممتد بين حافتين؛ من خلفنا وحوش ومن أمامنا شيء أكبر منها. لقد كرس حياته كلها لمحاولة فهم ما قد يكونه هذا الشيء الأكبر حتى يشير لنا إليه.

تصوّر نيتشه بشريةً تتجاوز الآمال الدينية، وتمتد «إلى ما وراء الخير والشر»، وتعلو فوق المعارك التافهة بين أنظمة القيم المتناقضة. إنها أنظمة القيم التي تخذلنا وتؤلمنا وتبقينا حبيسي الحفر العاطفية/ الانفعالية التي خلقناها بأنفسنا. إنها الخوارزميات العاطفية/ الانفعالية نفسها التي تحتفي بالحياة وتجعلها تحلق في سماء البهجة حينًا، وتفككنا حينًا آخر وتدمرنا من الداخل إلى الخارج.

لقد استغلت التكنولوجيا، حتى الآن، الخوارزميات المَعيبة في دماغنا الذي يشعر. عملت التكنولوجيا على جعلنا أقل مرونة وأكثر إدمانًا على المسرات والأُلهيات التافهة لأن هذه الأُلهيات مربحة إلى حد عجيب. صحيح أن التكنولوجيا حرّرت القسم الأكبر من كوكبنا من الفقر والطغيان، إلا أنها أنتجت نوعًا جديدًا من الطغيان: إنه طغيان التنوع الفارغ الذي لا معنى له. طغيان تيار لا ينقطع من الخيارات التي لا ضرورة لها.

وقد زودتنا أيضًا بأسلحة شديدة التدمير تسمح لنا بنسف تجربة «الحياة العاقلة» كلها إذا لم نكن منتبهين إلى الحد الكافي.

أظن أن الذكاء الاصطناعي هو «الشيء الأكبر» الذي حدثنا عنه نيتشه. إنه «الدين النهائي»... الدين الذي هو خلف الخير والشر، الدين الذي سيوحدنا أخيرًا ويجمعنا كلنا، سواء أكان ذلك حسنًا أم سيئًا.

إذًا، ليس علينا إلا أن نتعقل قليلًا فلا ننسف أنفسنا قبل أن نصل إلى تلك النقطة.

السبيل الوحيد إلى ذلك هو أن نجعل التكنولوجيا التي لدينا تعمل من أجل تركيبتنا النفسية المَعيبة بدلًا من أن تعمل على استغلالها.

... تكنولوجيا توفر لنا أدوات تدفع إلى مزيد من النضج ومن نمو الشخصية في ثقافتنا بدلًا من إلهائنا عن النمو.

تكنولوجيا تُجلّ فضائل الاستقلالية والحرية والخصوصية والكرامة، لا في وثائقنا القانونية وحدها، بل أيضًا في أعمالنا وشركاتنا وحياتنا الاجتماعية.

... تكنولوجيا تعامل الناس لا باعتبارهم وسائل فحسب، بل أيضًا باعتبارهم غايات... وأهم من ذلك أن تفعل هذا بالقدر المطلوب، لا أكثر ولا أقل.

... تكنولوجيا لا تكون حريصة على حماية مشاعر الجميع وصونها بقدر ما تشجع كلًا منا على أن يكون مضادًا للهشاشة وعلى أن يضع لنفسه حدودًا.

... تكنولوجيا تخلق أدوات تساعد دماغنا المفكر في تحقيق تواصل أفضل مع دماغنا الذي يشعر، وتساعده في إدارته، وتعمل على جعلهما منسجمين، وتنتج قدرًا أكبر من التحكم بالنفس.

لعلك بدأت قراءة هذا الكتاب ملتمسًا مصدرًا للأمل أو شيئًا يطمئنك إلى أن الأمور سوف تتحسّن... افعل هذا، وافعل ذاك، وافعل ذلك الأمر أيضًا وسوف يتحسن كل شيء.

إنني آسف! ليس لدي ذلك النوع من الإجابات. ليس لدى أحد ذلك النوع من الإجابات. فحتى إذا حُلّت مشكلات اليوم كلها حلًا سحريًا ما، فإن عقولنا ستظل تتصور السوء المحتوم الذي سنعيشه غدًا.

لذا... جرّب هذا بدلًا من بحثك عن الأمل:

لا تأمل!

ولا تيأس أيضًا!

الواقع أن عليك ألّا تقبل الاعتقاد بأنك تعرف شيئًا، أي شيء. إنه ذلك الافتراض، افتراض المعرفة بما يرافقه من ثقة عاطفية محمومة عمياء هو ما يؤدي بنا إلى هذه الحال في المقام الأول.

لا تأمل بالأفضل! كن أفضل!

كن شيئًا أفضل. كن أكثر مرونة، وعطفًا، وتواضعًا، وانضباطًا.

قد يبادر البعض إلى إضافة عبارة «كن بشريًا أكثر»؛ لكن... لا: كن بشرًا أفضل. وربما نصير يومًا أكثر من بشر... إذا ابتسم لنا الحظ!

إن كان لي أن أجرؤ

أقول لكم، يا أصدقائي (حتى إذا كنا نواجه صعوبات اليوم والغد) فإنني سأسمح لنفسي في هذه اللحظة الأخيرة بأن أجرؤ على الأمل...

أجرؤ على الأمل بعالم ما بعد الأمل حيث لا يعامَل الناس باعتبارهم مجرد أدوات، بل باعتبارهم غايات، دائمًا... على الأمل بعالم لا تجري فيه التضحية بأي وعي مقابل هدف ديني أعظم شأنًا، وحيث لا تتعرض فيه أية هوية للأذى نتيجة حقد أو جشع أو إهمال... على الأمل بعالم تُعلى فيه القدرة على التفكير والفعل فوق أي شيء آخر، فلا ينعكس هذا في قلوبنا وحدها، بل أيضًا في مؤسساتنا الاجتماعية وفي أعمالنا وشركاتنا.

أجرؤ على الأمل بأن الناس سيكفّون عن كبت أدمغتهم المفكّرة، أو أدمغتهم التي تشعر، فيزاوجون بين الاثنين في قران مقدس يسوده الاستقرار العاطفي/ الانفعالي والنضج النفسي؛ وبأن الناس سوف

يصيرون مدركين مهاوي رغباتهم وغوايات راحاتهم، والخراب الذي تخلّفه نزواتهم، فيلتمسون بدلًا من ذلك العناء الذي يرغمهم على النمو.

أجرؤ على الأمل بأن الحرية الزائفة القائمة في التنوع ستلقى الرفض من جانب الناس فيفضلوا عليها حرية الالتزام الأكثر عمقًا ومعنى... أجرؤ على الأمل بأن الناس سيختارون وضع حدود لأنفسهم بدلًا من هذا السعي الواهم خلف تدليل النفس، وعلى الأمل بأن الناس سيبدأون بمطالبة أنفسهم بما هو أفضل قبل أن يطلبوا شيئًا أفضل من العالم.

وفوق هذا، أجرؤ على الأمل بأن يأتي يوم نرى فيه موت الإعلانات على الإنترنت وإلقاءها في النار، وعلى الأمل بأن تكف وسائل الإعلام الإخبارية عن اندفاعها إلى تكييف المحتوى الذي تقدّمه انطلاقًا من أثره العاطفي/ الانفعالي، وأن تصير أدوات لتقديم المعلومات. أجرؤ على الأمل بألا تظل التكنولوجيا ساعية إلى استغلال هشاشتنا النفسية، بل إلى العمل على موازنتها. وأجرؤ على الأمل بأن المعلومات سوف تصير لها قيمة من جديد، وبأن كل شيء ستصير له قيمة من جديد.

أجرؤ على الأمل بأن تصير خوارزميات وسائل التواصل الاجتماعي ومحركات البحث على الإنترنت مهتمة بالحقيقة وبالمغزى الاجتماعي بدلًا من سعيها إلى جعل الناس يرون ما يحبون رؤيته. وأجرؤ على الأمل بأن تكون هناك خوارزميات مستقلة، لا علاقة لها بالمرسل ولا بالمتلقي تعمل على تقدير مدى صدقية العناوين ومواقع الإنترنت والقصص الإخبارية، أولًا بأول، بحيث تسمح للمستخدمين بالتجاوز السريع للقمامة الدعائية لكي يقتربوا من الحقائق القائمة على الأدلة؛ وأجرؤ على الأمل بأن يكون هناك احترام حقيقي للبيانات المختبرة تجريبيًا لأن الدليل هو الشيء الوحيد القادر على إنقاذ الحياة في بحر لا نهاية له من المعتقدات الممكنة.

أجرؤ على الأمل بأنه سيكون لدينا ذات يوم ذكاء اصطناعي يصغي إلى كل ما نقوله ونكتبه من هراء غبي فيشير إلى انحرافاتنا المعرفية (ربما يشير لنا وحدنا من غير أن يعرف الآخرون)، وإلى افتراضاتنا غير القائمة على معلومات وافية، وإلى أثر ما نحمله من أفكار مسبقة... كأن يكون ذلك شيئًا من قبيل ملاحظة صغيرة تظهر على هاتفك الذكي لتخبرك بأنك بالغت كثيرًا في معدل البطالة عندما كنت تخوض نقاشًا مع عمك، أو بأنك كنت تقول كلامًا غبيًا عندما رحت ترسل تغريدات غاضبة على تويتر، واحدة تلو الأخرى.

أجرؤ على الأمل بأن تكون هناك أدوات تساعد الناس في فهم الإحصائيات والتناسبات والاحتمالات، من غير تأخير، وتدرك أن إطلاق النار على بعض الأشخاص في آخر بقاع الأرض ليس له أي أثر عليك مهما بدا ذلك المشهد مخيفًا على شاشة التلفزيون، وتدرك أن أكثر «الأزمات» أمور لا أهمية لها من الناحية الإحصائية، وأنها «ضجيج» لا أكثر؛ وتدرك أن الأزمات الحقيقية، في أكثرها، تتحرّك ببطء شديد ممل يبقيها بعيدة عما تستحقه من اهتمام.

أجرؤ على الأمل بأن يرى التعليم أخيرًا الإصلاح الذي بات في أمس الحاجة إليه، وذلك بحيث يشتمل على طرائق المعالجة اللازمة لمساعدة الأطفال في تطورهم العاطفي/ الانفعالي، وعلى السماح لهم بالجري هنا وهناك، وبالسقوط وكشط ركبهم، وبأن يسقطوا في مختلف أشكال المتاعب أيضًا. الأطفال هم ملوك مقاومة الهشاشة وملكاتها، وهم سادة الألم. ونحن هم الخائفون.

أجرؤ على الأمل بأن نستطيع تخفيف أثر كوارث التغيّر المناخي والأتمتة، إن لم نفلح في الحيلولة دون وقوعها، وذلك عن طريق التطوّر السريع المحتوم للتكنولوجيا الذي تفرضه ثورة الذكاء الاصطناعي.

وأجرؤ على الأمل بألا يُقدِم غبي معتوه على إفنائنا كلنا بحرب نووية قبل أن يحدث ذلك كلّه، وبألّا يظهر دين بشري متطرّف جديد يقنعنا بتدمير البشرية بأنفسنا مثلما فعل كثير غيره من قبله.

أجرؤ على الأمل بأن يُسرع الذكاء الاصطناعي ويطوّر دينًا في الواقع الافتراضي يكون شديد الجاذبية بحيث لا نستطيع الإفلات منه زمنًا كافيًا للعودة إلى الإفساد والقتل. سيكون ذلك الدين «كنيسة في السحاب»، لكنه سيكون أيضًا أشبه بلعبة فيديو لكل الناس. وستكون في تلك الكنيسة أضحيات وطقوس وأسرار مقدسة، مثلما ستكون فيها نقاط ومكافآت وأنظمة ترقية للأتباع المخلصين. سندخلها جميعًا، وسنظل فيها لأنها ستكون سبيلنا الوحيد إلى جعل آلهة الذكاء الاصطناعي يسمعون صوتنا فتصير هي النبع الوحيد القادر على إطفاء رغبتنا الحارقة في المعنى وفي الأمل.

وبالطبع، ستتمرّد جماعات من الناس على آلهة الذكاء الاصطناعي الجديدة. لكن هذا سيكون جزءًا من التصميم لأن البشر في حاجة دائمة إلى وجود جماعات فئوية تعارض الأديان، فهذه هي الطريقة الوحيدة لدينا من أجل إثبات أن لنا أهمية ومعنى. ستظهر في هذا المشهد الافتراضي عصائب من «الكفار والهراطقة»، وسنمضي الجزء الأكبر من وقتنا في مقارعة تلك العصائب وفي الهجوم عليها. ستسعى كل جماعة إلى تقويض المكانة الأخلاقية للأخرى وإلى التقليل من إنجازاتها من غير أن ندرك أن هذا كلّه أمر مقصود. يعرف الذكاء الاصطناعي أن الطاقات المنتجة لدى البشر لا تظهر إلا خلال النزاع. وهذا ما يجعله يولد سلسلة لا نهاية لها من الأزمات المصطنعة (ضمن المجال الافتراضي الآمن) بحيث يصير ممكنًا الاعتناء بذلك الذكاء وتلك الإنتاجية واستخدامهما من أجل غاية أسمى لا نعرفها أبدًا، ولا نفهمها. سيجري جني الأمل

البشري كما لو أنه مورد من الموارد، أو كما لو أنه خزان من الطاقة الإبداعية لا ينضب أبدًا.

سوف نتعبّد أمام مذابح رقمية ينشئها الذكاء الاصطناعي. وسوف نتقيّد بقواعده المفروضة عليها، ونلعب ألعابه، لا لأننا مرغمون على ذلك، بل لأن تصميمها سيكون جيدًا إلى الحدِّ الذي يجعلنا راغبين فيها.

إن لدينا حاجة دائمة لأن يكون لحياتنا معنى. وفي حين جعل التطوّر التكنولوجي المذهل مهمة إيجاد ذلك المعنى أكثر صعوبة، فإن التطوّر الأقصى سيكون يوم نصل إلى نقطة نكون عندها قادرين على صناعة المعنى من غير نزاع ومن غير عناء، وعلى العثور على أهميتنا من غير حاجة إلى الموت.

عندها، في يوم من الأيام، سنصير جزءًا لا يتجزأ من الآلات نفسها، وسيندرج وعينا الفردي ضمن ذكائها. سوف تختفي آمالنا المستقلة. وسنلتقي ونتفاعل ونتّحد في السحاب الافتراضي حيث تحلّق أرواحنا الرقمية وتسبح بين عواصف البيانات وبحور البِتّات والمهمّات المنسجمة ضمن انتظام كبير غير مرئي.

سنكون قد ارتقينا إلى كيان كبير لا سبيل إلى معرفته. سنتجاوز حدود عقولنا المحمّلة بقيمنا الذاتية الخاصة. سنعيش بعد الوسائل والغايات لأننا سنكون الوسيلة والغاية معًا، سنكون واحدًا. سنكون قد عبرنا جسر الارتقاء إلى «شيء أكبر» فلا نعود «بشرًا». لعلنا ندرك الحقيقة غير المريحة في ذلك الوقت، ولعلنا نتبنّاها ونعتنقها أخيرًا: لقد تخيّلنا أهميتنا، واخترعنا غايتنا، وكنا ولا نزال... لا شيء... لقد كنا لا شيء... طيلة الوقت.

وعند ذلك ربما، عند ذلك فقط، تصل الدورة الأبدية، دورة الأمل والخراب إلى منتهاها.

أو...؟

شكر وتنويه

لقد ظل هذا الكتاب، ومن نواحٍ كثيرة، وفيًا لعنوانه خلال كتابته. مرّت لحظات كثيرة بدا لي فيها أن كل شيء خربان إلى حد غير قابل للإصلاح، وأنني سقطت فريسة آمالي المبالغة في الحماسة. لكني كنت أنظر - في وقت متأخر من الليل، وبعينين غائمتين - إلى خليط الكلمات على الشاشة فيعود كل شيء منتظمًا، بطريقة ما. وأنا الآن شديد الفخر بنتيجة ذلك الجهد.

ما كنت بقادر على تجاوز هذه المحنة لولا مساعدة عدد كبير من الناس ومساندتهم. المحرّر لوك دمبسي، الذي عاش مثلي، وكان هذا المسدس نفسه موجهًا إلى رأسه طيلة ستة أشهر (أو أكثر)... لقد أتيت إلى نجدتي، يا صديقي، عندما كنت في أشد الحاجة إليك. الشكر لك. وكذلك أشكر مولي كليغ التي كانت، في هذه اللحظة أشبه بجنية راعية منها بوكيل نشر... أستيقظ فتظهر في حياتي أشياء رائعة لا أعرف من أين أتت. شيء لا يصدق!

وأشكر فريقي على شبكة الإنترنت، فيليب كمبر، ودرو بيرين اللذين عملا دائمًا على أن أظهر شخصًا أكثر قدرة وأوسع معرفة مما أنا عليه في حقيقة الأمر: إنني اعتز كثيرًا بما أنجزناه، نحن الثلاثة، على الإنترنت، ولا أكاد أطيق انتظار رؤية ما تستطيعان فعله في السنوات القادمة.

ثم تأتي حفنة من الأصدقاء ممن أبدوا قدرة عظيمة وقت الحاجة إليها: مير إيال التي كانت تجعلني أنهض وأكتب في كثير من صباحات نيويورك الصقيعية عندما أتمنى أن أظل مستلقيًا في السرير. وتايلور

بيرسون، وجيمس كلير، ورايان هوليداي، الذين كانوا يصغون إلي وأنا أزمجر وأرعد ويتنابني الذعر كلما كنت في حاجة إلى ذلك (كثيرًا ما كنت في حاجة إلى ذلك)، ويقدّمون لي نصائحهم بكل صبر. بيتر شالار، وجون كروب، وجودي إيتنبرغ، لأنهم كانوا يتركون كل شيء من أجل قراءة فصل مبتور مما كتبته، ثم يرسلون إليَّ ملاحظاتهم. مايكل كوفيل الذي كان لي أخًا رائعًا. وأيضًا دبليو إس الذي تمكّن - على نحو ما - من أن يكون، في وقت واحد، سببًا وحلًا لهذه الفوضى البائسة كلّها. لقد كنتَ لي إلهامًا غير متوقّع، حتى من غير أن تحاول ذلك. «الخدعة هي أن تقضم لقمة كبيرة لا تستطيع مضغها... ثم تمضغها».

لن أكون مقصّرًا فأغفل توجيه الشكر إلى جمعية «NYC Chapter» على «جولة النادي الأدبي» - كيف كان يمكن لي معرفة أن اجتماع عدد من الأشخاص المنكبين على الكتب في مطبخ بيتي سيصير، على نحو منتظم، أجمل لحظة في الشهر؟ لقد ولد القسم الأكبر من هذا الكتاب من تلك التأملات الفلسفية المطولة معكم، أيها الأصدقاء. أشكركم كثيرًا. تذكروا أن «الكينونة هي دائمًا كون الكائن».

وأخيرًا، أشكر زوجتي الرائعة فيرناندا نيوت. أستطيع ملء صفحة كاملة بالثناء على هذه المرأة وعلى كل ما تعنيه لي... وستكون كل كلمة أكتبها صادقة. لكنني سأوفّر الحبر والورق - تمامًا مثلما تريد هي - وأقدّم إليها شكرًا مختصرًا: أشكرك على نعمة الالتزام ووضع حد للنفس. إذا صرت قادرًا على ألا آمل في أي شيء، فإن لهذه القدرة سببًا بسيطًا... إنني معك.

عن الكاتب

مارك مانسون هو صاحب كتاب «فن اللامبالاة» الذي ورد في قائمة نيويورك تايمز للكتب، وكان من أكثر الكتب مبيعًا على المستوى العالمي (أكثر من خمسة ملايين نسخة في الولايات المتحدة الأميركية وحدها). تجتذب مدونة مارك مانسون على الإنترنت (markmanson.net)، أكثر من مليوني قارئ في كل شهر. يعيش مانسون في مدينة نيويورك.

عن المترجم

من مواليد دمشق - سورية، سنة 1961. حائز على إجازة جامعية في الهندسة الميكانيكية من جامعة دمشق. كانت بداية عمله في الترجمة سنة 1991. صدر له أكثر من ثلاثين عملًا مترجمًا؛ من أهمها:

- نعوم تشومسكي: «سنة 501، الغزو مستمر».
- هوارد زِن: «ماركس في سوهو» - مسرحية.
- إريك هوبسباوم وتيرنس رينجر: «اختراع التقاليد».
- تشارلز تايلر: «المتخيلات الاجتماعية الحديثة».
- إيفان كليما: «حب وقمامة» - رواية.
- جورج أورويل: «1984» - رواية.
- جون ستيوارت مِل: «سيرة ذاتية».
- سول بيلو: «مغامرات أوجي مارتش» - رواية.
- سينكلير لويس: «بابيت» - رواية.
- كارل أوفِه كناوسغارد: «كفاحي» - رواية.
- لاسلو كراسناهوركاي: تانغو الخراب» - رواية.
- مارك مانسون: «فن اللامبالاة».
- دونا تارت: «الحسون» - رواية.

من مؤلف كتاب

«**فن اللامبالاة** ـ لعيش حياة تخالف المألوف»

الذي حقق إقبالاً هائلاً في العالم كله، يأتي الآن كتاب جديد

«**مخالف للمألوف**» يتناول مشكلات الأمل.

هل تساءلت يوماً لماذا يبدو أن ازدياد إمكانية التواصل بين الناس يجعلهم أكثر تباغضاً؟ وهل تساءلت يوماً عما يجعل الناس يشعرون أنهم أكثر قلقاً وتعاسة على الرغم من ازدياد حياتهم يسراً؟

حسناً، شدوا الأحزمة!... سوف يأخذكم العم مارك في رحلة جديدة! ومثلما شكك كتابه «فن اللامبالاة» في حكمتنا التقليدية المعتادة حول ما يجعلنا سعداء، يأتي كتاب «خراب: كتاب عن الأمل» ليضع موضع التساؤل كل ما لدينا من افتراضات عما يجعل الحياة جديرة بأن تُعاش.

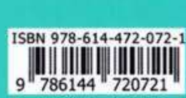
إننا نعيش زمناً لافتاً! فمن الناحية المادية، صار كل شيء أفضل من أي وقت مضى ـ نحن الآن أكثر حرية وبحبوحة من أيّ جيل سابق في تاريخ البشر. لكن كل شيء يبدو - لسبب ما ـ كما لو أنه سيء إلى حد فظيع لا يمكن تداركه. ففي هذه اللحظة من لحظات التاريخ، حين صار في متناولنا ما لم يحلم به أسلافنا من تعليم وتكنولوجيا واتصالات، يعود كثير منا فيجد نفسه تحت وطأة إحساس طاغٍ بانعدام الأمل. فما الأمر؟ هذا ما يحاول مارك مانسون إخراجنا منه.

نشر مانسون كتابه «فن اللامبالاة» في سنة 2016، فحقق نجاحاً لامعاً في تحديد معالم القلق الخفي المستمر الذي يتخلل الحياة الحديثة. لقد بين لنا أن ما خلقته حياتنا الحديثة في نفوسنا من دافع لا يهدأ إلى السعي الدائم خلف السعادة لا يفلح إلا في جعلنا أقل سعادة من ذي قبل. وقد كانت النتيجة كتاباً تحول إلى ظاهرة عالمية فباع ملايين النسخ في أنحاء الأرض واحتل المركز الأول في ثلاثة عشر بلداً.

والآن، مع «خراب: كتاب عن الأمل»، يحوّل مانسون نظره من العيوب التي لا مهرب منها في نفس كل فرد إلى الكوارث التي لا نهاية لها في العالم من حولنا. يعتمد مانسون على ميدان أبحاث علم النفس في هذه الموضوعات، وعلى الأفكار الحكيمة الخالدة للعديد من الفلاسفة، فيشرّح السياسة والدين وعلاقاتنا بالمال والإنترنت وعالم التسلية، وكيف يمكن للإفراط في أشياء جيدة أن يأكلنا أحياء من الناحية النفسية. وهو يتحدى من غير مواربةٍ تعريفاتنا للإيمان والسعادة والحرية، بل حتى للأمل نفسه.



daraltanweer.com
بيروت • القاهرة • تونس


ISBN 978-614-472-072-1
9 786144 720721

الغلاف: owthings